

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى المربارنر

ترجمة

أ.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



المكتبة الوطنية لكتاب

١٩٨٧



Bibliothèque Alexandrina

تاريخ الكتابة التاريخية

الإخراج الفنى : سهر معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفنى : عفاف توفيق

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

أ.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الفصل التاسع

الكتابة القومية تحت تأثير التحرر والقومية القومية والكتابة التاريخية

لم يقتصر أثر حركة التوسع الأوربي على كونها عاملاً كبيراً في إثارة الاهتمام بتاريخ الشعوب غير الأوروبية وكونها دافعاً قوياً على تطور العلم الطبيعي الحديث ، وما صاحبه من فلسفة الشك ، بل كانت كذلك القوة الرئيسية التي ساعدت على خلق الدول القومية الحديثة التي قامت على أنقاض الملكيات الإقطاعية التي وجدت في أواخر العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التوسع الأوربي هذه أسهمت في زيادة رؤوس الأموال ومصادر المادة التي غدت تحت تصرف الملوك ، كما ساعدت على خلق طبقة متوسطة موالية لهم مما مكن الملوك من تكوين جهاز من الموظفين الحكوميين وإقامة قوة عسكرية ثابتة استطاعوا بها سحق معارضة طبقة النبلاء الإقطاعيين وإدخال نظام الدولة القومية .

ولم تلبث أن أدت الحماسة الوطنية في الدول الحديثة إلى زيادة إنتاج الكتب التي تمجد ماضى كل دولة وتاريخها القومي . وهكذا حدث نشاط هائل في جمع الوثائق التي لا تقدر بثمن والتي تسجل تاريخ كل دولة منذ ماضيها البعيد . وعلى الرغم من أن المرحلة المبكرة لحركة الجمع والنشر هذه كانت قد بدأت في القرن السادس عشر ، فإنها أخذت شكلها الحديث بعد أن أسهمت الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وحركة بعث روسيا بدرجة كبيرة في خلق شعور قومي قوى في معظم الدول الأوروبية ثم ازداد هذا الشعور القومي قوة بفعل الحركة الرومانسية وهي التي أكدت دائماً أهمية الشخصية القومية و« عبقرية الشعب التي لا تندثر أبداً » .

وكان لمذهب التحرر كذلك أثر كبير على كتابة التاريخ خاصة في تلك البلاد التي لم يكن النظام الملكي ولا الاتجاهات الاستبدادية، المطلقة على درجة كبيرة من القوة. وازداد الاتجاه التحرري قوة وعمقاً بفعل الثورات الإنجليزية في القرن السابع عشر والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحرب التحرير في بروسيا فضلاً عن ثورات سنة ١٨٣٠، سنة ١٨٤٨ م.

ويتضح أثر مذهب التحرر على نشأة التاريخ القومي في كتابات عديد من المؤرخين أمثال روتيك، جرفينوس، ودهلان، وثيرى، ومشييه، وكوينت، وماكولى، فريمان، وبانكرافت، وموتلى.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومي عمقاً وقوة نتيجة لرد الفعل القوي لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان « بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية » بين فيه مؤلفه الكونت جوزيف آرثر جوبينو Joseph Arthur of Gobineau (١٨١٦ - ١٨٨٢ م) تأثير السلالات على التطور التاريخي، وأكد سمو الجنس الآرى على بقية الأجناس، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأنًا. وكان أن لقيت هذه الآراء غير المستساغة الآن قبولاً وانتشاراً في ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين في ألمانيا^(١). وبلغت هذه العقيدة ذروتها في ملاحم هوستون ستورون شامبرلين، وأعمال موريس بايه وأناشيد النصر السكسونية، التي نظمها كبلنج وهو مرلى. وهكذا لم يلبث أن أدى هذا الاعتقاد إلى إذكاء روح التعصب الوطنى خاصة عند الأمم والأسر الحاكمة مما ترتب عليه اضطهاد الأمم التي كانت أقل شأنًا وهو الاضطهاد الذى كان سبباً في إذكاء عواطفها القومية ومشاعرها الوطنية^(٢).

(١) على عكس ما كان معتقداً، ولم يكن لجوبيته اتباع كثيرون في فرنسا، إذ كان ينظر إليه على أنه نيتشه الفرنسى أى شخص غير متدين يقف ضد العقيدة ضد القومية والديمقراطية. ولم يظهر أول تاريخ لجوبيته بالفرنسية إلا حديثاً (المؤلف).

(2) CF.F.H.Hanks, The Racial Basis of Civilization (Knopf 1926) Chaps I- V and Theophile Simar, The Race Myth (Boni 1925).

الكتابة التاريخية القومية في ألمانيا

بدأت البذور الأولى لكتابة التاريخ على أسس قومية في ألمانيا على عهد المدرسة الإنسانية وعهد الإمبراطورية القديمة . ذلك أن الإمبراطور المثقف مكسيميليان الأول (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) سار على نفس نهج شارلمان في جمع بعض كبار علماء المدرسة الألمانية في بلاطه في فيينا . ثم جاء من بعده كونراد كلتس الذي عمل على إحياء الاهتمام بكتاب « جرمانيا » الذي ألفه تاكييتوس ، وبهذا أطلق الشرارة الأولى للجدل استمر قرابة أربعة قرون .

أما يوحنا سبسمر (١٤٧٣ - ١٥٢٩ م) المعروف باسم كوسبنين Cuspinian فقد قام بدراسة ناقدة للأعمال التاريخية لكل من جوردان ، واوتو فريزنج . أما إيرنيكوس ، بويتنجر ، بيتوس ريناموس ، فهم يعكسون نفس روح بلوندوس في أبحاثهم الخاصة بالآثار الألمانية ، وإن كان نشاطهم سرعان ما طغى عليه الجدل الخاص بحركة الإصلاح الديني ، مما أدى إلى فتور اهتمامهم بالتاريخ العلماني والقومي .

أما حركة جمع مصادر التاريخ الألماني فقد بدأها سيمون سكارديوس (١٥٣٥ - ١٥٧٣) ويوحنا بيستوريوس (١٥٤٦ - ١٦٠٨) وماركارد فريهر (١٥٦٥ - ١٦١٤) . ولم يلبث ملكوار جولداست (١٥٧٨ - ١٦٣٥) أن جمع في كتابه عن أباطرة الدولة الرومانية عدداً كبيراً من الوثائق التي تتعلق بتاريخ ألمانيا في العصور الوسطى فضلاً عن تاريخ القانون العام . وظل هذا الكتاب يمثل خير مجموعة لوثائق التاريخ الألماني حتى ظهر كتاب « الوثائق المخالدة » Monumenta الذي تناول نفس الفترة وحوى نفس المادة ولكن بطريقة أكثر اتقاناً .

ثم كان أن ظهر الفيلسوف البارز جوتفريد ويلهلم ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكان على درجة عالية من الطموح دفعت به إلى محاولة جمع مصادر التاريخ الألماني في كتاب يمكن أن ينافس الكتب الفرنسية التي وضعها دوشزن في هذا الشأن . لكن ليبنتز لم يحصل على المساعدة المرجوة من الإمبراطور حتى يتمكن من إتمام مشروعه الكبير . ومن ثم فقد تخلى عنه واقتصر إنتاجه على كتابة تاريخ الجلفيين وذلك في كتابه « حوليات برونزويك الخاصة بالإمبراطورية الغربية » وهو الكتاب الذي ظهر ما بين ١٧٠٧ - ١٧١١ م . وهو مستخلص مما كتبه ليبنتز عن أسرة برونزويك . وأكد ليبنتز ضرورة نسخ المصادر كما هي دون إدخال أى تعديل أو تصحيح عليها .

أما المجموعة الكبرى الحديثة عن مصادر التاريخ الألماني وهي التي تحمل اسم « الوثائق الخالدة عن التاريخ الألماني Monumenta Germaniae Historia » فهي جدوة فعلاً بهذا الاسم ذلك أنها كانت إنتاجاً طبيعياً لروح حرب التحرير وبدأ كتابتها رجل من أبرز رجال السياسة في عصره وهو هنريك فردريك كارل بارون فوم شتين . وقد تأثر شتين بالانجاءات الرجعية التي سادت الفترة التي أعقبت مؤتمر فيينا ، ومن ثم فقد كرس كل طاقته لإثارة الاهتمام بالتاريخ الألماني مدفوعاً إلى ذلك بعاطفة الحب الجياش نحو الأرض التي نشأ عليها أجداده وآبائوه ..

ولما فشل في الحصول على معونة حكومية تساعده على جمع مصادر التاريخ الألماني ، فإنه استطاع أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع من موارده الشخصية ومن أصدقائه ، حتى أنشأ مركز الوثائق التاريخية الخاصة بألمانيا . وشاء حسن حظه أن يلتقى برسيمل له على جانب كبير من غزارة المعرفة والمقدرة على العمل ، وهو جورج هنريك برتزر Pentz (١٧٩٥ - ١٨٧٦ م) الذي كان يعمل في دار المحفوظات بهانوفر . وقد تحمل برتزر عبء العمل في كتاب « الوثائق الخالدة » مدة نصف قرن وساعده كثير من العلماء الألمان على رأسهم جورج وتيز ، وأخيراً جله هذا الكتاب شاملاً لكل مصادر المعرفة العامة عن التاريخ الألماني منذ عهد الكتاب الرومان الذين تناولوا موضوع الفزوة والفتوحات حتى العصور الوسطى . ولم يكتمل الكتاب إلا سنة ١٩٢٥ بعد أن توالى ظهوره في ١٢٠ جزءاً . ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول رئيسية في تطور الكتابة التاريخية العلمية حيث أنه فتح الطريق أمام أجيال من المؤرخين تميزوا بوقرة الإنتاج ودقته . ثم أضيف إلى هذا العمل القومي العظيم أعمال أخرى تناولت تاريخ العديد من الولايات الألمانية فضلاً عن تاريخ ألمانيا اللبني وعلاقتها الخارجية وأعمال القافة البارزين فيها . ومن أمثلة ذلك ما قام به إردمانز دوفر Erdmansdorffer من تجميع لتاريخ ألمانيا في عهد الناخب الأعظم فردريك وليم .

وفي مجال كتابة التاريخ القومي في ألمانيا لم يقف الجهد عند حد جمع المصادر ، وإنما وجد منطلقاً هائلاً في القصص الممتح التي اتخذ من أجداد ألمانيا في ماضيها ومن أعمال أسرة هوهنزرن العظيمة موضوعاً له . ذلك أن أسرة هوهنزرن قامت بجهد كبير ساعد على خلق اتجاهات حماسية لإحياء أجداد إمبراطورية بروسيا في العصور الوسطى . وكان يوحنا مولر أحد كبار المفكرين الذين كان لهم دور في نشأة التاريخ القومي الألماني ، فكتب عن ألمانيا العصور الوسطى بأسلوب رومانسي مؤثر أما شميدت — كما سبق أن رأينا — فقد كتب تاريخاً عن ألمانيا من وجهة نظر المدرسة العقلانية . ولكن نظرة شميدت العقلية جعلت عمله غير مقبول لدى جماهير ألمانيا الوطنيين المتحمسين .

أما فردريك ويلكن فقد لجأ إلى كتابة القصص القومية التي تمجد بسالة الألمان في الحروب الصليبية وذلك في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » والذي ظهر ما بين ١٨٠٧ - ١٨٣٢ م . وهناك أيضاً هنريك لودن (١٧٨٠ - ١٨٤٧) الذي ألف كتاباً طويلاً بعنوان « تاريخ الشعب الألماني (حتى ١٢٣٥) » وفيه يظهر تأثيره بآراء يوحنا مولر عن العصور الوسطى . وحاول لودن في هذا الكتاب أن يثير حماسة قومه تجاه عظمة ألمانيا في العصور الوسطى .

ويأتى بعد ذلك المؤرخ يوحنا فوجت Johannes Voiget (١٧٨٦ - ١٨٦٣) صاحب كتابي « تاريخ بروسيا » و « تاريخ مازينبرج » وهما عبارة عن ملحمة عاجلت فتح بروسيا ونشر الديانة المسيحية فيها على أيدي الفرسان التوتون . كذلك استعرض فردريك فون رومير (١٧٨٦ - ١٨٧٣ م) ما أنجزته أسرة هوهنشتاوفن ، وبذلك اذاع شهرة أبطال العصور الوسطى الألمان . هذا في حين عالج المؤرخ جوستاف ستانزل (١٧٩٢ - ١٨٥٤) أعمال أباطرة فرانكونيا بمهارة ناقدة وعاطفية وطنية . أما المؤرخ ويلهلم فون جيزبرخت (١٨١٤ - ١٨٨٩) فقد حلل عوامل تكوين الإمبراطورية الألمانية في العصور الوسطى في كتابه الذي أسماه « تاريخ عصر الإمبراطورية الألمانية » وفيه استعرض علمه الغزير بصورة لا تقل بروزاً عن مقدرته الأدبية النادرة وتحمسه وتعقبه للتوتونية .

وعلى الرغم من أن التاريخ الذي كتبه ليوبولد فون رانكه عن حركة الإصلاح الديني كان كبير الأثر في جعل لوثر بطلاً قومياً ألمانياً عظيماً ، فإنه يجب الاعتراف بأن رانكه والرعيل الأول من تلاميذه كانوا يشاركون المتعقلين نظرتهم العالمية . ولكن مع نشأة « المدرسة البروسية » أصبح التاريخ القومي في ألمانيا أكثر تعصباً وأكثر تركيزاً على الأنسر الحاكمة . بل ان فون رانكه نفسه الذي كان يتصف بالتحكم في عواطفه لم يستطع أن يقلل أو يخفف من إعجابه ببروسيا وبأسرة هوهنزلون ، وبذلك جاءت كتبه العديدة عن التاريخ البروسي أقرب من غيرها من كتاباته لتكون تاريخاً قومياً . كذلك كتب لودفيج هوسر (١٨١٨ - ١٨٦٧ م) قصة ممتعة عن حرب الثلاثين سنة والإمارات الجرمانية فضلاً على ملحمة طويلة صاغها عن حرب التحرير في كتابه « تاريخ ألمانيا من ١٧٨٦ - ١٨١٥ م » وركز في كتابه هذا على دور بروسيا في تحرير ألمانيا وتوحيدها . أما ما كسيليان دنكر (١٨١١ - ١٨٨٦) مؤرخ العصور القديمة الذي نهض بمهمة نشر الأوراق الرسمية الخاصة بملوك بيت هوهنزلون ومن ثم ازداد إعجابه بهذه الأسرة وأصبح مقتنعاً بقدرتها على إحياء أجداد الإمبراطورية الألمانية القديمة وجاء مدح لبروسيا كذلك في كتاب أدولف شميدت

(١٨١٢ - ١٨٨٧) الذى سماه « سياسة بروسيا الألمانية » وكذلك فى كتابه « تاريخ محاولات الوحدة منذ عهد فردريك الكبير » . وقد أكد شميدت اخلاص بروسيا الذى لا يتزعزع لقضية الوحدة الألمانية .

أما أول الأعمال الكبرى التى تتنى على بروسيا فهو كتاب « تاريخ السياسة البروسية » الذى ألفه يوحنا جوستاف درويسن Johannes Gustav Droysen (١٨٠٤ - ١٨٨٤ م) وقد تغلّى فيه عن مذهبه الحر ليصبح مادحاً إلى درجة النفاق لأسرة هوهنزولرن . ولذلك جاء كتابه الخالد مشوباً بتحيز مؤسف لهذه الأسرة وما سماه بالرسالة التى جاءت هذه الأسرة من أجل تحقيقها . وبالإضافة إلى ذلك اقتصر كتابه على دراسة سطحية لسياسة بروسيا الخارجية واهتم اهتماماً ضئيلاً بالسياسة الداخلية . وأغفل أثر العوامل الاقتصادية والظروف الاجتماعية .

ثم بدأ المؤرخ هنريك فون تريتشك (١٨٣٤ - ١٨٩٦) من حيث توقف درويسن ويرقى كتابه « تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر إلى مستوى مؤلفات ميشليه ، ماكولى ، فرود ، حتى أنه يعتبر إحدى التحف الأدبية فى الكتابة التاريخية الحديثة . وعلى الرغم مما امتلأ به هذا الكتاب من حماسة واضحة للدور القيادى لبروسيا البروتستانتية وهى الشئ الذى يفيض به كتاب درويسن — فإن كتاب تريتشك قد أعطى كثيراً من الاهتمام للجوانب الثقافية الأساسية فى تطور ألمانيا القومى .

أما هنريك فون سيبيل (١٨١٧ - ١٨٩٥ م) فهو آخر الرواد الثلاثة فى المدرسة البروسية . وقد بدأ سيبيل عمله متممداً على فون رانكه فوضع كتاباً ممتازاً عن الحملة الصليبية الأولى وقام بدراسة عميقة عن الملكية فى ألمانيا . ولكن الأحداث السياسية المثيرة التى شهدتها منتصف القرن التاسع عشر جعلته يبتعد عن نهج أستاذه وأصبح يؤيد بقوة الوحدة الألمانية عن طريق القوة العسكرية البروسية . وجاء كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » حواراً كبيراً مضاداً لحركة الثورة الفرنسية . وكان موضوعه الرئيسى هو الاعتقاد الرومانسى السابق الذى يذهب إلى أن الفرنسيين يفتقرون إلى المقدرة السياسية . ثم تحول من هذه الدراسة إلى دراسة ما توهم أنه الشئ الذى يثبت قدرة أمتة الفائقة فى الأمور السياسية ، وهو قيام الإمبراطورية الألمانية على يد بسمارك . وكشف كتابه الكبير ، قيام الإمبراطورية الألمانية على يد وليم الأول ، عن قدرة هائلة على سرد كثير من التفاصيل السياسية والديبلوماسية بصورة واضحة . ولكن منهجه كان الدفاع المتميز عن سياسة بسمارك وديبلوماسيته .

وبانتهاء سبيل من كتابه أصبح التاريخ في ألمانيا أداة أضعف من أن تخدم الأمان القومي . ولم يلبث أن حل محل التاريخ الإنتاج الأدبي لبيترز Peters ، تاتنبرج وسائر الكتاب من مؤيدي حركة التوسع الألماني ، هذا فضلاً عن برنهاردي Bernhardi ، وكبار العسكريين وشامبرلين وكبار المتحمسين للتيوتونيه ، وهم الذين اتصفت أعمالهم بالصخب . ولقد أوضح جويلاند^(١) الدور الذي لعبته مدرسة المؤرخين البروسية في خلق هذه الحالة من الاعتزاز بالقومية والفخر بها . أما أوتوهنتز فقد بين في كتابه الكبير ، ملوك أسرة هوهنزولرن وأعمالهم ، الذي صدر سنة ١٩١٥ والذي بلغت مجلداته المائة كيف انتصرت الدراسة العلمية التاريخية على تيار القومية المتحمسة حتى عصر الحرب العالمية وذلك في أوساط المؤرخين المحترفين هذا وإن كان هذا الكتاب يتصف بالاعتزان والبعث عن التطرف . ومع ذلك فإن الفترة حتى عصر الحرب العالمية الأولى شهدت نكوصاً عارضاً في كتابة التاريخ القومي في ألمانيا . ولعل آخر المؤرخين القوميين من الألمان كان ويتريس شافر (١٨٤٥ - ١٩٢٩) الذي كان قوياً في تأييده للملكية متطرفاً في مشاعره الوطنية مما جعل كتبه « تاريخ العالم » و « تاريخ ألمانيا » تحظى بشهرة هائلة بين الوطنيين الألمان .

أما مصادر التاريخ النمساوي فقد جمعت لأول مرة بواسطة جيروم بيز (١٦٨٥ - ١٧٦٢) وهو العلامة الراهب في كتابه عن « ملوك أوستريا » ولم يقف الأمر في القرن التاسع عشر عند حد جمع وثائق التاريخ النمساوي في كتاب « الوثائق الخالدة » Monnmenta وهو الكتاب الذي أسهم فيه تيودور سيكل (١٨٢٦ - ١٩٠٨) بجهود كبيرة ، وإنما صدرت مجموعات قومية مستقلة . جمع فيه هذه المصادر القومية وأصدرتها أكاديمية فيينا في أكثر من سبعين جزءاً . كذلك ساهم سيكل في إصدار الطبعة الجديدة لكتاب بوهر المعروف باسم « السجل الإمبراطوري » والذي أشرف على تحريره جوليامس فون فيكر (١٨٢٦ - ١٩٠٢) وصدر في اينسبروك بعد سنة ١٨٧٧ م .

وبالإضافة إلى أن المؤرخ سبيل كان علامة عظيم الشأن ، فإنه أول من خلق اهتماماً كبيراً بتاريخ النمسا في العصور الوسطى من خلال مؤلفاته وكتاباتاته عن الأباطرة السكسون . وينتمي فيكر هو الآخر إلى مدرسة كبار علماء عصره وقد دفعته دراساته في القانون المقارن إلى تناول العلاقة بين الشعوب الجرمانية المتعددة . أما أعظم تاريخ قومي عن النمسا فهو الكتاب الخالد الذي وصفه الفريد فون ارنت (١٨١٩ - ١٨٩٧ م) الذي تناول عهد ماريا تيريزا . كذلك عالج

Antoine Guiland, Modern Germany and Her Historians (London 1915)

(١)

المؤرخ أونو كلوب (١٨٢٢ - ١٩٠٣) بطولات الإمبراطورية النمساوية في حرب الثلاثين سنة وشن هجوماً على فردريك الكبير في الوقت الذي كان أعظم مدافع عن أسرة هابسبورج . أما المؤرخ هلفرت فقد تولى الدفاع عن السياسة المضادة للثورة التي سار عليها فترنج ، في حين عرض فريدزنج (١٨٥١ - ١٩٢٠) بطريقة تتسم بالدقة قضية النمسا ضد بروسيا في السنين الأخيرة من الصراع بينهما أى قبل سنة ١٨٦٦ وكانت وجهة نظره متحيزة لألمانيا ضد الإمبراطورية النمساوية المجرية .

التاريخ القومى فى فرنسا

بدأ الفرنسيون يتجهون نحو تحليل وجمع مصادر تاريخهم القومى بعد حوالى قرن من نشأة الكتابة التاريخية القومية فى ألمانيا فى بلاط الإمبراطور ماكسيمليان . ذلك أن هذه الحركة بدأت فى فرنسا سنة ١٥٧٤ عندما صدر كتاب (غاليا الفرنجية) Franco Gallia للمؤرخ الفرنسى فرانسوا هوتمان . على أن هناك أعمالاً أخرى مبتكرة توضح بداية كتابة التاريخ القومى فى فرنسا مثل كتاب كلود فوشيه Claude Fauchet الآثار الغالية والفرنسية ، الذى صدر سنة ١٥٧٩ وكتاب بطرس بيثو Pierre Pithou الذى صدر سنة ١٥٨٨ بعنوان (الحوليات الفرنجية) ، وكتاب أبحاث عن فرنسا الذى صدر سنة ١٦١١ لمؤلفه إتين باسكوير هذا فضلاً عما تضمنه كتاب جاك بونجارز عن الحروب الصليبية فى كتابه « منجزات الرب على أيدي الفرنجة » .

أما البداية الحقيقية للجمع الناقد لمصادر التاريخ الفرنسى فقد ظهرت فى أعمال اندريه دوشزن (١٥٤٨ - ١٦٤٠) الذى وضع كتاب تاريخ النورمان كما ورد فى المخطوطات القديمة ، وقد صدر سنة ١٦١٩ ، وكتاب تاريخ الفرنجة كما ورد فى المخطوطات ، وقد صدر بعد ١٦٣٩ م . كذلك تبدو هذه البداية لجمع مصادر التاريخ الفرنسى فى أعمال إخوة سانت مارث وأهمها كتاب الأنساب ، وكتاب (غاليا المسيحية) وقد صدرت فى سنوات ١٥٧٢ - ١٦٥٠ - ١٦٥٥ م ، كما تبدو فى الطبقات التى أصدرها شارل دى فرنز دى كانج لأعمال فيلهاردوان . وكذلك تضمن نفس الشيء كتاب إتين بالوز (١٦٣٦ - ١٧١٨) Etienne Baluze والمعروف باسم زعماء مملكة الفرنجة .

واستمر العمل في جمع مصادر التاريخ الفرنسى خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر على يد الرهبان البندكتيين الذين كانوا ينتمون إلى مجمع سانت مور والذين أقاموا في دير سانت جرمان دى برية في باريس وهو المجمع الذى أسسه الأب مارتن ترنيير والأب جريجوار تاريز بين سنتي ١٦١٨ ، ١٦٣٠ م . وكان رائد البحث التاريخي في هذه الجماعة حنا مايلون (١٦٣٢ - ١٧٠٧) المعروف بجهوده التى لا تعرف الكلل أو الملل .

ولا يمكننا في هذا المقام أن نتعرض لكافة أعمال هذه الجماعة ، وإنما نكتفى بذكر أبرز هذه الأعمال ، فنجد في المقام الأول الطبعة الناقدة التى أخرجها الأب تيرى رونارت Dom Thierry Ruinart (١٦٥٧ - ١٧٠٩ م) لأعمال جريجورى التورى وفر يدجاريوس ويلييه آدموند مارتين (١٦٥٤ - ١٧٤٩ م) الذى أصدر موسوعات ومجموعات عن أعمال السابقين وما دونوه من مخطوطات وأصدر الأب برنارد مونتفسون (١٦٥٥ - ١٧٤١) كتابه الشهير (آثار الملكية الفرنسية) في حين أصدر الاب مارتن بوكيه (١٦٨٥ - ١٧٤٩) مجموعة المخطوطات عن الشئون الغالية والفرنجية ، الذى لا يزال يستكمل تحت عنوان (مجموعة مؤرخى غاليا وفرنسا) . وهناك أيضاً الأب أنطوان ريفيه دى لاجرانج (١٦٨٣ - ١٧٤٩) الذى كان قد بدأ في وضع كتاب تاريخ الأدب في فرنسا بمعاونة كل من ديكو ، بونست ، كولومب . ونهض المعهد الفرنسى وأكاديمية المخطوطات باتمامه حتى وصلابه في الوقت الحاضر إلى القرن الرابع عشر .

كذلك اهتم الرهبان من جماعة سانت مور بالكتابة عن تاريخ المقاطعات الفرنسية وظهرت لهم كتب عديدة في هذا الشأن أشهرها ذلك الذى وضعه الأب فيست والأب فيك بعنوان التاريخ العام للمقاطعات الجنوبية من فرنسا وقد صدر فيها بين ١٧٣٠ - ١٧٤٩ وهو الكتاب الذى راجعه أخيراً مولنيير .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر عاد المؤرخون العلمانيون إلى الصدارة وكان مركز نشاطهم في أكاديمية الفنون والآداب التى أسسها كولبرت في سنة ١٦٦٣ . وخير ما أصدره هؤلاء المؤرخون هو ذلك الكتاب الذى جمع مادته أج لوريير ، دنييس سيكوز ، ل.ج دى بركوينى تحت عنوان (مراسيم ملوك فرنسا) . وقد صدر ما بين سنتي ١٧١٤ ، ١٧٩٤ م . كذلك نهض هؤلاء المؤرخون أنفسهم بدور بارز في اتمام كل من كتاب (تاريخ الأدب) وكتاب (غاليا المسيحية) . ثم أخذت الكتابة التاريخية دفعة جديدة إلى الأمام عندما عين نابليون العلامة ب . س . ف دونو P.C.F. Daunou أميناً للمخطوطات القومية . ذلك أن دونو جلب كثيراً من السجلات الأجنبية إلى باريس وساهم هو أيضاً في إكمال تاريخ الأدب ، وغيره من كتب الرهبان البندكتيين .

وقام جوردان ، ودى كروس ، واسامير بوضع كتاب عن تاريخ القوانين في فرنسا بعنوان (مجموعة القوانين الفرنسية القديمة) وقد صدر هذا الكتاب في ٢٨ جزءاً فيما بين ١٨٢٢ - ١٨٢٣ . أما القرن التاسع عشر فشهد أول خطوة كبرى نحو جمع مصادر التاريخ الفرنسي في كتاب بعنوان (مجموعة كاملة للمذكرات الخاصة بتاريخ فرنسا) . وقد قام بجمع مادته بيتو ، ومونركيه في ١٣٠ جزءاً (١٨٢٩ - ١٨٢٩) وتناول الفترة من عهد فيليب أوغسطس حتى سنة ١٧٦٣ م .

وبقدر ما تدين به ألمانيا للبارون فوم شتين في جمعه لمصادر التاريخ القومي بها تدين فرنسا للسياسي العلامة فرانسوا جيزو الذي لم يقتصر جهده على مجرد تنظيم حركة علمية لجمع وتحرير مصادر التاريخ الفرنسي ، بل كان هو نفسه عالماً متبحراً في التاريخ له عدد من الكتب التاريخية القيمة . وقبل أن يعتزل كتابة التاريخ ويتفرغ للنشاط السياسي كان جيزو قد أصدر مجموعة من الكتب تقع في ثلاثين مجلداً تناولت التاريخ الفرنسي حتى القرن الثالث عشر . كذلك نظم في سنة ١٨٣٣ الجمعية الفرنسية وكان برانت أول رئيس لها ، ومنذ ذلك الحين وهذه الجمعية تضم في عضويتها أشهر المؤرخين الفرنسيين . وقد وصل عدد المؤلفات المطبوعة لهذه الجمعية إلى أكثر من ٣٥٠ مؤلفاً تحوى قدراً هائلاً من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسي .

وكان أهم ما فعله جيزو هو حثه لويس فيليب على إنشاء لجنة فرعية في وزارة التربية والتعليم تشرف على نشر ما لم ينشر حتى ذلك الحين من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسي . وبدأ هذا العمل العظيم في سنة ١٨٣٦ بصدر سلسلة تاريخية بعنوان (مجموعة الوثائق غير المنشورة عن تاريخ فرنسا) وقد تم حتى الآن صدور ٢٩٠ مجلداً من هذه السلسلة .

وكان أول من ساعد جيزو في هذا المشروع مينييه Mignet ، وثيري ، وجيرار ، رينوارد ، وعندما تأسست الجمعية العامة لمدرسة الوثائق في سنة ١٨٢٩ صار من المستطاع إيجاد علماء ممتازين في علم الوثائق لأن مدرسة الوثائق هذه صارت من أكبر معاهد دراسة التاريخ في العالم ، وتقوم بتدريب الطلاب على استخدام الوثائق وعلاجها . ويعتبر كتاب الوثائق غير المنشورة مناظراً لكتاب Monumenta في ألمانيا إذ إن كليهما يقتصر على عرض مادة لم يسبق نشرها من قبل ، ومنذ سنة ١٨٨١ أخذت الأجزاء الخاصة بهذا الكتاب الفرنسي تصدر تحت إشراف لجنة الأعمال التاريخية والعلمية . كذلك تجدر الإشارة إلى مجموعة المصادر التي أصدرتها مكتبة مدرسة الدراسات العليا .

كذلك خطأ الفرنسيون خطوة أبعد من أى أمة أخرى وذلك بهجوم مجموعات ضخمة من مادة المصادر التي تساعد على دراسة تاريخهم في العصور الحديثة . ويرجع ذلك أساساً إلى أنه لا توجد دولة أوروبية أخرى يحتوى تاريخها الحديث على حدث أو حركة قومية قرينة بالثورة الفرنسية بكل ما فيها من متعة وخيال مثيرين للاهتمام . ولذلك نجح رجل الدولة والمؤرخ الاشتراكي حنا جوريه Jean Jures في حث الحكومة على أن تنشأ لجنة في وزارة التعليم العام تقوم بالإشراف على إصدار ما لم يسبق إصداره من الوثائق التي تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للثورة الفرنسية ، واشترك كبار المؤرخين الفرنسيين في متابعة هذا العمل العظيم . ومنذ سنة ١٩٠٦ بدأت مجموعة الوثائق غير المنشورة الخاصة بالتاريخ الاقتصادي للثورة الفرنسية تظهر في أجزاء متعاقبة حتى صدر منها حتى الآن حوالى مائة جزء . كذلك قامت بلدية مدينة باريس بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان (الوثائق المتعلقة بتاريخ مدينة باريس خلال الثورة الفرنسية) وبدأ صدور هذه السلسلة منذ سنة ١٨٨٨ .

وهناك مجموعة أخرى من المراجع ضمت مصادر التاريخ الخاص بمراحل معينة من الثورة ، وأشرف على هذه المجموعة عدد من العلماء البارزين كان أكثرهم نشاطاً في هذا المجال (الفونس أولارد) وتلامذته وكان لأولارد دور بارز في إصدار مجموعة الوثائق المتعلقة بتاريخ باريس الذي سبقت الإشارة إليه .

كذلك نافس الفرنسيون الألمان في مجال إنتاج القصص التاريخية القومية . ذلك أن نشر الكتاب الذي ألفه شاتوبريان سنة ١٨٠٢ عن عبقرية المسيحية أضفى على ماضى فرنسا في العصور الوسطى ثوباً رومانسياً براقاً . وتشبه كتابة شاتوبريان في هذا المجال كتابات سبتلر ، وجوهانز مولر في ألمانيا . ولكتاب شاتوبريان المعروف باسم الشهداء ، نفس ما لكتابه السابق من تأثير . أما كلودفورييل Claude Fauriel (١٧٧٢ - ١٨٤٤) فقد جاء آراءه في كتاب تاريخ جنوب غاليا تحت حكم الغزاة الجرمان ، سابقة على آراء كل من فوستيل دى كولانج وجوليان عندما عارض الرأي القائل بأولوية تأثير الثقافة الرومانية والغالية على تأثير الثقافة الافرنجية في تكوين حضارة العصور الوسطى .

كذلك استطاع يوسف ميشو Joseph Michaud (١٧٦٧ - ١٨٣٩) أن يرسم صورة واضحة لأجداد فرنسا في عصر الحروب الصليبية في كتابه الذي راج وذاع صيته بشكل كبير والمعروف باسم تاريخ الحروب الصليبية (١٨١٢ - ١٨١٧) وكتب فرانسوا رينوارد (١٧٦١ - ١٨٣٦) كتابي (أبحاث في تاريخ اللغة الرومانية القديمة) (والقواعد اللغوية المقارنة) ورسم

ففيها صورة زاهية لشعراء التروبادور ، كما أعرب عن اعتقاده يتفوق اللغة الفرنسية على سائر اللغات الرومانية . أما نوما ديتيس فوستيل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٩٩) فيعتبر رائد الدراسات الخاصة بالعصور الوسطى في فرنسا ، وقد ساعد على إذكاء العنصر الوطني في المكتاتبة التاريخية الفرنسية وذلك بأن دافع عن نظرية الأصل الرومانى للثقافة والنظم الفرنسية ، وهاجم العقائد الثيوتونية والجرمانية المسائدة التى كانت شائعة فى ذلك الحين . وبعد كولانج بفترة من الوقت قام كل من هانوتو ، فاجنيز Fagniez وشير ويل Cheruel بتحليل ناقد يعتمد على سعة الاطلاع والمعرفة ويصطبغ بصبغة وطنية لمركزية السلطة فى عهد الملكية الفرنسية فى القرن السابع عشر عن طريق كبار رجال الدولة .

أما الفونس دى لامارتين (١٧٩٥ - ١٨٦٩) فقد عرض أبحاث الثورة الفرنسية فى إعجاب بالغ بهذه الأبحاث وخاصة مآثر الجيروندي ، وذلك فى كتابه الذى نافس به كارليل فى مجال كتابة التاريخ بأسلوب أدبى . على أن عمله كان مثل عمل كارليل عملاً غير علمى من الناحية التاريخية . وقام ميشليه بتفسير الثورة فى صورة ملحمة للحرية وحركة مقدسة لتحرير الشعب . وهناك من المؤرخين الفرنسيين كذلك لويس بلان Louis Blanc الذى دافع عن فكرة أن الغرض الأساسى من الثورة كان نشر الإخاء وذلك فى كتابيه تاريخ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وتاريخ عشر سنوات ، وقد صدر سنة ١٨٤١ . وفى هذا الكتاب الأخير عالج الفترة من سنة ١٨٣٠ - سنة ١٨٤٠ . ويعتبر فرانسوا مينييه Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) أكثر مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر علماً . وقد ضمن كتابه (تاريخ الثورة الفرنسية) هجوماً على إعادة اسرة البوربون للحكم . وأوضح أن الثورة الفرنسية كانت النتاج الطبيعى المحتمى لاتجاهات العصر وصورها فى صورة فجر عهد جديد عظيم فى تاريخ العالم . وبأى بعد ذلك لويس أدولف تيير Thiers (١٧٩٧ - ١٨٧٧) الذى وضع تاريخاً مطولاً وشعبياً للثورة الفرنسية من وجهة نظر المذهب الليبرالى فى القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أنه تناول الإمبراطورية الفرنسية بالنقد فى كتابه تاريخ القنصلية والإمبراطورية إلا أنه أثنى على القنصل الأول بوناپرت وصوره فى صورة منقذ فرنسا والحضارة الأوربية .

أما فردريك ماسون فقد أثنى على نابليون بوناپرت وعلى ما حققه بالنسبة للإمبراطورية الفرنسية ، وفعل نفس الشيء كل من إلبرت فاندال ، هنرى هوسارى ، وأرثر ليفى . وقد مس ماسون حياة نابليون الخاصة عن بعد وهاجم ثقافته وخيانة جوزفين وشخصية أسرة بوناپرت التافهة وهى الأسرة التى كانت دون المستوى التى كان نابليون يدين لها بعاطفة وولاء زائدين .

أما فاندال فقد صور نابليون على أنه انسان محب للسلام دفعته الغيرة من الإنجليز نحو الحرب . كذلك دافع هوساي Houssaye عن عبقرية نابليون العسكرية في شتى مراحلها حتى في معركة واترلو وأدان بشدة إعادة أسرة البوربون . أما ليفي فصور نابليون على أنه شخص فوق مستوى البشر منزّه عن الخطأ .

وهكذا لعبت الأسطورة التي أحاطت بنابليون دوراً كبيراً في الكتابة التاريخية القومية الفرنسية حتى يومنا هذا ، ودافع عن عديد من وجهات النظر المرتبطة بتلك الأسطورة كل من تايين Taine أولارد ، وماثييز ، ماديلين ، سيبه See ويعبر المؤرخ بولس ثيورو دانجن Paul Thureau Danguin (١٨٣٧ - ١٩١٣) في كتابه عن تاريخ ملكية يوليو عن أسفه لما لأسطورة نابليون من أصل شعبي ، وإن كان يدافع في ذلك الكتاب عن ملكية يوليو ذاتها . أما المؤرخ بطرس لاجورس Pierrede La Gorce (١٨٤٦ - ١٩٣٤) صاحب كتاب تاريخ الإمبراطورية الثانية ، فقد دافع عن الملكية والكليروسية ، كما أنه يعتبر ممن دافعوا عن نابليون الثالث . كذلك حرص أميل اوليفر (١٨٢٥ - ١٩١٣) في كتابه ، الإمبراطوريات الحرة أن يعرض للاتجاهات الحرة في العقد الأخير من حياة الإمبراطورية مبدئياً إعجابه بهذه الاتجاهات . وأخيراً يأتي اسم جابريل هانوتو ، الذي كتب واحداً من أبرز وأشهر كتب التاريخ المعاصر القومي لفرنسا وهو تاريخ فرنسا المعاصرة وصف فيه قيام الجمهورية الثالثة ودافع عنها .

ولم يكن رصيد فرنسا في كتب التاريخ العام التي كتبت من وجهة النظر القومية بالشىء القليل . فهناك شارل هينولت (١٦٨٥ - ١٧٧٠) الذي وضع أول تاريخ عام لفرنسا تحت عنوان تقويم مختصر لتاريخ فرنسا وقد ظل هذا الكتاب الذي صدر سنة ١٧٤٤ هو الوحيد من نوعه إلى أن ظهر كتاب آخر أطول منه وأكثر شمولاً وضعه المؤرخ سيسموندى في بداية القرن التاسع عشر ، وكتبه من وجهة نظر مؤرخ غيور على مذهبه التحررى ، فانتقد الملوك والأساقفة ، وأشاد بالاتجاهات التحررية في مجتمعات العصور الوسطى وينتمى سيسموندى إلى مدينة جنيف ويمثل إلى حد ما عقلانية روسو المعتدلة ، فضلاً عن أنه لم يقصد من وراء كتابه إثارة حماسة وطنية قوية . ولا يختلف الكتاب الفذ الذي كتبه ميشليه تماماً عن كتاب سيسموندى اللهم إلا من ناحية عدم تعلق ميشليه بالمذهب التحررى . ذلك أن ما عمله ميشليه لم يكن كبيراً في مجال الأدب الفرنسى فحسب بل كان عظيم الأثر في إذكاء الاعتزاز بالوطنية خاصة لدى الفرنسيين من أنصار المذهب التحررى . أما كتاب المؤرخ هنرى مارتين « تاريخ فرنسا » الذي بدأ ظهوره سنة ١٨٨٣ فهو أقل كفاءة مما كتبه ميشليه وإن كان أغزر منه في مادته وعلمه . ولكنه ظل أشهر كتاب تاريخى عن فرنسا

لمدة نصف قرن وذلك لترتيبه المنطقي وعرضه الواضح السهل الفهم وما به من تعبير مهذب عن وجهة النظر البورجوازية المتمسكة بالمذهب التحرري . هذا فضلاً عن أن موضوعه الرئيسي كان النمو المضطرد لحركة الوحدة الوطنية الفرنسية وقد روجع هذا الكتاب عدة مرات وأدخلت عليه الكثير من الإضافات والتحسينات . كذلك لاقى كتاب « تاريخ فرنسا » للمؤرخ فيكتور دوري رواجاً كبيراً برغم أنه لم يركز كثيراً على الاتجاه القومي . أما الجهد التعاوني العظيم الذي أشرف عليه أرنست لافيس في سبيل إخراج الكتاب الذي عرف باسم تاريخ فرنسا فهو يتسم بسعة العلم وينتمي إلى المدرسة الناقدة أكثر من انتمائه إلى الكتابة التاريخية القومية . ومع ذلك فإن هذا الكتاب يجيش بكثير من الإحساس بالوطنية .

وزاد من تدعيم الشعور القومي في فرنسا تلك الهزيمة والخسائر التي لحقت بها سنة ١٨٧٠ . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة من المؤرخين الفرنسيين أمثال لاجورس ، سورل Sorel ، تناولوا حرب سنة ١٨٧٠ بطريقة بعيدة عن التحيز ، وهو الأمر الذي فضح دفاع فون سيبييل المتحيز ، فإنه كانت هناك حماسة قومية مندلعة من جانب الوطنيين المتطرفين . وكان أن انعكست هذه الاتجاهات فيما كتبه بولس ديروليد Paul Deroulede الذي دعا للأخذ بالثأر من ألمانيا . وعبر عن ذلك الاتجاه في أشعاره وكتيباته التي حوت قدراً كبيراً من المديح والحوار مورييس باريه Mauriee Barres الكاتب الغالي الأصل وزعيم الوطنيين المتحمسين . وكان مورييس باريه شديد الإعجاب بديروليد . وقد أقنعت دراسته للتاريخ الفرنسي بأن الفرنسيين يقومون بالحرب بوصفها واجباً دينياً ، وعلى هذا فإن ديروليد وباريه كانا أول من صاغوا فكرة الحرب المقدسة وعبرا عن الاعتقاد بأن فرنسا لا تدخل أي حرب بغرض التدمير والإفساد وإنما تدخلها « من أجل تنفيذ أوامر الله ، لتقوم بدور الفارس المدافع عن العدالة . »

وعلى الرغم من أن الفرنسيين أهدوا من التحفظ بعد سنة ١٨٧٠ أكثر مما فعل الألمان فإن الآية انقلبت بعد سنة ١٩١٨ . ففي ألمانيا تضاعف الاهتمام بالإمبراطورية وبيروسيا تضاعفاً وقتياً في حين احتلت حوادث النصر والقومية في فرنسا مكان الصدارة . ومن أمثلة ذلك ما نلمسه في كتابه المؤرخ فراتز فنك برنتانو وذلك في إعداد السلسلة التي أصدرها بعنوان « تاريخ فرنسا القومي » . ففي هذه الأعداد يظهر حماسة وطنية وكرهية واحتقاراً كاملاً لألمانيا . ولم تغب هذه النغمة الوطنية المتحمسة كذلك عن كتاب « تاريخ الأمة الفرنسية » وهو ذلك العمل التعاوني الكبير الذي ظهر بعد الحرب وأشرف عليه جابريل هانوتو .

التاريخ القومي في إنجلترا

لم تقم في إنجلترا محاولة لهدل أى جهد منظم لجمع مصادر تاريخها القومي قبل بداية القرن التاسع عشر . وكان جييون قبل وفاته قد أوصى بشدة بضرورة إنشاء لجنة تقوم بجمع ونشر أعمال مؤرخى إنجلترا فى العصور الوسطى ، ورشح جييون لرئاسة اللجنة حنا بنكرتون . ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يتم بعد وفاته . ثم كان أن أنشئت فى إنجلترا سنة ١٨٠٠ لجنة حفظ الوثائق . ومع ذلك فلم يشترك فى أعمالها من يمكن اعتباره مؤرخاً حقيقياً حتى عين بها فى سنة ١٨٢٥ السير جيمس ماكينتوش Mackintosh .

وفى سنة ١٨٢٥ اشار نيقولاس هارس نيقولاس Harris Nicholas إلى الحالة المؤسفة التى كانت عليها مصادر التاريخ الإنجليزى ، ونتج عن نقده أن انبثقت سنة ١٨٣٦ من لجنة الوثائق لجنة أكثر نشاطاً ونقداً . وكان من بين ما أنتجته نشر المحاضر البرلمانية على يد (بالجرين) .

وفى سنة ١٨٣٧ حلت لجنة حفظ الوثائق وأصبحت الوثائق التاريخية فى عهدة أمين السجلات . ومن ثم لم تكن هناك بداية حقيقية نشطة لجمع مصادر التاريخ الإنجليزى إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما تعرض وليم ستوبز وفينوجرادوف الروسى الأصل بالنقد المر للوضع الذى عليه مصادر التاريخ الإنجليزى . واستطاع روميلى Romily أمين السجلات بعد ذلك وعلى وجه التحديد فى سنة ١٨٥٧ أن يحصل على تفويض من الحكومة لطبع مصادر التاريخ الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وعهد إلى أستاذ مشهود له بدقة عمله هو توماس دفس هاردى Thomas Duffus Hardy (١٨٠٤ - ١٨٧٨) بالإشراف على هذا المشروع . أما عملية نسخ هذه المصادر فقد قام بها عدد من العلماء المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى ومنهم برور Brew-er ، جايرندر Gairdner ، كانون ، روبرتسون ، جيلز Giles ، ديموك Dimock . وشارك فى ذلك العمل الأسقف وليم ستوبز (١٨٢٥ - ١٩٠١) وهو أشبه بالمؤرخ الألماني ويتز Waitz وكرس ستوبز لهذا العمل معظم سنى عمره فى فترة زادت عن ربع قرن بعد سنة ١٨٦٣ . وأخيراً انتهت عملية تجميع مصادر تاريخ إنجلترا فى العصور الوسطى سنة ١٩١١ وتمت فى ٢٤٣ مجلداً وهى المعروفة باسم وثائق وسجلات تاريخ بريطانيا العظمى وإيرلندا فى العصور الوسطى . وأحياناً تعرف باسمها المختصر « مجموعة السجلات » وهو الاسم المستمد من حقيقة نشر هذه الوثائق تحت إشراف أمين السجلات .

وتعتبر هذه السلسلة النظير الرسمي للوثائق الألمانية المعروفة باسم Monumenta ومجموعة الوثائق الفرنسية . هذا كله بالإضافة إلى ما تم في إنجلترا من عمل تقاويم لأوراق الدولة الرسمية والسجلات البرلمانية ومحاضر الجلسات وسجلات مجلس البلاط وما شابه ذلك .

ثم إن هناك أعمالاً مماثلة أقل شأنًا قامت بها جمعيات علمية مثل جمعية كامدن ، جمعية النصوص الإنجليزية القديمة ، فضلا عن جمعية سلدن التي قامت بجمع مصادر تاريخ القانون الإنجليزي .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال طبع الأصول المخطوطة للرحلات والكشوف الهامة ، وهو العمل الذي أشرفت عليه جمعية هاكليت Hakluyt Society .

ولم تكن كتابة التاريخ القومى في إنجلترا أقل شأنًا من مثيلتها في كل من ألمانيا وفرنسا . وهنا يبدو أن السمة الرئيسية للكتابة القومية في إنجلترا كانت مغايرة لنغمة الأساطير الآرية والنوردية لأنها أكدت التفوق السياسى للشعوب الأنجلو ساكسونية وهى النغمة التى شاعت في القرن التاسع عشر . وقام هذا الاعتقاد على أساس فكرة أن الغزاة النيتون الذين غزوا إنجلترا طردوا أمامهم سكان الجزيرة الأصليين من البريطان والكلت وخلقوا من هذه الجزيرة بلدا ذا ثقافة جرمانية بحتة وجنس جرمانى صرف . وقد تضمن الكتاب المعروف الذى ألفه حنا ميتشل كمبل Kemble (١٨٠٧ - ١٨٥٧) وهو كتاب (السكسون في إنجلترا) الذى صدر سنة ١٨٤٩ تعبيرا صريحا قويا عن وجهة النظر هذه . ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على بث هذه العقيدة الأنجلو ساكسونية في عقول الإنجليز بل إنه لاقى رواجاً كبيراً في ألمانيا وساعد على تزويد الوطنيين الألمان بمثل آخر يؤكد عقيدتهم في (رسالة الشعوب الجرمانية) . كذلك اعتقد كمبل Kemble أن النظم الإنجليزية في القرن التاسع عشر مستمدة بصورة غير مباشرة من مصادر جرمانية .

واستمر النقاش حول هذه المسألة في الكتاب الذى ألفه أودارد أغسطس فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) واسمه (تاريخ الغزو النورماندى لانجلترا) . ذلك أن فريمان لم يقف عند حد قبول النظرية الأنجلو ساكسونية بل تتبع الأصول الحقيقية للحرية السياسية لدى المجتمعات الجرمانية وخاصة في صورتها الإنجليزية . ومهما يكن من أمر فإن الأصول الأولى لهذه النظرية الخاطئة الخاصة بتمجيد الأصل الجرمانى ، إنما ترجع إلى كتابات راين ثوراس ومونتسكيه ، في حين

لم يأخذ بها وفندها كل من فوستيل دى كولانج ، برونر Brunner وتشكل هذه النظرية في حد ذاتها أحد الأخطاء الكبرى التي لحقت بالدراسات التاريخية في مرحلة سابقة على الدراسات الأنثروبولوجية ولم ينبج من هذا الخطأ أكثر المؤرخين هدوءاً وحرصاً وهو الأسقف ستبس Stubbs وكذلك أكثرهم إبداعاً وهو جون ريتشارد جرين . ولكن ظهر بعد ذلك من تصدى لهذه الفكرة مثل سيبيهم Seebohm . ومن وجد الجرأة على إدخال تعديلات عليها مثل متيلوند ، وفيينو جرادوف Maitland and Vinogradoff .

على أن النظرية الجرمانية صادفت دفعة قوية في ذلك الكتاب السيم السبعة الذي ألفه المؤرخ الشاعر شارلز كينجلى سنة ١٨٦٤ تحت عنوان (الرومان والتيوتون) . ومع أن هذا الكتاب جاء على قدر كبير من الإثارة ، إلا أنه لم يكن علمياً على الإطلاق ، فضلاً عن أنه ليس كتاباً تاريخياً . وكان له أثر كبير في إحداث انحرافات في تفسير تاريخ العصور الوسطى في مراحلها الأولى . ذلك أن كينجلى مجد إلى حد كبير من أطلق عليهم « الشبان الأشداء » أبناء الغاية التيوتونية » . وأثنى عليهم بنفس الحماسة التي صورهم بها لاس كاساس ، على عكس الرومان الذين وصفهم بأنهم كانوا ضعاف الروح والجسم ، لأنهم « أبناء إمبراطورية كانت محتضرة » . كذلك عبر عن رضاه بسقوط هذه الإمبراطورية الرومانية والدمار الذي لحق بها بفضل (الطوفان البشري) الذي اكتسحها من الشمال . ويكفى دليلاً على مدى بعد الكتاب عن الدقة أن كل علماء التاريخ المتخصصين في دراسة العصور الوسطى قد استبعدوا كافة ما جاء فيه . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لاقي رواجاً كبيراً ولا يمكن لمواطن إنجليزى أن يقرأه قراءة جيدة دون أن تتملكه رغبة في أن يرجع آباءه وأجداده إلى سلالة أرمنيوس وألريك .

وإذا ما تركنا العصور الوسطى حيث وضع التيوتون جذور النعرة والافتخار بالقومية في بريطانيا فإننا نجد أكثر المؤرخين الإنجليز تعصباً للقومية وهو جيمس أنتوني فرود Froude الذي وصف أجداد الثورات الإنجليزية منذ عهد الإمبراطورية الرومانية . ويلييه كارليل الذي أشاد بفضائل كرومويل ورفاقه في الكومنولث . وبعد ذلك يأتي المؤرخون لسان حزب الأحرار وهم جيمس ماكينتوش ، هالام ، توماس باهنجتون ماکولى . وقد جعلوا ثورة (١٦٨٨ - ١٦٨٩) مصدر وأساس الحريات في دول العالم . ويعتبر كتاب ماکولى ، تاريخ إنجلتره (١٨٤٨ - ١٨٦١) هو النظر الإنجليزى لأعمال ترتيشك ، ميشليه ، فضلاً عن أنه أروع ما أسهمت به إنجلترا في الكتابة التاريخية حيث انه مرجع قيم من مراجع التاريخ على الرغم مما يشوبه من تحيز .

وهناك كتاب مطول لإيرل ستانهورب بعنوان (تاريخ إنجلترا منذ صلح أوترخت حتى صلح فرساي) وهو يعالج تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر من وجهة نظر محافظة مؤيدة للسياسة البريطانية في ذلك الوقت . أما الجنرال وليم نابيير فقد أشاد ببسالة الإنجليز في شبه جزيرة إيبريا وذلك في كتابه (تاريخ الحرب في شبه الجزيرة) . وقد صدر الكتاب ما بين سنتي ١٨٥٤ - ١٨٤٠ ، وبرر فيه المؤلف فكرة الحرب بوصفها أن لها دوراً في المجتمع البشري ، وهذا الرأي هو نفس ما رآه برناردى بعد ذلك بنصف قرن أو أكثر . أما السير هربرت ماكسويل فقد أثنى على ولنجتون (الدوق الحديدي) في كتابه (حياة ولنجتون) الذي صدر سنة ١٨٩٩ . كذلك عالجت هاريت مارتينو Martineau في كتابها (تاريخ إنجلترا) الذي صدر ما بين ١٨٧٧ - ١٨٧٩ النصف الأول من القرن التاسع عشر بطريقة تؤكد أهمية تفوق حزب الأحرار في هذه الفترة . وأخيراً هناك السير جون ر. سيلي Seeley (١٨٣٤ - ١٨٩٥) الذي جمع بين ميوله القومية وعلمه الغزير في مجال الكتابة التاريخية . ذلك أنه كتب بكثير من الفخر والاعتزاز عن نمو الإمبراطورية البريطانية في كتابيه (التوسع الإنجليزي) و (نمو السياسة البريطانية) . ولم يكن سيلي مدافعاً عن القومية متعصباً لها وداعية للاستعمار فحسب ، بل يرجع إليه وإلى فريمان ما أُنْجِحت إليه الكتابة التاريخية في إنجلترا من حيث حصرها داخل نطاق التاريخ السياسى وحده . وأما أعظم كتب التاريخ القومى في إنجلترا فهو كتاب (مختصر تاريخ الشعب الإنجليزي) الذي صدر سنة ١٨٧٤ والذي ألفه جون ريتشارد جرين . وتضمن الكتاب دراسة للعقائد الجرمانية مع توضيح أثرها الأساسى في تطور الحضارة الإنجليزية بوصفها ثقافة رفيعة سادت وانتشرت . وأعطى هذا الكتاب لتطور الحياة الشعبية في بريطانيا مجالاً أكبر من المعتاد ، مما جعله من الكتب الرفيعة التي حازت إعجاب الأحرار في بريطانيا . ثم أعاد جرين كتابته على نطاق واسع تحت عنوان (تاريخ الشعب الإنجليزي) . وقد صدر هذا الكتاب المطول سنة ١٨٨٠ ولكنه لم يلق رواجاً كبيراً .

وبالإضافة إلى ذلك كله كان للحماسة القومية التي صاحبت أعمال سيسل رودس وحرب البوير أثر كبير في إنتاج مزيد من الكتابة التاريخية القومية في إنجلترا ، ولكنها كتابات لم تلتزم بما التزم به سيلي من غزارة علم ومعرفة ، مما جعلها أشبه بكتابة برنهاردى التي لم تلتزم بمنهج فون سيبيل . لقد وجد برنهدردى نظيره الإنجليزي في شخص الأستاذ ج. أ. كرامب J. A. Cramb الذي قال عن حروب إنجلترا الماضية إنها أتت مبدأً رئيسى هو ما للبطولة من مكانة وسلطان أعلى من سلطان العقل والمنطق .

ومن عجائب الصدف أنه كما أن تمجيد الجرمانية والاتجاه الجرمانى جاء على يد مواطن إنجليزى منشق على قومه : هـ . س تشامبرلين ، فكذلك قام مواطن أمريكى هو : هومرلى Homer Lea بربط خلاص العالم فى المستقبل بانتصار البريطانيين عن طريق تدعيم تلك الدائرة القرمزية القوية التى أحاط بها السكسون الأرض بطريقة لم يسبق إليها جنس آخر .

كتابة التاريخ القومى فى بقية الدول الأوروبية

حظيت إيطاليا بشرف مزدوج فى مجال كتابة التاريخ القومى ، إذ بنينا كانت أول أمة توصلت إلى ما يمكن اعتباره تجميعا كاملا لمصادر تاريخها القومى ، فضلا على أنها أنجبت من جهة أخرى أكثر المؤرخين دأبا فى تجميع مصادر التاريخ القومى وهو لودفيكو انطونيو موراتورى (١٦٧٢ - ١٧٥٠ م) وقد نجح موراتورى منذ عام ١٧٢٣ حتى وفاته سنة ١٧٥٠ فى جمع مصادر تاريخ إيطاليا من الماضى البعيد أى منذ سنة ٥٠٠ ميلادية حتى سنة ١٥٠٠ ونم ذلك فى كتاب صدر فى ٢٥ جزءا بعنوان (مادة المخطوطات الإيطالية) . وجاء عمله متقنا للدرجة أنه لم تصدر طبعة جديدة له إلا حديثا عندما أصبح ذلك ضروريا . وقد بدأ إعداد الطبعة الجديدة سنة ١٩٠٠ فى أول الأمر تحت إشراف جيوزى كارودسى Gosue Carducci ، فيتوريو فيوريني Vitorio Fiorini ثم تحت إشراف الجمعية التاريخية الإيطالية وفى سنة ١٨٣٣ ساهم شارلز إلبرت بجهده فى مساعدة حركة جمع مصادر التاريخ القومى الإيطالى ، وتم طبع ٢٢ جزءا من هذه المصادر بعنوان ، وثائق التاريخ القومى Monumenta Historiae Patriae . كما نشرت الجمعية التاريخية الإيطالية الكثير عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى تحت عنوان « مصادر تاريخ إيطاليا »^(١) .

وعلى الرغم من أن كتابة التاريخ القومى شأنه شأن جميع المصادر يرجعان فى إيطاليا إلى عهد أبعد مما عليه الحال فى أية دولة أوروبية أخرى ، إذ ترجع هذه الحركة فى إيطاليا على وجه التحديد إلى عصر الحركة الإنسانية ، فإنه يمكن القول أن المرحلة الحديثة من التاريخ القومى بدأت بظهور

(١) تقع فى ٥٨ مجلدا بدأ صدوره منذ سنة ١٨٨٧ وما بعدها (المجلد)

كتاب (تاريخ ثورة نابلي في سنة ١٧٩٩) وهو الكتاب الذى وضعه فيسنزو كوشو (cucco ١٧٧٠ - ١٨٢٣) وتناول المؤلف فيه أسباب فشل هذه الثورة وعبر عن اعتقاده بأن الوحدة الإيطالية لا يمكن أن تتحقق إلا على أيدي الإيطاليين أنفسهم وأنه من الضروري خلق وعى قومى فى إيطاليا وجو ذهنى مناسب لقيام الثورة . ويشابه هذا الكتاب فى جوهره وروحه كتاب المؤرخ كارلوتا Carlo Botta (١٧٦٦ - ١٨٣٧) بعنوان تاريخ إيطاليا خلال حروب الثورة ونابليون . ويفيض هذا الكتاب بآراء ومعتقدات المذهب الحر المتطرف التى شقت طريقها فى السياسة الإيطالية فى ذلك الحين بفضل نشاط كاربونارى .

أما عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى فقد عالجها كارلوترويا Carlo Troya (١٧٨٥ - ١٨٥٣) فى كتابه — إيطاليا فى العصور الوسطى ، وكذلك عالجها لويجي توسى (١٨١١ - ١٨٩٧) فى كتابيه (العصبية اللومباردية) (وبونيفس الثامن) وتناول هذه الكتب تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى بحثا عن أدلة تؤيد فكرة أن الزعامة البابوية كان لها دورها الكبير فى خلق الوحدة الإيطالية . كما أثبتت على دانتى والكنيسة والبابوات . أما دازجليو D'azeglio فإنه تناول التاريخ المعاصر إلى جانب تاريخ العصور الوسطى ليثبت افتقار البابوية إلى الكفاية والمقدرة ، ولكى يلفت الأنظار إلى الآمال القوية فى زعامة آل سافوى . ويؤكد سيزار بالبو فى كتابه (تاريخ إيطاليا) الذى صدر سنة ١٨٤٦ أن البابا وبيت سافوى يمكنها التعاون معا من أجل تحقيق اتحاد إيطاليا فى صورة تحالفية وهناك أيضا جويسيب فيرارى Guiseppe Ferrari (١٨١٢ - ١٨٧٦) صاحب كتاب تاريخ الثورات فى إيطاليا الذى يجد فيه النضال والعنف وسفك الدماء ، وهى الأمور التى صاحبت المعركة من أجل الحرية السياسية فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، وألمح إلى أن الثورة فى عصره تستطيع أن تؤدى نفس ذلك الدور البنك . كذلك نجد فيرارى فى كتاب كخر له بعنوان « نظرية الدورات السياسية » قد تشبع بآراء فيكو وحاول ان يضع فلسفة التاريخ فى خدمة حركة البعث الإيطالية .

أما المؤرخ جينو كابوني Gino Capponi فقد حاول أن يجد فى عصر النهضة لمسة قومية ، ووضع كتابا سنة ١٨٧٥ يتسم بالقدر والاسهاب عنوانه « تاريخ جمهورية فلورنسا » هذا فى حين كرس المؤرخ باسكال فيلارى (١٨٢٧ - ١٩١٧) كتابته بوجه خاص لعلاج تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى وعصر النهضة والإشادة بأعلامها أمثال سافونارولا ميكافلى ، مستغلا الحديث عن ذكرى هؤلاء الأعلام لإذكاء حركة الوحدة الإيطالية . وجاء كتابه عن فلورنسا تحفة رائعة حقاً

لأنه من المعروف عنه أنه فعل الكثير من أجل إضفاء أهمية خاصة على تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى . وثمة مؤرخ في إيطاليا عرف أنه قام بدور شبيه بالدور الذى قام به مارتن في فرنسا من حيث ترويجه للتاريخ القومى وتقريبه من أذهان الجماهير وميولهم . وهذا المؤرخ هو قيصر كانتو (١٨٠٤ - ١٨٩٥) الذى وضع أول تاريخ قومى كامل عن إيطاليا . أما المؤرخ بطرس كوليتا (١٧٧٥ - ١٨٣١) فقد انتقد في عنف وقوة الحكم البوربونى وفساده ؛ في صقلية وذلك في كتابه (تاريخ نابولى) الذى حث فيه على التمرد على الحكم الأجنبى . وأخيراً فإن أشعار جويزى كاردوكى Carducci وجابريل دى انيوزو يمثل التعبير المتطرف عن العاطفة الوطنية الإيطالية . وبظهور الفاشية في إيطاليا لم تعد القومية مجرد فلسفة تاريخية بل انمحت على مستوى العقيدة والديانة .

أما في أسبانيا فإن أول تجميع لمصادر التاريخ الأسباني لم تكن من عمل الأسبان وإنما من إنتاج عالم انجليزى رحالة هو روبرت بيل Robert Beal الذى توفى سنة ١٦٠١ وأصدر كتاب (المخطوطات الأسبانية) وذلك فيما بين سنتى ١٥٧٩ ، ١٥٨١ . أما ج . أ . س برودانو فأصدر موسوعته الجامعة عن مصادر التاريخ الدبلوماسى وهى المجموعة التى صدرت فيما بين ١٧٤٠ - ١٧٥٢ م . على أنه يمكن القول بأن حركة جمع المصادر الكبرى للتاريخ القومى الأسباني لم تبدأ إلا قرب منتصف القرن التاسع عشر عندما شرع بيدال Pidal وسلفا Salva وآخرون في وضع كتاب (مجموعة الوثائق غير المنشودة عن تاريخ أسبانيا) وهى المجموعة التى بلغ عدد أجزائها ١١٢ جزءاً ، صدرت بين سنتى ١٨٤٢ - ١٨٩٥ . ويركز هذا الكتاب الحديث بصفة أساسية على القرن السادس عشر . وبالإضافة إلى ذلك فإن أكاديمية التاريخ الملكيه في مدريد أخذت على عاتقها منذ سنة ١٨٥١ نشر مصادر التاريخ الأسباني في كتاب بعنوان (سجل التاريخ الأسباني) . ومع ذلك فإن مصادر التاريخ الأسباني في العصور الوسطى لم تجمع أو تدون أو تنشر بطريقة منتظمة .

أما مؤرخ أسبانيا القومى العظيم فهو مودستو لافوينت Lafuente (١٨٠٦ - ١٨٦٦) الذى أصدر كتابه العظيم (تاريخ أسبانيا العام) في ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٥٠ وسه ١٨٧٦ وكان القصد من هذا الكتاب أن يكون امتداداً لما كتبه ماريانا . وتناول فيه تاريخ أسبانيا حتى ١٨٣٣ ، ثم قام بإكماله بعد وفاته المؤرخ جوان فالبرا . وثمة مؤرخ أسباني هو أنطونيو

كانوفاس Canovas ربط في كتابه تاريخ اضمحلال أسبانيا ، بين عظمة و اضمحلال كل من أسبانيا وروما . وقام بيرزجالدوس Percz Galdos في قصصه التاريخية الشعبية المشهورة بنفس ما قام به والتر سكوت بالنسبة لاسكتلندة وانجلترا وفرنسا .

أما في بوهيميا فلم تفلح القومية التشيكية في خلق اهتمام بالتاريخ منلما كان الحال في دول أوربية أخرى ، بل على العكس كان التاريخ هو الذي يذكى القومية في أول الأمر . والواقع أن الروح القومية التشيكية الحديثة تدبّن لكتاب (تاريخ بوهيميا) أكثر مما تدبّن لشبىء آخر ، وهو الكتاب الذى صدر ما بين سنتى ١٨٣٦ - ١٨٧٦ والذى وصفه الوطنى المتحمس فرانتيسك بالاكى Frantisek Palacky . وعلى الرغم من عدم وجود معونة حكومية كحركة جمع مصادر التاريخ التشيكي قبل سنة ١٩١٩ فقد تمت أعمال كافية في هذا الشأن . ذلك أن بالاكى وآخرين من بعده نشروا الوثائق التشيكية والمورافية القديمة الخطية في ٣٢ جزءا (١٨٤٠ - ١٩١٨) . وكان أنطون جندلى أفدر المؤرخين البوهيميين ، وقد نشر مجموعة أخرى من الوثائق التاريخية باسم آثار بوهيميا التاريخية فيما بين سنتى ١٨٦٤ ، ١٨٦٩ . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هنالك من اهتمام خاص بجمع المادة المتعلقة بالتاريخ الدينى لبوهيميا فكتب الكونت فزانزفون لوزو كتابا صدر قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة عن حماه John Huss وصورة في صورة بطل بوهيميا القومى .

على أن خير ما كتب عن تاريخ بوهيميا القومى في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو كتاب (تاريخ بوهيميا ومورافيا في العصور الحديثة) (١٨٩٢ - ١٨٩٧) الذى استرك في تأليفه كل من أنتال ريزيك Antal Rezek ويوسف شفاتبك Josef Svatek كذلك شارك كل من العالم الفرنسى ابرنست دينيس والأمريكى روبرت ج . كرنر Robert YKerner بأبحاث في التاريخ التشيكي وأبدى عطفًا كبيرًا على آمال بوهيميا القومية .

أما في المجر فقد أخذت الحكومة على عاتقها منذ سنة ١٨٥٧ عبء نشر وثائق التاريخ المجرى في بودابست ولكن ظهر من هذه الوثائق أكثر من مائة جزء حتى الآن . ولكن من يريد دراسة المصادر التاريخية البحرية القديمة عليه الرجوع إلى عمل أصغر هو (المصادر الوطنية للتاريخ المجرى) وهى المجموعة التى أصدرها بين سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٥ المؤرخ ما تياس فلوريانوس . والواقع أن الظروف التاريخية كانت عاملا في إثارة الشعور القومى في المجر لدرجة أن أعظم علماء التاريخ المجرين غلبت عليهم الروح الوطنية . وكان أول تاريخ كبير للمجر هو

كتاب تاريخ المجر ، للمؤلف اجناس فيسلر Ignacz Fessler (١٧٥٦ - ١٨٣٩) الذى وصل بتاريخ المجر حتى سنة ١٨١١ . ثم وصل السرد التاريخي للمجر حتى سنة ١٨٤٨ فى كتاب لاحق للمؤرخ جانوس ج . فون ميلاث Janos G. Von Mailath ولم يكن هناك فى أوربا فاطبة من جمع بين الأستاذية فى علم التاريخ والوطنية المتحمسة مثلما فعل المؤرخ المجرى هنريك مارشالى Henrik Marczali فى كتاب (المجر فى القرن الثامن عشر) الذى صدر سنة ١٩١٠ وكتاب (تاريخ المجر) وقد صدر فى العام التالى سنة ١٩١١ . أما التاريخ القومى الرسمى للمجر فقد جاء فى كتاب صدر سنة ١٩٠٤ للمؤرخ أجناسز اكسادى Ignacez Acsady بعنوان (تاريخ الإمبراطورية المجرية) وكانت أعظم الأعمال المهمة فى هذا الشأن كتاب (تاريخ الأمة المجرية) الذى صدر ما بين سنتي (١٨٩٥ - ١٨٩٨) فى عشره أجزاء وقد اشترك فى تأليفه مجموعه من المؤرخين تحت إشراف الكسندر سنريلاجى Alexander Szilagyi .

وعلى الرغم من أن بولندا المعاصرة لم يكن لها حكومة مستقلة حتى سنة ١٩١٩ حتى يمكنها أن تسهم ماديا فى عملية جمع مصادر التاريخ القومى البولندى ، فإن أكاديمية العلوم فى كراكو بدأت جهداً منظماً فى جمع المصادر فى السبعينات من القرن الماضى . ومن بين الأعمال الأكر أهمية فى هذا المضمار مجموعه « المخطوطات البولندية » التى صدرت فى ٢٢ جزءا ومجموعه (وثائق أعلام التاريخ البولندى فى العصور الوسطى ، التى صدرت فى ١٨ جزءا) . كذلك (وثائق تاريخ أعمال البولنديين) وقد صدرت فى ١٢ جزءا . ولا يخفى علينا ان تقسيم بولندا وما نجم عنه من تخمس البولنديين لتحرير بلادهم كل ذلك أدى إلى الاتجاه إلى كتابه التاريخ القومى فى بولندا . ويعتبر المؤرخ يواقيم ليلويل (١٧٨٦ - ١٨٦١) Joachim Lelewel أول مؤرخ قومى بولندى على جانب من الأهمية . وقد وضع كتابه (تاريخ بولندا فى العصور الوسطى) و (بولندا وبارتها) . وعلى الرغم من أنه كان ديمقراطى النظره وسمى إلى المدرسة العفلانه ، إلا أنه كتب تاريخ بولندا طبعا للفكره الرومانسيه الخاصه بالروح القوميه وعبريه الشعب الجماعيه . أما المؤرخ كارول سازنوخا Karol Szajnoch (١٨١٨ - ١٨٦٨) فقد اكتسب شهرة وسعيه كبيره . مما كنه عن عهد جاجيلوس Jagiello كذلك تناول أمير سمر بولندا الوطنى البارز آدم ميكويش Adam Mickiewicz (١٧٩٨ - ١٨٥٥) فى كتابه تاريخ بولندا السعبي الجانب الذى قصده من عنوان كتابه ، مما جعل هذا الكتاب يساعد على إباره الحماسه العامه لماضى الشعب البولندى . أما خبر ما كتب عن تاريخ بولندا القومى فهو كتاب (تاريخ بولندا) الذى صدر ما بين سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٦٦ للمؤرخ يوسف سوزسكى Josef Szujski . وكان عمله ذا قيمه أدبيه عاليه أنى فيه

كثيرا بصفة خاصة على الجمهورية البولندية القديمة . كذلك ظهر في أوكرانيا مؤرخ قومي لايبارى وهو فايشنزلاف لاينسكى Vyacheslov Lipinsky (١٨٢٢ - ١٩٣١) الذى أعطى اهتماما خاصا للدور التاريخى لطبقة النبلاء فى أوكرانيا . وقد نظر إلى التاريخ الأوكرانى على أنه سلسلة متصلة من النضال لاستعادة استقلال أوكرانيا ، مؤكدا دور طبقة النبلاء القيادى فى هذا الشأن .

أما فى روسيا فعلى الرغم من السياسة الرجعية للحكومة الروسية وما كان من أمر الرقابة على المطبوعات والإنتاج الأدبى ، فإن الكتابة التاريخية القومية أحرزت تقدما كبيرا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . والواقع أن هذا النوع من الكتابة كان الوحيد الذى نِعِمَ بقدر كبير من الأمان فى ظل القيصرية وقد نهضت بمسئولية جمع مصادر التاريخ الروسى بصفة رئيسية لجنة (الآثار الروسية) التى أنشئت فى سنة ١٨٣٥ والتى جمعت السجلات التاريخية الروسية القديمة فى مجموعة ظهرت فى ٢٣ جزءا ما بين سنتى ١٨٤١ ، ١٩١٦ . كذلك أصدرت مجموعة أخرى عن مصادر التاريخ الروسى بين سنتى ١٨٧٢ ، ١٨٩٤ فى ٣٧ جزءا وتناولت كل من هاتين المجموعتين الفترة المسكوفية . هذا إلى أن تلك اللجنة قامت بأعمال أقل شأنًا عن تاريخ روسيا القانونى والاقتصادى والكسبى . أما أعظم عمل فى سبيل تجميع المادة المتعلقة بالسياسة الخارجية فهو ما قام به فيودور دى مارتنز Feodor de Martens تحت إشراف وزارة الخارجية فأصدر (مجموعة المعاهدات والاتفاقيات) فى ١٥ جزءا بين سنتى ١٨٧٤ - ١٩٠٩ . ومنذ قيام ثورة ١٩١٧ تم نشر الكثير عن تاريخ الحركات الثورية فى روسيا .

أما أول تاريخ شامل لروسيا يتسم بالروح العلمية فى البحث والدقة فهو كتاب (التاريخ الروسى منذ أقدم العصور) الذى وضعه ميخائيل شيربوتوف Michael Scherbotov (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وقد تناول المطور القومى لروسيا بطريقة حماسية متوهجة . وركز حديثه بصفة خاصة على دور القادة البارزين فى تحقيق هذا التطور . وتمة عمل آخر أكثر إحكاما من سابقه وأكثر متعة للقارئ هو كتاب (تاريخ الدولة الروسية) الذى كتبه نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ووصل فيه بأحداث التاريخ الروسى حتى سنة ١٦١١ أى حتى ظهور الرومانوف على مسرح الاحداث . وجاء هذا الكتاب رومانسيا فى طريقته ، كما كان يركز دائما على العبقريّة القومية للشعب الروسى . ويعتبر هذا الكتاب الثقافة القومية الروسية أرقى من ثقافة الغرب بسبب ماها من نراث شرقى وكنيسة لها طابعها الخاص ونظم سياسية ارسقراطية . هذا إلى أن كارامازين فعل مثل شيربوتوف من حيث تمجيد الحكام الروس وتصويرهم فى صورة الأبطال

القوميين . ثم كان ان تناول المؤرخون الروس من أنصار المدرسة الغربية القومية الروسية بشيء من التمجيد والإطراء ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه سيرجوس سوليف في كتابه تاريخ روسيا منذ أقدم العصور ، وصدر هذا الكتاب في واحد وعشرين جزءا بين سنتي ١٨٢٠ ، ١٨٧٩ ، وتناول التاريخ الروسى حتى سنة ١٧٢٤ في إسهاب كبير حتى انه فاق في نعمى بجنه أى كتاب آخر قبله . وكان حريضا على النظر إلى روسيا بوصفها دولة غربية ، ولذا فإنه مجد أعمال بطرس الأكبر . ولكن نظرا لطول الكتاب بكون نخفة شعبية . على أن سوليف حاز شهرته الواسعة بفضل كتاب المختصر الذى صدر في مجلد واحد وهو (مجمل التاريخ الروسى) .

أما نظره رجال المذهب الحر الروسى إلى تاريخ روسيا القومى ومحمسهم له فقد بدأها المؤرخ نيفولا كوستوماروف (١٨١٧ - ١٨٨٥) في كتابه الذى جاء بعنوان (رسائل وأبحاث تاريخية) . وبينما ركز الكتاب السابفون حدثهم على الحكام فان كوستاماروف اهمم بحياة وسلوك وعادات الشعب الروسى في مراحل تطوره القومى ، مما جعل كتابه من أحسن المؤلفات عن دراسه بطور الشعب الروسى . هذا إلى أنه اهتم بدراسة الجهات التى تقع على التخيوم الروسى ، وخاصة أوكرانيا .

أما المؤرخ الروسى فاسليف كلوشفسكى (١٨٤١ - ١٩١١) فقد فام بدور بالنسبة للتاريخ الروسى مثل الدور الذى فام به حنا ريتشاردز بن بالنسبة للتاريخ القومى الإنجليزى ، ذلك أن كلوشفسكى تتبع تطور الحياة الشعبية في روسيا ويطور النظم والجنسة الروسى حتى جاء عمله نخفة علمية رائعة من أعظم ما أنتجه الكناى التاريخى الحديث . كذلك اهمم المؤلف بحركة التوسع والاستعمار الروسى على الرغم من أنه لم يكن من أنصار الحركة السلافية ورجاها المحترفين . ومنذ ثورة سنة ١٩١٧ صار هناك اتجاه عام للانقلاب من شأن مكاسب روسيا في ظل الحكم القيصرى لكن المؤرخ بوكروفسكى كتب بحنا عاما عن التاريخ الروسى كما يصوره من وجهة النظر الماركسية .

أما في بلجيكا فقد بدأت الحماسة لجمع مصادر التاريخ القومى بعد أن حصلت بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣٠ . ولعل أعظم ما تم من تجميع لمصادر التاريخ القومى هو ذلك العمل الذى صدر منذ سنة ١٨٣٦ في بروكسل تحت إشراف الجمعية التاريخى الملكية في ١٧٩ جزءا تحت عنوان (مجموعة الوثائق البلجيكية غير المنشورة) كذلك قامت جمعية المناظرات في بروج ، بنسر ٥٦ جزءا من مجموعة السجلات التاريخى والمحفوظات ، والوثائق الاخرى المرتبطة بتاريخ وأثار الفلاندرز الغربى .

أما الفونس ووترز Wauters (١٨١٧ - ١٨٩٨) فقام بنشر مجموعة من موثائق الكومونات ، كما قام لويس جاشارد Louis Gachard (١٨٠٠ - ١٨٨٥) بنشر محتويات أرشيف الخارجية عن الفترة التي تبدأ من القرن الخامس عشر ، في حين قام بوليس فردريك بنشر وثائق مكتب الادعاء في بلجيكا وهولندا ، كما كتب ووترز Wauters بأسلوب يفيض بالشاعر عن المجتمعات الصغيرة في بلجيكا في العصور الوسطى . أما جاشارد فقد كتب منذ عهد شارل الخامس وفيليب الثاني . ونمة عمل صدر في بلجيكا من وجهة نظر كاثوليكية ويعتبر نظيرا لما قام به موتلي وبرنسترر Prinsterer في هولندا هو ما قام به يوسف كيرفين دي ليتنهوف Lettenhove (١٨١٧ - ١٨٩١) وعالج فيه القرن السادس عشر تحت عنوان تاريخ الفلاندرز . وقد أدان ليتنهوف Lettenhove وليم الصامت ومؤيديه من البروتستانت ودافع عن موقف أسبانيا والحزب الكاثوليكي . والواقع أن كتابات بولس فردريك الناقدة وكتابات هنرى بيرين (١٨٦٢ - ١٩٣٥) ، فاقت كتابات ليتنهوف التي شابهها التعصب الوطني الاعمى ، هذا وإن كانت كتابات فردريك مليئة بنغمة فلمنيكية قومية قوية .

وعلى الرغم من أن هولندا لم تزود التاريخ بمجموعة كاملة لمصادر تاريخها القومي مثلما فعلت بلجيكا ، فإن الجمعية التاريخية في أوترخت أخذت في نشر مصادر التاريخ الهولندي منذ سنة ١٨٦٣ . كما قام المؤرخ الهولندي برنسترر Prinsterer بنشر محتوى الأرشيف ذى المجلدات العديدة الخاص ببيت اورانج . وفي سنة ١٩٠٢ أنشئت لجنة ملكية ضمت أبرز المؤرخين الهولنديين لتتخذ الترتيبات اللازمة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ الهولندي نشرًا منظما وتولى رئاسة هذه اللجنة هـ . ت كولنبراندر H. T. Colenbrander . فاصدرت ٢٢ جزءا تحوى مصادر التاريخ الهولندي من سنة ١٧٩٥ - حتى سنة ١٨٤٠ . أما أكثر الكتابات التاريخية حماسة من الناحية القومية في هولندا فقد وردت في كتاب عن تاريخ هولندا الذى ألفه وليم جروين يرنسترر Wil-liame Groen Van Prinsterer الذى دأب في كتابه هذا وفي كتاب له آخر اسمه موريس وبارنفلت ، على مدح المذهب البروتستانتي فضلا عن بيت أورانج . على أن كتب برنسترر صارت عديدة القيمة بعد صدور الأبحاث العلمية التي دونها روبرت فروين (١٨٣٣ - ١٨٩٩) ، وهو واحد من أقدر المؤرخين الهولنديين . وبالإضافة إلى هذه الأبحاث العلمية لفروين Fruin هناك بحث للمؤرخ بطرس بلوك (١٨٥٥ - ١٩٢٩) عن تاريخ هولندا العام . وهو بحث يتميز بالدقة والازان .

أما بالنسبة للشعوب الاسكندنافية فانها هي الأخرى لم تكن فقيرة في مجال الكتابة التاريخية القومية إذ جمعت مصادر تاريخها في عديد من السلاسل من بينها مجموعة المخطوطات المتعلقة بتاريخ الدانمرك في العصور الوسطى ، وهي المجموعة التي أصدرها بعقوب لانجبيك Langebek وخلفاؤه . وهناك كذلك الوثائق الدبلوماسية النرويجية التي أصدرها س . أ . لانج والوثائق الخطية السويديّة التي أشرف على نشرها أريك جوستاف جيجر (١٧٨٣ - ١٨٤٧) ورفاقه .

وكان أول من أدخل الكتابة التاريخية القومية في الدانمرك هو المؤرخ ورساي Worsaae وفي النرويج المؤرخان كيزار ، منخ ، وفي السويد جيجز ، كارلسون ، فربكل ، أما عن يوحنا يعقوب وورساي (١٨٢١ - ١٨٨٥) فقد اهتم بصفة خاصة بتاريخ الدانمرك القديم في كتاب (آثار الدانمرك القديمة) وكتابه الشمال في عصر ما قبل التاريخ ، وذلك بالإضافة إلى كتاباته عن موضوع الدانمركيين في انجلترا . كذلك اهتم المؤرخ يعقوب رودف كيزار Keyser (١٨٠٣ - ١٨٦٣) برسم صورة رومانسية وإبراز الجوانب المشرقة عن أصل النرويج وذلك في كتابه تاريخ الشماليين ، هذا إلى أن كيزار أبدى اهتماما كبيرا في تاريخ النرويج الديني . لكن الكتاب الذي ألفه بطرس اندرياس منخ Munch (١٨١٠ - ١٨٦٣) كان أكثر شهرة وأوسع نطاقا ، إذ صدر تحت عنوان تاريخ الشعب النرويجي ، وفي السويد كان لكتاب المؤرخ جيجر تاريخ السويديين (حتى عهد شارل العاشر) فضل في زيادة الاهتمام بتاريخ السويد القديم والفنون الشعبية فيها . وفام بإكمال هذا العمل العظيم المؤرخ فردريك كارلسون (١٨١١ - ١٨٧٧) . أما اندرياس فريكل (١٧٩٥ - ١٨٨١) فقد كتب بحثا من عشرة أجزاء بعنوان (دراسة عن تاريخ السويد) وهو البحث الذي حاز شهرة واسعة . ولم تلبث أن تتابع الأبحاث المتسمة بالصفة العلمية عن التاريخ القومي للدول الاسكندنافية فكتب المؤرخ يوحنا ستين ستروب ورفاقه عن الدانمرك . وكتب يوحنا سارز ، كنت جيسرت Kunt Gjerest الكسندر بيچ Alex-ander Bugge عن النرويج وكتب هارولد هارن ، أميل هيلدبراند عن السويد .

ولو أن لدينا مجالا أفسح لأمكننا أن نوضح كيف أثرت دراسة أمجاد الماضي على نشأة الآمال القومية لسعوب البلقان منذ ١٨٢٠ ولعل أحسن مثال لذلك كتاب المؤرخ الكسندر أكزومبول وعنوانه (تاريخ الرومانيين في إقليم راشيا تراخان) History of Romanians of Trajan وهو الكتاب الذي صدر فيها بين سنتي ١٨٨٨ - ١٨٩٣ ويعبر نموذجاً لأثر الكتابة التاريخية في إذكاء الروح القومية في البلقان

القومية اليهودية

من المؤكد أن عرضنا للعلاقة بين القومية وكتابة التاريخ في العصور الحديثة في أوروبا لن يكون كاملاً إلا إذا أشرنا إلى الكتابة التاريخية القومية الخاصة باليهودية والصهيونية . إن ظهور القومية اليهودية في القرن الماضي جاء مرتبطاً بالتطور العام للروح القومية في أوروبا في نفس الفترة . وهو التطور الذي ساعد على تقوية الروح القومية اليهودية من خلال التقليد المباشر للحركات القومية الأخرى من ناحية . ومن خلال اضطهاد اليهود الذي جاء نتيجة للحماسة الوطنية المتزايدة في أوروبا بعد سنة ١٨٧٠ من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أصبح واضحاً أثر نمو العاطفة القومية اليهودية على تطور اهتمام اليهود بتاريخهم القومي ، فأنشئت الجمعيات التاريخية اليهودية في معظم الدول الكبرى ، مثل جمعية الدراسات اليهودية التي ظهرت سنة ١٨٨٠ ، ثم الجمعية التاريخية لاتحاد الطوائف الألمانية اليهودية التي ظهرت بعد ذلك بخمس سنين ، وفي سنة ١٨٩٥ قامت الجمعية التاريخية الإنجليزية اليهودية . وقبل ذلك بثلاث سنوات أنشئت الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية . والواقع أن هذه الجمعيات قامت بعمل ضخم في جمع مصادر التاريخ اليهودي وخلق الاهتمام بدراسته . ونخص بالذكر في هذا المقام ما نشرته الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية سنة ١٨٧٧ من بحث كبير يحوى دراسة عن اضطهاد اليهود في العصور الوسطى بقصد استئثار السخط القومي لليهود على ما لاقوه من اضطهاد في ماضيهم وحاضرهم . وما أثار عند اليهود شعور الحماسة لقوميتهم ما كتبه أحد المؤرخين القوميين وهو هنريك جريتز Graedtz (١٨٩١ — ١٨٩٧) . أما المؤرخ إسحاق م . جوست (١٧٩٧ — ١٨٦٠) فقد كتب كتابين هما (تاريخ اليهودية) و (تاريخ بني اسرائيل) ، وكانت آراؤه تتسم بالصبغة الليبرالية العقلانية غير المتحيزة إلى الحد الذي يجعل منه مؤرخاً قومياً ، وتختلف أعماله كثيراً عن أعمال جريتز الذي يشبه أحياناً بالمؤرخ تريتشك فيقال عنه (تريتشك اليهود) ذلك أن جريتز في كتابه تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر يحرص على نظراته المحافظة وآرائه المتعصبة كما يفيض حماسة لماضي قومه مستقبلهم وقد تتبع بأسلوب فصيح تاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى سنة ١٨٤٨ . واهتم بصفة خاصة بتطورهم الأدبي والروحي — أى بالعناصر التي أسهمت بأكبر قسط في تطور ثقافة اليهود القومية وبقائها . ثم انه نظر إلى اليهود على أنهم (نمط روحي قائم بذاته) وبذلك جاء كتابه متمشياً مع تطور (الصهيونية) وأفكارها . وكان يصر على أن المسيح المنتظر بالنسبة لليهود هو

إذكاؤهم للروح القومية ، وعارض فكرة بقاء اليهود على وضعهم انتظاراً لمجيء المسيح لتخليصهم مما فيه . أما المؤرخ س . م . ديبنو S. M. Dubnow صاحب كتاب (التاريخ العالمى للشعب اليهودى منذ بدايته حتى الوقت الحاضر) فتتصف كتابته بالموضوعية وغازرة المعرفة مما جعلها تعلق على النزعة القومية وإن كان الكتاب لا يخلو تماماً من تلك النزعة . وإلى جانب التاريخ العام الذى أخرجه جريتر ودنبو ، هناك كتابات تاريخية عالجت بشئ من الشمول تاريخ اليهود فى دول أوربية متعددة . وفى مقدمة هذه الكتابات (دائرة المعارف اليهودية) التى جمعت بين النغمة القومية والمنهج العلمى فى البحث . ثم كان أن أدى اصطهاد اليهود على يد هنلر والنازيين إلى إذكاء القومية اليهودية بصورة أقوى مما حققه أى عامل آخر فى العصور السابقة . فمنذ سنة ١٩٣٣ ظهرت مؤلفات عديدة كتبها مورييس صمويل وآخرون عالجت مختلف الأطراف والمظاهر للقومية واليهودية ولم تلبث أن ازدادت هذه الدراسات قوة وكثرة بعد (اغتصاب) أرض فلسطين وإقامة دولة (مزعومة) لليهود بعد سنة ١٩٤٧ .

مادة دور المحفوظات

وفى عرضنا المختصر هذا لأثر القومية على كتابة التاريخ فى أوربا لابد أن نشير ولو بطريقه عابرة إلى نمو وتكدس الوثائق فى دور المحفوظات (الأرشيف) وزيادة اعتماد الدارسين عليها . وذلك أن تطور الدول القومية وما صاحبها من التنظيم البرورقراطية أدى إلى وجود فدر هائل من التقاليد الرسمية والقواعد الروتينية ، فضلاً عن نمو وتطور نظام المراسلات الديبلوماسية . ولم تكد تحل سنة ١٨٠٠ إلا نتج عن هذا كله رصيد هائل من الأوراق التى حوت معلومات متعددة وحفظت فى دور الحفظ القومية والدينية فضلاً عن الخاصة . ولكن قبل أن يتمكن المؤرخون من الاستفادة من وثائق دور الحفظ كان لابد من أن تصنف تلك الأوراق وتنظم وتوضع تحت تصرف المؤرخين الحقيقين . وحتى القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه عام واضح لعدم فتح أبواب دور الحفظ أمام المؤرخين .

كانت فرنسا الدولة الرائدة فى مجال تصنيف مادتها الأرشيفية . ولعل ذلك راجع أساساً إلى وجود عدد كبير من أمناء المحفوظات المدربين تدريباً عالياً والذين نخرجوا من مدرسة الوثائق

الفرنسية . وتعتبر انجلترا في الوقت الحاضر الدولة الأوروبية الوحيدة المتخلفة كثيراً في مجال تصنيف المادة الأرشيفية وترتيبها وتنظيمها .

ومن نواحي النقص الرئيسية التي توجد حتى في أدق دور الحفظ تنظيمها هو افتقارها إلى ركن هام من أدق أركان الوثائق ونعني به الخطابات والمذكرات الشخصية الخاصة ، وذلك لحرص رجال الدولة والديبلوماسيين على رفعها من الملفات . ولهذا السبب أعلن بسمارك ذات مرة أن المادة الأرشيفية تعتبر ضئيلة القيمة لمن يريد أن يكتب تاريخاً ديبلوماسياً واقعياً . وكان أن بدأ السير ادوارد جراي تقليداً حميداً عندما ترك معظم أوراقه الخاصة في وزارة الخارجية عندما اعتزل منصبه كوزير للخارجية

وكما أدى الاعتزاز بالقومية إلى التنافس بين الدول في جمع مصادر التاريخ القومي الخاص بها ، كذلك حدث بنفس الطريقة أن دفع التنافس بين الدول الأوروبية المختلفة في فترات متعددة من القرن التاسع عشر كثيراً منها إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية فيها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها . بل إن البابا ليو الثالث عشر وكان متحرراً الفكر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١ وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز فحص ودراسة الكتوز التي احتوتها دور الحفظ في الفاتيكان والتي كان الكاردينال بارونيوس أول من استخدمها .

ومع ذلك فقد ظل الوضع حتى الحرب العالمية الأولى وليست هناك حرية كاملة في أي مكان في استخدام المادة الأرشيفية ، فضلاً عن أن الوثائق الحديثة حُجبت عن أنظار العلماء والباحثين . من ذلك مثلاً أنه لم يكن من الممكن الاطلاع على الأوراق المحفوظة في أرشيف الفاتيكان والتي ترجع إلى ما بعد سنة ١٨١٥ ، كما أنه سمح للمؤرخين في فرنسا بالاطلاع على الأوراق الرسمية حتى سنة ١٨٣٠ ، وفي روسيا سمح لهم بالاطلاع على الأوراق المحفوظة بدور الحفظ والتي ترجع إلى ما قبل سنة ١٨٥٤ ، وفي انجلترا حتى سنة ١٨٦٠ . أما بالنسبة لأمريكا فقد حاول العلماء أمثال جيلارد هنت أن يصل بتنظيم المادة الأرشيفية وجمعها إلى نفس المستوى الراقى الذي وصلت إليه معظم الدول الأوروبية .

وكان أن بدأ عهد جديد في فتح أبواب دور المحفوظات على مصارعها أما الباحثين بعد الحرب العالمية الأولى ، وذلك بدافع الرغبة في إلغاء الديبلوماسية السرية وتحديد المسئول الحقيقي عن الحرب العالمية . وكان البلاشفة هم البادئون في هذا الاتجاه وتبعهم بسرعة كل من الألمان والنمساويين ، وبعد ذلك وجد الإنجليز والفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى السير في نفس

الطريقة . ولم يقتصر الأمر على مجرد فتح أبواب دور الحفظ بل نشرت على نطاق لم يسبق له مثيل الوثائق الدبلوماسية الهامة والخاصة بالجبل السابق للحرب العالمية الأولى مباشرة . وبعد الحرب العالمية الثانية استولى الحلفاء على كميات ضخمة من الوثائق الألمانية وقاموا بنشرها جميعا ولكن لم تكن لديهم أية رغبة في نشر وثائقهم هم . وأظهر الروس بصفة خاصة عسكنا بسريته الوثائق ، بدلا من أن يستحثوا حلفاءهم الغربيين على نشر وثائقهم مثلما حدث عقب سنة ١٩١٨ .

كتابة التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية

لم تبتذل الولايات المتحدة الأمريكية أى جهد رسمي في سبل جمع مصادر تاريخها القومي يمكن أن يقارن بالجهود العظيمة التي بذلتها الدول الأوربية الأخرى . ولعل هذا يرجع من ناحية إلى الخصائص الموروثة المتأصلة في النظام الفدرالي الأمريكي ومن ناحية أخرى إلى حقيقة أن الحكومة الفيدرالية شغلتها التشريعات الرئاسية والملياب السياسية الحزبية بحيث حال ذلك دون أن تركز انتباهها على تدعيم مجالات الفكر والاندماجه .

وإذا بحثنا عن محاولة أمريكية يمكن أن نعتبرها نظيرة لحرته جمع مصادر التاريخ القومي في أوروبا - وهي الحركة التي ارتبطت بأسماء مورتوري برتز ، جيزو ، نفولا ، هاردي ، ستابس ، stubbs ، فليس أمامنا سوى تلك المحاولة التي طفت عليها العصفرة الوطنية والتي قام بها بطرس فورس Peter Force (١٧٩٠ - ١٨٦٨) في الثلاثينات من القرن الماضي ، بقصد الحصول على معونة حكومية كافية ، لنشر محتويات دور الحفظ الأمريكية ، وكانت الخطة الأصلية لهذا المشروع هي ضم كل مصادر تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهد اكتشافها حتى عهد وضع الدستور . ويتضح ارتباط هذا المشروع تاريخيا ونفسيا بالحركة الأوربية مما قاله فورس نفسه عن أهداف هذه الخطة (ان هذا العمل الذي أقدمنا عليه هو في المحل الأول عمل قومي في مداه وهدفه) . وبعد عقبات شديدة حصل فورس على معونة فدرالية مكنته من أن يبدأ نشر محتويات دور الحفظ سنة ١٨٣٧ ، لكن هذه المعونة الحكومية سرعان ما سحبت . واتضح أن ما تم عمله لم يكن سوى قشرة بسيطة من الخطة الكبيرة التي كان ينوي النهوض بها .

والواقع أن فورس لم يكن أكثر من جامع لمادة التاريخ القديمة وآثارها أكثر من عالم ناشر على مستوى وايتز Waitz ، ومينيه Mignet ، وجيرارد Guierard ، وستابز في أوروبا . ويرجع ذلك الى

أن حركة البحث التاريخي تأخرت ما يقرب من جيل كامل عن مثيلتها في أوروبا ، ولذلك فإن الخسارة التي نجمت عن عدم استمراره في تنفيذ مشروعه أقل بكثير مما لو حدث وتوقف نشر الوثائق الانجليزية أو الألمانية أو الفرنسية .

ولم يتعد ما صدر في الولايات المتحدة الأمريكية من جمع لمصادر التاريخ القومي عمل الأفراد وشركات النشر والجمعيات التاريخية في مختلف الولايات . وكان في مقدمة ما نشر على هذه الصورة عمل بعنوان (المراسلات الدبلوماسية للثورة الأمريكية) لجيرد سبارك Jered Spark . وقد ظهرت هذه المراسلات في ١٢ جزءا ما بين سنتي ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ . كما كان هناك إنتاج آخر لنفس المؤلف صدر في ١٢ جزءا أيضا بعنوان : حياة واشنطن وكتاباتاته وقد صدر ما بين سنتي ١٨٣٤ - ١٨٣٧ .

أما أكثر المحاولات طموحا لجمع مصادر التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية فهي محاولة المؤرخ هيوبرت هاوبانكروفت Howe Bancroft (١٨٣٢ - ١٩١٨) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ذلك أنه قام بجمع مصادر تاريخ الولايات الباسفيلية ثم استخدم هذه المادة في تأليف كتابه (تاريخ الولايات الباسفيلية) المكون من ٣٩ جزءا ولسوء الحظ فإنه لم يتبع نهج شتين ولم يسترشد بعمل برتز ، بل اعتمد في تنفيذ مشروعه على قدراته الخاصة مما ترتب عليه أن افترق عمله إلى الدراسة الناقدة وصحة النشر . وهناك عمل أكثر عمقا في البحث هو ذلك الجهد التعاوني الذي قام به عدد من الكتاب تحت إشراف جستين وينسور Justin Winsor الذي عرف به *Narrative and critical history of America* وعلى الرغم من أن هذا الكتاب احتوى قدرا كبيرا من مادة المصادر فإنه عمل يتضمن عرضا ناقدا للمصادر أكثر من استهدافه تجميع هذه المصادر ونشرها .

ومضت مع هذه الحركة جنباً إلى جنب حركة نشر مصادر تاريخ كل ولاية من الولايات الأمريكية وهي المهمة التي قام بها في أغلب الأحوال جماعة من علماء الآثار لا ناشرين من علماء التاريخ الناقدين ، مما أدى إلى عدم وجود تجانس في الطريقة التي اتبعت في هذا الشأن . ومع ذلك فإن بعضاً من هذه الأعمال جاءت على درجة عالية من التنظيم والدقة ، ولعل أبرزها تلك السلسلة المطولة التي تناولت اكتشاف الجزء الأوسط من أقاليم الغرب في الولايات المتحدة الأمريكية واستعماره . وقد اشرف على اخراج هذه السلسلة روبرت ج . تويتس أوف ويسكونسن G.Ro-ber Thwaites of Wisconsin كذلك ظهرت مجموعة الوثائق المتعلقة بولاية نيويورك التي

نشرها الكسندر س . فليك Flick . يضاف إلى هذا كله نشاط الجمعيات التاريخية المحلية العديدة وهي الجمعيات التي كان لها دور كبير في جمع مصادر التاريخ المحلي ، فضلا عن دورها في مساعدة الجمعيات المركزية على مستوى الدولة لتتمكن من إنجاز أعمالها .

ومن الاتجاهات الأخرى في تجميع المصادر الخاصة بتاريخ الولايات المتحدة نشر الرسائل والأوراق الخاصة برؤساء الجمهوريات فضلا عن مكاتبات رجال الدولة وهو العمل الذي قام به عدد من علماء التاريخ ، وإن كانت هنا الأعمال قد تفاوتت من حيث المستوى . وقد بلغت هذه الأعمال ذروتها في كتاب و . س . فورد V. C. Ford الذي صدر تحت عنوان كتابات واشنطن ، وكتاب جلارد هنت « مكاتبات جيمس ماديسون » وكتاب ب . ل . فورد مكاتبات جيفرسون ، وكتاب ج . ب . مور — أعمال جيمس باكانان The Works of James Buchanan .

ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية مفتقرة إلى الإمكانيات الضخمة لإعداد الوثائق ونشرها ، إذ كان لديها من العلماء أمثال واشنطن س . فورد ، جون فرانكلين جيمسون ، بولس ليكستر فورد ، جوبلارد هنت ، وهؤلاء جميعا لا يقلون في مقدرتهم عن برتز ، ويتز ، جويزو ، ستابز . ولكن ما كانت تحتاج إليه الولايات المتحدة هو التخطيط المشترك . والحصول على معونة حكومية كافية ومستمرة . ومع ذلك فقد كانت هناك بداية مبشرة بأن فجرا جديدا سيبدأ في كتابة التاريخ القومي للولايات المتحدة ، وذلك عندما نشر و . س . فورد أوراق الكونجرس ومحاضر جلساته ما بين سنتي (١٧٧٤ — ١٧٨٩) وعندما نشر ماكس فاراند الوثائق الخاصة بالاتفاق الفدرالي المعقود سنة ١٧٨٧ . هذا بالإضافة إلى ما نشرته ، مؤسسة كارنيجي تحت إشراف جون فرانكلين جيمسون .

وقد بذل هنا باسيت مور جهدا صادقا وشافا لنشر المجموعة التذكارية الخاصة بوثائق تاريخ الديبلوماسية الأمريكية . وهنا ينبغي الإشارة إلى ذلك التجميع القيم للمصادر الخاصة بتاريخ العمل والعمال في أمريكا ، وهو ما قام به الأستاذ هنا . كومانز Commons ورفاقه ، كذلك كانت الآنسة أديلدهاس Adelaide Hase بإنتاج سلسلة من الكتب في وصف وتصنيف مصادر تاريخ أمريكا الاجتماعي والاقتصادي . ومع ذلك فإنه يمكن القول عموما بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر متخلفة إلى حد كبير في مجال جمع مصادر تاريخها القومي ، ولا يمكن تبرير ذلك التخلف بإرجاعه إلى الافتقار إلى العواطف القومية الجارحة ، أو إلى عدم وجود موارد مالية كافية لهذا الغرض .

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية لم تستطع أن تسير الدول الأوروبية في تطور حركة جمع مصادر تاريخها القومي فإن لها أن تفخر بأنها أنجبت مؤرخين لا يقلون وطنية فياضة عن تربتشك ، ميشليه ، وفروود Froude . وكان من الطبيعي أن تدور السياسة التاريخية القومية في أمريكا حول الفترة التي شهدت انطلاقة الأحلام والآمال وهي فترة الاستعمار الأجنبي للولايات المتحدة الأمريكية ونضال الأمريكيين من أجل استقلالهم على الاستقلال . ذلك أن المؤرخين الأمريكيين أحاطوا هذه الفترة بهالة تشبه تلك الهالة التي أضفاها يوحنا مولر على ألمانيا في عصرها المبكر أو تلك التي أضفاها شاتوبريان على فرنسا .

ويعتبر جورج بانكروفت (١٨٠٠ — ١٨٩١) الشخصية الرئيسية التي ابتكرت ملحمة قومية عن فترة النضال الأمريكي وتخليص أمريكا من الاستعمار ، ذلك أن بانكروفت نفسه عاش في فترة الأيام التي شهدت ازدهار الحماسة القوية وسادت فيها الديمقراطية وهي فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي . وأخرج كتابا مطولا بعنوان (تاريخ الولايات الأمريكية منذ اكتشاف أمريكا) . ويلاحظ أن بانكروفت كان أحد الأمريكيين الأوائل الذين تلقوا تعليمهم في حلقات الدرس الألمانية وأعتقد بأن تاريخ إنشاء الجمهورية الأمريكية ليس جهدا عاديًا تحقق في دنيا البشر ولكنه كان على حد تصوييره ملحمة فرجيلية قام فيها واشنطنون بدور أوغسطس . وتعرض هذه الملحمة في منازرها المتلاحقة « حركة القوة الإلهية وهي تضفي على الكون وحدته وعلى الحوادث تنابعها وارتباطها . » .

كذلك صور بانكروفت في أسلوب بلاغي منمق العملية التي قام بها الأمريكيون بالاستيطان في الولايات الجديدة على أنها هروب الأرواح الباسلة من الاضطهاد وصور الثورة الأمريكية في صورة حملة صليبية يقودها فرسان وطنيون متحمسون من أجل حصول الإنسانية المتحضرة على حريتها . ويصف الدستور الأمريكي بأنه نتاج لأفكار عملاقة لم ولن يوجد لها مثيل ، واعتبر أن ما أنتجته هذه الأفكار أعظم قيمة من صانعها . ويتضح مدى ما في معتقدات بانكروفت من مبالغة إذا قورنت بالدراسة العميقة الواعية لنفس هذه الفترة التي تناوّلها بانكروفت والتي قام بها كل من جورج لويس بير ، ك . هـ . فان تين . وكارل بيكر ، ك . م . البوت ، م . ك . تايلر ، هـ . ل . اوزجود ، ك . و . الفورد ، ك . م . اندروس ، س . ج . فيشر ، وماكس فراند ، ك . أ . بيرد ، أ . م . شلزنجر وآخرون . وكانت نظرة بانكروفت للتاريخ الأمريكي هذه النظرة المقدسة سببا في ضرر بالغ وإن لم يكن من المتعذر علاجها . ذلك أن هذه النظرة الخرافية المصطبغة بصيغة دينية

انتقلت من بانكروفت إلى ما كتبه جون . و . بالقرى Palofrey (١٧٩٦ — ١٨٨١) في كتابه (تاريخ إنجلترا الجديدة) ثم تكررت مرة أخرى بصورة أقل قوة في كتاب هنري كابوت لودج (تاريخ المستعمرات الإنجليزية في أمريكا) . وكان لهذا الكتاب فضل إثارة الاهتمام بفترة استعمار الإنجليز لأمريكا . أما جون لوثر ب موتلى فكان مؤمنا بدور أمريكا في نصرة الحرية والديمقراطية ولذا اتجه إلى عمل دراسة مقارنة بين دور أمريكا ودور هولندا عندما قضت على الاستعمار الأسباني وأقامت الجمهورية .

أما فرانسيس باركمان (١٨٢٣ — ١٨٩٣) فلم يسر على منهج بانكروفت في تجسيد العنصر الانجلو سكسوني في باديء الأمر ، واثني على فرنسا في دورها الذي قامت به في استعمار العالم الجديد وأوضح في كتاباته أن أبحاد المستعمرين ليست قصرا على الإنجليز والألمان وحدهم . وإذا كان باركمان قد ركز بحثه على الفرنسيين في شمال أمريكا وغربها فإن وليم . ه . بريسكوت (١٧٩٦ — ١٨٥٩) الشهير بمؤرخ أسبانيا في أوائل العصر الحديث قد أوضح دور الأسبان في استعمار وسط أمريكا وجنوبها ذلك أنه وصف وصفاً رائعاً عظمة الحضارة التي كانت للمواطنين الأصليين الأمريكيين في المكسيك وبيرو . وأفاض في شرح ذلك في كتابيه « تاريخ المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ويعتبر هذان الكتابان من أروع الكتابات وإن كانا يحتاجان إلى تعديل في ضوء الأبحاث الأركيولوجية اللاحقة . أما الفريد ت . ماهان (١٨٤٠ — ١٩١٤) فكان متأثراً بدور الأسطول الأمريكي الذي لم يكن قد بلغ درجة كبيرة من النضج في الثورة ، فضلا عن دوره في حرب سنة ١٨١٢ مما دفعه إلى دراسة الدور الذي لعبته البحرية في الماضي . وكان أن كتب كتابين أولهما : (تأثير القوة البحرية ودورها فيما بين سنتي ١٦٦٠ — ١٧٨٣) وثانيهما (دور القوة البحرية في الثورة والإمبراطورية الفرنسية فيما بين سنتي ١٧٩٣ — ١٨١٢) . وكان لهذين الكتابين باستثناء كتب أخرى قليلة أكبر الأثر في لفت الأنظار نحو ضرورة الاهتمام بالتسلح البحري الحديث .

ونجد تجسيدا لدور الاتحاديين في تقوية دعائم الوحدة الوطنية الأمريكية في أعمال المؤرخين ريتشارد هيلدرث (١٨٠٧ — ١٨٦٥) وحنا تشرش هاملتون (١٧٩٢ — ١٨٨٢) ولما كان هيلدرث من المعارضين للبيوريتانية ، فإنه تولى الرد على القرى في هذا الصدد ، وامتح النظام الفدرالي وانتقد جيفرسون . أما هاميلتون فهو ابن أحد كبار الساسة الفدراليين ، ولذا تولى الدفاع عن سياسة أبيه في كتاب (تاريخ الجمهورية) ونجد في مقالات وكتابات بانكروفت ثناء

وإطراء على الديمقراطية التي لم تشبها شائبة في عهد جاكسون وذكر بانكروفت أنه كان يحس بتصفيق وهتافات أتباع جاكسون وكأن السماء تصفق معهم وتباركهم .

أما تيودور روزفلت (١٨٥٨ — ١٩١٨) فقد وصف في كتابه (انتصار الغرب) عملية التوسع الأمريكي غربا وصفا ينم عن إعجابه وتحمسه ، بصورة غير مستترة لهذه المناطق من غرب أمريكا وتبدو فيه وطنيته الطاغية وإعجابه بحركة الاستعمار التي قامت بها بلاده . وكان لروزفلت الفضل في أن حاز عمل ما هان راجا وشعبية كبيرة . أما المؤرخ الأمريكي — الألمانى الأصل — هرمان فون هولست (١٨٤١ — ١٩٠٤) فيصور في كتابه « التاريخ الدستورى والسياسى للولايات المتحدة الأمريكية » الانتصار على الرق بوصفه مظهرا هاما من مظاهر الصراع الأبدى بين الحق والباطل ، كما تأثر كثيرا بانتصار القومية في الولايات المتحدة الأمريكية ورأى في ذلك درسا لبنى وطنه الأول الألمان في صراهم من أجل الوحدة . وهناك الأستاذ حنا وليم برجيس Johnne Willian Burgess (١٨٤٤ — ١٩٣١) صاحب كتاب « الفترة الوسيطة » وكتاب (الحرب الأهلية والدستور) وكتاب « الدستور وإعادة بناء الوطن » وقد رأى بيرجس في نجاح أهل الشمال في الحرب الأهلية تبريرا لفلسفة السياسة القومية ودليلا أكيدا على العبقرية التوتونية في مجال التنظيم والوحدة السياسية .

وجملة القول أنه ما إن أصبحت فترات الحرب الأهلية وإعادة بناء الوطن الأمريكى موضوعات للتحليل التاريخى والدراسة الجادة حتى بدأت الدراسة الموضوعية الناقدة ذات الطابع العلمى تسود تماما بفضل جهود الأستاذ وليم أ . داننج ، وهكذا بدأت الملحمة الأمريكية ، تختفى من الأعمال العلمية ، وإن بقيت في صورة كتب للنصوص المدرسية للأجيال المتعاقبة وكان أن تحمل المؤرخ الفيلسوف حنا فيسك (١٨٤٢ — ١٩٠١) عبء إعطاء ملحمة بانكروفت إطارا تعقليا يجعلها تتناسب مع الاتجاهات السائدة في النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولما كان هذا المؤرخ يؤيد مذهب سبنسر التعقلى وتمجيده لقيام الطبقة المتوسطة ، فإنه استطاع رسم صورة واضحة للروح السائدة للأمريكيين المثقفين في عصره . وكان أن نجح بأسلوبه الواضح الجذاب وإلمامه الكبير بفترة الكشف والاستعمار والثورة في جذب جمهور كبير إليه مما جعله من أوائل المرشحين للقب « أشهر مؤرخ قومى » في الجيل الماضى . ذلك أنه رسول العهد الجديد في فهم العلاقات الأنجلو أمريكية وتفسيرها ، فأتى بدلا من ملحمة بانكروفت ذات الصبغة الدينية الأمريكية بملحمة جديدة عن نشأة الطبقة المتوسطة في كل من إنجلترا وأمريكا وانتصار تلك

الطبقة ، وهي ملحمة جدية بأن تكون « ملحمة الشعوب الناطقة بالإنجليزية » ثم إن فيسك كان مقتنعا تماما مثل بيرجس — بما كان عليه الفرع التوتوني من الجنس الأمريكي من مفردة سياسة فائقة ، وأوضح أن أول مثال عرف عن الحكم الديمقراطي كان في نظام مجتمع القرية التوتونية ، وهو نظام يعتبر تراثا للجنس الآرى من عهد ما قبل التاريخ ، هذا إلى اعتقاده في أن التاريخ الأمريكى سار في سلسلة متصلة الحلقات من أبام ارمينوس القوى الذى كان بعش في غابات شمال ألمانيا والذى تحدى بنجاح قوة الإمبراطورية الرومانية وعظمتها . ثم أن فسك قال مؤكدا أن عنصر الحرية هو أكثر العوامل المحركة للمقدرة السياسية بدلا من عناصر النظام والسلطة التى وضعها بيرجس في المقام الأول . كذلك رأى فسك أن انجلترا في عهد جلاستون تعطى مزايا للحرية السياسية الكاملة أكثر مما تعطى ألمانيا في عهد بسمارك ، ومن ثم فإن النظرية العامة القائلة بأن انجلترا — ذات صيغة نيوتونية بحتة والنقاش الذى دار حول ذلك الرأى — إنما كان نقاشا اثنولوجيا يؤيد وجهة نظر فسك . ولذلك فبدلا من أن يستلهم قيس الحرية مباشرة من « رجل الغابة الألماني في عهد ما قبل التاريخ » ثم يصل إلى الاتفاق الدسنورى الفدرالى في سنة ١٧٨٧ ، نجد فيسك يغير من خط سير هذا القيس ويجعله يهتدى وهو في طريقه إلى العالم الجديد « بثورة ١٦٨٨ المجيدة » ويرى فيسك في هذه الثورة أن الحرية السياسية والدينية سواء قامتا على أساس متين راسخ لا يمكن أبدا أن يهتز أو ينال منه أى تهديد طالما أن لغة لوك ، ميلتون سبدي سنظل حية على « ألسنة الناس » .

والواقع أن عمل فيسك وبالإضافة إلى عمل جورج أوتو تريفليان كان محاوله لوضع أن الثورة الأمريكينة كانت تحقيقا تاما لروح ثورة ١٦٨٨ ، إذ صور هذه الثورة على أنها من عمل الأحرار على كل من جانبي الأطلنطى وانها محاولة بطولية لصد وسحق الميول الأوتوفراطية للنظام الإقطاعى المحافظ فضلا عن سحق طغيان لا يستند على أساس دسنورى « ملك جرمانى » ويفضلها تحت صيانة حريات العالم بالصورة التى نصت عليها وثيقة الحقوق الإنجليزية . وقد استرسل فيسك في زهو في عرض لقيام الجمهورية الأمريكية الاتحادية واعتبرها من أكبر ما أسهم به العالم الغربى في سبيل حل المشاكل السياسية ، ذلك أن هذه الجمهورية الاتحادية استطاعت أن توفق بين حرية الاجتماعات في المدن الأمريكية وبين الحشود السياسية الكبيرة . كذلك تتبع فيسك في نشوة بالغة تقدم الطبقة المتوسطة وانتصارها السياسية والاقتصادية في القارة الأمريكية في القرن التاسع عشر وأحسن فيسك قبل وفاته . أى في مستهل القرن العشرين .

بالرضا التام عندما رأى بلاده تنهض في تحمل (أعباء الرجل الأبيض) وتحتفظ بسيادتها على الفيلين . وعلى الرغم من أنه لم يكن عسكريا على الإطلاق ، إلا أنه كان يعتبر هذا العمل أهم خطوة في عملية وضع العالم تحت السيطرة السلمية « للفرعين العظميين للجنس الإنجليزى اللذين يضطلعان برسالة إقامة حضارة عظيمة على الجزء الأكبر من سطح الارض ، وإقامة نظام سياسى أكثر دوما من أى نظام سابق » .

وإذا كان فيسك هو الذى أدخل الأسطورة الجرمانية والانجلو ساكسونية في التاريخ الشعبى للولايات المتحدة ، فان هيرت باكستر آدمز (١٨٥٠ - ١٩٠١) وجون وليم بيرجس (١٨٤٤ - ١٩٣١) هما اللذان أدخلوا هذه الاسطورة في دائرة الدراسة التاريخية الأكاديمية . ذلك أن كلا من هذين المؤرخين تلقى تعليمه في ألمانيا - وآدمز هو صاحب الفضل في انشاء قسم الدراسات التاريخية المشهور في جامعة جون هوبكنز وتخرج منه على يديه عدد كبير من المؤرخين البارزين وعلماء السياسة ، ومن بينهم ودرو ويلسون . وكان أحد تلاميذ آدمز جورج إليوت هيوارد هو خير من طبق النظم الجرمانية على النظم الأمريكية ، وذلك في كتابه (مقدمة للتاريخ الدستورى المحلى للولايات المتحدة الأمريكية » والذى ظهر سنة ١٨٨٩ . أما بيرجس فقد بدأ عمله في كلية أمهرست وأنشأ بعد ذلك مدرسة العلوم السياسية الشهيرة في جامعة كولومبيا . ولكن تلامذته كانوا على درجة كبيرة من الدقة والحرص والتحري في أبحاثهم الأمر الذى حال بينهم وبين نقل الأسطورة التوتونية والتشيع بها . وعلى هذا فإن هذه النظرية الجرمانية انتشرت أساسا في كتاباته هو فضلا عن محاضرات نيقولا مورى بتلر العامة .

ولعل أحسن تعبير عن القومية الأمريكية المختالة بنفسها اليوم هو الذى أطلقه ديلبور كورتز آبوت عندما أطلق على الأمريكان اسم « البرابرة الجدد » . ثم إن الكتابة التاريخية للتاريخ القومى ظهرت في أماكن أخرى من العالم الجديد ، فجمعت المصادر الخاصة بتاريخ كندا بطريقة طيبة ووضعت في أرشيف الدومنيون في أوتاوا فضلا عن دور المحفوظات العديدة في إقليم كندا . كذلك تناول المؤرخ فرانسوا جارتو تاريخ كندا بكثير من الإسهاب من وجهة النظر الفرنسية الكندية ، وفعل المؤرخ وليم كنجزفورد نفس الشيء ولكن من وجهة نظر موالية لكندا . ثم ظهر من الكتب ما فاق عمل كل من المؤرخين السابقين ، وتمثل هذه الكتب الدراسات التاريخية التى انتهجت منها علميا ، وتنتجت عن جهد شارك فيه كل من جورج م . رونغ Wrong ، هيو . هـ . لانجتون Langton ، آدم شورث Short ، أرثر ج . دوهتى . أما خير تاريخ لكندا ظهر في مجلد واحد فهو كتاب (الكنديون) للمؤرخ جورج م . رونغ .

أما مصادر تاريخ أمريكا اللاتينية فقد جمعت من دور الحفظ الأسبانية فضلا عن دول أمريكا اللاتينية . ونخص بالذكر هنا وثائق الأرجنتين التي تم جمعها ونشرها تحت إشراف كلية الفلسفة والآداب في جامعة بيونس آيرس ، ووثائق شيلي التي تم نشرها تحت إشراف جوزي ميدينا Jose Medina ووثائق المكسيك التي أشرف على نشرها م . أ . ي . بيررا M. O. Y. Berra . وهناك كتب تناولت التاريخ العام لأمريكا اللاتينية ألفها المؤرخون جوان أورتيجاى ريو - Juan Orte-gay Rubio ودايجو باروس آرانا Diego Barros Arana وفرانسيسكو جراسيا كالديرون وكارلوس نافان لاماركا Carlos Navany Lamarco وآخرون . وعن الفترة المليئة بالأحداث المثيرة من أجل تحقيق الاستقلال تبرز أعمال المؤرخ بارتولومي Mitre Bartolome وهناك كتب خاصة بتاريخ دول معينة من بينها كتب عن تاريخ البرازيل بأقلام فرانسيسكو أدلفو فارنيجان وجوامانويل بيريرا داسيلفا وجوزي فرانسيسكو داروشا بومبو ، ومانويل دى اوليفيرالها ، وفيليزبلو فيرمو دى اوليفيرد فرير أما تاريخ الأرجنتين فهناك كتب بأقلام مينز ، ماريا نوبيلزا ، ومارتن جارسيا ميرو ، فيسنت جامبون ، فيسنت نيدل لوبيز ، ريكاردو ليفين .

وعن تاريخ شيلي هناك الكتب التي ألفها بنيامين فيكونا ماكينا ، جوسيه توريبدميدينا ، وميجويل لويس أما نتجوى ، وديجو باردس آرنا ، ودينجو أما نتجوى دى سولار ، وجونز ألو بالنس أما عن تاريخ بيرو فهناك كتب من وضع ماريانو فيليب سولدان ، سيباستين لورنت ، ونيمسيو فارجاس . وهناك كذلك كتب تاريخية عن تاريخ أمريكا الوسطى ألفها لوزنزو مرنوفارى ريفيرا ماستر ، انطونيو باتريس جارجوى ، بدرو زامورا كاستيلانوس ، جوزي ن . رودرجويز ، ولدينا عن تاريخ المكسيك كتب من تأليف لويز بيريز فيريدا ، ليز جونز اليزا أوبرجون ، نيكيتودى زاماكوا ، انريك سنتبانز santibanez ، امبليورايسا Rabasa ، جريجيو رو كنتيرو Gregorio Quintero .

التاريخ والقومية

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية كما أنه جاء نعمة ونقمة ويبدو الجانب الطيب لهذا التأثير في تيسير إعداد مجموعات من المصادر التي لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومى . يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من

المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية . أما الجانب السيئ من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية . ولم يقتصر أثر ذلك على مجرد عدم إمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا دقيقا ، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتدريباً ، وإنما أسهم بقدر غير ضئيل في إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية ، الأمر الذي أدى إلى كارثة سنة ١٩١٤ . ويوضح الأستاذ هـ. مورس ستيفانز Stephense مسئولية المؤرخين عن هذا الشأن فيقول : الويل لنا نحن المؤرخين المحترفين ودارسي التاريخ ومدرسيه المحترفين . ويل لنا إذا لم نر النتيجة المفزعة للتعصب للقومية وقد كتبت بالدماء وسط مظاهر الحضارة الأوربية المتداعية . وهذه النتيجة هي ما تمخضت عنه كتب التاريخ الوطني التي كتبها نفر من أكثر المؤرخين بلاغة في القرن التاسع عشر .

وربما هان الأمر لو اقتصر عمل مؤرخين وطنيين أمثال تريتشك ، وميشليه ، قرود وبانكروفت ، لكن هناك مؤرخون بسطاء من الدرجة الثالثة فاضت كتبهم التي وضعوها لأغراض الدراسة بالحقد والكرهية ، ذلك أن هذا نفر من المؤرخين حاكوا أساتذتهم الكبار دون أن تكون لديهم نفس فضائلهم . وتتضح طبيعة كتاباتهم وتأثيرها على الجيل الماضي مما كتبه شارل التشول Altschul ، والأنسة بيسى ل. بيرس Pierce بالنسبة للولايات المتحدة ، والأستاذ ج.ف. سكوت بالنسبة لفرنسا وألمانيا . أما انجلترا فإنها لم تكن أقل من هذه الدول نشاطا في ذلك المجال ، إذ ترتب على قيام الحكم المستبد في كل البلدان الفاشستية والشيوعية وبمجيء الحرب العالمية الثانية أن عادت النغمة القديمة والتحيز والتعصب للوطنية إلى انجلترا على نطاق لم يسبق له مثيل في العصور الحديثة .

التاريخ الكنسى

وأخيرا فإنه لا ينبغي ألا تفوتنا الإشارة إلى أن الحماسة لجمع المصادر التاريخية لم تقتصر على مصادر التاريخ العلماني بل شملت أيضا مصادر التاريخ الكنسى . وبنفس الطريقة التي بدأها دوشزن في جمع مصادر التاريخ القومى في القرن السابع عشر بدأت في نفس الفترة جهود منظمة لجمع مصادر التاريخ الكنسى وما زالت هناك جهود تبذل في هذا السبيل حتى الوقت الحاضر . وكان أول تجميع كامل لكتابات آباء الكنيسة من عمل جاك مigne الذي أصدر مجموعة في ٣٨٢ مجلدا بين سنتي ١٨٤١ ، ١٨٦٤ وتشمل الكثير من مصادر تاريخ الكنيستين الشرقية

والغربية . على أن عمله هذا كان مثل كتاب بانكروفت « تاريخ الدول الباسفليكية » مشروع ناشر أكثر منه مشروع علامة ومع ذلك ظلت له قيمته العظيمة لدارس التاريخ الكنسى . ولكن نجم عن فشل ميغن فى استخدام أفضل المصادر والنصوص إلى وجود محاولة أفضل لتجميع الكتابات الدينية . من ذلك أن أكاديمية فينا أخذت منذ سنة ١٨٦٦ فى نشر مجموعات جديدة لكتابات آباء الكنيسة الغربية . وفى سنة ١٨٩٧ أخذت أكاديمية برلين فى نشر طبعة من كتابات آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . أما عملية جمع المادة الخاصة بحياة القديسين وأعمالهم فقد بدأت فى منتصف القرن السابع عشر على يد يولاند ومازالت مستمرة حتى الآن . كذلك ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر كتاب جمع فيه مؤلفاه (لاب ، وكوسارت) قرارات المجامع الكنسية ، وقام اتين بالوز بإتمامه فى سنة ١٧٨٣ . وفى سنة ١٦٨٥ بدأ حنا هاردوين Hardouin فى جمع مجموعه أخرى . وفى منتصف القرن الثامن عشر أنتج جبان مانسى Mansi Gian ما يعتبر أكمل ما جمع عن مجامع الكنيسة وكان عنوانه « المجموعة الجديدة لقرارات المجامع المقدسة » . وقد صدر فى واحد وثلاثين جزءا . كذلك صدرت طبعة جديدة منه فى ستة وخمسين جزءا فى باريس سنة ١٩٢٤ . وفى نفس الوقت الذى كان مانسى يجمع مادته عن المجامع الكنسية ، أصدر ميناردى كتابه عن المراسيم البابوية . وفى النصف الثانى من القرن ١٩ أخرج فيليب جافيه أوغسطس بوناست كتابا علميا يحوى عددا كبيرا من الوثائق البابوية حتى سنة ١٣٠٤ وقد أكمل بولس كيهير Paul Kehr حديثنا مجموعة مشابهة لنفس هذه المادة .

وخلاصة القول إن جمع مصادر تاريخ الكنيسة تم على وجه لا يقل كمالا عن جمع مصادر التاريخ العلمانى فى أوروبا . وكانت الرغبة فى تمجيد الكنيسة دافعا لدى المؤرخين الدينيين منلما كانت الرغبة فى تمجيد القومية دافعا لدى المؤرخين العلمانيين . فالكاردينال هيرجنروىر ١٦٠٠ فلفلة نحافف كتب عن الكنيسة الكاثوليكية بنفس الشعور الذى كتب به نريتشك عن بروسيا والأمة الألمانية بوصفه أحد أبنائها . وكان أن جمعت دائرة المعارف الكاثوليكية ، الآراء الرسمية للكنيسة الكاثوليكية فيما يختص بالمسائل التاريخية . أما البروتستانت فكانت لهم كتابات مماثلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى كتاباتهم من قبل . وتمة كاتب من كتابهم هو ميرل دوبنيه D'Aubigne لم تكن حماسه فيها كتب أقل من أى كاتب كاثوليكي ذكرناه آنفا . لقد أبدى العلامة دافيد شاف Schaff تحيزا واضحا إلى جانب البروتستانت . هذا إلى أن وجهة النظر البروتستانتية تمتثل فى دائرة معارف شان — هيرزج .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

SELECTED REFERENCES

- C. J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism*. Long and Smith, 1931.
- Fueter, *Histoire de L'historiographie moderne*, pp. 608, 629 - 87.
- Gooch, *History and Historians in the Nineteenth Century*, chaps. V, viii, Xi - Xv, Xvii - Xviii, XXi - XXii.
- Michael Kraus, *A History of American History*. Farrar and Rinehart, 1938.
- the Writing of American History*, chaps. iv - vi, X. University of Oklahoma press, 1953.
- H. H. Bellot, *American History and Historians*. University of Oklahoma Press, 1952.
- Harvey Wish, *The American Historian*. Oxford University Press, 1960.
- David Levin, *History as Romantic Art*. Stanford University press, 1959.
- R. R. Ergang, *Herder and the Foundations of German Nationalism*. Columbia- bia University Press, 1931.
- Milton Berman, *John Fiske: The Evolution of a popularizer*. Harvard University Press, 1961.
- p. M. Hammer, ed., *A Guide to Archives and Manuscripts in the United States*. Yale University press, 1961.
- D. H. Thomas and L. M. Case, *Guide to the Archives of Western Europe*. University of Pennsylvania press, 1959.
- Thomas pressly, *Americans Interpret Their Civil War*. Princeton University Press, 1954.
- D. R. Van Tassel, *Recording American's Past, 1607 - 1884*. University of Chicago press, 1960.
- peardon, *The Transition in English Historical Writing*.

- Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie*, Books IV - V.
Antoine Guillard, *Modern Germany and Her Historians*. London, 1915.
Gustav Wolf, Dietrich Schafer and Hans Delbruck, *Nationale Ziele der deutschen Geschichtsschreibung seit der französischen Revolution*. Gotha, 1918.
Louis Halphen, *L'Histoire en France depuis cent ans*. Paris, 1914.
Benedetto Croce, *Storia della storiografia italiana nel secolo decimo nono*. Bari, 1921. 2 vols.
P. J. Blok, *Geschichtsschreibung in Holland*. Leiden, 1924.
J. F. Jameson, *Historical Writing in America*. Houghton, Mifflin, 1891.
J. S. Bassett, *The Middle Group of American Historians*. Macmillan, 1917.
Thompson, *History of Historical Writing*, Vol. II, chaps. XLIII - XLV, XLVIII.
T. Hutchinson ed., *The Marcus W. Jernegan Essays in American Historiography*. University of Chicago Press, 1937.
John Fiske, *American Political Ideals*. Harper, 1885.
Wilgus, *Histories and Historians of Hispanic - America*.
B. L. Pierce, *Civic Attitudes in American School Textbooks*. University of Chicago Press, 1930.
J. F. Scott, *Patriots in the Making*. Appleton, 1916.
The Menace of Nationalism in Education. Macmillan, 1926.
Bell and Morgan, *The Great Historians*.

الفصل العاشر

نشأة المدرسة التاريخية الناقدة

أوضح الأستاذ جورج بيبودي جوخ في بحثه الذى اتسم بعمق الدراسة وسعة الاطلاع والخاص بتطور الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر أنه كانت هناك أربعة عوائق اعترضت تقدم علم التاريخ هي :

١ - فكرة أن التاريخ يأتي وليد الأحداث والكوارث Catastrophic theory of historical causation والنظرة إلى العصور الوسطى باحتقار وازدراء شديدين وهى النظرة التى حمل لواءها رجال المدرسة العقلانية .

٢ - عدم وجود تجميع جاهز للمصادر الأصلية وعدم وجود تنظيم لمادة دور الحفظ .

٣ - عدم اتباع المناهج الناقدة عند تداول المادة التاريخية .

٤ - عدم توافر التعليم المنتظم والكفاء سواء بالنسبة لموضوعات التاريخ أو مناهجه .

وقد سبق لنا أن أوضحنا كيف صحح رجال المدرسة الرومانسية بعض مثالب المدرسة التعقلية وذلك حين اصرروا على أن التطور التاريخي خاضع لسنة التطور والاستمرار وحين نظروا إلى العصور الوسطى بوصفها من أخصب عصور البحث التاريخي . كذلك سبق لنا أن أوضحنا كيف أدى الاعتزاز بالقومية اعتزازاً فياضاً إلى حصيلة دسمة من مادة المصادر التاريخية وذلك في جميع الأمم الحديثة الكبرى . وبقي الآن أن نتبع نشأة المدرسة الناقدة في مجال التاريخ وأن نوضح كيف انتشرت المناهج العلمية وظلت على الدوام مما ينبغي أن يتحلى به رجل التاريخ المحترف وأستاذه .

وقد أوضحنا في فصول سابقة كيف بدأت المناهج النافذة بدايه مشرقه وهو الأمر الذى جاء عرضا خلال نشاط المدرسة الإنسانية . وكان منال ذلك ما تضمنته أعمال بلوندىس ، بيتوس رينانوس ، فادبانوس ، زورتا . ثم كان أن نعرفت حركة هذه المناهج النافذة وضاق النطاق من حولها خلال الجدل الدينى الضعيف الذى صحب حركة الإصلاح الدينى والحركات المضادة لها . ومع ذلك فإنه مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ نطاق المنازعات الدينية بنفسى وأصبح من الممكن مرة ثانية إلى حد ما ان يعود الاتجاه إلى اتباع الموضوعية فى الكتابات التاريخية وأن يبدأ من جديد البحث المتزن التزيه عن الحقيقة التاريخية .

لقد مر المنهج العلمى للتاريخ عبر مرحلتين طبيعيتين وعاديتين : الأولى نشأة العلوم المساعده مثل العلوم السياسية ، علم تقويم التاريخ ، علم المخطوطات ، علم النفوس ، علم المعاجم ، وكلها علوم من شأنها أن تساعد المؤرخ على الوقوف على مدى ما فى الوثائق من أصالة . وأما المرحلة الثانية فهى تضى أبعد من مجرد الوقوف عند أصالة الوثيقة لتبحث حول صاحبها ومدى الاعتماد عليه كشاهد لحدث أو حقيقة تاريخية .

وظلت الكتابات التاريخية السابقة موضع تقدير كبير ، حتى خلال الألبام الأولى لنشأة هذه المدرسة النافذة من ذلك مثلا إن كتابات دى بولى De Pouilly ودنكر محوى نفدا لا يخلو من الإطراء على الكتابة التاريخية عن أحداث الشرق القديم . واهنم جروت Grote وآخرون غيره بدراسة عمل كبار المؤرخين الإغريق . وتناول دى بولى ، وبيريزيوس ، بوفر Beaufort ، نيبهر Neibuhr دراسة مؤرخى روما أما الرهبان من أتباع القديس سانت مور ورجال السدين الجزويت البلجيكيين المعروفين باسم البولاندين وموشيم وتليمونت ، فقد تناولوا جميعا مؤرخى الكنيسة . ومن جولداست إلى ويتز ، ومن فوريل إلى فوسسيل ومن شارون تيرنر إلى سنيس نجد اهتماما بنقد أعمال مؤرخى العصور الوسطى . أما فون رانكه فقد ذاع سيبه واسهر نيبجه لتحليله الرفيع لمؤرخى المدرسة الإنسانية خاصة فيلانى ، وميكافلى ، وجويكاردينى . وأما فوريل Fauriel ، موراتورى وليبنز ومحررو الموسوعات الكبرى فقد تناولوا دراسه مصادر التاريخ القومى . وهكذا نجد نشاط علماء المدرسة الجديد وقد امتد إلى كل مجال .

أما أول الخطوات الهامة التى خطاها علم التاريخ ليصبح علماً بالمعنى الحديث فجاءت أساسا فى عمل تلك الفئة من الرهبان البندكتيين المعروفين باسم رجال القديس سانت مور وهم الذين

نشطوا في الدور الأول من مراحل النقد التاريخي في تجميع مصادر التاريخ الفرنسي . ولم يكن قيام هؤلاء الرهبان بذلك العمل لأنهم منظمة عسكرية وهبت نفسها للدفاع عن الكاثوليكية وإنما جاء سبقهم في المدرسة الناقدة لأنهم امتازوا بما امتاز به العلماء العلمانيون من عدم الالتزام بتمجيد مدينة معينة أو إقليم أو أسرة أو بيت بذاته . وفي مكتبة ديرهم الهادى رسموا المخطوطات التي لم ينسجها أن يكون عليه المؤرخ الحديث وبدءوا التطبيق .

وكان رائد هؤلاء العلماء المؤرخين المنتمين لهذا الدير د. حنا ماييلون (١٦٣٢-١٧٠٧) الذي وضع مع لوك داشري Luc d'Achery أسس علم الوثائق السياسية أو الطريقة الناقدة للتحقق من الوثائق . وفي سنة ١٦٧٥ أعلن المؤرخ اليسوعي دانييل فون بابيروش Daniel Von Papebroch أن معظم الوثائق التي اعتمد عليها رجال القديس مور لا قيمة لها . وكانت نتيجة ذلك أن وهب ماييلون جهده في السنوات التالية للرد على هذا الاتهام . وفي سنة ١٦٨١ تمكن ماييلون من تفنيد حجج خصمه بفضل ما حواه بحثه الذي سماه « الوثائق التاريخية » وظل هذا البحث هو الحجة في موضوعه حتى حلت محله حديثا تلك الأبحاث التي كتبها سيكل Sickel وفبكر Ficker ، جيرى Giry .

أما أسس علمي المخطوطات والآثار فقد وضعها الأب برنارد مونتفاكون Don Bernard Montfaucon (١٦٥٥-١٧٤١) وذلك في كتابه « علم النسخ عند اليونانيين » وكتاب « الآثار كما توضحها وتشرحها الأرقام » . وعلى الرغم من أن شارل دى فرزن دى كانج Charles du Fresne du Cange كان رجلا علمانيا فإنه وضع أسس علم المعاجم التاريخية وذلك في معجمه الذي أصدره سنة ١٦٧٨ . كما كان للرهبان البندكتيين دورهم في هذه الناحية فقام الأب كاربنتيير Carpentier سنة ١٦٧٨ في مراجعة وإطالة عمل (دى كانج) . وأخيرا فإنه بفضل العمل المشترك الذي بدأه دانتين Dantine ، ديران Durand وأتمه سنة ١٧٩٠ دوم كلمنت وظهر بعنوان « فن التحقق من تواريخ الأحداث » غدت عملية التقويم التاريخي تقوم على أساس علمي سليم يختلف عما كانت عليه طريقة أورزيوس وجيرون . أما كلمنت فقد مضى أبعد من سكاليجر في تحليله المنتظم لعملية تأريخ الأحداث تأريخا منظما . ولم يقصر الرهبان البندكتيون جهدهم على تطوير مناهج البحث للبلوغ بها إلى مرحلة الكمال ولكنهم التزموا بهذه المناهج فيما أخرجوه من كتب عديدة وخاصة تلك المجموعات الخاصة بالتاريخ الكنسي والتاريخ القومي التي أشرنا إليها في مكان آخر من هذا الكتاب .

وليس من المبالغة في شيء أن نذكر لرهبان سانت مور من فضل على تقدم المنهج العلمى فى كتابة التاريخ إذ لم تكن هناك قبلهم أية محاولة للإشارة إلى مراجع البحث وإذا وجدت إشارة فإنها كانت من النوع العقيم الذى يربك القارىء ولا يفيد . ولم يكن من اليسير على القارىء الرجوع إلى المادة الأصلية للتحقق منها ، كذلك لم تحدث محاولات لتحسين الأسلوب عن طريق ادخال تعديل أو تغيير على مادة الوثيقة . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى ليبنتز . ولكنه على عهد رهبان سانت مور صارت الوثائق تفحص للتعرف على مدى صحة مادتها وتم تناول المادة بدقة بالغة كما صار من المتبع إحالة القارىء إلى المراجع المختلفة التى استخدموها بدقة متناهية .

وعلى الرغم من ذلك وحتى لا نكون مبالغين فيما قلناه عن جهد هؤلاء الباحثين من رجال سانت مور ، فإنه يمكن القول إنهم أقرب إلى تيمائوس منهم إلى فون رانكه أوجارنر . لقد اقتصر معظم جهدهم فى النقد على النقد الخارجى أى فحص مدى صحة الوثيقة وأصالتها وعدم تزويرها . ولكنهم كانوا دون مدرسة فولتير فى فحص مدى صدق المراجع المعاصرة ، وكانوا يعتبرون المادة التى يحتويها أى مصدر أصلى وكأنها حقيقة مسلم بها غير قابلة للطعن هذا إلى أنه لم يكن لديهم شيء من نظرة الرومانسيين تجاه التطور الثقافى فكانوا أقرب إلى علماء التاريخ القدامى منهم إلى المؤرخين الملتزمين بالمنهج العلمى فى العصر الحديث . ثم إن هؤلاء الباحثين لم يتشككوا فى مادة التاريخ الكنسى وإنما كان يحدد عملهم روح الورع التى تدفعهم إلى البحث عن الحقائق التى تغدق قضايا الكنيسة . وهكذا فإنهم خدموا بمسلكهم معاصريهم من المتعقلين ومن جاءوا بعدهم لأنهم أمدوهم بالمزيد من المادة والمعرفة التى مكنت أولئك المتعقلين وغيرهم من مواجهة رجال الدين واقتلاع نفوذهم .

وخير من يمثل المنهج البندكتى هو أحد أتباع المذهب اليسينى واسمه لويس سبستيان دى تيلمونت (١٦٣٧-١٦٩٨) وقد أنتج كتابين مرموقين عن الكنيسة والامبراطورية الرومانية حتى سنة ١٥١٥ م . ذلك أنه توخى الموضوعية فى عمله إلى حد كبير ، وجمع بصورة منمقة ما اختاره من مصادر راعى أن يكون فيها تنسيق وبعد عن التضارب حتى جاءت أعماله واحدة من أحدث الجهود فى الدراسة الناقدة للمصادر الرئيسية بكل فترة . وكان هذا العمل الذى قام به تيلمونت تدعيا كبيرا للمسيحية ، كما كانت أبحاثه إحدى المصادر الرئيسية التى استخدمها المؤرخ الشهير جيبون المعروف بدقته وتشككه .

ومن أوائل الكتب الألمانية التي تعتبر مثلاً للمناهج الناقدة المجددة ، كتاب عن تاريخ القانون الألماني كتبه الطبيب والعلامة الألماني المبدع هرمان كونرنج Conring (١٦٠٦-١٦٨١) وأسماءه (بحث تاريخي عن أصول القانون الروماني) ويرى كثيرون أن هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للدراسة العلمية لأصول التشريع الألماني . وهناك كتاب آخر كتبه الفيلسوف الألماني جوتفريد ويلهلم ليننتز (١٦٤٦-١٧١٦) أسماه (حوليات برونزويك عن الإمبراطورية الغربية) وتناول فيها تاريخ الجلفيين . وقد نشر ليننتز مقالا سنة ١٦٧٩ أى قبل أن ينشر ماييلون أراءه الناقدة بعامين - ضمنه نفس الأسس التي سبق أن وضعها رهبان سانت مور . ولقيت آراء ليننتز استجابة على نطاق واسع لأول مرة في الكتاب الذي أصدره يوحنا يعقوب ماسكوف Mascov (١٦٨٩-١٧٦١) واسمه « تاريخ الجرمان في العصر الميروفنجي » ذلك أن يوحنا استخدم مراجعه استخداما ناقدا ورفض الأخذ بالأساطير الدارجة ، تم اختتم بحثه التاريخي بدراسة ناقدة عن إمبراطورية العصور الوسطى . ويعتبر كتابه خير تاريخ عن الجرمان الأوائل ظهر قبل بحث شميدت .

ثم كان أن تمت خطوة أبعد من ذلك في مجال النقد الجوهري لمادة الوثيقة نفسها ، وهو الأمر الذي تم على يد الإيطالي الذؤوب لودفيكو موراتوري الذي قطع شوطا كبيرا في مجال بلوغ النهج العلمي حتى فاق أستاذه ماييلون . ذلك أنه انتقد مبدأ وجود الخوارق شأنه شأن بلوندوس ، ولكنه مضى أبعد مما وصل إليه الرهبان البندكتيون وهم الذين نظروا إلى المصادر المعاصرة للحدث وكأنها حقيقة منزهة عن الخطأ أما راين تويراس Thoyras فقد جمع بين مناهج ماييلون ، موراتوري فاقص بنظرة رومانسية بسيطة بالنسبة للتطور التاريخي ، وظل كتابه (تاريخ إنجلترا) المصدر الرئيسي في القارة الأوروبية بأسرها عن تاريخ إنجلترا في القرن السابع عشر . ثم إنه شارك مونتسكييه رأيه الخاص بأن الحريات الإنجليزية إنما نبعت من الغابات والأحراش الجرمانية . وأخيرا صدر أول كتاب متكامل يتصف بغزارة المادة عن التاريخ العالمي ، هو ذلك الإنتاج المشترك المسمى « التاريخ العالمي » الذي أنتجه بعض العلماء الإنجليز وهم كامبل ، سال Sale ، سويتون ، بور ، بزلمانزر Psalmanazer .

وعلى الرغم من أن هذا العمل جاء مصطبغا بالصبغة الدينية ، فإنه جدير بما وصفه به فبوتر - وهو حجة في النقد - اذ قال عنه « إنه كتاب جدير بأن يحمل لقب أول كتاب عن تاريخ العالم » .

وإذا كان ماريانوس ، موارتورى ، تويراس قد أبدوا على الأقل نظرة أولية فاحصة فى مدى صحة المصادر المعاصرة ، فإن الآباء اليسوعيين هم الذين بدءوا نقد الوثائق سواء فى جوهرها أو فى مادتها ، ذلك أنهم اضطروا إزاء هجوم البروتستانت عليهم إلى فحص مصادر التاريخ الكنسى لمعرفة ما إذا كانت الأساطير والأشياء المأثورة عن القدماء تستطيع أن تتصدى للاختبار العلمى الدقيق . وكان هدفهم من ذلك هو الحد من حدة النقد الهدام الذى تعرضت له الكنيسة والذى حمل لواءه المؤرخون البروتستانت فسخروا له كثيراً من تلك الأساطير الخاصة بماضى الكاثوليك وهى أساطير ليس من السهل تقبلها أو تصديقها . وخير نموذج لجهد اليسوعيين فى ذلك السبيل هو كتاب « العمل المقدس » والذى بدأه اليسوعيون البلجيكي تحت إشراف بولاند Bolland سنة ١٦٤٣ ، وفيه رتبت المصادر المتعلقة بحياة القديسين طبقاً لتاريخ كل مصدر ومدى صحته . ثم استطاع بطرس بول Pierre Baule (١٦٤٣-١٧٠٦) أن يمسى بالحركة الناقدة فى صورة أسلم وأشمل ظهرت فى كتابه « المعجم التاريخى الناقد » فضلاً عما كتبه من نقد لتاريخ مامبورج عن مذهب كالفن . والواقع أن بول كان يجد لذة خاصة فى توضيح التناقض العميق بين وجهات نظر وآراء المصادر المعاصرة فضلاً عن أنه لم يتردد فى أن يطبق منهجه هذا عند تناوله للتاريخ الكنسى . وهكذا حطم بول فكرة أن هناك ما يمكن تسميته بالتاريخ المقدس . أما الإنجليزى الربوبى كورنر ميدلتون Conyers Middleton (١٦٨٣-١٧٥٠) فكان من أكبر من أسهموا فى التطاول على ما جاء به رجال القديس مور من مثاليات . ذلك أنه أكد فى كتبه « مقدمة بحث » « استفتاء حر » عدم الاعتماد على مارواه آباء الكنيسة الأوائل عن نشأة المسيحية . وأكد أن ذلك العصر المسيحى الأول كان عصر اختلاق الأكاذيب والتلفيق .

أما الكتابات التاريخية القديمة فقد لقيت على عهد الحركة الإنسانية ما لقيه التاريخ الدينى ، إذ سبق أن رأينا كيف كان فالاً يدقق ويبحث عن مدى صحة ما جاء به ليفى . على أن أول باحث ناقد عن الآثار الرومانية كان كارل سونيو Carlo Sigonio الشهير بسونيوس Signorius (١٥٢٤-١٥٨٤) إذ أنه فى حقيقة الأمر يحظى بنفس مكانة سكاليجر ، كاسوبون . ذلك أنه تناول كل جوانب تاريخ الرومان وقوانينهم وآثارهم ودرسها دراسة قائمة على التشكك فيما سبق ذكره عن هذه النواحي ، بحيث أنه تعمق أكثر من بلوندوس . أما الهولندى يعقوب فوربرك Vourbrock المعروف بريزنيوس Perizonius (١٦٥١-١٧١٥) مؤلف كتاب (قواعد اللغة اللاتينية) وكتاب (الروايات التاريخية) فقد قام بدراسة ناقدة لمصادر التاريخ الرومانى المبكر

وتجدي القطع بصحتها وصدقها . ونمة مؤرخ من أصحاب النظرة المثالية كان أكثر قسوة في نقده فهو المؤرخ لويس ليفسك دي بولي (١٦٩٧-١٧٥٠) الذي تناول المؤرخين في العصر الروماني المبكر بالنقد اللاذع ، فكان أكثر تجريحا لهم من كل من بوفرت ونبور فيما بعد . ذلك أنه نادى بعدم إمكان الاعتماد على ماسبقت صياغته عن تاريخ روما في دوره الأول ، كما هاجم صحة المصادر التقليدية عن التاريخ الأشورى . ولم تلبث ان تعرضت دراسة التاريخ الروماني في دوره الأول لنقد أكبر من الفحص الدقيق على يد لويس بوفورت (ت ١٧٩٥) وذلك في كتابه (أبحاث عن التشكك في صحة التاريخ الروماني في القرون الأولى) . ذلك أنه اثبت في اسهاب مدى التناقض بين المصادر الكبرى الخاصة بالعصر الروماني الأول وخلص إلى أن ذلك يوضح أن تاريخ روما قبل القرن الثالث قبل الميلاد يعتمد على الأساطير . من هذا يبدو أن عمل (بوفر) يعتبر مناقضا لحركة الإنسانية في منهجها وأسلوبها . ولقد تناول نبور تاريخ روما من حيث توقف به بوفر .

أما المؤرخون الفرنسيون — من اتباع المدرسة الناقدة الجديدة . فقد التزموا بمنهجهم عند دراسة تاريخ بلادهم . ففي كتاب « تاريخ فرنسا » الذى أصدره سنة ١٧١٣ شارك جبريل دانييل Daniel مع المؤرخ ماسكوف في نقده اللاذع للأساطير والخرافات التاريخية الخاصة بالعصر الميروفنجي . أما أبرز عضو في المدرسة الناقدة في أيامها الأولى بل أقدر رجال هذه المدرسة قبل بنيبور فهو حنابابست ديبو Jean Baptiste Dubos (١٦٧٢-١٧٤٠) صاحب كتاب « نقد لتاريخ قيام الملكية الفرنسية في غاليا » وهو الكتاب الذى يعبر عن أول محاولة للاتجاه بالأساليب الناقدة الجديدة إلى دراسة النظم . ذلك أنه فحص المصادر الوثائقية للتاريخ المباشر لفرنسا في دوره الأول دراسة موضوعية ، مثل دراسة فون رانكه ، وسبق فوريل وفوستيل دي كولانج في القول بأن الميروفنجيين تبنا الثقافة الرومانسية في غاليا ولم يحلوا محلها . كذلك سبق أصحاب المذهب الرومانسى حين أشار إلى أن هناك تطورا تدريجيا وأصيلا للحضارة . وجاءت نظرتهم هذه أرقى بكثير من نظرة معاصريه من العقلانيين القائلين بأن تطور التاريخ رهن بما يحدث من كوارث ونكبات .

أما جوسطس موزر Justus Moser (١٧٢٥-١٨٠٧) فيعتبره كثيرون أول مؤرخ للتاريخ الدستورى ، بسبب ما كشف النقاب عنه بالنسبة للأنظمة السياسية وتوضيحه أن تطورها مرتبط بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية السائدة في الدولة على أن يوحنا ستيفن بوتتر Putter (١٧٢٥-١٨٠٧) كان أكثر كفاءة وهو خير من أخرج دراسة تاريخية متكاملة عن القانون الألماني

العام والنظم الإمبراطورية في تحليل اتسم بالدقة والمهارة الفائقة في تحديد تطور هذا القانون وتلك النظم . أما بارثولد جورج بنيبور (١٧٧٦-١٨٣١) وهو تلميذ موزر فيعتبر أب الكتابة التاريخية الحديثة .

وإذا ما أردنا أن نخلص بشيء مما سبق لنا ذكره ، فإننا نستطيع القول بأنه ما من شخصية ما أو مدرسة من المدارس استطاعت أن تسبق ينبور في خلق علم التاريخ الحديث . كان ينبور هذا مواطناً دالمياً استدعاه هامبولدت إلى جامعة برلين سنة ١٨١٠ حيث تكشفت مواهبه فصار خير من تجمعت عنده القدرة ليكون بوتقة جامعة لكل السابقين من أصحاب المذاهب الناقدة والتقدمية . ذلك أنه شابه في عمله أعمال برونزيوس ، دى بولى ، بوفر في نقده ونشككه في صحة مصادر التاريخ الروماني المبكر ، ومن ناحية أخرى فإنه تأثر بالروح الرومانسية لسافيني في دراسته لتطور الأنظمة التشريعية والسياسية ، كما سار على نهج موزر في تحليله التعمق لتطور هذه الأنظمة . وأخيراً فإنه طبق على مصادر التاريخ الروماني المبكر المناهج الناقدة التي سبق لولف تطبيقها في دراسته لمعرفة أصول أشعار هومر . هكذا جاء كتاب ينبور « التاريخ الروماني » أ ل كتاب يجمع بين أحسن المناهج الناقدة وبين الأسس البناءة في دراسة تاريخ النظم ، الأمر الذي جعل من تبيهر الملهم الأول لخلفائه العظام وخاصة فون رانكه وتيودور مومسن .

وقبل أن نتناول الثورة التي أدخلها فون رانكه على كتابة التاريخ علينا أن نتوقف قليلاً لنشير إلى عمليتين كبيرتين قدمتهما المدرسة الناقدة لعلم التاريخ ومنهجه . أما العمل الأول فهو ما قام به العالم الألماني يوحنا مارتين خالدينى من أتباع يودان صاحب كتاب (طريقة لفهم التاريخ في سهولة) وعلى غلط هذا الكتاب جاء كتاب خالدينى Chaldini (التاريخ العام) الذي صدر سنة ١٧٥٢ وقد تناول فيه بعض المسائل بطريق ذكية ناقدة مثل خصائص الحجج التاريخية والمادة التاريخية ، دور الشخصيات ، الفروض والسببية في التاريخ ، والتأويلات التاريخية . وأما العمل الثانى الذى له نفس الأهمية فينسب إلى يعقوب داتيل وجلين Weglin (١٧٢١-١٧٩١) صاحب كتاب (تخطيط عقلاني للتاريخ العالمى) Rational Plan for Universal history وفى هذا الكتاب فحصى يعقوب وجلين المشاكل الخاصة بالتأريخ مثل نقده للمراجع تبويب حقائق المادة وتنظيمها ، ومشاكل الجمع بين أحداث التاريخ العالمى وطبيعة التطور الاجتماعى والثقافى . ثم طبق وجلين أخيراً هذه النظريات على عمله الكبير الذى أسماه « تاريخ أوروبا العالمى » .

ليوبولد فون رانكه والمدرسة الألمانية

بدأ اسماء نون رانكه (١٧٩٥ - ١٨٨٦) بالتاريخ عند دراسته للأدب الكلاسيكي ولآراء المدرسة الرومانسية فضلا عن قراءاته لأعمال نيبهر. ثم بدأ نشاطه العلمي كمؤرخ عندما كشف عن التناقض الكبير بين ما رددته المصادر المعاصرة في القرن الخامس عشر عن تاريخ إيطاليا في ذلك القرن. وكان أن نشر سنة ١٨٢١ كتابه «تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية ١٤٩٤ - ١٥٣٥» وأبرز جزءه في هذا الكتاب هو الملحق الذي عنوانه باسم (نقد كتاب التاريخ في العصر الحديث) وفيه تناول تحليل المصادر الخاصة بالفترة التي كتب عنها ونقدها نقدا جوهريا باطنيا خلاف النقد الظاهري الذي قام به مايبلون في بحثه عن الوثائق التاريخية. وبعبارة أخرى فان فون رانكه أدى خدمة كبرى لمنهج البحث التاريخي وذلك بإصراره على أن المؤرخ لا ينبغي عليه أن يقف عند حد استخدام المصادر المعاصرة للفترة التي يبحثها بل عليه أن يجري دراسة لشخصية (ميول) ونشاط وظروف صاحب هذا المصدر. ومعنى هذا أنه على المؤرخ أن يتعرف بقدر الامكان على «الجانب الشخصي» عند سرده للأحداث. هذا إلى أن فن الكتابة التاريخية عند فون رانكه يتصف بخاصيتين أساسيتين الأولى هي نظريته المستقاة من الرومانسية والتي تنادي بأن لكل أمة أو عصر مجموعة من الأفكار التي تسودها والتي سماها رانكه روح العصر. والثانية هي العقيدة القائلة بأن المؤرخ ينبغي عليه أن ينظر إلى الماضي خلوا من فكر الحاضر بمعنى أنه لا يصح أن ننظر إلى الماضي بمنظار الحاضر، وإنما على المؤرخ أن يقص أحداث الماضي كما حدثت بالفعل.

أما الأخطاء التي وقع فيها رانكه فقد حددها الكتاب الذين جاءوا من بعده في أربعة أمور:

- ١ - فشله في مناقشة المصادر الخاصة بالموضوع الذي يكتب عنه مناقشة دقيقة.
- ٢ - اهتمامه الرئيسي بالأحداث السياسية والشخصيات الكبرى وإهماله الجوانب الهامة الأخرى الاقتصادية والاجتماعية، بل إنه أهمل جانبا هاما في الناحية السياسية وهي الأنظمة.

٣ - تأييده لنظرية أن الله هو صانع التاريخ وأن القوة الإلهية هي التي توجهه .

٤ - ولاؤه الذي لا حد للوثر ولأسرة الهوهنزولرن في بروسيا وإذا كان فون رانكه قد جال عبر التاريخ الأوربي بل التاريخ العالمي وبرك انرا مسرقا في كل جانب من جوانبه ، فإن ما قام به بالنسبة للمنهج التاريخي وبدراس التاريخ ترك أنرا خطيرا في السطور الحديث لعلم كتابة التاريخ . أما بالنسبة للمنهج التاريخي فإن أهمه الدور الذي نهض به رانكه يكمن في وضع أسس النقد الخاص بمادة الوثيقة وإصراره على خروج المعالجة الموضوعية الكاملة للماضي . أما الأثر الذي تركه على تدريس علم التاريخ فربما فاق الأثر السابق ، لأن فون رانكه أسس ما يعرف بالسمنار — أى حلقات البحث والدرس — مسهدفاً أن يبلغ فن التدريس لمادة التاريخ مرحله علمية سياسية وقد بدأ حلقات البحث هذه (السمنار) على يد رانكه سنة ١٨٣٣ ولم يجعلها وفقا على المؤرخين الألمان البارزين فحسب ، بل رحب فيها بالدارسين الذين جاءوا من كل أنحاء العالم للدراسة في تلك الحلقات التي أشرف عليها رانكه طوال نصف قرن .

وعندما تقدم العمر يفون رانكه بحيث لا يقوى على الإشراف على حلقات البحث هذه بنفس النشاط خلفه تلميذه الأول جورج وايتز لأكمل رسالة استاذته في جامعة جوتينجن . وهكذا تم وضع أسس المدرسة التاريخية العلمية الحديثة على يد فون رانكه . ومنذ أيامه سار علم التاريخ قدما في تطبيق المناهج النافذة وتطورها بعد أن شاع تدارها على يد مجموعة متزايدة من علماء التاريخ . ويرجع سر اتساع مجال البحث التاريخي على أسس علمية إلى الأخذ المباشر بمناهج فون رانكه ، نتيجة لأن تلاميذه حاكوه بطريقة مباشرة من ناحيه ، ولتطور البحث في البلاد مما هيا السبيل أمام علماء التاريخ أن يتبعوا مناهج فون رانكه من ناحية أخرى .

ففى ألمانيا كان تطور المدرسة الناقده الخاصه بعلم كتابه التاريخ من عمل فون رانكه بصفه أساسيه . وظهر من بين تلاميذه كوبك Kopke ، وجافيه Jaffi ، دوبز ، وفون جسيبرخت Von Giesebrecht ، وفون سبيل ، وعلى يديهم وفي كتاباتهم ومحاضراتهم ساعدت وانتشرت مناهج أستاذهم فون رانكه . ونخص بالذكر ويز بالذات لأنه يمكن القول أنه فاق أستاذه فون رانكه في إتقانه ودقة بحثه . أما تيودور مومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) فإنه أعطى للمدرسه الناقده فوه دفع حديدية مستقلة عن الدفعه التي قدمها فون رانكه . وكانت نتيجة جهده أن فلبث دراسه التاريخ الروماني رأسا على عقب .

ومهما يكن من أمر ، فإن الرواد من تلاميذ فون رانكه كانوا : ويتز ، فون سيل ، فون جيشبرخت . ومنذ عهدهم صار المؤرخون الألمان يتبعون مناهج فون رانكه ويلتزمون بها^(١) . أما هتريك جرد Henrich Gerdes و كارل هامب Karl Hampe فقد عالما تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى كما عالج برنارد كوجلر Bernhard Kugler تاريخ الحروب الصليبية في دقة بالغة كذلك كتب مولر بحثا يعتبر من أعظم ما كتب عن التاريخ السياسي للعالم الإسلامي وعالج روبرت دافدسون ومعه كل من فردريك فون بيزولد جورج فون بيلو Von Below عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني . كما تناول نفس هذه الفترات كارل براندى ، وأوتوشيل Scheel ، ويلي اندرياس ، جورج فتر ، أدولف هوسرات Hausrath . ويعتبر هوسرات هذا خير من كتبوا عن سيرة مارتن لوتر وحياته . أما كتاب مورتزيرتر Ritter عن الحركة المضادة للإصلاح الديني وحرب الثلاثين سنة فيعتبر عملاً نموذجياً عن تلك الأحداث . وثمة عمل رائع يشبه سابقه هو ما قام به برنارد اروماند سدورفر Bernhard Erdmannsdorffer وتناول فيه الفترة ما بين ١٦٤٨ - ١٧٤٠ م .

أما الأعمال التي قام بها كل من هانز بروتز ، رينولد كوسر Reinhold Koser ، أوتو هينتز عن تاريخ بروسيا ، فإنها تبين مدى التقدم الذي طرأ على البحث التاريخي والأهمية التي صارت للأسلوب العلمي منذ درويسن . وعن حياة فردريك الأكبر أخرج كوسر أحسن التراجم لهذه الشخصية العظيمة . كذلك نجح كوسر Koser رغم حبه لفردريك في أن يزيل الهالة التي أضفاها عليه كل من كارليل ودرويسن . أما أيوجين جوجليا فقد كتبت عن ماريا تيريزا ، في حين تناول كارل فون هيجل الفترة منذ فردريك حتى نابليون بالبحث التاريخي .

أما أعظم الدراسات التاريخية العامة عن ألمانيا في القرن التاسع عشر فهي الفترة التي نهض بها البرت وهل Albert Wehl . أما ويلهلم اونكن ، ماكس ليمان ، فردريك مينك Meinecke .

(١) في بقية هذا الفصل لن نفيض في ذكر تواريخ الكتب أو المؤلفين اقتصادا في المسافة ومن يريد الإفاضة يمكنه الرجوع إلى الكتاب المسمى باسم (A Guide to Historical Literature) ألفه G. M. Putter و W. H. Allison وآخرين (ماكيلان ١٩٣١) . وقد صدرت طبعة جديدة على يد G. F. Howe صدرت سنة ١٩٦١ (المؤلف) .

هانز دلبروك Hans Delbrück، جرهارد ريتير فقد تناولوا حرب التحرير وحركات الإصلاح التي شهدتها كل من مفاطع شتين وهاردنبرج. ويعتبر ريتير واحدا من أوسع المؤرخين الألمان اطلاعا وأغزرهم معرفة. أما الفترة التالية من تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٨٧٠ فقد عالجها كل من ايرخ ماركس Erich Marcks ارنولد ميير Meyer، هرمان اونكن Oncken، وكتب فيت فالتين أحسن البحوث عن ثورة ١٨٤٨. وهناك كتابات عديدة عن بسمارك والصراع من أجل الوحدة الألمانية وتكوين الإمبراطورية، أهمها تلك التي كتبها وليم مورنبرخس Maurenbrecher، ويليم أونكن ايرخ براندنبرج، جيوهان زيكورس، ماكس لينز، اوتوبيكر، ايرخ ماركس Erich Marcks ايرخ ايك Erich Eyck.

أما أعظم التراجم عن بسمارك فهي التي وضعها ماركس وايك ارنولد مايير Meyer. ويعتبر ما كتبه ايك نقدا جارحا من وجهة نظر رجال المذهب التحريري. أما عن الفترة من سنة ١٨٧٠ - ١٩١٤ وقد عالجها كل من جرهارد ريتير Gerhard Ritter، هرمان اونكن، براندنبرج، زيكورس Ziekursch، جوتلوب إجلهااف Gottlob Egelhaaf. أما ايرخ ايك فقد كتب أحسن المؤلفات التاريخية عن جمهورية فيمار Weimar. كذلك أمدا هانس جريم وأرفس فون سالومون بأحسن الدراسات والأحكام الأولية عن هتلر والاستراتيجية القومية. أما فردريك مينك Meinecke فيعتبره كثيرون أقدر مؤرخ ألماني ظهر منذ فون رانكه وينظرون إليه بوصفه صاحب أحسن الدراسات في مجال المذاهب السياسية. وتعتبر أبحاث فريتز هارونج أحسن الأبحاث في تاريخ الدستور الألماني. ويقال نفس الشيء عن أبحاث فرنر Sombartt سومبارتت عن الرأسمالية إذ انها عمل مرموق في مجال التاريخ الاقتصادي. وفاق عمل هانز دلبروك كل عمل آخر في التاريخ الحربي لألمانيا. وأما تاريخ السياسة الألمانية الخارجية منذ عصر بسمارك حتى سنة ١٩١٤ فقد تناولها تناولاً شاملاً كل من اوتوبيكر، فيت فالتين Veit Valentin، ايرخ براندنبرج. وأما عن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى فان أحسن الأبحاث في هذا المجال هي التي كتبها الفرد فون فجرر Von Wegerer. أما فردريك شيم فهو أعظم ناشر للدراسات التاريخية في ألمانيا الحديثة.

وكان أن دلت المنهج العلمي التاريخي إلى النمسا على يد سيكل، فيكر Fiecker، ارنيت. أما أقدر المؤرخين النمساويين المعاصرين فهو هنريخ ريتير فون سربك Srbik الذي وضع مرجعاً لحياة مترنخ فجاء عمله شيئاً خالداً، كما عالج السنوات المرحجة التي مهدت للحرب النمساوية

البروسية سنة ١٨٦٦ . أما الفونس دويش Dopsch فهو واحد من أقدر المؤرخين الذين عالجوا النظم في أيامنا هذه ، وأضاف إضافات غاية في الابتكار والأهمية إلى التاريخ الاجتماعى لأوروبا الغربية منذ الإمبراطورية الرومانية حتى عصر شارلمان . أما اوزوالد ريدلخ Oswald Redilch فكان أقدر المؤرخين النمساويين الذين كتبوا عن النمسا في العصور الوسطى .

ثم إن المدرسة الألمانية كان لها دورها الرائد في تزويدنا بالمعرفة عن العالم القديم . وقاد غمار ذلك ما كسلان دنكر Dunker اذ تزعم الدراسة العلمية لآثار الشرق القديم ، في حين كان كارل ليبسيوس Lepsius مؤسس علم الآثار المصرية القديمة . أما أدولف ارمان فقد كتب أحسن الأبحاث عن التاريخ الاجتماعى في مصر في حين تخصص هوجو فنكلر Winckler في دراسة بلاد ما بين النهرين . على أن اعظم العلماء المتخصصين في الآثار الشرقية كان ادوارد ماير صاحب الأبحاث الفذة عن التاريخ القديم منذ العصر الحجري حتى ظهور المسيحية . أما اوغسطس بوخ Boeckh فقد وضع أسس الدراسة العلمية للآثار الإغريقية المنقوشة . وكان أتوغريد مولر - Miil- ler أول من حاول دراسة الأساطير الإغريقية دراسة علمية وذلك في كتابه عن التاريخ الإغريقى والرومانى . وثمة أبحاث قيمة عن تاريخ اليونان كتبها أرنست كورتىوس ، إدولف هولم ، جورج بوسولت Busolt ، كارل جولبوس بيلوخ Beloch ، نيدكتوس نيس Benedictus Niese ، اولرخ وليام اوتز - مولندروف Ulrich Wiliam owitz - Moellendorf ، وقد كتب ادوارد زيلر عن الفلسفة الإغريقية في حين كتب جومبرز Gomperz كتابا فذا لا يذانيه كتاب آخر عن تاريخ الفكر الإغريقى . كذلك كتب ويلهم كريست Christ بحته الشامل المتقن عن الأدب الإغريقى .

كذلك كتب فون اناماسترنج Von Inama Sternegg بحثا يستحق التنويه عن التاريخ الاقتصادى عن ألمانيا في العصور الوسطى . وكتب أوجست فورنير Fournier أحسن التراجم عن نابليون ، في حين كتب هنريخ فريدزنج بحثا مهما عن الفترة منذ سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٦٦ كما كتب بحا هاما عن العلاقات بين إمبراطورية النمسا والمجر مع البلقان . أما عن إمبراطورية النمسا والمجر منذ ١٨٤٨ - ١٨٦٧ فقد تناولها بالبحث يوسف ريدلخ . وعالج الفرد بريبرام Pribram لودفيج بينز Ludvig Bittner ، هانز أوبزبرجر Hans uebersberger التطورات السياسية السابقة على حرب سنة ١٩١٤ . وكتب الفونس هوبر ، وهو جوهانش Hantsch أعظم الأعمال التاريخية عن النمسا . أما هانز فون زويدنك شوندهرست - Hans von Zwiedeneck Sudenhorst فكتب بحثا من أعظم الأبحاث عن ألمانيا في القرن التاسع عشر .

أما أحسن الأبحاث التي تعبر عن المدرسة الألمانية بمنهجها التقليدي ، فهو العمل المشترك الذي أشرف عليه ويلهلم اونكن ، وكذلك الكتاب الذي أشرف عليه هانز فون زويدنك سوندنهرست Sundenhorst . ونمة كتاب ينم عن غزارة علم ومعرفة والتزام بالمنهج العلمي التاريخي ، هو الكتاب الذي كتبه ارنست برينهم وأتمه كل من جويستان ولف ، ويلهلم بور Bauer .

وإلى جانب ما كان للمدرسة الناقدة الجديدة من نشاط في دراسة التاريخ السياسي لألمانيا ، كان لها مجالها في دراسة التاريخ الكنسي بعد أن تدفقت الأبحاث في هذه الناحية منذ ظهور كتاب «مثنويات ماجد برج» . وكان أن اهتم بالبحث في هذا التاريخ الكنسي كل من يوحنا موشيم Mosheim (١٦٩٤ - ١٧٥٥) وأوغسط نيندر August Neander (١٧٨٩ - ١٨٥٠) هذا فضلا عن الأبحاث القيمة في تاريخ الكنيسة التي كتبها كل من اميل شورر schurer ولس فرنل wern-le ، ك . م . فون ويز شاكر K. M. Vn Weizsaker ، ادوارد ميكر Edward Meyer وارنست فون دوبشتر Ernest Von Dobschitz ، هانز فون شوبرت schubert وهؤلاء جميعا كتبوا عن أصول المسيحية . أما كارل هاس Hase وديلهلم مولر فقد كتبوا عن التاريخ العام للكنيسة المسيحية . هذا كله بالإضافة إلى الأبحاث التي تناولت البابوية مثل أبحاث لودينج فون باسنور ، أريخ كاسبر ، يوحنا هالر ، فردريك نيوبولد ، د . ف . سترأوس D.F.Strauss ، أما عن المجامع الكنسية فقد كتب عنها كارل فون هيفل Carl Von Hefeale ، جوزيف هر جيزوتر Joseph Hergenrother ، هوبرت جدين Hubert Jedin . هذا في حين كتب بولس هينسيوس Paul Hinschius ، اميلوس ريسنر ، رودولف سوهم Rudulf Sohm عن القانون الكنسي . أما عن لوثر وعصره فهناك مؤلفات جوليوس كوستنبلن Julius Kostlin ، وكارل هول Karl Holl . وقد كتب البرت هوك Hauck عن الكنيسة الألمانية في حين تناول أدولف هارناك المعتقدات والمذاهب ، وكتب فراز كراوس Kraus في الآثار والفنون المسيحية .

أما الدراسة العلمية للتاريخ الروماني فكان أول من بدأها تيودور مومسن الذي يعتبر خير من قدم دراسات مبكرة في هذا المجال . وأمدنا العلماء منذ أيامه بمزيد من المعرفة عن التاريخ الروماني ومن هؤلاء العلماء ويلهلم ايهن Ihne ، هرمان ديزو Desau ، هرمان شيلر ، فيكتور جاردتوزن Gard-thausen ، كارل نيتشه ، وارثو سبك Seek . اما بولس كروجر Kreuger فكان في مقدمة الباحثين في القانون الروماني في حين كتب لودفيج فريدلاندر في الحياة والعادات الرومانية . وكان

جورج ويسو من أوائل الدارسين للديانة الرومانية بينما تناول ويلهم توفل Teuffel تاريخ الأدب الروماني . أما أدوارد ماير فيأتي على رأس قائمة العلماء الذين اهتموا بالتاريخ الروماني بل إنه يفوق مومسن نفسه . وقد عاش ماير بين سنتي ١٨٥٥ - ١٩٣٠ واشتهر ببحثه عن تاريخ العالم القديم ، إذ اعتمد في كتابته على المصادر الأصلية وبذل فيه جهداً ذهنياً يتناسب مع العمل الذي أقدم عليه . وربما كان ماير أعظم الأساتذة الذين برزوا في ميدان الكتابة التاريخية أهمية حتى عصرنا هذا .

الكتابة التاريخية الناقدة في فرنسا

ندين المدرسة التاريخية الناقدة في فرنسا في تطورها إلى حد ما إلى تأثير المدرسة الألمانية عليها ، وخاصة أن رواد المؤرخين الفرنسيين مثل جابريل مونود Gabriel Monod تعلموا على أيدي أساتذة مثل ويتز . على أنه يمكن القول بصفة عامة أن تقدم المدرسة التاريخية في فرنسا يرجع في أساسه إلى الظروف المحلية في فرنسا ذاتها . وفي معرض المقارنة بين المؤرخين الألمان والفرنسيين يمكن مقارنة كلود فوريل بنبيه . كان فوريل Fauriel مصدر الإلهام لجينرو ورفاقه . وإذا كان جينرو لا يقارن بفون رانكه في غزارة بحثه أو ضخامة إنتاجه ، فإنه يفوق في قدرته على الربط بين الأحداث وتحليلها . وكان لجينرو في نفس الوقت القدرة والكفاءة على النشر . ويقارن دوره في المدرسة التاريخية في فرنسا بدور فون رانكه في ألمانيا ، إذ بعث جينرو الحياة في المدرسة الفرنسية ، وإن أعوزته القدرة التي توافرت لفون رانكه في مجال الإشراف لمدة طويلة على حلقات البحث .

أما فرانسوا مينييه Francois Mignet فيشبه المؤرخ الألماني وتيز من حيث أنه قام بأبحاث عن أوروبا في القرن السادس عشر وعن الثورة الفرنسية . وكانت أعمال فرانسوا هذه هي البداية للكتابة التاريخية الفرنسية الحديثة لا بسبب قدرته الفائقة على النقد فحسب بل بسبب قدرته غير العادية في تحليل القضايا وحسن عرضها بصورة واضحة مفهومة . هذا فضلاً عن أن فرانسوا مينييه كان أحد العمالقة الذين دونوا الوثائق ونشروها . وجاء من بعده فوستيل دي كولانج الذي برز بالنسبة لإثارة الاهتمام بدراسة تاريخ العصور الوسطى في فرنسا دراسة علمية مما جعل دوره في هذا الصدد مشابهاً لدور ويتز في ألمانيا . وبرغم ما أثاره فوستيل من استياء بسبب إنكاره للثيوتون من دور رئيسي في وضع أسس النظم البروفنسية ، فإنه كان علامة بكل ما تحويه الكلمة من معنى وله شغف لا يكل باستخدام المراجع . على أن بلوغ المنهج التاريخي العلمي ذروته في فرنسا

لا يرجع إلى جهود أفراد قلائل مثلما كان الحال في ألمانيا عندما كان الفضل في ذلك لفون رانكه وويتز، إنما مرجعه في فرنسا لجهود عديد من الأساتذة والعلماء الذين درسوا في أعظم المعاهد العالية المتخصصة في تدريب المؤرخين على استخدام المناهج السليمة في النقد وهى مدرسة الوثائق التى بدأت عملها سنة ١٨٢٩. ويقرن بإنتاج هذا العهد من حيث الكيف اسم كل من ليوبولد ديلزل Leopold Delisle وبنيامين جيرارد، جابريل مونود، اخيل لوشير Achille Luchaire، وأوغسط بولينير، آرتر جيرى، بول فيوليه Paul Viollet. وقد وجدت فرنسا في شخص الفونس اولارد عالما كبيرا كان لمعرفته الواسعة والتي لم يلفها أحد عن فترة قصيرة من فترات التاريخ القومى في فرنسا، مما جعله جديرا بأن يقارن بأعظم المؤرخين العالميين ممن هم على مستوى س. ر. جاردنر في انجلترا. ذلك أنه نقى تاريخ الثورة الفرنسية من كل الخرافات والأساطير التى علقت به.

أما أحسن عمل يمكن اعتباره نموذجا للمدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة فهو الكتابان اللذان اشترك في تحريرهما عدد من العلماء وأشرف على نشرهما أرنست لافيس، وأحدهما (التاريخ العام) والثانى وهو (تاريخ فرنسا). وسوف نكتفى هنا بحصر موجز للرواد الأوائل من علماء التاريخ الفرنسيين في عصرنا الحاضر، فنشير إلى هنرى هوبرت، الذى عالج تاريخ الكاتين القدماء، وكاميل جولييان الذى اقتفى أثر أستاذه فوستيل دى كولانج فأرخ لغالبا في العصور القديمة أما فوستيل دى كولانج، أندريه برثلو Andre Berthelot فرديناند لوت Lot، فقد درسوا الإمبراطورية الرومانية في أواخر عصرها وفجر التاريخ الأوربي في العصور الوسطى. أما جوستاف بلوخ Bloch، لوت Lot فلها أبحاثها الممتعة عن فترة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة إلى حضارة العصور الوسطى. وأما تاريخ العصور الوسطى في نهضة الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد جوستينان فضلا عن دراسة التاريخ البيزنطى ذاته فكانت موضع اهتمام شارل ديل Diehl وبجال بحثه. هذا في حين تخصص هنرى لامنس Lemmens، واميل جوتييه Gautier، هنرى سلادين Saladin، وادوارد دريو Driault، وكلمنت هوارت، وآخرون في التاريخ الإسلامى، واهتم بدراسة عصر الإنقطاع وتحليل خصائصه كل من شارل سينيو Charles Seignobos، اخيل لوشير، جاك فلاش، بول جيلهرموز Paul Guilhiermoz، شارل بيتى دوتيه (Charle Petit-Dutailles) أما لوشير فكان أكبر حجة في تاريخ فرنسا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر. هذا في حين أنتج رينيه جروسيه ما يمكن

اعتباره أحسن ما كتب عن الحروب الصليبية . وتناول شارل لانجلو Charles Langlois سقوط أسرة كاييه وله بحث ممتاز عن عصر قلب الثالث وقلب الوسيم . أما عن الحياة في المدن في العصور الوسطى فكانت مدار بحث أرثر جيرى الذى له بحث ممتاز أيضا عن العلاقات السياسية . أما ايوجيه فيوليه لى دوك Eugens Viollet le Duc فكان حجة في الفن الفرنسى والمعمارى في العصور الوسطى . ويعتبر شارل بيمونت Charles Bémont رائدا للبحانة الفرنسيين فيما يختص بتاريخ إنجلترا في العصور الوسطى . أما شارل بايه Charles Bayet فله مكانته الرفيعة بفضل دراساته عن الإمبراطورية الجرمانيه في العصور الوسطى ، كما كتب كتابا ممتازا عن الإمبراطورية البيزنطية . أما الفرد كوفيل فهو أستاذ الباحثين عن فترة حرب المائة سنة . أما كريستيان بفسر فكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ العصور الوسطى وتاريخ نانسى والسياسة الداخلية لهنرى الرابع .

وكان أن حظى تاريخ القرن الخامس عشر بعناية كل من بيتى دونيه Petit Dutailly ، ويطرس شامبيون ، في حين اهتم هنرى لامونير ، بطرس امبار ، بتاريخ مدينة تور بفرنسا . أما لوسيان رومبير ، حنا ماريبول ، هنرى هاوسر فقد تخصصوا في دراسة تاريخ فرنسا في القرن السادس عشر . ويعتبر بطرس امبار Pierre Imbart من مدينة تور بفرنسا حجة في حركه الإصلاح الدينى البروتستانتى . وتناول كل من جابريل هانونو وجورج دافنيل تاريخ فرنسا في القرن السابع عشر بالبحث والتحليل ، في حين يعتبر بطرس كلمنت أحسن الباحثين عن كولبير ، وينطبق نفس القول على يوسف ديديه Joseph Dedieu بالنسبة لتاريخ الهجوت بينما كان أرنست لامنيس وارثر دى بوسليزل Arthur de Boislisle رواد البحث في عصر لويس الرابع عشر . أما لامنيس فهو صاحب المكانة الأولى بين المؤرخين الفرنسيين بأبحاثه عن بروسيا وأشرف على إنتاج أحسن الأعمال التاريخية التى تعاون في كتابتها مجموعة من المؤرخين . كذلك عرف عن هنرى فاست Henri Vast عمق أبحاثه عن تاريخ فرنسا السياسى في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر عن الفترة النابوليونية . أما مؤلفات ايمه كريست Aime Cherest ، وكاميل بلوخ ، هنرى كاريه فقد أوضحت الكثير عن مفهومنا عن القرن الثامن عشر . ويضاف إلى هؤلاء فيلب ساجناك Philippe Sagnac من ناحية أهمية أبحاثه عن التاريخ السياسى لفرنسا وأوربا . وفى نفس الوقت فإن ألبرت سوريل Sorel كان أستاذاً لا يبارى في موضوع العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر . أما الأبحاث الحديثة لهنرى سيبه See فقد أضافت مزيدا من المعلومات على

الدراسة الخاصة بتاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافي في القرن الثامن عشر .

وكان أن شهدت الدراسة الخاصة بالثورة الفرنسية تطوراً هاماً نتيجة للأبحاث التي قام بها كل من أولارد ، وساناك . أما البرت ماتييه Mathiez فقد طرح جانباً النظرة البورجوازية لاولارد ومجد روبسيير وطبقة العامة . والحق أن أبحاثه أضافت الشيء الكثير إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه الفترة ، وشابهه في ذلك جورج ليفير George Lefebvre بأبحاثه عن الثورة . إذ نظر الأخير إلى الثورة نظرة وسطاً بين اولارد وماتييه ، مما جعله يحظى اليوم بمكانة أكثر احتراماً بين الباحثين الفرنسيين . أما أحسن بحث نافذ مخفص عن الثورة الفرنسية من وجهه نظر محافظة فهو ذلك الذي قدمه لويس ماديلن Louis Madelin الذي أصبح المرجع الأول لكل دراسة عن نابليون ، وهو أول من تناول دراسة الفترة النابولونية على أسس علمية دقيقة ، وهو الأمر الذي كان قد بدأه إدوارد دريو Driault . أما أميل برجو ، وجورج ويل Weill ، وجورج لارونز ، فقد تناولوا بالبحث الفترة الممتدة من نابليون حتى قيام الجمهورية الثالثة . وكان أحسن الباحثين في تاريخ هذه الفترة هم جابريل هانتو ، بطرس رنوفو Pierre Renouvin ، دانيال هالفى Halvey ، جورج بونيفو أما هنري أرون فقد أخرج بحثاً بارزاً فذا وميزنا عن حكومتها فيشي .

ويعتبر حنا ماريجول Mariejol رائد الباحثين الفرنسيين عن أسبابنا الحديثة مثلما يعبر جورج بلوندول Blondel نفس الشيء بالنسبة لأبحاثه عن ألمانيا الحديثة والنمسا في سنة ١٩٠٤ . أما أرنست دينس Denis ، لويس ليجير Legere فقد عالج كل منها علاجاً عديراً تاريخياً إمبراطورية النمسا والمجر فضلاً عن تاريخ بوهيميا وبولندا . هذا في حين كان إيلي هالفى بمثابة المرجع الأول في كل أنحاء العالم بأبحاثهما عن تاريخ إنجلترا في القرن التاسع عشر . ولاننسى العمل المرموق الذي قام به الفرد رامبو عن الإمبراطورية البيزنطية والسلالات في أوروبا ، فضلاً عن الحضارة الفرنسية والتوسع الاستعماري . أما شارل سينوبوس Charles Seignobos فقد ألف بحثاً ممتازاً عن الحضارة وكذلك يعتبر هنري سيبه See صاحب أحسن الأبحاث عن الحياة الاقتصادية في فرنسا .

وامتاز المؤرخون الفرنسيون كذلك بأبحاثهم الهامة عن الكنيسة المسيحية . فالفردلوسي Loisy هو رائد النقد في أدب كتاب العهد الجديد ، وتعتبر أبحاثه حجة للعقائد الوثنية الغامضة التي أثرت على المسيحية . كذلك كتب شارل جوجنبر Guignebert في أسلوب رفيع - شأنه شأن رينان - بحثاً اتسم بغزارته عن المسيح وتطور المسيحية . أما لويس دوشزن فهو صاحب الأبحاث

الزمنية عن المسيحية في عصرها الأول . كذلك كتب اندريه لاجار Lagarde - واسمه الحقيقي يوسف تورنيل Turnel بحثا جديرا بالتنويه والإعجاب عن المسيحية في العصور الوسطى ، في حين كتب فيليكس روكان Felix Rocquain بحثا قويا عن تاريخ البابوية في العصور الوسطى وعن الحروب الدينية في فرنسا . أما بطرس دي لاجورى فهو صاحب البحث للتاريخى الدينى القيم عن الثورة الفرنسية بينما تناول ديبيدور ، اميل شينو Chenon ، تاريخ الكنيسة والدولة في القرن التاسع عشر . أما أعظم الأعمال ذات الجهد المشترك عن تاريخ الكنيسة فهي تلك التى اشترك فيها أوغسطين فليس Augustine Fliche ، جاستون مارتن ، هذا كله بالإضافة إلى المعجم الواسع عن اللاهوت الكاثوليكي .

ثم إن المؤرخين الفرنسيين أظهروا اهتماما خاصا بحركة التوسع الاستعماري الفرنسى فهناك عدا رامبو من تخصصوا في البحث في هذا الموضوع . ومن أعظم الباحثين في هذا المجال اميل ليفاسير ، ايوجين فالكس ، ادوارد بيتى ، وارثر جيرو . أما شارل دي لارونسبر فهو صاحب أعظم الأبحاث عن تاريخ البحرية الفرنسية . كذلك كان للفرنسيين أبحاثهم الهامة عن التاريخ القديم وإعادة صياغته . ففي أوائل القرن التاسع عشر نجح جان شامبليون في فك رموز اللغة المصرية القديمة ، وبعد ذلك بنصف قرن مضى أوغسط ماريت بالدراسة المصرية من حيث توفى عندها لزيبوس . والحق أن ماريت يعتبر أشهر الباحثين في الدراسات المصرية القديمة قبل ماسبيرو . أما سير جاستون ماسبيرو فهو أهم المؤرخين المتخصصين في التاريخ القديم قبل أن ينشر ادوارد ماير أبحاثه الرمزية في هذا المجال . وتعتبر أبحاث ايوجين كافيناك Eugene Cavignac أحسن الأبحاث في التاريخ القديم التى اقترنت من أبحاث ماير في غزارتها ووجهة نظرها . هذا في حين كتب لويس ديلاپورت كتابا طيبا عن حضارة العراق القديمة . وكشف جاك دي مورجان رموز اللغة الحامورابية . واشترك جورج بيرد وشارل شبيير Chipiez في عمل بحث فذ عن الفن القديم . أما بولس جيرو Giraud تلميذ فوستل دي كولانج المقرب فقد تخصص في البحث في التاريخ الإغريقى والرومانى . كذلك قام جوستاف جلوتز بأبحاث تدعو إلى الإعجاب عن حضارة كريت وعن المدن الإغريقية القديمة والحياة الاقتصادية عند الإغريق . أما أوغسط بوشيه ليكلريك Auguste Bouche Leclercq فهو أستاذ الباحثين في العصر الهليني . وكذلك كتب كافيناك كتابات مستفيضة عن التاريخ الاقتصادى للإغريق . ويحتل كل من الفرد وموريس كروزييه مرتبة سامية بين الباحثين في تاريخ فكر الإغريق وآدابهم . أما فكتور دورى Duruy فله

وبالنسبة لتاريخ بريطانيا في العصر الروماني فقد بحثه بعناية فائقة كل من ت. ريس هولمز Rice Holmes T. ، ر.ج. كولنجود R. G. Collingwood ، ج. ل. ميرز J. L. Myres ، فرنسيس هانرفيلد .

أما العصر الأنجلوسكسوني فقد درسه دراسة علمية كل من شارل أومان ، توماس هودجكن ، شارل بلمر Charles Plummer . هذا في حين كان ج. ه. راوند J. H. Round ، ه. و. ك. دانيز ، ف. م. بويك F. M. Powick ، ف. م. ستينتون F. M. Stenton من رواد البحث في تاريخ إنجلترا النورماندية وقد قام راوند بانتقاد فرمان نقداً لاذعاً ولكن ف. م. ستينتون F. M. Stenton صحح بعض الاستنتاجات التي توصل إليها راوند. وعن أسره البلانتاجت هناك أبحاث هامة كتبها ل. ف. سالزمان ، ك. و. ك. أومان ، ج. م. تريفرليان ، ت. ف. توت ، ف. م. بويك ، إليس. س. جرين. أما وليم. س. ماك كيكني William S. Mc Kecknie ، فقد نبذ جانباً في بحثه المتقن كل الخرافات التي أحاطت بالعهد الأعظم. كذلك أنتج جيمس ويلي James Wylie عملاً خالداً فذاً عن أسره لانكستر ويورك أما أعظم المؤرخين عن إنجلترا في العصور الوسطى فهو فردريك وليم ميتلاند وله في إنجلترا نفس المكانة التي كانت لويتز في ألمانيا وفوستيل في فرنسا. وخير ما أنتجه ميتلاند هو كتابه عن القانون الإنجليزي في العصور الوسطى. ولا يوجد لهذا المؤرخ من يدانيه في أبحاثه عن العصور الوسطى سوى المؤرخ الإنجليزي الجنسية الروسي الأصل ، بولي فينوجرادوف Paul Vinogradov . أما إدوارد جنكس Jenks فأعماله المبتكرة عن القانون في العصور الوسطى والنظم السياسية تعتبر في القمة. وكذلك المؤرخ الإنجليزي حنا ب. بيوري الذي تخصص في الإمبراطورية البيزنطية إذ يعتبر من أعظم مؤرخي العالم من ناحية إلمامه بالعديد من الموضوعات فضلاً عن كونه من أقدر المؤرخين على وجه الإطلاق. وعنى شارل أومان ، نورمان بينز Baynes ، بدراسة نواحي التاريخ البيزنطي. أما ستانلي لين بول ، توماس و. أرنولد ، د. س. مارجليوث ، بول دي لاسي اولري ، رينولد نيكلسون فهم أصحاب الأبحاث الرائدة في الحضارة الإسلامية. هذا في حين تخصص أرنست باركر في البحث في الحروب الصليبية. ويعتبر سير ريموند بيزلي Beazley من أكثر المتخصصين في جغرافية العصور الوسطى فضلاً عن العلاقات مع الشرق الأقصى. أما جيمس بريس James Bryce ، ه. أ. ل. فيشر فدارت أبحاثها حول الإمبراطورية الجرمانية في العصور الوسطى. ومن أعظم المراجع عن حكم أسرق لانكستر ويورك ما كتبه جيمس جاردنر .

وبالنسبة للمراجع الرئيسية عن أسرة تيودور فأهمها ما كتبه جاردنر A. D. Innes ، د. د. انيس ، ج. د. دبرثرو ، ماندل كريتون . ويعتبر بولارد وفيشر من أعظم المؤرخين الإنجليز المحدثين . أما الأعمال الرفيعة عن أسرة استيوارت فهي تلك التي كتبها جاردنر ، شارل فيرث . كذلك قام بدراسة نفس هذه الفترة حديثا كل من تريفلان ، ف. مونياني F. C. Montagne ، ريتشارد لودج ، ج. ن. كلارك ، كيث فيلنج Feiling . ويعتبر كتاب تريفلان «انجلترا تحت حكم أسرة استيوارت» أعظم ما كتب عن ذلك العصر منذ أخرج ماكلوي كتابه تاريخ إنجلترا . أما س. ج. روبرتسون ، أ. س. ليدام Leadam ، ولیم هنت Hunt ، لويس نامير Namier فقد كتبوا عن أسرة هانوفر . وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى أعمال التراجم التي كتبها جورج اوتو تريفلان والتي كتبها مورلي عن بيرك Burke والتي كتبها روز بيوري ووليمز عن بت الأكبر والتي كتبها سنانوب وهولاندرز عن بت الأصغر . وكتب عن بريطانيا في القرن التاسع عشر كل من ج. لو Low ، ل. ل. ساندروز ، ح. م. تريفلان ، ج. أ. س. ماربوت ، وسبنسر والبول ، جستين ماك آرني ، جلبر سلاتر . وعن هذا العصر أيضا لدينا تراجم فذة مثل تلك التي كتبها مورلي عن جلادستون والتي كتبها موني بيتي وباكل Buckle عن دزرائيلي . أما شارل ماسران ، ك. ل. موات فكتبها عن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في بريطانيا في حين تناول أ. ج. تايلور أصول وأسباب الحرب العالمية الثانية بالتحليل . أما تاريخ المستعمرات البريطانية وتطور الإمبراطورية وندرج السياسة الاستعمارية لهذه الإمبراطورية فقد عالجه كل من جون أ. دويل ، ه. أ. اجرتون Egerton ، ارنب . كيث ، ريتشارد جب ، أ. د. انيس Innes ، ح. أ. وليامسون ، هاري ه. جونستون . وأهم مرجع عن موضوع الاستعمار في أفريقيا هو ما كتبه هاري ه. جونستون . أما تاريخ الاستعمار البريطاني والإمبريالية فقد عولج في إسهاب في سلسلة من الكتب الممتازة تحت عنوان (الجغرافيا التاريخية للمستعمرات البريطانية) وأشرف على تحريرها شارل ب. لوكاس . هذا فضلا عن موسوعة كامبردج التاريخية عن الإمبراطورية التي أشرف على نشرها ج. هولاند روي ورفاهه . وهناك موسوعة أكسفورد عن الإمبراطورية البريطانية لهربرتسون وهوارث وآخرين . أما جون . و. فورساكو فهو أهم المؤرخين عن الجيش البريطاني ، وكذلك ولیم ل. كلوس عن البحرية البريطانية .

أما كتابات سانلي لينز Stanley Leathes وأ. ج. جرانت ، ج. س. ك. بريدج فهي

تمثل المصادر الرئيسية الإنجليزية عن تاريخ فرنسا السياسي . كذلك كتب ف . ك . مونتاج وج . س . م . ماكدونالد مؤلفات عن تاريخ فرنسا في القرن الثامن عشر . كذلك شرع ه . مورس ستيفنس H. Morse Stephens في عمل بحث عن الثورة الفرنسية . وإن خير من عالج هذا الموضوع من المؤرخين الإنجليز ه . ج . م . طومبسون ويعتبر ج . ه . روز Rose المرجع الإنجليزي الذي لا ينافسه مرجع آخر عن الفترة النابولينية .

كذلك تناول المؤرخون الإنجليز بحث السياسات الأوروبية والعلاقات الدولية في القرن الماضي وقام بدراسات في هذا الموضوع كل من ج . ب . جوخ ، و . ا . فيليس ، س . ب . موات ، ادوارد هرزلت Herslet . وبالإضافة إلى ذلك ينبغي التنويه بالعمل المتقن الذي نهض به ادولفس و . وارد عن التاريخ السياسي لألمانيا الحديثة ، وهو عمل ينم عن معرفة واسعة غزيرة . ومثله الدراسات المفصلة التي أجراها وليام دوسن Dawson عن الإمبراطورية الألمانية في العصر الحديث وفي الوقت نفسه لا يفوتنا أن ننوه بكتابات ج . ب . جوخ عن ألمانيا المعاصرة ، وبالعالم الذي ينم عن أصالة علمية في البحث الذي قام به ر . ن . بين R. N. Bain ، ر . د . سيتون واطسون ، د . م . والاس ، ف . ه . سكرين ، و . ميلر عن الدول الاسكندنافية والسلافية وأوروبا الشرقية . أما برنارد باريس Pares ، ا . ه . كار فقد عالج تاريخ روسيا في حين كتب ب . كنج ، وج . م . تريفليان عن الوحدة الإيطالية ، وكتب م . هيوم عن اسبانيا .

ولم يغفل المؤرخون الإنجليز أمر تاريخ الكنيسة وأعظم ما تم في هذا المجال وأقواه أثره هو الكتاب الذي كتبه هنري ميلمان في وقت مبكر واسمه تاريخ المسيحية اللاتينية (الغربية) . وهناك كتاب آخر في هذا الموضوع لا يقل عظمتة كتبه ه . م . جواتكن H. M. Gwatkin ، ف . ج . فوكس جاكسون عن الكنيسة في عصرها الأول . وهناك أيضا ه . ك . مان الذي كتب كتابا عن البابوية والشخصيات التي تولت ذلك المذهب . أما ج . ج . كولتون ، ه . ب . وركمان فقد عالج تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وحركة الإصلاح الديني . هذا في حين كتب شارل بيرد ، ت . م . ولندساي عن حركة الإصلاح الديني بصفة عامة . أما هميس جاردنر ، س . و . ديكسون فلها أبحاثها عن حركة الإصلاح الديني في إنجلترا . وعن الحركات الدينية في القرن الماضي فقد بحثها ر . و . تشرش ، ف . و . كورنيش Cornish . أما ه . كلارك فله بحثه عن المنشقين عن الكنيسة الإنجليزية وكذلك هناك عمل مشترك خالده عن تاريخ الكنيسة الإنجليزية واشترك في إخراجه ستيفنز وهانت .

وكان للعلماء الإنجليز أبحاثهم الهامة في التاريخ القديم ومن أعظم الرواد الأوائل الإنجليز في تاريخ الشرق القديم جورج رولنس الذي ما زالت أبحاثه تحتفظ بأهميتها حتى اليوم أما وليم فلندرز بيتري petrie فله مكانته الكبرى حتى أيامنا هذه بوصفه باحثاً في الآثار المصرية القديمة. هذا بالإضافة إلى العمل الفذ عن التاريخ المصري الذي أخرجه ت. اريك بيت. أما ليونارد وولي wooley ، ليونارد هال ، سيدنى سميث فهم من أعظم من بحثوا تاريخ ما بين النهرين (العراق) في العصور القديمة. هذا في حين اهتم حنا جارتناج ودافيد هوجارت بدراسة تاريخ الحسنيين أما هارى س. ه. هال فقد تناول بالبحث والتحليل الجوانب السياسية في تاريخ الشرق الأدنى القديم. أما جورج جروت Grote فكتب أول بحث متقن عن تاريخ اليونان. ويعتبر سير آرثر ايفانز صاحب اليد الطولى في تصحيح معلوماتنا عن حضارة كريت القديمة. كذلك أخرج ج. ل. مايرز كتاباً فذاً عن اليونان القديمة ، إذ تخصص في دراسة الأجناس التي تكونت منها الإمبراطورية الإغريقية القديمة ، وندين لالفرد زيمرن Alfred Zimmern ، ج. ب. ماهاني ، جلوبوت مواري بما أضافوه من معارف عن تاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافي عن اليونان. أما المؤرخ ج. ب. بيورى فله كتابه الرائع عن تاريخ الإغريق. كذلك عالج إريك بت Eric Peet أحوال إيطاليا في عصر ما قبل التاريخ. وبحث ا. ه. ج. جريدنج كل جوانب التاريخ الرومانى. وأخرج وليم هيتلاند Heitland نموذجاً جيداً عن التاريخ السياسى للجمهورية الرومانية. وكذلك قام وليم أرنولد بدراسة نظم الحكم في الإمبراطورية الرومانية. أما ت. ريس هولس فيعتبر مرجعاً رئيسياً عن غزوات قيصر لبلاد الغال. أما و. وارد فولر W. Ward Fowler فقدّم أبحاثاً هامة عن التاريخ الرومانى الاجتماعى والدينى. وتعتبر موسوعة كامبردج الخاصة بالتاريخ القديم التى أشرف على تحريرها بيورى وآخرون أحسن مصدر لكل الحقائق والمعلومات الخاصة بالتاريخ القديم. أما ج. ل. مايرز فقد فاق من عداه من الباحثين في التاريخ القديم ، وهو الإنجليزى الوحيد الذى يطابق ادوارد ماير. أما أحسن كتاب تاريخى رفيع المستوى ويتصف بالعمق عن الدراسات القديمة من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر فهو الكتاب الذى يحمل اسم جون. ا. سانديز.

فإذا انتقلنا إلى أساتذة التاريخ الإنجليزى الذين بذلوا ما في وسعهم ليثوا في تلاميذهم الروح المثالية للمدرسة الناقدة التاريخية الحديثة ، فضلاً عن إثارة الاهتمام فيهم لتقصى الحقائق التاريخية ، فإننا نذكر منهم فريمان ، سيلى ، اکتون ، ستيلاند ، تاوت ، بولارد. ويعتبر هذا الآخر

أكثرهم تأثيراً وأوسعهم نفوذاً . وكما أن كتاب روبرتسون عن تاريخ اسكتلنده يمثل طفرة واسعة بالنسبة للكتاب السابق الذى أصدره جورج بوكانان Buchanan ، فإن الكتب والأبحاث التاريخية التى ألفها عن اسكتلنده كل من بطرس هيوم براون ، روبرت ماكى ، جون هيل بيرتون تعتبر طفرة بالنسبة لكتاب روبرتسون . أما خير ما كتب عن تاريخ إيرلنده فهى الكتب التى كتبها ادوارد دالتون ، فلورنس ريت Florence Wright ، آدموند كورتز ، روبرت دنلوب ، جيمس بيكت ، ماري ت . هايدن ، اليناور هل Hull .

المدرسة التاريخية الناقدة في بقية البلدان الأوروبية

حال « سلطان الرقابة » في روسيا دون تطور المدرسة التاريخية الناقدة فيها . ونذكر مثالا لذلك كيف حيل بينى ، فازليف بليازوف Vasiliev Bilasov ، وبين المضى في مشروعه الطموح لعمل ترجمة دقيقة لحياة كاترين الثانية . وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر عدد من الأساتذة المؤرخين الروس على أرفع مستوى علمى . ومن بين هؤلاء الذين تخصصوا في دراسة التاريخ العام لروسيا سرجيوس سولفييف ، وسرجيوس بلاتانوف ، فاسيليف كولشفسكى . أما سولفييف فأنتج أول دراسة تاريخية متكاملة ومنقنة عن روسيا اتبع فيها المنهج العلمى الحديث . وأما إنتاج كولشفسكى فلعله أحسن دراسة للنظم في روسيا . وعن السياسة الداخلية لروسيا الحديثة كتب الكسندر كورنييلوف دراسة تاريخية على أرقى مستوى . هذا في حين تناول م . ن . بوكروفسكى التاريخ الروسى بأسره من وجهة النظر الماركسية في عمل ينم عن تعمقه في البحث وقدرة على الخلق والتصوير والإبداع . كذلك يبدو أن بولس ميلنخوف Paul Milinkov استطاع في كتابه أن يفوق كل ما سواه في نظراته للخط العام الذى تطورت فيه السياسة الروسية التى نظر إليها من وجهة نظر متحررة . أما مكسيم تونالسكى فإن عمله يدل على نبوغ كبير إذ حلل الأسس الاجتماعية لتطور الانظمة السياسية الروسية ، هذا في حين عالج فاسيليف سرجيفيتش التطور القانونى والسياسى في روسيا . وكتب لوديك كولكزيكى Ludwik Kulezycki بحثا حدد فيه معالم ثورة سنة ١٩٠٥ وأخرج ليون تروتسكى تاريخا خالدا عن ثورة سنة ١٩١٧ .

نم إن المؤرخين الروس كانت لهم أبحاثهم الهامة التى عالجوا فيها تاريخ باقى دول أوروبا . ومتال ذلك ما كان لبحث إيفان لوشسكى من فضل في تغير معلوماتنا عن حالة الفلاح الفرنسى

قبل الثورة . وكذلك ألقى الكسندر سافن Savin الضوء على تاريخ الأرض الزراعية الإنجليزية في العصر الحديث ، بينما استطاع بولي متروفانوف Paul Mitrofanov أن يقدم أحسن الأبحاث عن عهد جوزيف الثاني إمبراطور النمسا . وقد تمكن عدد من المؤرخين الروس ممن نفوا من بلادهم من انتاج عدد من الدراسات القيمة . فحين فر بولس فبنوجرادوف من ظلم القياصرة أصبح أقدر مؤرخى العصور الوسطى في إنجلترا ، بعد موت ماتيلاند هذا فضلا عما كان لفينوجرادوف من إنتاج ممتاز في مجال التاريخ العام والأنظمة التشريعية وعن تاريخ القانون . كذلك فر ميخائيل روستوفتسف والكسندر فاسيليف Vasiliev من اضطهاد البلاشفة لهم وصارت أبحاث الأول أحد المصادر الكبرى عن التاريخ القديم وبخاصة التاريخ الاقتصادي للفترة الهيلينية وروما . في حين كتب الثاني أحسن الأبحاث في التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية . وقد ظهر في عهد البلاشفة أكبر حشد من المؤرخين الماركسيين عرفهم العالم . وهؤلاء أشرف على أبحاثهم وتولى توجيهها بوكروفسكى وخلفاؤه مثل م . ن . تيكوميروف Tikhomirov ، م . ا . الباتوف .

وحين ننقل إلى أسبانيا نجد أنها أنجبت مؤرخين علماء مثل ميندز بدال Menedez الذى تعتبر كتاباته المنشورة حجة في تاريخ القرن الحادى عشر . أما بيلاستيروزي بيرتا Bellaster- osy Beretta فألف أحسن الأبحاث عن التاريخ العام الأسباني ، بينما عفى روفائل التامراى كرفيا بالتأريخ للحضارة الأسبانية . أما ادواردو بيجول بيرز Eduardo Pujol Perez فيعتبر حجة في الأنظمة الاجتماعية ، ويقال نفس الشيء عن ادوارد هينوجوسا بالنسبة لأبحاثه عن القانون الأسباني . هذا كله بالإضافة إلى المؤرخ الاقتصادى القدير جايم بوجال .

أما إيطاليا فتدين ببعض الشيء لموراتوري Muratori ولكنها تدين أكثر لفون رانكه والمدرسة الألمانية نظرا لما ظهر في إيطاليا من أبحاث تنتمى إلى هذه المدرسة الناقدة . وقد كتب روملو كاجسى Rommelo Caggese أحسن كتاب عن تاريخ إيطاليا في العصور الوسطى . أما جوسيب دى ليفا فقد كتب بمهارة فائقة عن إيطاليا خلال حكم شارل الخامس . كذلك أخرج الفردو كافيربنى أول عمل ينم عن علم غزير عن إيطاليا خلال القرن التاسع عشر . أما فرانسسكو روفيني Ruffini فكان أستاذ الباحثين في عصر كافور . كذلك كان لعلماء التاريخ في إيطاليا أبحاثهم عن التاريخ الرومانى . فكتب جيتانو دى سانكتس خبر بحث عن تاريخ الجمهورية الرومانية ، وأعاد كورادو بارباجلو بحث موضوع مدى حجة المصادر التاريخية عن فجر تاريخ روما . أما جو جليلمو فيرورو Guglielmo Ferrero فقد أثار إعجاب علماء التاريخ

بأبحاثه عن التاريخ الروماني وتعليقاته واستنتاجاته التي انسبت بالجرأة والابتكار ، في حين اتصفت أبحاث اميلو كوستال Emilio Costal واريجو سولمي Solmi عن القانون الروماني بالمتعة وقوة التأثير .

كذلك وجدت المدرسة التاريخية الحديثة من يمثلها في سويسرا ، فأننتج كل من يرحنا ديراور ، وكارل داندليكر ، وبارثولد فان ميودن أبحاثاً عن تاريخ سويسرا العام تنم عن مفرده كبيرة . أما ادوارد هيس His فقد كتب أحسن الأبحاث عن تاريخ القانون العام السويسري . ونجد لالفرد شترن Stern أعظم ما كتب عن تاريخ أوروبا السياسي في الفترة من ١٨١٥ - ١٨٧٠ وأخرج إدوارد فيوتر بحثه الهام والمبتكر عن تاريخ سويسرا وأوروبا منذ الثورة الفرنسية فضلاً عن كتابه عن تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة .

وفي بلجيكا أنتج هرمان فان دور ليندن Herman Van der Linden ، هنري بيرن ، ما يمكن اعتباره خير ما كتب عن التاريخ العام لبلجيكا . أما بيرين Pirenne فهو صاحب الدراسات الفذة عن المدن في العصور الوسطى وعن الديمقراطية في بلجيكا ، وعن التاريخ الاقتصادي في العصور الوسطى . ونذكر أيضاً من بين المؤرخين البلجكيين إسحق جوسس Isaak Gosses ب . ج . بلوك P. J. Block ، بطرس جيل Pieter Geyl وجميعهم كتبوا مؤلفات قيمة عن تاريخ الأراضي المنخفضة . أما هرمان كولنبراندر Colenbrander فهو رائد علماء التاريخ في هولندا وأستاذ الباحثين في تاريخ هولندا في عهد الثورة الفرنسية وعصر نابليون . وكذلك روبرت فرون Fruin الذي تعتبر كتاباته من أهم المصادر عن التاريخ الدستوري في الأراضي المنخفضة . أما خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية في الدانمرك فهو يوحنا ستستروب Johannes Steenstrup آجا فريس Aagae Frus ومساعداهم .

وفي النرويج نجد خير من يمثل هذه المدرسة هالفون كوهو ، الكسندر بوج ومساعدوه . وفي السويد يبرز اسم مؤرخ الثقافة السويدية يوحنا شك Johannes schuck كما توجد أحسن الأبحاث المشتركة في تاريخ السويد التي أشرف عليها اميل هليد براند . ويوجد في بولندا مؤرخون ينتمون لهذه المدرسة فحل محل كتاب مدرسة التاريخ القومي من أمثال ليلويل مؤرخون يتبعون المنهج العلمي أمثال أوغسط سوكولوسكي August Sokoluski ، أدولف اميلندر . أما كاميل كاتناك Katnak فهو صاحب العمل التاريخي المشهود له بالدقة والصحة عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في بولندا ، وقد كتب بحثه من وجهة نظر مؤيدة للكاثوليكية .

وفي تشيكوسلوفاكيا حلت محل أعمال المدرسة التاريخية القديمة التي مثلها بلاكي أبحاث اتبعت المنهج العلمي السليم مثل تلك التي كتبها يوسف بيكار Peckar ، فاكلاف نوفوتني Vac- lav Novotny . وفي المجر كانت أعظم الأعمال أهمية في مجال الكتابة التاريخية في القرن العشرين هي ما كتبه فالدمين هومان عن التاريخ المجرى بالاشتراك مع جوليوس سزكفو Juluis Szekfu . أما أيوجين هورفات فقد أخرجت أحسن الأبحاث عن المجر وعن أصول الحرب العالمية الأولى . أما في رومانيا فإن مدرسة اكرينو بول حلت محلها أبحاث العلماء العمالة مثل نيقولا يورجا . وفي بلغاريا كان خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية م . س . درينوف ، ف . ن . زلاتارسكي . في يوجسلافيا فقد مثلها ستويان نوكوفيك ، جوفان رادونك ، سانجو ستانجوفك Stonoyie Stanoyevic .

الكتابة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية

ترجع نشأة المدرسة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حوالى وقت انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية . وتدبى المدرسة الأمريكية الحديثة في بدء وجودها إلى حد كبير إلى الأثر الذى أحدثته المدرسة الألمانية حيث ان جورج بانكرفت استمع في الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى محاضرات هيرمين في جامعة جوتنجن ، ثم درس بعد ذلك في برلين وأصبح صديقا لفون رانكه . وإذا كان بانكرفت ليس له إلا تأثير ضئيل على المناهج العلمية التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب عدم شغله لإحدى وظائف التدريس بالجامعات ، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يحول دون الاعتراف بأنه صاحب الفضل في نقل نشاط المدرسة الألمانية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

أما البداية الحقة لتطبيق المناهج الألمانية السليمة في الولايات المتحدة فترجع إلى سنة ١٨٥٧ وذلك حين بدأ ثلاثة من أساتذة الجامعات نشاطهم في ثلاث جامعات أمريكية أولهم هنرى كورى الذى خلف سباركس في جامعة هارفارد وفرانسيس ليبير الذى شغل منصب الأستاذية في كولومبيا ، واندرو هويت الذى قبل أن يشغل كرسي للتاريخ في جامعة ميتشجان . والمهم هو أن هؤلاء الأساتذة الثلاثة تلقوا تعليمهم جميعا في ألمانيا وعلى أيديهم وجد رباط بين المدرسين التاريخيين الألمانية والأمريكية . وبالإضافة إلى ذلك فإن أندرو هويت تأثر بالمدرسة الفرنسية في

شخص جيزو . ولم يقصر تدريسه على نطاقه السياسى الضيق بما يحويه من تقسيم زمنى فحسب ، وهى الطريقة التى التزم بها أشد الناس التزاما بمنهج فون رانكه والتى سارت عليها المدرسة البروسية .

ثم كان أن لقت المدرسة التاريخية الناقدة فى أمريكا دفعة فوية بفضل قيام هربرت باكستر آدمز بتدريس التاريخ فى جامعة هوبكنز فى سنة ١٨٧٦ بعد أن أنهى نشاطه مباشرة فى جامعات جوتنجن ، هيدلبرج وكلها جامعات ألمانية . ولا ينسب لآدمز فقط إدخاله طريقة حلقات البحث للدراسة والتعليم فى أمريكا على غرار حلقات البحث الألمانية ، وإنما ينسب إليه أيضا إنشاؤه وتنظيمه أول مدرسة لتدريب المؤرخين فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومع بداية القرن العشرين أصبح من النادر وجود جامعة أمريكية كبره لسبب بفهم التاريخ فيها واحد أو أكثر ممن تدربوا فى حلقات بحث هوبكنز . وكانت الأبحاث التى قدمت فى حلقات البحث تمثل أول حصيلة مدونة من نتائج المدرسة التاريخية الناقدة فى أمريكا وللنظريات التاريخية الممثلة للمدرسة الألمانية .

ويمثل الأسناذ جولد وليم برجس شخصيه لها دورها القبادى فى إدخال مناهج المدرسة الألمانية والاقتداء بها فى أمريكا . وكان برجس قد بدأ عمله فى جامعة أمهرست سنة ١٨٧٣ بعد دراسته التى تلقاها فى جامعات حونجن ولزج وبرلن . وإليه ترجع الفضل فى تأسيس كلية العلوم السياسية الشهيرة التابعة لجامعة كولومبيا سنة ١٨٨٠ وهى التى ناقشت فى أبحاثها بل تفوقت على أبحاث حلقات بحث جونز هوبكنز . وإذا كان آدمز قد قدر قيمة المناهج السلمية للمدرسة الألمانية ، إلا أنه كان وافر التفه فى فاره الأسانذه الأمر مكنين على شرح وتطبيق استيعاب هذه المناهج . لكن الأستاذ برجس على العكس من ذلك كان معتنعاً بأن الأمر مكنين على أحسن الفروض لن يكونوا سوى محاكاة لسانج العفريه الألمانية ومفتبين منها ، من ثم فإنه نصح طلبته بأن يتموا دراستهم فى ألمانيا . وكان أن اسجاب طلبته لنصيحته وذهبوا إلى ألمانيا فى حشد كبير على حد قول الأستاذ آدمز حتى أصبحوا معروفين هناك (فى ألمانيا) «بكلية الأستاذ برجس وتلاميذ مدرسته» . وقد قصد هؤلاء الطلبة ألمانيا للاستماع إلى محاضرات درويزن وعادوا من هناك مشبعين بالروح الألمانية وبروح درويزن فى الاهتمام بدراسة التاريخ السياسى وبآراء لبوبولد فون رانكه فى كتابه التاريخ .

وبالإضافة إلى جهود كل من جونز هوبكنز وجامعة كولومبيا فإن المناهج الحديثة برزت فى جامعة متشجن تحت إشراف شارل ك . آدمز ، وفى جامعة كورنل تحت إشراف الرئيس الأمريكى

هويت ، ول . ك . آدمز ، م . ك . تايلر ، جـ . ل . بير Burr . هذا في الوقت الذي حمل افرايم امرتون Ephraim Emerton ، ادوارد شاننج في جامعة هارفارد عبء المضي قدما بهذه المناهج الحديثة التي حمل لواءها هنري آدمز في السبعينات من القرن الماضي . أما في الوقت الحاضر فقد بسطت المدرسة الحديثة لواءها على كل جامعات أمريكا ولم يعد الطلبة الدارسون للتاريخ بحاجة على حد قول الأستاذ جوج لتلقى تعليمهم بالخارج . ففي حلقات البحث التي أدارها عدد من كبار الأساتذة الأمريكيين لم يعد الطالب الأمريكي الجاد في بحثه بحاجة إلى تلقي تدريبيه بالخارج ، اذ صار مستوى هذه الأبحاث لايفل عن مستوى مثيلتها بالخارج . ومن هؤلاء الأساتذة نذكر هربرت . ل . اوزجود ، وليم ا . داننج ، جورج بيرتون آدمز ، جـ . ف . جيسون ، فردربك جاكسون تيرنر ، جورج لنكولن بير ، ادوارد شاننج . أما ادوارد حـ . بورن ، دانا ك . مونرو Dana C. Munro ، شارل هـ . هاسكنز ، فرديناند شيفل ، كارل بيكر ، ك . هـ . ماك ايون ، جـ . س . فورد Guy S. Ford ، و . س . موزي ، ايفارتس جرين وغيرهم كثيرون .

نم كان أن حل النفوذ الفرنسي إلى حد ما محل النفوذ الألماني على المدرسة الأمريكية في السنوات الأخيرة ، وأصبح معظم الباحثين الأمريكيين في تاريخ العصور الوسطى ينهون تدريبهم في مدرسة الوثائق الفرنسية وهي المدرسة التي لا نظير لها في أمريكا . وقد بذل عدد من الأساتذة الأمريكيين أمثال آدمز وبورن وماسي وفنسننت وايرل دو ، وفوستر وآلن جونسون وهوك و ترون R. M. Tryon جهدهم للارتفاع بمستوى منهج البحث لكن خير ما أنتجوه في أمريكا لا يمكن أن يرفى إلى مستوى انتاج برنا نهايم أو وولف . أو لانجلوا أو سيجنوبوس Seignobos .

ويصبح الكلام عن إدخال المناهج الحديثة في الكتابة التاريخية مبتورا ما لم نشر إشارة عابرة إلى انتاج الأستاذ ألبرت بوشنل هارت الأستاذ بجامعة هارفارد . حقيقة أنه لم يساهم بشيء يستحق التنويه من ناحية تطوير المنهج العلمي النقدي في كتابة التاريخ ، ولكن بما لا شك فيه أنه رائد رواد تطوير الأبحاث العلمية في مجال التاريخ الأمريكي ونظام الحكم في أمريكا ، فضلا عن مقدرته كمؤلف وفيما أحدثه من نشر المناهج التعليمية في البحث . والواقع أنه جمع في مقدرة تامة بين ما يحرص عليه الأمريكيون من ضخامة الإنتاج واهتمام بالكم ، وبين التزام هذا الإنتاج بمناهج البحث التاريخية .

وهناك من الأبحاث الأمريكية ما التزم أصحابها بالمنهج النقدي حتى بلغت من المستوى ما يجعلها جديرة أن تقارن بأحسن الأبحاث في أوروبا . وكان لهذه الأبحاث فضل في تصحيح

الأفكار والآراء الخاصة بالتطور القومي الأمريكي . فلاسناذ هربرت ليفي اوزجود تناول في كتابه فترة خضوع الولايات المتحدة الأمريكية للاستعمار الأجنبي . وكان اوزجود قد درس على يد برجس وفون رانكه ، واعتبر كتابه الخالد الذي يقع في سبعة مجلدات والذي صدر باسم (تاريخ المستعمرات البريطانية في أمريكا) من أرقى ما يمكن أن يصل إليه بحث التزم بمنهج المدرسة الأمريكية وهو كتاب جدير بأن يقارن بكتابات جاردنر ، أولارد . كذلك كتب جورج لويس بير بالاشتراك مع ل . هـ . جيبسون Gipson وآخرين كتابا في عدة مجلدات لدراسة علاقة المستعمرات البريطانية في أمريكا بالسياسة الخارجية البريطانية . أما شارل م . اندروز فقد جمع بين النظرة الناقدة الباحثة والمفهوم الواسع للتاريخ الذي يعنى دائرة مفهوم اوزجود . وكان ذلك كفيلا بأن يجعله على رأس قائمة المؤرخين الذين عالجوا فترة الاستعمار البريطاني للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك أكمل جيمس ترسلو آدمز عمل شارل فرانسنس آدمز للإجهاز على أسطورة البيورتان . جاء كتابه عن تاريخ استعمار ولايه ماسوشيت بأمريكا أحسن ما كتب في هذا الموضوع . أما ا . ج . بورن F. G. Bourne ، وهربرت ابوحن بولفن فقد فدما وجهه نظر جديدة بالنسبة لدراسة تاريخ الاستعمار وذلك بأن جمعا بين ما اهتم به المؤرخ بريسكوت وبين المتمسك بالمنهج العلمى مع تأكيدهما أهمية دور الاستعمار الأسباني بالنسبة لتاريخ أمريكا الشمالية في دوره الأول . أما إيفارنس ب . جرين فقد نتج بوصفه مؤرخا متحفظا مدققا في أن يرفى إلى المركز الذى وصل إليه من قبل الأستاذ اوزجود ، وذلك في الكتاب الذى ألفه عن عصر الاستعمار الأجنبي في أمريكا . وثمة كتاب ألفه الأستاذ كلارنس و . الفورد وانسم بالابتكار والعنق - هو الكتاب الذى يحمل اسم «وادی المسيسى في السياسة البريطانية» . وقد أوضح كلارنس في هذا الكتاب لأول مرة المشاكل الإدارية بالنسبة للاستعمار البريطانى في غرب ألجنى وذلك في الفترة الأولى لقيام الثورة الأمريكية . واستطاع أن يغير في بحثه من المفهوم الدارج بأن بداية الصراع بين الاستعمار والثورة كان في ميناء بوسطن . كذلك أوضح آرثر م . شليزنجر الأسس الاقتصادية والتجارية للثورة الأمريكية . أما س . هـ . منستر ، ا . ك . فليك ، ج . هـ . سيبير ، م . ك . تايلر ، ك . هـ . فان تين ، فقد أنصفوا في دراستهم أولئك المسوالى للاستعمار خلال الثورة الأمريكية ومثل ذلك يقال عن فان تين الذى أنتج أفضل كتب التاريخ عن الثورة الأمريكية . وكتب كارل ل . بيكر هو الآخر أعظم الكتب المبتكرة عن الأسس الثقافية للثورة ، كما شرح موضوعها . أما الأستاذ ماكس فراند Max Farrand فعالج فترة تكوين الدستور الأمريكى في كتاب مفصل ناقد . كذلك تعرض الأستاذ بيرد في بحث ممنع لنفس تلك الفترة عندما تناول

الأسس الاقتصادية للدستور . واستعرض الأستاذ حنا باخ ماك ماسر في كتابه فترة السبعين الأولى من الاستقلال الأمريكي وهو كتاب يدل على علم صاحبه فضلا عن اتساع أفقه بدرجة لم تتوافر لأى باحث أمريكى آخر . ذلك أنه ضحى بالنشء الكثير لكى يجعل البحث فى التاريخ الاجتماعى أمرا مطروقا شائعا فى الولايات المتحدة الأمريكية ونعمة كتاب مفصل لهنرى آدمز عن السياسه الأمريكيه الخارجيه على عهد جيفرسون وماديسون . ومع أن موضوع الكتاب محدود ونسبه إلا أنه بنصف بالعمق أكثر من غيره . كذلك جمع الأستاذ فردريك جاكسون نيرنر ومن خلفه من الكتاب مثل باكسون ، بيلنجتون ، بيلي بين عنى البحث الذى انصف به اوزجود وبين ما انصف به ماك ماستر من فدره على الخلق والابكار وتعدد الاهتمامات . وظهر ذلك فى ابحاثهم عن استعمار الجزء الغربى من الولايات المتحدة الأمريكيه واتساع حدود أمريكا فى ذلك الجانب . وفاقحت أبحاثهم من جميع النواحي العلمية بحث تيودور روزفلت الممتع والمفيد .

والواقع أن مدرسة تيرنر Turner فى أمريكا تمثل أحسن النماذج فى القدرة على الربط بين البحث المنعمق السلم وبين الاتجاه الحديث فى كتابة التاريخ من حيث مراعاة جودة الصياغة والإبداع فى الإيضاح . أما ملحمة فون هولت التى هاجم فيها الرق فقد عدل فيها كل من وليم ا . رود ، أرنست ب . فلبس وآخرون بإدخال وجهة نظر الولايات الجنوبية وتناول هميس فورد رودس فى بحث يجمع بين الاتزان والإسهاب موضوع الحرب الأهلية الأمريكية ثم مدة التعمير والبناء التى أعقبتها . أما مقدمات هذه الحرب فضلا عن الحرب نفسها فإنها كانت موضع بحث محكم من إنتاج آلان نينين وج . راندال . ثم تناول الأستاذ وليم ا . داننج وتلاميذه الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية بالدراسة ، كما عالجت أليس ب . أوبرهولتز - وهى تلميذة الأستاذ ماك ماستر - تاريخ شعب الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية ، واتسم بحثها بالابتكار واستهداف الكمال . ثم أوجز هميس شورل بطريقة ممتعة كل مراحل التاريخ القومى للولايات المتحدة الأمريكية ، واتسم بحثه بالاتزان . أما الأستاذ شاننج فقد نهض بجهد ضخم لتتبع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عصر الاستعمار حتى الوقت الحاضر وذلك فى عمل جدير بأن يعتبره الأمريكيون تاريخهم القومى العظيم ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . أما خير الأبحاث الموجزة عن التاريخ الأمريكى التى جمعت بين مزيد من المعرفة ووفرة للمادة وبين المنهج العلمى فتكاد تتمثل فى كتاب د . س . موزى muzzey وعنوانه (الولايات المتحدة الأمريكية) وعن التاريخ الدستورى للولايات المتحدة الأمريكية فقد بحثه فى مقدرة فائقة كل من ا . ك . ماك لالين

Laughlin ، ا. س. كورون E. S. Corwin ، ج. س. لاندون J. S. Landon أما العمل المشترك الذى أشرف عليه جوستين ونسور فيمثل قمة ما بلغت المدرسة التاريخية الأمريكية من مستوى في عهدها الأول ، حين تشرب رجالها بالمناهج النقدية الحديثة . وهناك نموذج متكامل يصور المدرسة الأمريكية في أحسن صورها وهو ما كتبه الأستاذ ألبرت بوشنل هات hart ، تحت عنوان الأمة الأمريكية . وهناك عمل أكثر شمولا قام به ألن جونسون وأسماء (أحداث أمريكا التاريخية) أما هـ. س. كوماجر ، س. ب. موريس ، فقد أتوا عن قريب عملا جديدا أسمياه (الأمة الأمريكية) .

وبالإضافة إلى أبحاث المؤرخين الأمريكيين عن تاريخ بلدهم فإن لهم أبحاثهم الهامة عن عصور أخرى ومراحل عديدة من التاريخ فالأستاذ جيمس هنرى برستد له مكانته بين رواد الباحثين الرئيسيين في التاريخ المصرى القديم والأثرية المصرية . وكان برستد أول من استخدم الأجهزة الميكانيكية في الكشف عن آثار الشرق الأدنى القديم . وكذلك قام جاك فنجان بتصحيح التواريخ الخاصة بالعصر القديم وتلك المنطقة بالذات - وتبرز أسماء ر. و. روجرز ، موريس جاسترو ، أ. ت. أولمستد ، ج. س. جودسبيد عن ينبغى الإشارة إليهم لما لهم من أبحاث قيمة عن تاريخ البابليين والآشوريين . أما الأستاذ و. س. فرجسون فتعتبر أبحاثه من أهم المراجع العالمية عن الامبراطورية الإغريقية وأثينا الهيلينة . وإذا ما انتقلنا إلى و. ل. وسترمان نجده تناول في صورة مبتكرة دراسة نظام الحكم في الولايات الإمبراطورية الرومانية ودراسة التاريخ . الاجتماعى القديم مع العناية بموضوع الرق في العصور القديمة . أما تبنى فرانك ، فرانك ف. ابوت . جرانت شويرمان Showerman فكانت لهم أبحاثهم التى تتم عن دراسة واسعة بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لروما . كذلك تناول ج. د. بوستفورد ، ه. أ. كالدول ، دراسة التاريخ القديم دراسة اتسمت بنفاذ البصيرة وتعمق البحث ، أما ج. و. سوان Swain ، أ. أ. تريفر AA Trever ، رالف تيرنر فقد تناولوا في أبحاثهم كل جوانب التاريخ القديم .

أما في مجال تاريخ العصور الوسطى فهناك جورج لنكولن بير الذى يعتبر حجة الباحثين عن العصر الكارولنجى وثقافة العصور الوسطى ، كما أنه لا يوجد من يناقسه في أوروبا أو أمريكا في دراسته لموضوع حق الأفراد في إبداء آرائهم وحرية معتقداتهم الدينية . كذلك بحث ل. م. لارسون تاريخ انجلترا في أوائل العصور الوسطى كما تناول جيمس وستفال طومسون موضوع نشأة الملكية الفرنسية على عهد لويس السادس ، مثلها بحث تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى كذلك كان دانا

Dana مونرو واحداً من أقدر المؤرخين الأمريكيين الذين تخصصوا في دراسة تاريخ العصور الوسطى وخاصة موضوع الحروب الصليبية . أما شارل . ه . هاسكنس فقد بحث تاريخ النورمان ودورهم في أوروبا في العصور الوسطى واتصف بحثه لهذا الموضوع بالإتقان والدقة التي لا يدانيه منها أى باحث آخر أمريكا كان أو أوروبا . ولا نجد بين علماء الإنجليز من يقارن بجورج بيرتون آدمز سوى القلة القليلة وذلك بالنسبة لتعمقه في دراسة التاريخ الدستوى لانجلترا في العصور الوسطى أما أرنست ف . هندرسون فقد أوجز النتائج التي وصلت إليها الأبحاث الحديثة عن تاريخ ألمانيا في العصور الوسطى والحديثة . كذلك نهج أفرانيم امرتون منهاجاً علمياً في أبحاثه المسهبة عن تاريخ العصور الوسطى في كافة مراحلها أما لين ثورنديك فاتصفت أبحاثه في تاريخ العصور الوسطى بالمنهج العلمى والابتكار وخاصة كتابه الكبير عن الحياة الفكرية والعلمية في العصور الوسطى . واستطاع هنرى اوزبون تايلور أن يكتب كذلك خير كتاب عن تاريخ الفكر في العصور الوسطى . أما جميس وستفال طومسون فقد عالج تاريخ أوروبا في العصور الوسطى من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية علاجاً موجزاً مركزاً جعل له مكان الصدارة لا بين المؤرخين الأمريكيين فحسب بل بين غيرهم ممن تخصصوا في تاريخ تلك العصور . وهناك من المؤرخين الأمريكيين فرديناند شيفل الذى أبدع في كتابه عن التاريخ الثقافى لعصر النهضة كما أنه خير من كتب عن تاريخ فلورنسا .

أما الأستاذ بريزر فندسميث فقد تصدر الباحثين الامريكيين الذين عالجوا عصر الإصلاح الدينى ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ . م . هولم Hulme إذ أوجز العلاقات الخاصة بعصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى .

وإذا كانت لدينا الآن نظرية مبتكرة ومقبولة بوجه عام تنادى بأن بداية العصر الحديث إنما ترجع إلى حركة الاستعمار الأوروبى أكثر مما ترجع إلى عصر النهضة أو عصر الإصلاح الدينى . فإن هذه النظرية كانت مدار الأبحاث الممتعة التي كتبها كل من و . ر . شيفرد ، و . ك . ابوت ، ج . ب . بوستفورد ، ج . ا . جيلبسى ، ا . ب . شينى ويعتبر ما قام به الأستاذ شيفرد من دراسات عن حركة الاستعمار الأوروبى — وذلك بالإضافة إلى عمل ف . ج . تيرنر — من أحسن ما قام به أى مؤرخ أمريكى آخر من حيث الاستفادة والشرح المبتكر أما أبحاث كل من ه . م . ستيفنس ، ف . م . فلنچ ، و . م . سلون ، هنرى . ا . بورن ، كارل بيكر وتلامذته ليو جيرشوى Gershey ، لويس جوشول ، فقد أضافت الشيء الكثير إلى معلوماتنا عن عصر الثورة الفرنسية ونابليون .

وعالج ولیم روسکو تیر **Thayer** تاریخ إيطاليا منذ نهاية عهد نابليون حتى إتمام وحدتها . وكذلك فعل كل من هندرسون ، وشيفل و ، ج . س . فورد بالنسبة لتاريخ ألمانيا الحديثة . أما ر . ف . ميرمان **R.B. Merriman** فقد بحث في كتاب على جانب كبير من الأهمية تاريخ الإمبراطورية الأسبانية وثمة كتاب ممتاز عن التاريخ الإنجليزي كتبه ا . ب . شيني **W.B. Cheyney** و ا . ل . م لارسون ، ا . ل . كروس ، و . ا . لنت **Lunt** وآخرون . كذلك كتب المؤرخ شيني بحثا له قيمته وعلى مستوى كبير من الناحية العلمية عن السنوات الأخيرة في حكم اليزابيث . وأنتج س . هـ . ماكلوين **MacLwain** عدة أبحاث علمية عن تاريخ النظرية السياسية وجذور الحكم النبائي . أما ا . هـ . ليبير فكان المؤرخ الأمريكي الرئيسى الذى اختص بعنايته بتاريخ الحضارة البيزنطية والأتراك وأسهم س . م . اندروز ، س . د هازن ببعض القصص السياسى عن تاريخ أوروبا الحديث .

وشهدت الولايات المتحدة الأمريكية في شخص الأستاذ جون باست مور باحثا له من غزارة المعرفة ما جعل منه حجة في تاريخ القانون الدولى والدبلوماسية . أما أبحاث كل من د . ج . هيل ، ج . فوستر ، أ . ك . كولدج ، ل . ر . فيش ، ك . ك . تانسفيل ، و . ل . لانجر ، ج . د . سوان **Swain** ، ر . ج . سونتاج ، باركرت . مون ، ر . ل . بل **Buell** ، ح . هـ . بلاكسلى **Blakeslee** ، س . ف . بيمس **Bemis** فقد تناولت العلاقات الدولية المعاصرة .

أما عن الأحداث السياسية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى فقد بحثها و . ب . لانجر ، س . ب . فای ، ر . ج . سونتاج ، أما خير مرجع عن دخول أمريكا الحرب فهو ذلك الذى كتبه ك . ك . تانسيل بعنوان ، « أمريكا تدخل الحرب » ، وأخيرا فإن د . ل . هوجن **D.L. Hoogean** أخرج الكتاب الوحيد الشامل عن أسباب الحرب العالمية الثانية .

ومن بين المؤرخين الأمريكيين الذين أبدوا مقدرة فائقة بصفة خاصة في مجال دراسة تاريخ أمريكا اللاتينية تبرز أسماء و . س . روبرتسون ، ج . ف . ريبى **Rippy** ، هـ . أ . برستلى ، برنارد موسس ، ل . و . هاكت ، ك . هـ . هارنج ، أ . ك . باركر ، ك . أ . شامان ، فرانك تاننوم ، د . م . دوز د . ج . مونرو . هيوبرت هيرنج ، ك . ك . جونز **Jones** .

كذلك كتب المؤرخون الأمريكيون أبحاثا تاريخية علمية أخرى عن أمريكا الأسبانية نختار منها بصفة خاصة كتابات باروس آرانا ، أورتيغاي رويو ، الجاندرو الفاريز ، أوليفيا إليا وآخرون . أما كارل وتيك **wittke** ، ج . ب . بربر **Brebner J.B.** فلها أبحاثها عن تاريخ كندا . كذلك

قام ج. ت. شوتويل بعمل سلسلة مستفيضة من الدراسات عن العلاقات الأمريكية الكندية .
وعن تاريخ الشرق الأقصى هناك عدة كتب ممتازة ألفها س. ك. هورنبك **Hornbeck** ،
تايلر دينت ، ك. س. لاتوريت ، أ. ت. وليامز ، ه. م. فينك ، ب. ج. تريت **Treat** ، و ،
جرينز ولد ، ناثينال بفر **Nathaniel paffer** ، ب. ه. كليد **Clyde P.H.** ، و. ل. نيومان .
كذلك كان تاريخ المسيحية والكنيسة موضوع اهتمام عدد كبير من الباحثين الأمريكيين .
ومن الأبحاث التي كتبت في هذا الشأن أبحاث هنري شارل وهي أبحاث عديدة وممتازة ومتخصصة
تناولت تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وجعلته على مرتبة كبار العلماء الأوروبيين أمثال هارناك
Harnack ، دينقل ، دوشزن . كذلك عرض على كل ن. ج. ب. فيشر ، فيليب شاف ، ولسن
والكر في إيجاز تاريخ الكنيسة المسيحية باسمه . أما أ. ك. ماك جيفر فله شهرته الدولية لما كتبه
عن ايزيبوس ، وكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ الكنيسة في أيامها الأولى وعن تاريخ الفكر
المسيحي . أما عن نشأة الكنيسة في العصور الوسطى فهناك عدة أبحاث هامة كتبها كل من ج.
ك. أير **Ayer** ، أ. ك. فليك ، وقد كتب فليك خير ما يمكن كتابته عن المدخل إلى انهيار سلطان
الكنيسة في العصور الوسطى . كذلك عالج كل من برينز فدمسميث ، امرتون ، س. م. جاكسون ،
ه. أ. جاكوبرز ، حركة الإصلاح الديني وبحث في هذا الجانب أيضا داود شاف ، جاكسون ، و .
و. روكويل ، وكان لهذا الأخير (روكويل) الفضل في إطلاع الأمريكيين على أحدث أبحاث
الأوروبيين في هذه الناحية . كذلك كان شاف **schaff** ، بورتر جاكسون **Potter** أبحاثهم التاريخية
المستفيضة عن الكنائس الأوروبية . وكان اهتمام المؤرخين الأوروبيين بدراسة التاريخ القديم
والوسيط — وهو أحد الانطباعات التي تركتها الحركتان الإنسانية والتفكيرية على المؤرخين —
صدى ردود فعل في المدرسة الأمريكية إذ أدى ذلك إلى إهمال دراسة التاريخ الحديث لفترة معينة .
لكن جهود الجيل الجديد من المؤرخين الشبان تنبىء بأنهم سيعوضون هذا النقص في التاريخ
الحديث وأنهم سيخرجون عن نطاق المؤلف عند من سبقهم من المؤرخين . بحيث لا تكون
أبحاثهم من حيث الكم والكيف أقل من أبحاث أساتذتهم السابقين الذين تخصصوا في دراسة
العصور الوسطى . ومصادق ذلك سلسلة الأبحاث التي أخرجها و. ل. لانجر . عن نشأة أوربا
الحديثة ، إذ تعتبر خير نموذج وأحسن شاهد على صدق هذا القول . ويقال نفس الشيء عن أبحاث
التاريخ الحديث التي قام بها ل. ب. هايبي وآخرون سنة ١٩٢٩ إذ شجعت هذه الأبحاث حركة
البحث في هذا الجانب .

أما كتابة التراجم التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية فقد ظهرت في صورة غزيرة واتخذت شكلا موجزا ومن أمثلتها — مجموعة رجال السياسة الأمريكيين ، (ومجموعة تراجم ريفرسيد **Riverside Biographical series** ، و (قاموس التراجم الأمريكية) ولم تقتصر التراجم على سرد سيرة كبار رجال الدولة الأمريكيين وإنما شملت كثيرين غيرهم . ومن أحسن التراجم تلك التي كتبها س . م . موريسون عن كولمبو س ، وكارل فان دورن، عن فرانكلين ، و . س . فريمان عن واشنطن ، أ . ج . بفردج عن مارشال ، ناثان شاشير وهرس ميثشل عن هاميلتون ، جلبرت شينارد عن جون آدمز ، دumas مالون عن جيفرسون ، ارفنج برانت **Arving Brant** عن ماريسون ، و . ب . كريسون عن مونرو ، س . ف . بيمس عن جون كينكي آدمز ، ج . س . باست عن جاكسون ، ك . م . ولتز **Wiltse** عن كاهلون ج . بفردج ، ج . ج . راندال عن لنتكولن . فريمان عن لي **Lee** ل . ب . ستريكر عن جونسون ، الآن نيفنس عن كليفلاند ، ونيفتس ، و . ج . ت . فلين **J.T. Flynn** عن روكفلر ، هربرت كرولي عن مارك هانا ، مارجريت ليش **Leach** عن ماك كنلي ، هـ . ف . برنجلي ، هـ . ك . بيل عن تيودور روزفلت ، برنجل عن تافت ، أ . س . لنك **Link** عن ووردولسن ، فرانك فريدك **Freidel** و . أ . م . شيلزنجر عن ف . د . روزفلت .

وكما صار الحال في العلوم الطبيعية وبقية فروع المعرفة ، لم يلبث أن غدا علم التاريخ يخضع من نواحي البحث والإشراف لجهود مشتركة تنهض بها جمعيات تاريخية قامت بدور البوتقة التي تنضج فيها الأبحاث والمناقشات التاريخية . وكان أن ظهرت المجلات التاريخية التي تنشر هذه الأبحاث ، الأمر الذي يسر سبل التعاون بين الباحثين على نطاق دولي . ففي سنة ١٨٥٩ أسست الجمعية التاريخية الألمانية . وفي سنة ١٨٦٦ أصدرت الجمعية التاريخية الفرنسية مجلتها . وفي سنة ١٨٨٤ أصدرت الجمعية الإيطالية مجلتها ، كما صدرت المجلة التاريخية الإنجليزية في سنة ١٨٨٦ والأمريكية في سنة ١٨٩٥ .

كذلك تم تبادل الأساتذة بين الجامعات خلال الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى وازداد هذا التبادل بصفة خاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية وهو اليوم أكثر منه في أي وقت مضى .

ولكن إذا كانت المدرسة الاستقصائية الحديثة في التاريخ تفتخر بأنها تجنب الناحية الفلسفية واستندت للموضوعية في بحوثها ، فإن هذه (الموضوعية) نفسها سرعان ما غدت لها جوانبها

الفلسفية التي أصبحت لها نتائج أشار إليها شارل أوستن بيرد في مقال له نشرته المجلة الأمريكية التاريخية في عدد أكتوبر ١٩٣٥ بعنوان (ذلك الحلم الجميل) . وعن هذا الموضوع بالذات ينبغي أن تنتقل الآن لإهداء بعض الإشارات والتعليقات والفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ .

الفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ

سنوجز فيما يلي ما نستطيع قوله بشأن فحص مبادئ المدرسة الاستقصائية الحديثة في كتابة التاريخ (Erudite School) فحصا ناقدا ، ذلك أنه كان مغرورا لوقت طويل أن الكمال في علم التاريخ لا يتأتى إلا بتحقيق مزيد من مبادئ فون رانكه ومدرسته واتباع أصوله وتعاليمه . كذلك كان يظن أنه طالما أصبح في الإمكان نقد الوثيقة من حيث شكلها وجوهرها ، فإنه صار من المسور أن نعيش في الماضي الذي تحدثنا عنه تلك الوثيقة ونعيد تصوير وبناء ذلك الماضي كما كان بالضبط . ولكن تجمع لدينا من إمكانيات النقد العلمي ما يكفي لهدم جميع الفروض السابقة ففى المقام الأول استطاع علم النفس الحديث أن يقوض تماما افتراضات أولئك الذين يطمحون بتحقيق موضوعيه تاريخية تامة . ذلك أن علم النفس أوضح أنه ليس في الإمكان إنتاج عمل ثقافي على مستوى رفيع دون أن يكون للقائم به اهتمام حقيقي واقتناع سليم بما يعمل به ، وأن الرأي القائل بأن فكر الإنسان قادر على العمل في حيوية وهو في حالة فراغ عاطفي ودون هدف ، أمر يناقض تماما المبادئ الأولية في علم النفس . وإذا كان علماء المدرسة الاستقصائية في التاريخ ينادون بأنه ينبغي عدم الالتزام بفكر أو رأي معين عن أى موضوع قبل الإقدام على بحثه وهو الرأي الذي أصبح مقبولا تماما . ولا يشك في صحته كافة المشتغلين بعلم التاريخ ، فإننا نؤكد هنا مرة أخرى القول بأنه على الرغم مما للحقيقة التاريخية من (قداسة) لدى رجال هذه المدرسة فإن هذا لا يحول دون وضع الحقيقة التاريخية موضوع التحليل الناقد .

إن كل حدث تاريخي هو بالضرورة فريد في ذاته وليس له شبيه ولا يكرر كلية مرة ثانية وأن كل حقيقة تنسجم بهذا الانفراد وعدم التشابه مع غيرها من الحقائق وذلك بالنسبة للظروف الأخرى التي أفاطت بها وارتبطت معها . فالحقيقة التاريخية تعبر عن توافق مجموعة ظروف خاصة ولدت وانتهت بتوقع الحدث . ومعنى ذلك أنه عندما نقول إننا اكتشفنا حقيقة تاريخية فمعنى هذا أنه

توافر لدينا من المعرفة ما يجعل في مقدورنا أن نعيد صياغة أو بناء عنصر أو أكثر من العناصر التي أحاطت بهذه الحقيقة وأن هذه الصياغة تتم على وجه ناقص في ظروف تختلف تماماً عن الظروف التي أحاطت بتلك الحقيقة . ومعنى هذا أنه ليس في مقدور أحد أن يعيد خلق العناصر التي وجدت عند وقوع الحدث كما كانت ساعة وقوعه ، وكل ما نفعله الآن بخصوص الحقيقة التاريخية هو أننا نضع فيها نتائج تصورنا الذاتي . وأن ما يعتقده كثير من المؤرخين بأن هناك عديداً من الوقائع المترابطة والملموسة التي يطلق عليها اسم (حقائق تاريخية) وأن السبيل إلى الوصول إلى هذه الحقائق التاريخية لا يتهيأ إلا بجمع العديد من المصادر التاريخية ، هذا الاعتقاد ليس في الواقع إلا اعتقاداً ساذجاً غير مقبول . ولسوء الحظ لم يتبدد هذا الاعتقاد بدخول التفكير - سمي الناقد إلى مجال التاريخ . ويمكن تشبيه هذا الاعتقاد لدى أولئك المؤرخين بالنظرة التي كانت لدى رجال العلم عن الذرة إذ كانوا يعتقدون أنها شيء بسيط لا ينقسم ثم اتضح أنها في تعقدها تبلغ ما يبلغه عالمنا من تعقيد .

وفي بحث ممتع عنوانه «ما هي الحقائق التاريخية؟» ألقاه الأستاذ كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية الأمريكية في روشستر بنيويورك في ديسمبر سنة ١٩٣٦ تم القضاء تماماً وإلى الأبد على الهالة الكاذبة والحرافة التي كانت تحيط بالحقيقة التاريخية . ذلك أن بيكر أوضح مدى ما نقع فيه من خطأ فادح حين نقول عن حقيقة من الحقائق التاريخية إنها حقيقة ثابتة . وقال البروفسور بيكر : (إنه إذا ما قلنا ذلك تبدو الحقائق التاريخية في النهاية وكأنها أشبه بالأشياء الطبيعية شيئاً صلباً وثابتاً ، شيئاً له شكله المحدد الواضح ، شأنها شأن الطوب والصخور . ومعنى ذلك أن يصبح في الميسور تصور المؤرخ وهو يتجول بين حقائق الماضي ، وكأنه يتجول بين أشياء صلبة جامدة تصطدم بها أرجله إذا كان غير محترس منها) .

وأخذ بيكر حقيقة من أبسط حقائق التاريخ والتي لا نزاع بشأنها ولا خلاف حولها . ولنقل عبور قيصر للنهر الإيطالي روبيكون **Rubicon**^(١) . في التاريخ القديم . وأوضح بيكر مدى الصعوبة التي تحول دون الوصول إلى رأى قاطع يفسر لماذا عبر قيصر النهر وكيف تم هذا العبور . وتناول في بحثه التباين الشاسع بين الآراء التي تناولت هذه الحقيقة لأن من يسردها لا بد أن يضي

(١) أحد أنهار إيطاليا القديمة عبره قيصر في سنة ٤٩ ق.م وكان معنى عبوره هو إعلانه الحرب على رومى وعلى السناتو ، وأصبح الاصطلاح «عبر قيصر النهر» تعنى أن دولة ما استعدت للحرب . المترجم

عليها ذاتيته . كذلك تناول بيكر الأسباب الأساسية التي تثبت عدم صحة هذه الحقيقة اللهم إلا في كونها تكون عنصراً من العناصر التي تؤلف رواية تاريخية يستحيل تنسيقها وتجميعها من جديد كما كانت وقت وقوع الحدث «وهكذا فإن حقيقة وألف حقيقة من الحقائق البسيطة الفرعية تجمعت لتتألف منها تلك الحقيقة الخاصة بعبور قيصر الروبيكون . ولو كان لدينا شخص مثل جيمس جويس حاول أن يجمع هذه الحقائق التاريخية المرتبطة بتلك الحقيقة البسيطة لتطلب الأمر منه كتابة ٧٩٤ صفحة ليوضح حقيقة عبور قيصر نهر روبيكون» .

وبمعنى آخر فإن ما حرصت عليه المدرسة الاستقصائية في التاريخ وما جعلته هدفها الرئيسي وهو الوصول إلى الحقيقة التاريخية البسيطة المجردة أصبح شيئاً خرافياً ينطلي على بسطاء الفكر وقليل الخبرة . ثم مضى بيكر يقول : «إن هذه الحقيقة التاريخية البسيطة حين تكتشف فليس معنى ذلك أن نتوقع وجودها بحدود واضحة ثابتة كالقطعة من الطوب أو الصخر . إن هذه الحقيقة التاريخية ليست إلا تعميماً لألف حقيقة من الحقائق الأبسط منها . وهذه الحقائق الأبسط لاتعنيها في حاضرنا ، كأننا في سردنا للتاريخ لا نستطيع أن نتناول الحقيقة الكلية المجردة من هذه الحقائق الأصغر منها العالقة بها . وجملة القول أنه كلما كانت الحقيقة التاريخية أبسط ما تكون كلما كانت أكثر تحديداً ووضوحاً . لكنها في نفس الوقت تصبح بالنسبة لنا أقل قيمة وفائدة في مجال بحثنا . وعلى هذا الأساس ربما كان أكثر فائدة أن نعيم الحقيقة على أساس مدى فائدتها لنا بدلاً من تمييزها على أساس صحتها أو عدم صحتها» .

وهكذا غدا الركن الأول الذي قامت عليه المدرسة الاستقصائية وأهم الأساس ، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع أن نسلم بباقي أفكارهم ومفاهيمهم الأخرى . ذلك أن نظرهم ينبغي أن يعاد النظر فيها على أنها تحوى قدراً كبيراً من الخيال والوهم ، وإن كانت تمثل خير ما لدينا الآن .

وكانت الآراء التي خرج بها الأستاذ بيكر من بحثه كفيلاً بأن تهدم أسس نظريات فون رانكه وتابعيه ، وذلك متلباً حدث عندما هدم علماء الطبيعة أمثال : اينستين ، بلانك ، شرودنجر ، هرنديج النظريات القديمة في علم الطبيعة والتي ظلت قائمة منذ نيوتن حتى هيلمهولتز ذلك لأنه من المتعذر تماماً إعادة خلق الماضي كما كان بالتمام والكمال .

ولانسك في أن هذا البحث الذي نشره بيكر احصل في علم التاريخ مااحتلته نظرية اللانهايه في علم الطبيعة المعاصر . ومن الواضح إذا أن المحور الأساسي الذي قامت عليه المدرسه

الاستقصائية ، ونعني بهذا المحور : إمكان اكتشاف حقائق التاريخ على وجه الإطلاق والتحديد ، وإظهار الحقائق في صورة واضحة محددة لاشبهة فيها ولا جدال حولها ، بحيث تظل هذه الحقائق في ظل كافة الظروف ومن وجهة نظر جميع المؤرخين هي نفسها دون تغيير ؛ هذا هو المحور الأساسي الذي قامت عليه المدرسة الاستقصائية في علم التاريخ إنما يصور وهما من أوهام عصر ما قبل علم النفس . ولخص الأستاذ أ. أ. جولد نوزر A. A. جوهري هذا الموضوع في قوله :

« إن عمل المؤرخ لا يخرج عن كونه اختياراً للأحداث التي يريد الحديث عنها . ولا يمكن أن تنفصل نظراته عما يختاره من أحداث . فنظراته إليها تؤثر على اختياره إياها ولو تأثيراً جزئياً . وعندما يقول لنا المؤرخون إنهم مجرد ساردين للأحداث وأن الحقائق التاريخية تتكلم عن نفسها ، فإنهم بكل بساطة لا يخدعون سوى أنفسهم إن الحقائق لا تتحدث عن نفسها ولكن المؤرخ هو الذي يتكلم عنها ويتحدث ، وإن الذي تعبر عنه هذه الحقائق إنما يعتمد على سحر عصاه » .

وهناك تغير جذري آخر يحول دون تأليه الحقائق التاريخية ، ونعني به : أن المؤرخين الاستقصائيين تناولوا هذه الحقائق وجمعوها دون أن يعملوا حساباً للعامل البشري ، وهو عامل قوي له تأثيره ذلك أن كثيراً من علماء التاريخ في الماضي والحاضر عالجوا الأحداث دون أن يكون لديهم أدنى استعداد لفهم هذا العامل البشري ، بل إنهم في الحقيقة وفي غالب الأمر كانوا لا يشعرون بضرورة ذلك . فإذا اقتصر عملهم على جمع الحقائق وسردها فإنه عمل تستطيع القيام به الكائنات النثوية على اختلاف مراتبها أو أى لعبة من اللعب الخشبية يحركها صاحبها فتبدو وكأنها تتحرك من تلقاء نفسها .

وبمعنى آخر : فإن المؤرخين الجماعين للمعلومات مع اهتمامهم بسرد أعمال البشر في الماضي ، إلا أنهم أهملوا العنصر الرئيسي في هذا العمل وأعنى به مسلك الجنس البشري وطبيعته وحتى عندما تظاهر المؤرخون بأنهم يكتبون تاريخ الإنسانية ، فإنهم أبعدوا الإنسان خارج الصورة التي يرسمونها . ولم يكتفوا بتركيز اهتمامهم بصفة أساسية في تفاصيل الحقائق التاريخية وإنما أهملوا العناصر التي يمكن أن تكسب هذه الحقائق سنداً كبيراً من الصحة والحقيقة ، وأعنى بها العلوم البيولوجية والاجتماعية التي تساعدنا على فهم طبيعة الإنسان الذي كان مسلكه في الماضي سبباً في وجود العناصر التي تجمعت منها وتكونت بفصلها الحقيقة التاريخية . ويقول جيبس هارفي روبنسون « إن عملنا بدون هذه المعرفة الهامة بمسلك الإنسان في الماضي لا يعدو أكثر من الوقوف عند شكل الأشياء وظواهرها في الماضي ، بينما نظل نجهل كل الحقائق الكامنة والهامة في التاريخ » .

إن المؤرخ الحقيقي ليس كالعامل الكادح أو الكاتب الجامع للحقائق من المصادر المختلفة إنه أكثر من ذلك، إنه الشخص الذى يأخذ هذه المادة الخام، ينقيها ويغربلها وينظمها بطريقة يستطيع بها أن يضىء أفكارنا عن الماضى وكيف تمخض الماضى عن الحاضر. وهذه المهمة تحتاج الى مقدرة كبيرة من نشاط الفكر للوصول الى التحليل والربط التاريخيين أكثر من مجرد المضى فى عمل بحث تاريخى فحسب. ولهذا السبب وحده نجد هناك كبيرين ممن ينتمون الى مهنة التاريخ ولا يتعدى دورهم طلاب بحث، بحيث لا يمكن أن نطلق اسم مؤرخين حقيقيين الا على قلة منهم.

ولكن هذه المدرسة التى اهتم اصحابها بالمزيد من تحصيل المادة واتسمت بالاستقصاء وجمع المادة، فإنها فيما فعلته حاولت أن تجعل من الحفار وصانع الفولاذ، وصانع الطوب ومساعد البناء مهندسين. لقد حاولت هذه المدرسة أن تجعل من مهنة المؤرخ مهنة ضئيلة بحيث يقتنع بما جمعه من مادة تاريخية وبذلك أضعفت الاهتمام بالمسلك التاريخى الصحيح.

أما إصرار المدرسة الاستقصائية على أن الموضوع الأساسى فى دراسة التاريخ هو الجانب السياسى، فإن هذا الرأى تعرض لهجوم واسع ونقد فى الصميم، بحيث إنه من السخف ومضية الوقت أن نسوق الأدلة لمناقشته وتفنده. وخر مانقله فى هذا المقام هو أن نردد قول فردريك هاريسون من أن ما اعتبره فريمان Freeman جانباً منالياً فى دراسة التاريخ، إنما أغفل تسعة أعشار ماضى البشر، وإنه من الأمور الواضحة تماماً أن الجانب السياسى لا يمثل من نشاط البشر سوى نسبة ضئيلة. وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت مهمة التاريخ هى تسجيل كل ما فعله الإنسان وكل مشاهدته وابتغاه، فإن أبعد الأمور عن الواقع أن نفصره على تسجيل الجوانب السياسية. ولما كان التاريخ السياسى ليس له سوى قيمة ثانوية ويأتى نتيجة لعوامل أخرى فإنه لا يمكن أن يكون بمثابة الإطار الذى يضم بين جوانبه مواد التاريخ الأخرى غير السياسية.

أما أهم ما ينسب إلى المدرسة الاستقصائية من القول بأن البحث وتجميع الحقائق هو واجب المؤرخ وخير ما يحققه، فإن هذا القول فى ذاته كفى بأن يكون سلاحاً ينهر ضدهم. فحقيقة الأمر هى: أن البحث التاريخى ليس سوى المرحلة الأولى والمبدئية من العمل التاريخى وأن البحث لازمة من لوازم التاريخ، لكن ليس بالبحث فقط يكون التاريخ بأى - عال من الأحوال. فاللاريخ لا يكون الا حين ننسق نتائج البحث التاريخى - ونحلل وننظم ثم ندرس بعقلية مؤهلة تماماً لديها القدرة على تفهم طبيعة البشر ونظمه الاجتماعية. وبهذا يمكن القول إن البحث التاريخى أصبح له صفة الكتابة التاريخيه الفريدة.

وطالما اعتبر البحث التاريخي والتنقيب بين أحداه المقياس النهائي للمقدرة في علم التاريخ ، فإن الأمل صار ضعيفا في أن تتعدى الغالبية الكبرى من الباحثين في مجال التاريخ هذا النطاق ، وصار من غير الممكن أن يشعروا بأن مهمة المؤرخ تختلف عن مهمة كاتب الأرتشيف .

ولا يقل عن ذلك سوءاً كذلك تلك النظرية التي تنادى بها المدرسة التقليدية من أنه ليس هناك فروق جوهرية بين ماتصل إليه الأبحاث التاريخية من نتائج وقيم . ومعنى هذا القول أن العمل التاريخي يقاس فقط بمدى دقة الحقائق التي يتضمنها بصرف النظر عما تلقى من ضوء على تطور المجتمع والحضارة . وإذا كان للتاريخ مغزى عدا التظاهر بالمعرفة ، فإن علينا أن نعترف بأن المادة التاريخية لا قيمة لها إلا بقدر ما تلقى من ضوء على الحاضر . وليس معنى هذا القول أننا ندعو إلى إهمال البحث في بعض الجوانب الخاصة التي لها أهمية معينة عند الباحث في مجال محدد ، لكننا نقول إن دراسة الديبلوماسية البروسية في القرن السابع عشر لا ينبغي أن يخصص لها من الجهد والوقت ما يخصص لدراسة العوامل التي أدت إلى نشأة الرأسمالية والطبقة الوسطى والقومية في غرب أوروبا في نفس القرن .

ومن الواضح لدى رجال الفكر أن الحقائق التاريخية لا قيمة لها ما لم يتم ترتيبها وفحصها بدقة وتحليلها وتوضيح مضمونها بهدف إظهار تأثيرها على سير الحضارة . أما الوقوف عند مجرد جمع الحقائق وسردها . فإن ذلك تشبيه بدور عالم الطبيعة عندما يكتفى بإجراء التجارب في معمله ليُدون نتائجها في مفكرته الخاصة ولا شيء أكثر من ذلك . ومن المتفق عليه عالمياً أن النتائج العلمية تؤدي دورها عندما نصل عن طريق مجموعة كبيرة من الأبحاث إلى ما يسمى بقانون العلم التجريبي . وعلى نفس المنوال فعلينا أن نعترف أن قيمة التاريخ الحقة تتحقق عندما نستطيع من مجموعة الحقائق التاريخية أن نصل إلى خلاصة تاريخية سليمة من ناحية وعندما يتم سرح هذه الحقائق ودراستها بطريقة تجعل في الإمكان أن نلم بمدى تأثير الماضي على الحاضر من ناحية ثانية ..

وهناك نقد آخر يوجه إلى المدرسة الاستقصائية في التاريخ بسبب حرصها الشديد ومبالغتها في الحذر عند استخلاص النتائج التاريخية . وممة مبدأ نأخذ به كل المدارس التاريخية التي لها مكانتها هو أنه ينبغي أن تقتصر الأبحاث التاريخية باستنتاجات حتى ولو لم تتجاوز صحتها نسبة ٧٥٪ . وعلينا أن نعترف أن الأمل في الوصول إلى الحقيقة التاريخية الصرفة محض خيال وأن أسمى ما نتطلع إليه هو الاقتراب من الكمال . ويتحقق ذلك إلى حد ما عن طريق البحث الدقيق ، وإلى حد آخر عن طريق التوفيق في الشرح والتحليل ثم أخيراً بفضل عبقرية ومهارة المؤرخ

المتخصص . وفي نفس الوقت فإن النتائج التي تقل نسبة الحقائق التاريخية فيها عن ٧٥٪ لا تنقل خطورة عن النتائج التي تزيد نسبة الحقائق فيها عن ٧٥٪ ذلك أن المنطق التاريخي الذي يقلل من نسبة الحقائق يكون شأنه مثل من يزعم أن برمبل البنزين يحتوي على عشرة جالونات بدلا من ٣٤ جالونا أو من يزعم أن محيط دائرة الأرض ألفان من الأميال بدلا من ٢٦ ألف ميل . إن الاقتراب من الدقة وليس مجرد المبالغة في الحذر من الخوض في أى استنتاج ينبغى أن يكون هدف المؤرخ .

ويرتبط بهذه الأفكار ذلك الاعتقاد الشائع أن امتناع الشخص عن نشر أبحاثه إنما هو دليل على ارتفاع مستواه العلمي . وليس معنى ذلك أننا نفر نشر العمل الذي لم يكتمل نضجه والبحث غير المقيم ، فذلك أمر آخر بخلاف بالنسبة للقول بأن الدليل على بلوغ الشخص مسنوى العلماء هو امتناعه عن نشر أبحاثه . ذلك أن رفض شخص نشر أبحاثه قد يكون دليلا على خموله وجوده ، وإن كانت هذه الدلالة ليست مطلقة لأن هناك علماء على أعلى مسنوى يترددون في نشر أبحاثهم . ومن ثم فإن الأمر بالنسبة هؤلاء لا يعدو مشكلة من مشاكل علم النفس المرضى ، وهى في غالب الأحيان حالة (قلق عصبي) فكتير من تلك الأبحاث الخاصة بأولئك العلماء عبارة عن محاضرات ألقوها على طلبتهم . فإذا كانت هذه الأبحاث قد أقيمت على طلبية متخصصين في قاعات الدرس فمن باب أولى أن ترى الضوء وإن تنشر . أما إذا أحس الأستاذ بأن هناك من الحقائق ما لا ينبغي نشره فعليه أن يعترف بذلك وبأن أبحاثه ليست صالحة للنشر في أى صورة من الصور . ولكنه ينبغى أن نفرق بين هذه الحالة وبين الأبحاث التي يحول دون نشرها إعدادها على عجل أو افتقارها إلى كفاية العمل التاريخي .

ولعل من الميسور أن نظهر سذاجة النظرة المتألية التي تفترضها المدرسة الاستقصائية في المؤرخ المثالي . فإذا ما كانت هذه المدرسة تنظر إلى المؤرخ المثالي بوصفه الشخص الخالي من الإحساس والعواطف ، الذي لا تسيطر عليه فكرة سابقة ، فإن معنى ذلك أنها تفترض في هذا المؤرخ المثالي حالة من الغباء الذهني . ذلك أن الحياة البشرية في حقيقتها تتصف بالحيوية والديناميكية وتحتاج فيمن يشرحها ويفهمها ويتناولها إلى شخص له نفس هذه الصفات . وإذا ما زعم المؤرخ التقليدي بأن علينا أن نبحث عن الضوء دون أن تمسنا حرارته ، فإن زعمه هذا وإيه ضعيف . فعلى حد علمنا لا يوجد شيء يشع منه الضوء دون أن تولد عنه حرارة سوى حسرة النار أو ما تعرف بـ (الحبب) . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقارن بين ذلك المؤرخ التقليدي وهو

يبحث بلا هدف وسط المادة التاريخية الواسعة والمتناثرة وبين تلك الحشرة الضعيفة التي تنتقل بلا هدف موضوعي أو نتائج محددة . وقد جمع الأستاذ فرديناند شيفل كل خصائص المؤرخ الناجح كما تراه هذه المدرسة التاريخية . ولكنه تجاهل الحديث كثيرا عن تلك القيود التي التزمت بها .

وفي تلخيصه لآراء تلك المدرسة قال : هل من الممكن أن نجعل من كاتب التاريخ شخصاً ذا نظرة غير متحيزة وموضوعية ؟ فلكي يكون موضوعياً صرفاً لابد أن يكون جافاً لا روح فيه شأنه شأن الآلة الحاسبة الجامعة وهي مثالية في الكفاية يرفضها كل من المؤرخ والقارئ . إن من حقنا أن نطلب من المؤرخ أن يكون أميناً ، قادراً على إخضاع كل عواطفه لعقله وفكره ، متمسكاً على قراءة نافذة ، لديه الاستعداد للتعمق في بحنه فضلاً عن الجلبد بهدف الوصول إلى الحقيقة ، بحيث يصدر أحكامه على هذا الأساس .

ولعل من أسوأ ما أصاب الكتابة التاريخية تلك الفكرة المسيطرة القائلة : بأن تلك الكتابة ينبغي أن تكون مهذبة منمقة ، الأمر الذي أساء إلى حيوية وفعالية الكتابة التاريخية . وإذا كان المؤرخون من رجال هذه المدرسة الاستقصائية كثيراً ما يغلب عليهم الميل العاطفي إلى موضوع معين أو مذهب ديني فإنهم يعترفون أنفسهم ولو من الناحية النظرية أن مثل تلك الأشياء هي من أسوأ ما يضر بوضوح الرؤيا وصدق التحليل ، وهما من أهم لوازم المؤرخ .

وإذا كانت المجاملة وحسن الذوق في كتابة التاريخ وتحليل أحداثه هي أهم ما يتباهى به المؤرخ التقليدي ، فانه مما لا شك فيه أن حسن الذوق كما أدركه المؤرخون التقليديون ، أساء إلى كتابة التاريخ أكثر مما فعله التعصب والتحيز وهما الأمران اللذان جاهد المؤرخون سنين طويلة في سبيل القضاء عليهما . ذلك أن الرجل (الجنتلمان) طبقاً للخصائص التي يراها المؤرخون الأمريكيون يستحيل عليه أن يكون مؤرخاً له دوره الفعال في مجال التاريخ ، شأنه شأن اليهودي الذي يستحيل عليه بتروته أن يستري حق الدخول في جنة الله .

نم إن هناك موضوعاً آخر هاماً . لقد أصبح من المعلوم لدى دارس علم النفس الحركي أن بعضاً من نواحي حياة الإنسان التي يتعرض لها في دراسة التراجم التاريخية لها دورها الهام في تفسير شخصية الإنسان وسلوكه في ماضيه وحاضره . ولا نقصد بذلك الأمور المرتبطة فقط بالناحية الجنسية والغريزة . والمؤرخ التقليدي حين يجد شخصية أسطورية ويجعل منها مثلاً أعلى إنما يخلق شخصيات أسطورية ليجعل منها موضوعات لجهوده في الترجمة ، هذا فضلاً عن أنه في كتابته

المهذبة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وما ينبغي أن تكون عليه الطبقة البرجوازية المالية في ذهنه ، يتناول بمنتهى الدقة والمجاملة أهمية العوامل المادية على التطور التاريخي . وما دامت الاشتراكية والحديث عنها يرتبطان بالنواحي الاقتصادية فإن ذلك كفيلاً بأن يجعله يعتبر الخوض في هذه الموضوعات وكأنه شيء يتنافى مع الذوق بدرجة كبيرة .

ويرتبط بذلك مايفترضه المؤرخ في حديثه عن شخصية من الشخصيات من ضرورة مراعاة إظهارها في صورة نبيلة من ناحية الهدف والطبيعة ، فضلاً عن الحرص على الارتقاء بتلك الشخصية عن توافه الأمور ، كل هذا جعل من البداية أن أى مجهود يبذل في مجال التراجم ، أو أى مادة تستخلص من مادة التراجم ، عديمة القيمة ولافائدة تجنى من ورائها . إن ماينبغي أن يفترض في مؤرخ التراجم الحديث والموثوق فيه هو أن يجعل من دراسته دراسة حياة متكاملة عن الإنسان الذي يدرسه على النحو الذي عاشه هذا الإنسان . ومعنى هذا أن تكون النظرة إليه بوصفه إنساناً لا يختلف عن بقية البشر في كل مااتفق عليه علماء وظائف الأعضاء وعلماء النفس وعلماء الأمراض العقلية بخصوص تصرفات البشر وأهدافهم . وقد عبر جيمس ترسلو آدمز في كتابه الحافل الذي أسماه : « فلسفات حياة » عن الخلاف بين أصحاب النزعة الطبيعية من ناحية ، والمؤرخ الغامض من ناحية أخرى ، وذلك عندما شرح في ذلك الكتاب مدى تفهم العصور الوسطى وإدراكها للصفات البشرية . إن الذي يعالج شخصية من الشخصيات ينبغي عليه الإلمام بالجوانب الإنسانية في الشخصية التي يدرسها مع توفر الاستعداد الفني لديه لمعرفة دوافع السلوك الإنساني . ثم عليه بعد ذلك أن يمضي قدماً في جمع الحقائق وتنظيمها وتفسيرها مستهدفاً بذلك شرح الطريقة التي عمل بها ذلك الفرد الذي يترجم له منذ مولده حتى وفاته سواء أكانت شخصية تفيض بالنبل والإخلاص التامين وعاش يدافع عن العدالة الإنسانية . أم كانت نموذجاً فريداً يتصف بالغرور والأنانية والفساد والظلم .

ثم هناك فكرة أخرى خاطئة وهو ما جرت عليه العادة من عدم تناول أعمال المؤرخين بالدراسة إلا بعد وفاتهم فنحن نكتب في حرية تامة عن رالف الأصيل لأنه مات ولا نكتب عن واحد من المؤرخين الأحياء . ومعنى ذلك أن للمؤرخين الأحياء أن يفعلوا ما يشاءون ، وأن يأتوا بما شاءوا من آراء ونظريات باطلة تستطيع أن تجد مكانها وتبقى مدة تزيد عن الأربعين عاماً قبل أن يظهر من يتناولها بالبحث والنقد . وبصرف النظر عما لذلك من أثر سيء على التاريخ فإنه اتجاه غير شريف وغير رياضي . فمن أعدل الأمور أن نهجم المؤرخ وهو حي حتى نمكته من الدفاع عن نفسه .

ومن أسوأ نتائج مسألة مراعاة الذوق في الكتابة التاريخية أن نجد علماء المؤرخين وقد صار لهم وجهتا نظر متناقضتان عن مسألة من المسائل . مثال ذلك : موضوع من هو المسئول عن الحرب العالمية ، أو طبيعة التجربة الشيوعية في روسيا السوفيتية وكيف انتشرت . نجد الأستاذ الفطن له وجهة نظر أمينة ومنطقية قائمة على الحقائق يدلى بها صراحة لأصدقائه المقربين وطلبته حين اجتماعه معهم في قاعات البحث ، فإذا ما نشرت أبحاثه وكتبه تجده وقد ترك جانباً آراءه ومعتقداته الخاصة التي أدلى بها في قاعات البحث ليبدل بآراء مخالفة تتمشى مع الآراء التي يجمع عليها أبناء مهنته وزملائه من المؤرخون . وقد تجد هناك فارقاً كبيراً بين الرأيين . فهل يحدث مثل هذا في العلوم الطبيعية مثلاً ؟ هل يحدث أن يدلى عالم من علماء المواد الطبيعية في مجال خاص برأى عن تطور فإذا ما طلب منه نشره أعطى رأياً مخالفاً ؟

إن بعض المؤرخين المتشددون في الاتجاه القومي مثل دروبسن ، فون سبيل ، فون ترينشك كانوا في وضع أحسن من أولئك الأساتذة أصحاب الرأيين ، لأنهم مع أنهم ذهبوا بالتاريخ في مجرى غير مجراه الصحيح كانوا متحمسين لوطنهم في السر والعلن . وقد يكونون على خطأ لكنهم لا ينافقون فيما دافعوا عنه .

ويمكن القول في صدق إن عقدة المجاملة ومراعاة الذوق هي بلا نزاع التي حالت بين المؤرخين ذوى المكانة المحترمة وبين الإفصاح عن الحقيقة . وكانت عقدة مراعاة الذوق هذه هي المحائل دون إبراز الحقيقة والتزام الأمانة في القول والإخلاص والدقة ، فكان شأنها على هذا النحو شأن التحيز والتعصب للوطن عندما حلت في الماضي دون سرد الحقيقة . وليس معنى ذلك الدعوة الى الكتابة المبتذلة الجارحة ، فليس هناك من يؤيد هذا الاتجاه وليس هناك من يأبى أن تكون الكتابة مهذبة . لكن مكنم الخطورة على الكتابة التاريخية هو أن تتسبب مراعاة الذوق في مصادرة الأمانة والصراحة وقول الحق . ولا يدخل في هذا كل المؤرخين الذين اتسمت كتاباتهم بالدقة . فمؤرخون مثل جيمس هارفي روبنسون ، كارل بيكر ، وبريزر فلد سميث ، فرديناند شيتل ، مثلاً كانوا من أصرح المؤرخين ومع ذلك فإن كتاباتهم اتسمت بالدقة والدماثة .

والحقيقة المفروغ منها هي أن هذه المدرسة الاستقصائية في التاريخ لم يصل أصحابها في مراعاتهم لحسن الذوق في الكتابة حد السيطرة على المشاعر والانفعالات ، لكن كل ما فعلته هذه المدرسة هي أنها تمشت مع اتجاهات رسمية وأقرت آراء معينة من فترات التاريخ . ومثال ذلك مالقيته هذه المدرسة من تأييد حار من جانب المؤرخين الذين اتسم موقفهم بالتحيز والتعصب فيها

بين الحربين العالميتين . وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان الرأي السائد هو إرجاع أصول التاريخ الأوربي والأمريكي الى منبع أنجلوسكوني . وكان الشخص الذي يجرؤ على عرض وجهة نظر مخالفة وينادى بأن الحضارة الغالية هي أصل الحضارات الحديثة يتهم بالزيف والانحراف عن الصواب . لكنه منذ سنة ١٩١٤ صار من المؤلف أن نجد من يرفض وجهات النظر التيوتونية والأنجلوسكونية ووجدنا من يقول : إن فرنسا هي المنبع الحقيقي وهي مستودع الحضارات عبر الأزمان .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

- H. B. Adams, *Methods of Historical*. Johns Hopkins press, 1884.
 A. W. Small, *Origins of Sociology*, chaps. iii - v. University of Chicago press, 1924.
 Guilday, *Church Historians*, pp. 212 - 415.
 Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie*, Book V.
 Ritter, *Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft*, Book V.
 Fuetel, *Histoire de l'historiographie moderne*, pp. 387 - 99, 574 - 614.
 Gooch, *History and Historians in the Nineteenth Century*, chaps. vi - vii, xii, xviii - xxvii.
 Thompson, *History of Historical writing* Vol. II, chaps. xxxvii, xli - xlii, xlv, xlvii.
 Schervill, *Six Historians*, pp. 125 - 190.
 B. E. Schmitt, ed., *Some Historians of Modern Europe*. University of Chicago press, 1942.
 S. W. Halperin, ed., *Some Twentieth century historians*. University of Chicago press, 1961.

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

- Herman Ausubel et al., *Some Modern Historians of Britain*. Dwyden press, 1951.
Historians and Their craft. Columbia university press, 1950.
 R. L. Schuyler, ed., *Frederic William Maitland*. University of California press, 1960.
 Gettrude Himmelfarb, *Lord Acton*. University of Chicago press, 1952.
 H. F. Helmolt, *Leopold von Ranke's Leben und Werken*. Leipzig, 1921.
 S. Steinberg, ed., *Die Geschichtswissenschaft der Gegenwart in Selbstdarstellung. Lungen*. Leipzig, 1925-26. 2 vols.

- Guiland, *Modern Germany and Her Historians*.
- G.A.H. von Below, *Die deutsche Geschichtsschreibung Von Befreiungskriegen bis zu unseren Tagen*. Munich 1924.
- Gustav Wolf *Einführung in das Studium der neueren Geschichte*. Berlin, 1910.
- Halphen, *L'Historire en France depuis cent ans*.
- Louis Halphen, et al., *Historie et historiens depuis cinquante ans*. Paris, 1927-28. 2 vols.
- Croce, *Storia della storiografia italiana*.
- P.N. Miliukov, *Main Currents of Russian Historiography*. Moscow, 1898.
- Kraus, *A History of American History*.
- The Wrinting of American History*, chaps. viii, ix, xi-xii.
- M. E. Curti, ed., *Theory Practice in Historical Study*. Social Science Research Council, 1946.
- Elizabeth Stevenson, *Henry Adams: A Biography*. Macmillan, 1955.
- J. R. Cameron, *Frederick William Maitland and the History of English Law*. University of Oklahoma Press, 1961.
- Henri Marrou, *De la connaissance historique*. Paris, 1956.
- William Dray, *Laws and Explanation in History*. Oxford University Press, 1957.
- Fritz Wagner, *Geschichtswissenschaft*. Berlin, 1951.
- Moderne Geschichtsschreibung*. Berlin, 1960.
- H. W. Odum, ed., *American Masters of Social Science*. Holt, 1928.
- A. M. Schlesinger et al., *Historical Scholarship in America*. American Historical Association, 1932.
- J. M. Vincent, *Historical Research: an Outline of Theory and Practice*. Smith, New York, 1929.
- G. G. Crump, *History and Histoical Research*. London, 1928.
- Allen Johnson, *The Historian and Historical Evidence*. Scribner, 1926.
- G.V. Langlois and Charles Seignobos, *Introduction to the Study of History*. Holt, 1912.
- Ernst Bernheim, *Lehrbuch der historischen Methode und Geschichtsphilosophie*. Leipzig, 1908.
- H. C. Hockett, *Critical Methode in Historical Research and Writing*. Macmillan, 1955.
- Heinrich Srbik, *Geist und Geschichte vom deutschen Humanismus his zur Gegenwart*. 2 vols. Munich, 1951.

الفصل الحادي عشر

الحربان العالميتان : انهيار الدراسة التاريخية ثم نهضتها .
الحربان العالميتان والصدام بين القومية والمنهج العلمى فى الكتابة التاريخية .

بدأت حركة البحث التاريخى وكأنها وصلت فى سنة ١٩١٤ إلى أسمى درجات الموضوعية وعدم التحيز . فاستهدف الباحثون التحررى عن الحقائق أكثر من استهدافهم التعبير عن مشاعرهم الوطنية . ولكن هذا لم يحل دون ظهور بعض الأعمال التاريخية الهامة التى طغى عليها الصبغة الوطنية وإن كانت هذه الظاهرة — خروجاً على القاعدة العامة . ذلك أن المؤرخ الذى سمح لمشاعره الوطنية أن تطفئ على أحكامه أو تنال من اتزان فكره كان موضع نقد شديد ، فى حين أن المؤرخ الذى توافرت لديه القدرة على عدم التحيز — خصوصاً فى الموضوعات ذات الآراء المتضاربة أو الأبحاث التى تمس عزة وطنه كان موضع احترام وتبجيل كبيرين .

ولكن حدث مع مجيئ الحرب العالمية الأولى أن انبعثت المشاعر القومية من عقالها بما أدى إلى نكوص الكتابة التاريخية إلى الوراء ، أى إلى العهد السابق لفون رانكه .

وإذا قارنا كتابات المؤرخين عن الحرب العالمية بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩٢٠ بكتابات مؤرخ مثل فوستيل دى كولانج عن العنصر الجرمانى أو بكتابات فون سيبل عن الحرب الفرنسية البروسية ، لوجدنا أن هذه الكتابات الأخيرة تتصف بأنها من النوع الهادئ الذى يتبع التحليل التاريخى . والحق أنه ليس من المبالغة فى شئ أن نقول إنه منذ أيام ماجدبرج ، بارونيوس ، فوكس Khox وميمبرج Maimburg لم تشهد الكتابة التاريخية ما شهدته على أيام الحرب العالمية من عنف وغلظة

وبعد عن الهدوء . فرجل مثل أدوارد ماير من أعظم المؤرخين الذين بقوا على قيد الحياة ، وشهدوا هذا العهد ، نراه وقد تخلى تماما عن انزائه وابتعد عما يفرضه شرف مهنته فاستسلم للهستيريا الوطنية الى أصابت كافة المؤرخين في كل البلدان . ثم كان أن أخذت مختلف الحكومات في نشر « وثائق رسمية » عن أزمة سنة ١٩١٤ مستهدفة بذلك تبرير سياستها وللأسف امتدت يد التغبير والتزييف إلى هذه الوثائق ، وأسهم المؤرخون أنفسهم في هذا التزييف ، ولم يحدث منذ العهد المسيحي الأول أن شهدت الوثائق التاريخية تزييفا على هذا النحو الواسع المدمر .

وفي بداية الحرب أصدر عدد كبير من الأساتذة الألمان البارزين « بياناً » يوضح وجهة النظر الألمانية في مشكلة الحرب وأسبابها . وكان من بين الموقعين عليها عدد من المؤرخين ، شاءت الصدفة وحدها أن تؤيد ما قالوه وأذاعوه . ومعنى ذلك أن افتراءهم من الحقيقة لم يكن مرجعه أنهم نبذوا العاطفة جانباً مما مكنتهم من أن يكونوا خبراً من الأساتذة الذين بحثوا الاتفاق الودي مثلاً . هذا فضلا عن أنهم لم تكن لديهم معرفة بخبايا الوثائق التي أيدت ادعاءاتهم فيما بعد . أما أدوارد ماير فقد برك العمل في مؤلفاته العلمية لكي يصدر المقالات التي يهاجم فيها الامبراطورية البريطانية وبتتفدها نقداً لاذعاً . هذا في حين تولى ديتريخ سافر Dutrich Schafer الدفاع في حماسة عن برنامج الحركة الجرمانية وكان هذا هو أبرز ما قام به العدو الألماني حين لجأ إلى التاريخ يستخدمه لمساندة القضية الجرمانية .

أما المؤرخون الفرنسيون فكانوا أكثر نشاطاً وتحمساً وإثارة من الألمان . وكان أرنست لافيس هو عميد المؤرخين الفرنسيين على الإطلاق بالنسبة لما كنبوه عن حرب ١٩١٤ . وترجع شهرته في هذه الناحية إلى تحمسه السابق للثقافة الألمانية ثم تزعمه لحركة تجريح الألمان بعد ١٩١٤ . ذلك أنه رفض علانية في إبريل ١٩١٥ اقتراحا بمحايدة بأن يتولى رجال الفكر في الدول المتحاربة دراسة فضية الحرب وشروط السلام . وهاجم الألمان في كثير من خطبه ومقالاته حتى قال في خطبة له عن المانيا في جامعة السوربون : إنها (المانيا) تسمم الفكر مثلما تسمم الماء والهواء . إنها أكبر مفسدة على وجه الأرض » . ثم إنه خاطب المندوب الألماني في مؤتمر الصلح في باريس قائلاً : « انتم هنا أمام قضائكم للإجابة عن أكبر جريمة ارتكبتوها في التاريخ . انكم ستكذبون لأن طبيعتكم الكذب . ولكن كونوا على حذر . إن الكذب مهلكة خصوصا إذا عرفتم السذين يسمعون لكم وينظرونكم يعرفون انكم تكذبون » .

أما الفونس أولارد المؤرخ العالمى الشهير عن النورة الفرنسية ، فكتب عن الألمان قائلا : « إن الكذب هو المهنة القومية للألمان . وعليه يقوم نظام حكمهم . لقد أسس الهوهنزولرن الحكومة البروسية على أساس الكذب . وأخيراً وعلى نفس الأساس ولمصلحة بروسيا أسست الحكومة الألمانية . وتأسف أولارد لعقد هدنة مع الألمان ، لأنه رغب في ذبحهم وافنائهم . أما هنرى هاوس Henri Hauser المؤرخ الخبير في دراسة القرن السادس عشر فقد هاجم في عنف روح الاستسلام عند الألمان ، كذلك استفز جورج بلوندل Blondel — وهو المؤرخ الفرنسى الرائد في دراسة المانيا الحديثة — الألمان في كتابات مطولة منها إياهم برغبتهم في إقامة دكتاتورية عسكرية تفرض سيطرتها على كل انحاء العالم . وتطوع المؤرخ لافيس في نشر كل أبحاث الألمان غير المؤمنين بالمبادئ الجرمانية مثل ريتشارد جريلنج واستبعد من مهنته نشر ما أصر عليه الكتاب الألمان الذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم للنزعة الجرمانية مثل الكونت ماكسيميلان مونتجلاى . وحرص أميل بورجوى Burgeois وهو المؤرخ ، والناسير الشهير على الدفاع عن روسيا وعدم إدانتها بالنسبة لهذه الحرب . أما جورج رينارد Renard وهو صاحب المذهب الاشتراكى والمؤرخ الاقتصادى البارز فقد أسهم في الدعاية لصالح الحلف المعادى لألمانيا ، والذي كان من سياسته مقاطعة كل ما هو ألماني .

وفي إنجلترا كتب ويكهام Wickham steel قصصا لا تستند إلى الحقيقة عن جذور الحرب . وادان النمسا ومجد الصرب . أما ر . و . سيتون وأطسون فقد دافع عن السلاف الجنوبيين وأدان سياسة الامبراطورية النمساوية المجرية . أما ج . و . هيدلام الذى كتب سيرة بسمارك فقد اشترك مع ه . ج . ولز Wells في تنظيم وإخراج الدعاية المضادة لألمانيا . وفي مقابل هذه الخدمة أنعم عليه بلقب سير وأصبح يعرف بالسير ج . و . هيدلام مورلى J . W. Headlam — Morley كذلك سقط المؤرخون الانجليز في هذه الهوة فيما عدا قلة قليلة مثل ريموند بيزلى Raymond Beazley ، ف . و . هيرست ، ف . ك . كونبير . كان هيرست أساسا رجل اقتصاد وكونبير متخصصا في دراسة الانجيل . بل إننا نجد رجلا مثل المؤرخ الاقتصادى العظيم ذى الشهرة الواسعة اركيديكون وليم كنجهام Archdeacon William Cunningham يهاجم النزعة المسالمة عند الانجليز ، ويرى أن واجبه أن يتعقبوا من يسعى لاستئصال الخير من هذه الدنيا ، ويقول انه من الواجب على الجنود الانجليز ان يقتلوا الألمان قدر استطاعتهم . وقد جمعت نداءاته التى تنادى بمزيد من دم العدو وطبعتها جمعية نشر الإنجيل .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد خرج عدد كبير من المؤرخين على ما سبق أن التزموا به فكريا وفاقوا بانكروفت في حماسهم الوطنية . ومرجع ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بعيدة عى أى خطر حقيقى . وفى غياب طلقات المدفع ، كان على الجماهير الأمريكية ان تتأثر بطلقات ملتهبة من البلاغة والبيان . ثم إنه لم يكن هناك غنى عن الدعاية لبناء معنويات الأمريكيين وجعلهم يستعدون للتضحية بالدم . وهكذا تعرض المؤرخون الأمريكيون القليلون الذين التزموا بالموضوعية التى كانوا عليها قبل الحرب للامتهان . واتهموا فى بعض الأحيان بأنهم منشقون على الفكر الأمريكى . ومن هؤلاء سيل Sill شيفل ، طومسون ، هندرسون ، شيفرد Shepherd ، بريزرند سميت وآخرون . لكن الهجوم كان أقوى على أولئك الذين أيدوا الألمان مثل الأساتذة برجس ، سلون Sloane وأنتخب وليم روسكوثير رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية مرتين لأنه كان من أكثر من ساهم فى مجال استخدام التاريخ للدعاية الحربية . ولم تجد التحذيرات التى أطلقها هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens فى خطابه الذى ألقاه يوم انتخاب رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية قبل الحرب بعام .

أما من تزعم حركة التنديد بالألمان من المؤرخين الأمريكيين فهم وليم روسكاتاير ، شارل دونر هازن Charles Downer Hazen وليم ستيرنس دافيس William Stearns Davis مونرو سميت ، ألبرت بوشنل هارت ، إيرل ا. سبرى Earle E. Sperry ماك نت ماك الروى R. Mc Elory ، Nutt Mc Elory ، ا. رايچوند تيرنر ، برنادوت شمت ، كلود هالستد فان ثين . ومن أعجب الأمور حالة المؤرخ جورج لنكولن بير الذى كان واحدا من أبرز ستة مؤرخين فى أمريكا وكان من دعاة التسامح . ولكنه وقد جرفته تيار التعصب برغم تقدم سنه ، ارتدى البدلة الكاكية وتدريب مع الشباب فى معسكرات كورنل . كذلك ساهمت جامعات معينة فى إخراج دراسات تاريخية عن فلسفة الكراهية للألمان . وأبرز مثل لذلك ما أصدرته جامعة وسكونستين بعنوان (كتاب الحرب) . هذا عدا وثائق مشابهة أصدرتها جامعات أخرى . وخير دليل على التحول عن الموضوعية كان ما انتجته منظمة الهيئة القومية لرعاية التاريخ (The Organization of the National Board For Historical service) التى كان يشرف عليها الاساتذة جـ . ت . شوتويل ، جـ اى س . فورد Gay S. Ford ، وما قامت به هذه المنظمة من تعاون مع مكتب كريل وهو الفرع الرسمى الحكومى المختص بأمور الدعاية . وكان أن نافس شوتويل جيمس هارفى روبنسون فى زعامة المدرسة الجديدة فى التاريخ . وساعده فى الهيئة القومية من سجلت أسماؤهم فى

لوحة الشرف مؤرخون سبق أن كانوا من أبرز المؤرخين الأمريكيين تجلت فضائلهم فيها قاموا به من أبحاث تاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا اتجهت الكتابة التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية لخدمة شئون الدعاية وأخذ المؤرخون الأمريكيون المشهورون يسهمون فيها تنشره هذه الجمعيات التي يغلب عليها الطابع الوطني مثل مجلس الأمن القومي وجمعية الدفاع الأمريكية ولم يقتصر الأمر على ما وجه للألمان من كونهم أمة صغيرة أقل شأنًا من الأمة الأمريكية بل صار هناك تركيز حول ما لبريطانيا من فضل على الأمريكيين . وكان معنى ذلك أن الثورة الأمريكية صارت خطأ ينبغي استهجانه . واستمرت رئاسة اتحاد الجمعيات التاريخية مدة عشر سنوات بعد الحرب يتولاها أولئك الذين يكرمون مقابل ما أدوه من خدمات لقضية الحلفاء .

ثم أقبل الفجر

وإذا كانت العاطفة والولاء ظلتا تستحوذان على عقول معظم المؤرخين لمدة عشر سنوات أو أكثر بعد سنة ١٩١٨ ، فإن هناك تحولاً محدوداً سرعان ما ظهر بين قلة من المؤرخين ذلك أنه ظهرت مصادر جديدة يسترشد بها الباحث بدلاً من تلك الوثائق الرسمية المنتقاة بعناية والتي طبعتها الحكومات المختلفة خلال الحرب . وتوفرت هذه المصادر نتيجة لما قام به عدد من الأساتذة العلماء الذين لم يجرفهم تيار العاطفة خلال الحرب أو من بين أولئك الذين تخلصوا من هذا التيار بعد الحرب . وهؤلاء وهبوا أنفسهم لدراسة الوثائق التي صدرت عن الحرب . وكانت النتيجة أنه خلال عشر سنوات أصبح لدينا معرفة متكاملة ودقيقة عن أسباب الحرب العالمية الأولى أكثر مما لدينا في سنة ١٩١٤ عن أسباب الحرب البروسية الفرنسية .

وإذا كانت الكتابة التاريخية خلال الحرب قد تركت أثراً عميقاً على خط سير الأبحاث التاريخية ، فإن الجهد الذي بذله عدد من أقدر المؤرخين بعد انتهاء الحرب في الدراسة التي قاموا بها وتناولوا فيها مقدمات سنة ١٩١٤ يعتبر من أبرز الأمثلة على عظمة ما ظهر من أبحاث تاريخية في مدى قرن كامل .

وعلينا الآن أن نتقصى أسباب هذه النهضة التي لحقت بالكتابة التاريخية في إيجاز والتي خرجت إلى حيز الوجود بعد انتهاء الحرب . ذلك أنه كان من المعتاد حتى الوقت الذي اندلعت فيه نار

الحرب العالمية الأولى أن تخفى الحكومات الوثائق المتعلقة بالأحداث الخاصة بسياساتها الخارجية لمدة أربعين أو ستين سنة من تاريخ حدوثها .

فمثلاً في سنة ١٩١٤ لم تنشر كل من فرنسا أو ألمانيا الوثائق الخاصة بالحرب البروسية الفرنسية التي وقعت سنة ١٨٧٠ . فكيف أمكن إذا للمؤرخين في مدى ربع قرن فقط منذ ١٩١٤ أن يفرغوا من دراسة تلك الوثائق التي جاءت بها الحرب العالمية دراسة لا مزيد عليها ؟ الواقع أن الموقف كان يشكل تماماً تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ البشرية ، ذلك أنه نجم عن الثورات التي تأججت في كل من النمسا ، وروسيا وألمانيا في سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ قيام حكم جديد في كل منها لم يكن له مصلحة في إخفاء الحقائق بل كان نشرها أمراً يساعد على زعزعة الثقة في النظام الملكي السابق على وجود هذه الأنظمة . وقد استهدفت هذه الأنظمة الجديدة في تلك البلدان من وراء نشر تلك الوثائق الموجودة في وزارات الخارجية ، إبراز الحقيقة الخاصة بأن الحكومات الإمبراطورية هي المسئولة عن إشعال نار الحرب العالمية . واعتقد الحكام الجدد أن ذلك أمراً من شأنه أن يدعم الحكم الثوري الجديد . كذلك أحس هؤلاء الحكام أن كراهية الناس للأنظمة القديمة تأتي من خلال معرفتهم بأن الحكومات الملكية هي المسئولة عن الدمار المخيف الذي لحق بالعالم من جراء الحرب العالمية .

وهكذا تطوعت الحكومات النمساوية والألمانية في نشر طبعة كاملة للوثائق الموجودة في وزارات الخارجية لديهم والتي تناولت حرب ١٩١٤ ونشرت هذه الوثائق في النمسا تحت اسم « الكتاب الأحمر » وفي ألمانيا عرفت باسم Kantsky Documents ثم نشر الألمان فيما بعد كل الوثائق الخاصة بالفترة منذ سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . كما أصدر فردريك ثيم Thimme وآخرون الكتاب الشهير باسم « السياسة الكبرى » Gross Politik تاركاً الوثائق تتكلم عن سياسة ألمانيا الخارجية في نصف القرن السابق على قيام الحرب وفتحها الدول الأخرى أن تفعل ما فعلته ألمانيا . ونشرت النمسا هي الأخرى فيما بعد جميعاً مختصراً في ثمانية أجزاء للوثائق الخاصة بالفترة منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ . وقام بتدوين هذه الوثائق لودفيج بتمبر Ludwig Bittner وهانز اوبرسبرجر Hans Ubersberger . وكشفت هذه الوثائق عن العلاقة بين النمسا والصرب فضلاً عن أنها تضم فحوى ما تدعيه النمسا ضد الصرب والروس .

وبالمثل حدث تقدم كبير في وزارات الخارجية في دول الحلفاء من أجل نشر الوثائق وكانت روسيا أولى الدول التي نشرت وثائقها بادئة بنشر مواد المعاهدات السرية للاتفاق الودي بين دول

الحلفاء الذى وقع فى نوفمبر ١٩١٧ . ولم تنتظم الحكومة الروسية البلشفية فى طبع وثائقها وإنما سمحت للدارسين الفرنسيين والألمان مثل رينيه مارشان Rene Marchand فردريك ستيف Fredrich Stieve أن يطلعوا على الاراشيف ويأخذوا منها ما يرونه مناسباً لأبحاثهم . وكان أن جمع ستيف الوثائق التى أمكنه الاطلاع عليها ونشرها فجاءت شيئاً لا نظير له من حيث تحرى الأمانة والدقة . كذلك قام ب . دى سيبر B.de Siebert سكرتير السفارة الروسية فى لندن بنسخ الوثائق المتبادلة بين سانت بطرسبرج ولندن فى السنوات السابقة على الحرب . وأعد الوثائق للنشر . أما إ . أ . اداموف E.A. Adamov فقد اعد للطبع الوثائق الخاصة بصراع روسيا للسيطرة على المضائق .

وكانت الحكومة البريطانية أول حكومة غير ثورية تتطوع بنشر وثائقها الخاصة عن نشوب الحرب العالمية ، فبدأت ذلك فى خريف ١٩٢٦ . وصدر من هذه الوثائق الرسمية عن أصل الحرب أحد عشر جزءاً تناول الأحداث من سنة ١٨٩٨ — ١٩١٤ . وقد قام بإعدادها للطبع ج . ب . جوش ، G.P. Gooch / هـ . و . ف . تمبلى . وإذا كانت الحكومة الفرنسية لم تنشر وثائقها إلا بعد عام ١٩١٤ بما يتجاوز عشر سنوات فإننا نستطيع أن نتعرف على الحقائق الأساسية المتعلقة بالدبلوماسية الفرنسية من واقع الوثائق الروسية والبريطانية ، لأن الفرنسيين كانوا حلفاء الإنجليز والروس فى تلك الحرب . وقد أوضح ما قام به ديمارتال Demartial فون فرجر von Wergerer وآخرون معها أن الوثائق الفرنسية التى صدرت باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى صدرت خلال الحرب ما يضاهاها فيما حوته من تحريف . ولا يقارن بها فى ذلك الاتجاه سوى ما أصدره الروس باسم الكتاب البرتقالى ..

وبناء على طلب الباحثين، المعاندين من كل أنحاء العالم وبناء على طلب عشاق الحقيقة فى فرنسا ، أعلنت الحكومة الفرنسية أخيراً فى سنة ١٩٢٨ أنها ستطبع الوثائق المحفوظة فى وزاره خارجيتها والمتعلقة بأزمة ١٩١٤ وعن التيارات السياسية المتعلقة بسنوات ما بعد ١٨٧١ . وأوضح روبرت دييل Deil فى بحث له دقيق نشر فى لندن بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٨ فى صحيفة الأمة أن اللجنة التى عهدت إليها الحكومة الفرنسية باختيار الوثائق وإعدادها للطبع لم تهتم بالدقة والأمانة.

ومراعاة الترابط والتكامل فيها تنشر . ولم تضم اللجنة أحداً من المعارضين للحكومة أو المؤرخين بقصد مراجعة هذه الوثائق ، وقال ديل ما نصه : « إن الحكومة الفرنسية اعترفت أخيراً بأنها لا يمكن أن تمتنع وعاطل أكثر من ذلك في طبع وثائقها الدبلوماسية المتعلقة بأصل الحرب . ولذلك ألفت لجنة من ٤٨ شخصاً للإشراف على عملية النشر وتضم هذه اللجنة أربعة أمناء كان ثلاثة منهم موظفين حكوميين كما ضمت اللجنة بين أعضائها ثلاثة عشر من المرزلقين الدائمين في وزارة الخارجية الفرنسية ومن رجال السلك السياسي ، معظمهم كان من له اهتمام عن قرب بالأحداث التي أدت إلى الحرب . وتشكيل اللجنة على هذا النحو يؤكد سوء قصد الحكومة الفرنسية وبوضوح أن الحكومة الفرنسية لن تنشر كل وثائقها لأنها إن فعلت ذلك سسضح أن كثيراً من الحقائق حذفت واستبعدت من كتابها الأصفر . وقد أيب ذلك من قبل م . ج . جورج دباريال في كتابه الصغير (انجيل وزارة الخارجية الفرنسية) وهو الكتاب الذي لم يصدر عنه نقيب ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التعقيب .

وفي سنة ١٩٢٩ ظهرت الأجزاء الأولى من الوثائق الدبلوماسية الفرنسية ١٨٧٨ — ١٩١٤ وأخذت طابعاً معيناً في اختبارها وإعدادها للنشر . لكن هذه الأجزاء التي صدرت فافت في دفتها أى كنب أخرى صدرت عن هذا الموضوع .

وكان أن أغار الألمان خلال الحرب على الأرشيف البلجيكي ونشروا مجموعته الوثائق الدبلوماسية البلجيكية تحت إشراف برنارد شورتفجر Bernhard Schwertfger أما مجموعته الوثائق الخاصة بالتاريخ الدبلوماسي للعرب فقد قام بنشرها ميلوخ بوجهتشوتش Milosh Boghitschewitsch ذاتها . وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بنشر وثائقها الدبلوماسية عن فترة الحرب وكان فيما قامت به الحكومات في هذا المجال ما جعل في الإمكان أن نتكلم عن جريمة الحرب فور انتهائها مباشرة مستندين إلى مصادر عن جريمة الحرب . ولأول مرة في التاريخ البشري يستطيع جيل عاش حرباً عظمت أن يعرف الحقائق من مصادرها .

وبالإضافة إلى الوثائق التي يستند إليها في معرفة تاريخ حرب ١٩١٤ ، فإن معظم كبار الدبلوماسيين الذين نهضوا بدور هام في تلك الحرب نشروا ذكرياتهم أو يومياتهم التي تتضمن آراءهم بالنسبة للأزمة . ومن هؤلاء القيصر ، فون بثمان هولوج Von Bethman Hollweg ، فون جاجو von Jagow ، فون مولتكا ، فولكتهان ، بورتاليز Pourteles ، فون شون Von

Schoen ، ليكنوسكي Lichnowsky ، هويس Hoyos ، كوراد ، موسرلين Muslim سazanov ، سيلنج ، روزن ، دبرورسكي ، نوناكاريه ، فعالى ، بالبولدج اسكوب ، جري City . تشرنسل ، برقي Bertie بوكاتان Buchanan ، هالدين Haldene ، سى Nitti . وقد حال الموت بين ايزفوسكى وبين إتمام مذكراته ولكن رسائله الى حفظت بالكامل . شرب بعد ذلك وبجسج هذه الرسائل كثيراً من الحقائق التي نفوى ما كان منتظراً أن تكشف عنه مذكراته . وذلك لم يتمك ليوبولد بيركتولد Berchtold من إتمام مذكراته لأنه حل بيه وبين استخدام الوثائق المحفوظة في فينا استخداماً حراً .

ومع أنه ينبغي أن نستخدم هذه الكتب بحذر ، إلا أنها غالباً ما تساعدنا على فهم الوثائق تفهما أعمق ، وعلينا أن نعى عماما الدوافع التي سيطرت على الدبلوماسيين الذين سوا الحرب أو أولئك الذين فشلوا في منع اندلاعها ومع ذلك فإنه من مصلحة الكاتب في الوقت الحاضر أن يلتقى بنفسه مع الدبلوماسيين الهامين المسئولين عن أحداث سنة ١٩١٤ وستجلى منهم الكثير من النقط الناقصة أو المتضاربة .

وقد تناول جورج بيبودى جوس Gooch الحديث عن المادة الخاصة بأحداث الحرب وهى المادة الغزيرة المتسعة ، وذلك في كتاب له صدر سنة ١٩٢١ سماه (أحدث الكسوف في ميدان الدبلوماسية) وروجع هذا الكتاب وأضيف إليه وهو ممتاز بالانزان والدقة وانزان الأحكام حتى إنه نفى بالغرض إلى حد كبير ، وإن كان في بعض الأحيان قد غالى في احترام بحار الكذب الذين يشغلون مناصب عليا .

وكان من الطبيعي أن تبدأ في ألمانيا قبل غيرها دراسة جذور الحرب العالمية الأولى دراسة قائمة على النقد والبحث . وذلك أن مؤرخى دول التحالف اضطروا إلى انقواء بعض الحقائق وطمس بعضها الآخر من أجل الدفاع عما كان بينهم من اتفاق ومخالف . وسبق أن أسرنا إلى الجهود التي بذلت من أجل نشر الوثائق الألمانية من سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . وكان أن تناول عدد من الباحثين تاريخ الدبلوماسية الألمانية في فترة ما قبل الحرب . وخيرة هذه الكتب وأفضلها هو كتاب ايرك براندنبرج Erich Brandenburg الذى يعتبر من أحسن الدراسات عن الدبلوماسية في الفترة السابقة للحرب العظمى كذلك تناول نفس الفترة كتاب فيت فالتين Veit Valentine وهو الخاص بسياسة ألمانيا الخارجية . أما الفترة المخرجة في تاريخ ألمانيا وهى التي شهدت تولي بيلوف Bulov منصب رئاسة الوزارة الألمانية فقد تناولها بوحنا مالر Johannes Maler

Haller . على أن أقوى هذه الدراسات تكاملا عن الدبلوماسية الألمانية في فترة ما قبل الحرب هي ما كتبه أوتوهامان Otto Hammann وتقع في عدة أجزاء ، حيث ان أوتوهامان كان وثيق الصلة لفترة طويلة بوزارة الخارجية الألمانية .

أما هرمان لوتز فقد أعطانا أعظم دراسة لسياسة انجلترا على عهد السير ادوارد جراي ، كما أنه أنجز دراسة من أعظم الدراسات المختصرة المتقنة والدقيقة عن بداية الحرب العالمية الأولى واستند في كتابتها إلى أحدث الوثائق . كذلك قام فريدريك استيف بالكتابة عن سياسة ايزفولسكي وبونكاريه من واقع المعلومات التي توفرت له من دراسة الوثائق الروسية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك دراسة قام بها ماجورجينتر فرانتز عن مراحل دخول روسيا الحرب العالمية وضمن دراسته هذا أمر التعينة التاريخي الذي صدر في ٣٠ يوليو ١٩١٤ . أما أكثر الدراسات دقة عن ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فهي تلك التي قام بها الكونت ماكسميلان مونتجلاس Monteglas إذ لا يباريه أحد في حسن السرد ووضوح العرض . واستطاع ماكسميلان معتمدا على دراسته للوثائق البريطانية الحديثة أن يقوم بعمل موجز فذ عن سياسة سير ادوارد جراي . أما الفرد فون فجرر Alfred Von Wegerer فقد بذل ما في وسعه في دراسة تستهدف إعادة النظر في مشاكل مسئوليته الحرب ، ووجه ضربة عنيفة لرجال السياسة الذين ادانوا ألمانيا في مؤتمر فرساي .

أما خبر ما يقرأ من بين ما كتبه الألمان عن أصل الحرب فهي ما كتبه تيودور ولف Theodore Wolff بعنوان (عشية حرب ١٩١٤) The Eve 1914 وهي كتابة دقيقة برغم ما فيها من قسوة على بركتولد . وأكثر هذه الكتابات متعة هو الكتاب الحديث الذي كتبه لودفيج رينير Ludwig Reiner باسم « انطفأت الأنوار في أوروبا » وقد صدر سنة ١٩٥٥ . وهناك كتاب ألمان مثل هرمان كانتوروتز Hermann Kantorwitz كان لكرهيتهم لأسرة الهونزلرن أثرها فيها أصدره من أحكام فضلا عن تفسيرهم لأحداث الحرب وتميزت كتابة كانتوروتز بتشيعه للإنجليز .

أما عن دور النمسا في أحداث ١٩١٤ فقد تناولها الفرد بريبرام Alfred Pribram لودفيج بيتر Ludwig Bittner هانز اوبر سبرجر Hans Ubersberger أ.ي. ويدل O. H. Wedel . ولكننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الدراسة بالنسبة لقضية النمسا وبركتولد .

وفي هولندا كان رائد الباحثين في فترة ما قبل الحرب وديبلوماسيةيتها هو نيقولا جايبيكس Nicolaus Japikse وقد ظل المؤرخون الرسميون والأكاديميون في فرنسا ملتزمين

بالموقف السليم من الوجهة الرسمية وفي دراساتهم لقيام الحرب العالمية بمعنى أنهم تولوا ترثة فرنسا من مسئولياتها عن الحرب . وخير ما لدينا من هذا النوع من الكتابة هو ما سرده اثنان من أبرز المؤرخين المتخصصين في دراسة الديبلوماسية هما بورجو Burgeois ، باجيه Pages أما بالنسبة للعمل الذي قام به بطرس رينفر Pierre Renouvain والذي حظى ببناء عريض فلا يعدو أن يكون أكثر من تبرير ودفاع عن موقف فرنسا خلال الحرب . ونسبته بعمل رينفو عمل جولس اسحق. Jules Isaac

وإذا كان المؤرخون الفرنسيون لم يتمكنوا من استعادة اتزانهم من أثر صدمة الحرب فإن كثيرين من الصحفيين والناشرين الذين انسموا بالشجاعة قد نجحوا في ذلك ومن أبرز هؤلاء بيفيه Pevet ، دوبان Dupin ، مورهاردت Morhardt مارجریت Margreitte جوديه Judet ، لازار Lazare ولكن أكثرهم كفاءة ومتابعة على العمل هو ذلك الموظف السابق في وزارة المستعمرات الفرنسية جورج دمارتيال Demartial الذي كان غصه في حل أولئك الرسميين الذين انبروا يزورون الحقائق ويختلقون المبررات دفاعا عن فرنسا وانصف عمله بمعرفته دقيقة بالوثائق والدقة المتناهية في سرد الحقائق .

أما جورج ميشون Michon ففد كتب أحسن ما يمكن كتابه وأحسن ما يمكن الاعتماد عليه بالنسبة لتطور التحالف الفرنسي الروسي وهو التحالف الذي لعب دورا كبيرا في دفع أوروبا الى حافة الحرب وهناك الناشر الفرنسي الفذ الفرد فابرلوسى Alfred Faber Luce الذي امدنا بأحسن ما كتبه فرنسى متزن عن حرب ١٩١٤ أما السيد ابراي Alcide Ebray ففد تداول معاهدة فرساي وأوضح ارتباطها بالأخطاء التي حدثت بسبب الدعاية للحرب كذلك درس بإسهاب حوادث انتهاك المعاهدات في أوروبا منذ عام ١٨١٥ مفنداً الزعم الشائع أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي لم تحترم أية معاهدة وأنها كانت تحيلها إلى « فضاة ورنى » .

وظل الصراع من أجل الوصول الى الحقيقة قائما في انجلترا خلال الحرب وبعدها وهي الحركة التي تزعمها كل من فرانسيس نيلسون Neilson ، أ. وموريل Morel واشتهر الأخير بتعريضه بالأعمال غير المشروعة التي قام بها ليوبولد ملك بلجيكا في الكونغو أما أول دراسة ناقدة واسعة تتضمن وجهة النظر البريطانية الرسمية عن أسباب الحرب فقد جاءت في كتاب لورد لوريبرن Loreburn بعنوان « كيف بدأت الحرب » How the War Came وهي الدراسة التي استشهد فيها مؤلفها بالوثائق البريطانية على نطاق واسع كذلك بذل ج.ب جوش Gooch جهدا

كبيراً في هذا الصدد وكان نشطاً وجاداً بوجه خاص في الوصول إلى منطق سليم للأسس السياسية للحرب العظمى ذلك أنه كتب أول دراسة لا نظير لها عن السياسة الأوربية منذ عام ١٨٧٨ حتى عام ١٩٢٠ وقدم خبر عرض في مؤلف حديث اتسم بالبحث القائم على الأسانيد والبراهين كذلك كتب لويز ديكينسون Dickenson أحسن بحث موجز يفى بالغرض عن التيارات السياسية في عام ١٩١٤ والفترة السابقة لها أما سبر ريموند بيزلى فقد كتب خير الكتب الموجزة عن الحقائق المتعلقة بحرب ١٩١٤ وليس لما كتبه شبيهه بأى بلد آخر كذلك كتبت إيرين كوبر ولز Irene Cooper Willis ، وكارولين أ. بلاين Playne أعظم الأبحاث عن هستريا الحرب العالمية والدعاية في إنجلترا خلالها وكما كان الحال في فرنسا كان معظم علماء التاريخ في إنجلترا متشابهين في التعبير عن وجهة النظر الرسمية فيما يختص بكيفية قيام الحرب وخير من يمثل المؤرخين الإنجليز في ذلك أحسن تمثيل رب. موات R.B.Mowat ومن أحدث الكتب الإنجليزية الهامة عن أمل الحرب العالمية ما كتبه ه. و. ولسن H.W.Wilson بعنوان « إثم الحرب » The War Guilt وقد ضمنه كافة الأكاذيب والدعاية التي تردت أثناء الحرب . أما كتاب جون مورلى بعنوان « مذكرات عن الحرب » فقد تضمن ما يتب أن بريطانيا قررت الدخول في الحرب قبل أن تنار مسألة بلجيكا في اجتماعات مجلس الوزراء وأحسن ما كتبه كندى عن حرب ١٩١٤ وسوابقها الديبلوماسية هو ما ألفه المحامى الكندى الشهير ج. س. إيوارت . J.S.Ewart

وفي روسيا لم تهتم الحكومة بتبثيرة النظام القيصرى البالى ومن نم فقد يسرت أمر البحث في أصل الحرب وتزعم حركة البحث هذه ادانوف وبوكر وفسكى Adanov and Pokrovsky أما ميلوش بوجهتشوش Milosh Boghits cheuitsch وهو من الصرب ومن رجال السلك السياسى السابقين فقد كتب عدة كتب عن مسئولية الصرب في الحرب العالمية وإن لم يسمح له بالاطلاع على دور الحفظ فيها . ذلك أن الدوائر الرسمية في الصرب تمكنت من صيانة أسرارها الخاصة بسياسة ما قبل الحرب ولو أن مؤرخاً صربياً هو الذى كشف أن باشيتش Pashitsch ومجلس وزراء الصرب كانوا يعلمون بمؤامرة اغتيال ارسيدوف النمسا قبل وقوعها بعدة أسابيع . وعلى الرغم مما تعرضت له إيطاليا من حكم فاشستى ورقابه صارمه فإن المؤرخين الإيطاليين استطاعوا أن يدلوا بدلوهم في مجال المعرفة عن بداية الحرب وكان الباحثون الرواد في هذا المجال هم كورادو بارياجولو Corra do Barbagallo واغسطين تور Augustine Torre الكونت البرتو لامبروسو واشتهر الأخير بتركيزه البحث على العوامل الاقتصادية والتجارية التي تسببت في حرب ١٩١٤ وتساوله الديبلوماسية الإنجليزية بالنقد .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن رجال الصحافة كانوا أول من انتقد وجهة نظر الدولة الرسمية عن أسباب الحرب العالمية الأولى ودخول الولايات المتحدة الأمريكية فيها . وتشير هنا إلى ما قام به فرانسيس نيلسون ، البرت جاى نوك ، جون كينث تيرنر . وكان سدنى برادشو فاى Bradshaw Fay أول مؤرخ هام فند أسطورة الاتفاق الودى وأثارت مقالاته فى المجلة الأمريكية التاريخية فى أعدادها الصادرة سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ اهتماماً ودهشة بين العالم المتحضر . ثم نشر الأستاذ فاى بعد ذلك بنماني سنوات أحسن وأكمل بحث عن الأسباب السياسية للحرب العالمية الأولى ولم يؤخذ عليه سوى عدم قدرته على دراسة قضية النمسا دراسة كافية . ثم عولجت هذه السقطة إلى حد ما فى طبعات الكتاب التالية وتضمن كتاب المشرع الأمريكى فردريك بوزمان Bausman هجوماً هو الأول من نوعه من جانب أمريكى على الدعاية الخاصة بالتحالف وذلك فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٢ بعنوان : « دع فرنسا تشرح » وكان للعلماء الأمريكيين ابحاثهم فى دراسة الديبلوماسية الأوربية قبل ١٩١٤ . فلدينا التحليل الذى قدمه ميلدرد ورنر Mildred Wertheimer عن العصبية الجرمانية . وهناك كذلك بحث وليم ل . لانجر عن بداية التحالف الروسى الفرنسى . لدينا العرض المنقن الذى قدمه لنا شومان F.L.Schuman عن الديبلوماسية الفرنسية وما قام به أ . ف هندرسون عن نقد لسيرة ادوارد جراى . وهناك الملخص العظيم لفترة ما قبل الحرب أعده ر . ج . مونتاج . أما أحسن الأبحاث واكفوها عن تاريخ أوربا الديبلوماسية قبل ١٩١٤ فهو العمل الذى لم يكتمل بعد والذى قام به وليم لانجر Langer وكان ما تم إنجازه من هذا العمل ينبىء بأنه سيكون أحسن تاريخ ديبلوماسية بالنسبة لكل اللغات طيلة نصف قرن قبل ١٩١٤ . كذلك نمة خلاصة على أعلى درجة من الكفاءة كتبها ج . و . سوين Swin بعنوان بداية القرن العشرين Beginning the twentieth century .

وكان الأمل معقودا بدرجة كبيرة على شميث Schmitt بوصفه أحد الدارسين لديبلوماسية ما قبل الحرب ، ولكن عمله الذى أتمه تحول إلى دفاع من وجهة النظر الرسمية الخاصة بجريمة الألمان وأكاديبهم ، وهو الأمر الذى نقده فى إسهاب م . هـ . كوشران Cochran كذلك هاجم الكتاب الأمريكيون وجهة النظر التقليدية الخاصة بأسباب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . وأعظم الكتب فى هذا المجال هى كتب ك . هـ . جراتان C.H.Crattan ووالتر ميليز Walter Millis ، وما كتبه بصفة خاصة ش . ك . تانسفيل Tansville ، ونمى نقد على نطاق واسع وجه إلى ما زعمه ج . ك . نيرنر من أن العوامل الاقتصادية وخاصة مسائل البنوك

كانت الدافع الذي دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول الحرب العالمية الأولى وتم تغيير هذا الرأي استناداً إلى ما حوته الوثائق من معلومات ، وخاصة تلك التي كشفت النفاذ عنها لجنة ناي Nye كذلك أنكر نيوتن د. بيكر Newton D. Baker بعد عشرين عاماً من ١٩١٨ — أن عامل البنوك كان له أثر في دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . هذا إلى أن الدراسة التي جاءت من عده أجزاء عن دور ولسن والتي قام بها راى ستاندر بيكر Baker تضمنت أعظم المعلومات عن هذا الموضوع .

أما عن نشاط كلود كتشين Claude Kitchin خلال سنوات ١٩١٤ إلى ١٩١٨ فإن الأستاذ الكس . ارنت Arnett قام بدراسة عن حفيظة مؤتمر سنريس الشهير Sunrise Conference وأنبت أن ولسن قرر الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء قبل عدة شهور من إقدام ألمانيا على حرب الغواصات . ومع ذلك فإن المؤرخين الأكاديميين ظلوا غالباً سلبيين أو تقليديين . من ذلك أن شارل سمور بعد فنه خاصة دافع عن الادعاءات التي ترددت أثناء الحرب . وخير ما ينفل لنا صورة ما ترددت فيه الحرب هو ما قرره جيمس طومسون شوبويل أمام اتحاد رجال المال في نيويورك في سنة ١٩٣٦ إذ قال : « لقد قامت هنا الأمة بما ألقاه عليها التاريخ من عمل ، دون أن يكون سبب دخولنا الحرب الحفاظ على أموالنا ، وإنما كان السبب هو الاعتداء على علم بلادنا في أعالي البحار وعدنذ لم نتردد في الرد على ما وجه إلينا من إهانات . »

على أن ما قاله شوبويل لم يشرح السبب الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية نجح من الرد على هجوم بريطانيا على العلم الأمريكي في أعالي البحار ، بل حين حرق العلم الأمريكي وتطايرت شظائيه فوق السفن البريطانية . ولم يتحدث أن قام أسناد بحاثه حتى ١٩٣٦ بنشر بحث دقيق عن سبب دخول الولايات المتحدة الحرب حتى أصدر شارل ك . تانسفيل كتاباً بعنوان أمريكا تدخل الحرب ، وهو كتاب جدير بأن يقارن بعمل فاي .

وهناك سبب هام يكمن وراء عدم قدرة المؤرخين الأكاديميين في دول التحالف على التعبير عن وجهة نظرهم في مسئولية الحرب . وهو أن كثيراً منهم قد عنبوا مستشارين فنيين لأولئك الذين عهد إليهم وضع المعاهدات التي أنهت الحرب . وشعر هؤلاء المؤرخون بنوع من المسئولية تجاه معاهدة فرساي والمعاهدات الأخرى التي عقدت في ذلك الوقت لأنهم اعتبروا هذه المعاهدة من صنع أيديهم ومن ثم يمكن القول إن أولئك المؤرخين الذين اشتركوا في صياغة هذه المعاهدات وجدوا أن مصلحتهم تتطلب الدفاع عن وجهات النظر التقليدية في هذه المسائل .

وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب

يمكن تصنيف الكتاب الذين تناولوا المشكلة العامة لمسئولية الحرب إلى ثلاث فئات :

- ١ - الملتزمين بفكر معين سابق .
- ٢ - المتحفظين .
- ٣ - المنقحين والمصححين للآراء السابقة .

ولقد استخدم الكتاب المحدثون هذه المعايير الثلاثة عند الكتابة عن إثم الحرب ويبحث مسئولية هذا الإثم . وسواء أكان هذا التصنيف مفيداً أم لا ، فإن استخدامه أصبح درجاً في تصنيف وتمييز المجموعات العديدة من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

أما المجموعة الأولى فهم أولئك الكتاب الذين برغم اطلاعهم على الوثائق الحديثة ، فإنهم مازالوا ملتزمين بوجهة نظر معينة كانت سائدة أيام الحرب عن مسئولية دول المحور عن قيام الحرب العالمية . ويتزعم هذه المجموعة من الكتاب هنريك كانر . **Heinrich Kanner** هرمان كانتوروكز ، اميل لودفيج ، ريتشارد جريلنج ، اميل بورجو **Burgois** ، جورج باجيه **Pages** ، انطون ديبودور **Antouin Debidour** ، ويكهام ستيد ، وسيتون واطسون ، ج . وهيرلام مورلي ، هـ . و . ولسن ، شارل دونرهاان ، أ . رايوند تيرنر ، وليام ستيرنز ديفز **Stearns Davis** ، إيرل أ . سبري **Earl E sperry** ، فرانك مالوني اندرسون .

أما المجموعة الثانية فيمثلون الكتاب الذين يستشهدون في أبحاثهم بأحدث الوثائق بالنسبة لمسئولية الحرب ومع ذلك فهم يميلون إلى الأخذ بوجهة النظر التي نجعل دول المحور هم أصحاب المسئولية في بدء الحرب . ويأتى في مقدمة هذه المجموعة بطرس رينفو **Pteier Renouvin** ، ر . ب . موات **R. B. Mowat** ، برنادوت شميت **Schmitt** ، شارل سيمور ، بريستون **Preston** ، و . سلوسن **W. slosson** ، م . ت . فلورنسكى **M. T. Florinsky** ، اسوجن فيشر **Eugene Fischer**

وأما المجموعة الثالثة من الكتاب فهم أولئك الذين فحصوا ما أدلت به الوثائق المعاصرة وماشهدت به عن مسئولية جريمة الحرب وقاموا بتعديل النظريات التي برددت وقت الحرب عن

هذه الجريمة ، وبالتالي فقد صححوا الآراء الخاصة بأسباب هذه الحرب . وهناك من وضع خطأ ضمن هؤلاء الكتاب مثل جون ماينارد كينس **John Maynard Keynes** وغيره من الذين أوصوا بإعادة النظر في معاهدة فرنسا على أساس فساد الجانب الاقتصادى فيها . وإذا كانت هذه المجموعة من الكتاب قد طالبت بإعادة النظر في معاهدة فرساي فإنهم فعلوا ذلك ضمن ما طالبوا به من إعادة النظر في الآراء السابقة الخاصة بمسئولية الحرب . أى أن مطالبتهم بإعادة النظر في المعاهدات التى أنهت الحرب تعتبر جزءا مما التزموا به من إعادة النظر في موضوع الحرب بأسره .

وتنقسم هذه المجموعة إلى معسكرين : فريق معتدل يعتقد أن المسئول عن الجريمة الكبرى التى وقعت سنة ١٩١٤ هم دول الحلفاء لكن ذلك لا يمنع من تحميل دول المحور نصيبها فى المسئولية هى الأخرى ، ومن بين هؤلاء المعتدلين من الكتاب سيدنى ب . فاي **Fay** ، ج . ف . سكوت **J. F. Scott** ، ج . س . ايوارت ، هرمان لوتز ، ح . لويس ديكنسون ، ج . ب . جوش ، كورادو بارباجلو **(Corrado Barbagello)** ، اوبسطو تور **Augusto Torre** فكتور مارجريپ .

أما الفريق الآخر فهو الذى بنادى بأنه لو كانت المانيا والنمسا تنفضها الحذقة وحسن التصرف سنة ١٩١٤ فإنهما غير مسئولتين عن الحرب الأوربية . ويعتقدون أنه يمكن تبرير هجوم النمسا على الصرب وتأييد المانيا للنمسا بأسر مما يمكن تبرير هجوم روسيا على النمسا وتأييد فرنسا روسيا . هذا إلى أنهم يعتقدون أن المسئول أساساً عن هذه الحرب هو ما حدث قبلها من تعبئة الجيىس الروسى . وهذه المجموعة تضم كتابا مثل مكس مونتيلاس ، فردريك سنفل ، جنر فرانتر ، اريك براندنبرج ، بولى هر **Paul Herre** ، الفردفون فجر **Alfred Von wergerer** ، هرمان آل **Hermann Aall** نيفولا جابيكس ، جورج دمارتيال ، ماناس مورهاردت ، جوستاف دوبان **Dupin** الفرد فاير لوس **Luce** ، ف . جونتواردى تورى **F. Gouthenoire de Toury** ، البريو لمبروسو ، م . ن . بوكروفسكى ، أ . أ . آدموف ، أ . د . موريل **Morel** ، راموند بيزلى **Beazley** ، م . اديب ديرهام **Durham** ، ارين كوبر ولز **Willis** ، فرديناند شيفل ، و . أ . لنجلباك **Lingelbach** . م . ه . كوشران **Cochran** ، ت . مون **P. T. Moon** ، و . ل . لانجر ، أ . ه . لىبير **Lybyer** ، جوزيف واردسوان **Joseph Ward swain** ، فردريك بوسمان **Bous-man** وصاحب هذا الكتاب .

وكانت النهضة التى عمت حركة البحث التاريخى سبباً فى إخراج دراسات تاريخية منفه وموضوعيه . ومن هذه الدراسات الكتب التاريخية التى كتبها عن الحرب مؤلفون منفردون مثل

جون بوشان ، هرمان ستجمان ماكسويلان موننتجلاس . وهناك كتب ألفها أكثر من مؤلف مثل تلك التي نشرها ماكس شوارت **schwarte** وثمة مذكرات تاريخية ناقدة مثل تلك التي كتبها الجنرال ماكس هوفمان **Hoffmann** ومن أعظم المؤلفات التي كتبها مؤلف واحد مؤلفات جبريل هانوتو وإن كان يعيبها مسحة من الوطنية الغالبة عليها ودفاعه عن أخطاء القيادة العليا الفرنسية عند بداية الحرب .

وهذه المناسبة فإن هناك كثيرين من الكتاب الذين حرصوا على تبرير سوء تصرف كثير من القيادات العليا أثناء الحرب ومن ذلك ما كتبه ب . هـ . ليدل هارت ، ج . و . هويلر بنت وآخرون وهي دراسات ممتعة شبيهة بتلك الدراسات التي قامت بها مجموعة الكتاب المعروفين بالمنقحين المصححين أو وهي المجموعة الثالثة من الكتاب الذين سبق أن أشرنا إليهم عن ديبلوماسية ما قبل الحرب على أن أفضل الكتب عن الحرب العالمية بلا استثناء في مجال الكتابة التاريخية هو الكتاب الخالد الذكر « التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للحرب العالمية الأولى » الذي نشره جيمس ت . شوتويل في أكثر من مائتي مجلد بمعاونة أساتذة باحثين من كل الأقطار . وتعتبر هذه الموسوعة الكبيرة أعظم مثل على نجاح العمل المشترك في مجال الكتابة التاريخية . وأنفق على هذا المشروع وساهم فيه جمعية كارنيجي الخيرية السلام العالمي بوصفه أحد المشروعات التي تخدم قضية السلام . أما الفائدة العلمية لهذا المشروع فهو أنه استخدم مرشدا لأولئك الذين أداروا دفة الحرب العالمية الثانية . أما أحسن بحث مختصر تناول بالدراسة ذلك الجيل الذي شهد بداية الحرب ونهايتها فهو البحث الذي قام به ج . و . سوان **Swain** بعنوان (بداية القرن العشرين) .

أما الدول التي تحكمت فيها الفاشية فقد طغت فيها القومية الجارفة على اتجاهات الكتابة التاريخية في حين مضت فيها بقية الدراسات التاريخية التي لا ترتبط بالقومية في طريقها الجاد قديماً إلى الأمام . على أنه لم توجد في تلك البلاد دراسة قائمة على البحث العلمي بالنسبة للفترة المعاصرة ، ومن ذلك ما يروى عن هيجل قوله : أنه يؤمن بأن الدرس الوحيد الذي يتعلمه من التاريخ هو أنه لا يعلمنا شيئاً ولا ينطبق هذا القول على أحد مثلما ينطبق على مسلك المؤرخين في كافة الدول خلال الحرب العالمية الثانية بما فيهم أولئك المؤرخين الذين كانوا حدينى العمر عندما (نشبت الحرب العالمية الأولى) وكان بعضهم من المنادين بضرورة إعادة النظر في الآراء والنظريات التي سادت الحرب الأولى . وفي هذه الحرب الثانية - وعلى نطاق أوسع مما كان في الحرب الأولى - اشترك كل المؤرخين في كافة الدول على اختلاف نظمها ، الشباب منهم والسيوخ ،

في الدعاية ، ولم يهتموا سوى قليلا بالحقائق التاريخية . وظهرت كتبهم ومقالاتهم وتقريرهم وقد اصطبغت بنفس الصبغة التي ميزت الأبحاث التي صدرت فيها بين سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، فكل من الجانبين المتحاربين صور الحرب في صورة ، (حرب مقدسة) بالنسبة له . ولم يشذ عن ذلك مؤرخ في أى بلد من البلدان التي اشتركت في الحرب .

وكانت فكرة المراجعة والعودة للموضوعية بعد الحرب الثانية أصعب من تلك التي كانت بعد ١٩١٨ إذ ساد ما يعرف ، بالإلزام التاريخي ، ولم تتجاوز الكتب التي نادت بإعادة النظر فيها قيل وكتب أثناء حرب الولايات المتحدة الأمريكية أعداداً قليلة . فألف الأستاذ نانسل Tansill كتابه (الباب الخلفى للحرب) وفاق هذا الكتاب كتابه « أمريكا تنترك في الحرب » *America Goes to War* وذلك بسبب موضوعيته وتعمقه في البحث . ولم تظهر كتب أخرى في أوروبا حتى صدرت في سنة ١٩٦٦ طبعة كتاب تايلور « أصول الحرب العالمية الثانية » وكان المأمول أن تكون هناك عودة إلى التمسك بوقائع التاريخ وحقائقه عندما يسمح الوقت بذلك ، لكن الحرب لم تكد تنتهي حتى بدأت الحرب الباردة خلال حكم ترومان في ١٢ مارس ١٩٤٧ . ومن ثم فإن كراهية روسيا الشيوعية أو الدفاع عنها داخل روسيا أضيفت إلى الكراهية المتبقية لألمانيا وإيطاليا . وبالنسبة لروسيا وحلفائها الغربيين (من جانب أعدائها الألمان) وعلى حد قول المؤرخ البريطاني الشهير تايلور في المانشتر جارديان . « قد يبدو أنه خلال الحرب الباردة لا يوجد شيء يلزم البعثة بالترام معين . فقد يستطيع المؤرخون الأكاديميون الدفاع عن آرائهم حتى وهم يشغلون وظائف في حكومات دولهم . لكن المشكلة جاءت من أنهم شركاء في هذه الحرب وبذلك صار شأنهم شأن المؤرخين الألمان الذين استخدمهم دكتور جوبلز في دعايته أثناء الحرب »

المراجع :

- M.H. Cochran: Germany Not Guilty 1914 Chap. Stratford press 1931
H.E. Barnes : The Genesis of the world war Chap i.
App. Knopf 1929.
World politics in European Civilization.
Chaps xxi-xxiii Knopf 1930
In Quest of the Truth and Justice. part II Nat. Hist. Soc. 1928
ed. Perpetnal War for Perpetual Peace Caxon Printers 1953.
G.P. Gooch : Recent Revelations of EurOpean Diplomacy Longmans 1928
and later supplements
Arthur Ponsonby : Falésehood in Wartime Allen and Unwin 1928.
J.C. Willis : England's Holy war knopf 1928.
George Demartial : Comment on mobilisa les Consciencs paris 1926.
H.C. Peterson : Propaganda 1914-1919 Yale University press 1941.
Russel Grenfell: Unconditioned Hatred, Devin Adair 1953.
Rene Wormser : The myth of the Good and Bad Nations, Regnery 1954
Hermann Lutz : German French Unity, Regnery 1957
D.F. Fleming : The Cold war and its origins 2 Vols, Doubleday 1961
Louis Morton : Pearl Harbour in perspective A Bi Bliographical survey
V. S. Naval Institute Proceeding, April, 1955.

الفصل الثاني عشر

اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله امتداد جوانب النشاط التاريخي في الأزمنة المعاصرة

لقد أتقن مؤرخو المدرسة الناقدة والمدرسة الاستقصائية فن الوصول إلى الحقائق التاريخية السليمة بنفس القدرة التي أتقن بها عالم التاريخ إعادة بناء تلك الحقائق . لكنهم لم يفعلوا سوى القليل من أجل توسيع نظرة المؤرخ لمعرفة كيف ينتقى الحقائق التي تستحق البحث . ذلك أنهم ظلوا إلى درجة كبيرة قانعين بالاتجاهات القديمة الخاصة بموضوع التاريخ ومادته . وكانت القاعدة العامة هي : أن المسائل الدينية والسياسية ظلت تحظى بالنصيب الأوفر من اهتمام المؤرخين طوال مرحلة تطور الكتابة التاريخية . فعند اليهود اتجهت الكتابة التاريخية إلى إثبات أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم . وفي عصور فجر المسيحية والعصور الوسطى وعصر حركة الإصلاح الديني ، كان الاهتمام بإلغاء القوى الخارقة للطبيعة ، مع السعي لإثبات أن قدرة الله لا يمكن أن تتحداها أو تقارن بها قدرة الإنسان . وسيطر هذا الدافع على الأعمال التي ظهرت خلال تلك العصور من خلال سفرى عنذا ونحميا ثم كتابات القديس أوغسطين ، واروزيوس ، واوتو المنسوب إلى فريزبرج ، بارونيوس ، بوسويه ، بالي ، ميرل دويني ، مونتاج سومر ، هنرى اوزبرن تايلور .

وحتى في أيامنا هذه يحرص المؤرخون البارزون على تأكيد وجود الله عن يقين ويفصلون في أسمائه وصفاته . من ذلك أن هنرى اوزبرن تايلور مثلاً وهو من رواد التاريخ الثقافي الأوربي ورئيس سابق للجمعية التاريخية الأمريكية أكد هذه الحقائق في كتاب من أحدث كتبه حيث قال (إن الله موجود ، وعلينا أن نتأكد من وجوده دائماً وأبداً . وإن البراهين الفعلية على وجود الله هي التي تتغير وتفقد قوتها ، أما هو فباق لا يتغير . إن الإحساس بوجود الله وما ينبجم عن ذلك من قوة

وراحة هى أعظم حقيقة فى الحياة البشرية . وستظل الأمور تثبت لنا وإلى الأبد أن الأعمال الطيبة التى يرضى عنها الله هى تلك الأعمال التى ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالله وبقدرته وحبه . كذلك سيظل التقدم البشرى يتحقق تباعاً بفضل العبقريّة المتحررة والعزيمة التى لا تعرف الكلال وبفضل رضى الله ومحبة الإنسان . وكان يحدث دائماً خلال الأزمان التى تعترض طريق الإنسان إلى الحرية أن يتجه الإنسان بروحه إلى الله حيث الرحمة والخلود) .

ويتنصف النصف الأخير من القرن الماضى بوجه عام بأنه عصر الكتابة التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة . فلم يقف الأمر عند حد ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة ، بل ضعفت كذلك قوة اليقين فى طبيعة الله وقدرته الخارقة تجاه القوى البشرية . إن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى ما احتواه الإنجيل لم يضعف من شأن المعتقدات الدينية القديمة والتفسيرات الراسخة فحسب ، بل أوضحت على نطاق واسع عدم ملاءمة بعض النظريات الدينية المترتبة للمسائل المتعلقة بحجم الكون وطبيعة نظامه . وأمام هذا الموقف ، فإن المؤرخ المطلع والمفكر أخذ يتردد بين أن يحزر نفسه من آراء اللاهوت أو أن يفترض الثقة بالله ، حتى مع اعترافه بأن مشاكل الكون غدت فى هذه الأيام أكثر إثارة للتفكير وأكثر أهمية مما كانت عليه بالنسبة لشخص مثل أوغسطين أو لوثر . أما الأفكار الأخرى التى تسلطت على فكر المؤرخ التقليدى وهى اهتمامه بشئون السياسة وأحداثها — فقد ماتت هى الأخرى ولكن فى صورة أبطأ — وإن ظلت لها قوتها ووزنها الذى يحول دون تطور الكتابة التاريخية لتطابق العقل وتتسم بالشمول . هذا مع ملاحظة أن الرواية السياسية كان لها تراث لا يقل فى مكانته عن الرواية اللاهوتية ، فحدث خلط عند اليهود بين مسائل الدين والسياسة . واتسع أفق الاهتمام التاريخى عند هيرودوت بعض الشيء وتركز نسبياً على الموضوعات السياسية ، ولو أن أباً التاريخ ، كان أقل تعصباً فى هذا المجال من أى مؤرخ آخر من المؤرخين القدماء ، فاهتم بصورة لا بأس بها بالعناصر المكونة للثقافة كما اهتم بالمقارنات . وكانت غالبية المؤرخين المشهورين — منذ ثوكيديدس حتى فريمان ، درويزن ، روس وغيرهم ممن لم يهبوا أنفسهم لدراسة قضايا المسيحية أو دراسة أحد مذاهبها وفرقها العديدة — يتجهون لدراسة الأحداث المختلفة والروايات المتداولة عنها أو تتبع الطوائف المرتبطة بالتاريخ السياسى والدبلوماسى والتاريخ العسكرى . بل إننا نصادف مؤرخين مثل دروزين ، فريمان ، سيبلى ، شفر Schafer يعلنون فى صراحة وفى تجن أن التاريخ ليس إلا دراسة السياسات القديمة ويرون أن هناك من أخطأ من المفكرين فشغلوا أنفسهم

بدراسة تاريخ الحياة الاقتصادية والنظم الاجتماعية فضلا عن الأدب والفنون الرفيعة الأخرى وغيرها من النواحي الهزيلة في نظرهم .

ويرجع الالتزام بهذا المنهج السياسى فى العصور الحديثة إلى حد كبير إلى تأثير عاملين غير واضحين تماما ، أولهما رأى هيجل فى الدولة وثانيهما الروح القومية . ذلك أن فلسفة هيجل أكدت أن الدولة هى.أسمى شىء خلقه الله على هذه الأرض . ولا يخفى علينا أن فلسفة هيجل كان لها أنصار وأتباع كثيرون بين العلماء الألمان الذين وضعوا أسس علم التاريخ فى صورته الحديثة فى النصف الأول من القرن الماضى . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من إحساس بالقومية ، وهو الإحساس الذى ازداد قوة وبلغ أشده خلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون بوجه خاص والذى استند إلى أسس تكنولوجية خلال الثورة الصناعية . وكان أن تجمعت عدة أحداث قومية أثارت حماسة المؤرخين فى القرن التاسع عشر منها ذكريات الثورة الفرنسية والانتصارات التى حققها بوناپرت ثم بزوغ الروح الجرمانية بعد حرب التحرير وتوحيد الإمبراطورية ، والشعور الذى طغى على الإيطاليين فى إحساسهم القوى نحو الحاجة للوحدة الإيطالية ، وهو الشعور الذى ملك كلاً من مشاعر دانتى وميكافلى ومازىنى ، ومشاعر الإنجليز تجاه المعارك التى خاضوها فى أسبانيا فضلا عن موقعة واترلو وكذلك التوسع الذى تحقق لإمبراطوريتهم بعد سنة ١٨٧٠ ، وزهو الأمريكين بقيام الجمهورية الفيدرالية وانعزالها عن الحرب الأهلية الكبرى . وبالإضافة إلى هذه المسائل القومية ذات الصبغة السياسية وجد مجال آخر ذو صبغة سيكلوجية وثقافية مثل نظرية التفوق العنصرى والثقافى . وهكذا كانت فلسفة هيجل من ناحية والحركة القومية من ناحية أخرى كفيلاين مع بعضهما البعض بجعل معظم المؤرخين يقصرون نشاطهم على التاريخ السياسى .

وكان من الممكن ألا نشكو من انصراف هؤلاء لخدمة التاريخ السياسى وحده لو أنهم طوروا دراسة النظم السياسية وأضافوا إلى معلوماتنا الشىء الجديد عن تطور الدولة وأجهزتها المختلفة . ولكن الملاحظ هو أن الشطر الأعظم من هذا التاريخ السياسى انحرف عن اتجاهه الصحيح نتيجة عاملين نبعاً أساساً من تأثير الحركة الرومانسية على الكتابة التاريخية . وأول هذين العاملين هو النظرية الرومانسية التى نادى بأن التاريخ ينبغى أن يتضمن الحياة والمتعة ، ومن ثم فإن الأحداث المثيرة تعبر عن أجمل حلقات المادة التاريخية . وأما العامل الثانى فهو وجهة النظر المستقاة إلى حد كبير من كارليل وتلاميذه القائلة بأن التاريخ ليس إلا مجموعة تراجم شخصية . ومن ثم فقد برز إلى حد كبير عامل الاهتمام بالأشخاص فى الكتابة التاريخية على اختلاف أنواعها . ونتيجة لهذه

الاتجاهات والمثل العليا اتجه معظم التاريخ السياسى فى القرن الماضى إلى أن يكون أساسا تاريخ تراجم وسرد أحداث ، وبذلك لم يلق إلا قليلاً من الضوء على المشاكل المتعلقة بأصول الأنظمة السياسية الكبرى وتطورها . حقيقة أن هناك كتابات خاصة بالتاريخ الدستورى مثل تلك التى كتبها ويتز Waitz ، فوستيل ، ماتلاند ، لوشير ، ازمين Esmein ، فيوليه Viollet ، فلاش ، برونر Brunner ، ج.ب.آدمز . ولكن من المغالطة أن نقول إن الأعمال التاريخية بوجه عام والمتعلقة بالتاريخ الدستورى بوجه خاص كانت أكثر توضيحاً عن تاريخ الدولة من تلك التى كتبها أساتذة التاريخ السياسى فى ذلك العصر . وكانت السمة الغالبة على الكتابة التاريخية المحترمة فى القرن الماضى هى سرد تفصيلات لا داعى لها لكنها تستثير دهشة القارئ .

وفضلاً عن ذلك فإن الكتابة المتسمة بالديناميكية والحيوية فى التاريخ السياسى وتاريخ القانون — مثل كتابات برونر ، ايزمن ، فلاش ، مايتلاند وآدمز — كانت هى الأخرى مما يصعب الدفاع عنها . فالدولة ليست هى كل مجال المجتمع البشرى ولا هى الوعاء الوحيد للثقافة ، ولكنها ليست سوى الفيصل فى عملية التطور الاجتماعى والحكم بين المصالح الاجتماعية والثقافية المتضاربة والتى لأكثرها دور جوهري أكثر من الدولة ذاتها . وتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض يؤدى إلى إعداد العناصر الديناميكية والخلاقة فى تطور الإنسان والمجتمع . هذا وإن كان ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن دور الدولة فى إبراز حيوية هذه العناصر وتفاعلها وتصارعها المستمر يفوق كونها عامل اضمحلال وهدم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإنه كان ينبغى أن تكون الدراسة التفصيلية عن تطور الدولة مجالها فى العلوم السياسية أكثر منه فى علم التاريخ ، وبرغم ما يقال من أن معظم كبار المؤرخين فى كافة الدول الحديثة وخاصة فى أوروبا ظلوا على ولائهم التام للمنهج السياسى ، إلا أنه حدث تقدم ثورى فى النصف الأخير من القرن الماضى استهدف توسيع مجال اهتمام المؤرخ . وربما كان مرجع ذلك إلى التطور الثقافى الملحوظ فى تلك الفترة وإلى التقدم الذى حدث فى العلوم الطبيعية والاجتماعية فضلاً عن عدم التزام العلماء الباحثين ورغبتهم فى التحرر ، وهو الأمر الذى مكن المؤرخين القادرين والمبتكرين من تنفيذ إرادتهم والتعبير عن رغباتهم فى حرية كبيرة . هذا إلى أن التقدم الملحوظ فى العلوم والتكنولوجيا والنظم الاقتصادية وما نجم عن كل ذلك من تغيرات اجتماعية وثقافية ، أدى إلى تزايد الاهتمام بتاريخ العلم والتكنولوجيا والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى . هذا إلى نشأة علوم النفس والأجناس والاجتماع التى أدت إلى طرق جديدة

ساعدت على دراسة الإنسان وأوجه نشاطه في المجتمع ويسرت السبيل أمام من يرغب في الإقدام على مثل هذه الدراسات . ومع أن هناك ثمة مبالغة في اهتمام بورخهاردت ، وسيموندس ، بدراسة حركة النهضة فإن هذا الاهتمام في حد ذاته كان دافعاً إلى إثارة اهتمام أكبر بتاريخ الأدب والفنون الرفيعة . وبرغم ما كان للحركة الرومانسية من آثار سيئة سبق أن أشرنا إليها ، إلا أن هذه الحركة كان لها الفضل في توسيع دائرة معرفة المؤرخ وذلك عن طريق إثارة اهتمامه في العقيدة الدينية بوصفها شريعة عالمية فضلاً عن إثارة اهتمامه بالفلسفة والفن والأدب . وبالإضافة إلى ذلك كله ينبغي أن ندرك الأثر الذي أحدثه تزايد الحاصلين على درجات الدكتوراه في الفلسفة على تطور التاريخ في صورته الجديدة . وكان التحول في أول أمره جافاً ، بطيئاً وتقليدياً . لكنه مع الزمن أصبح من الضروري وجود عدة موضوعات جديدة وجد فيها أساتذة التاريخ المتبرمون مادة للكتابة التاريخية هم مرغمون على قبولها رغم أنها خارج النطاق المألوف للتاريخ السياسي والديبلوماسي . وبحلول الفجوة (في المنهج القديم) أصبح الانطلاق سهلاً منها . على أنه ينبغي أن ينسب شرف هذا الاتساع في أفق الدراسات التاريخية إلى بعد نظر وابتكار وجراءة أولئك المؤرخين أصحاب نظرية التجديد في علم التاريخ . ذلك أنه إذا ما نظرنا إلى ما حدث من تغيير بوجه عام دون أن يكون من وراء هذا القول حماسة أو اعتزاز قوى لوجدنا أن هذه الحركة التي استهدفت ديناميكية التاريخ واتساع أفقه قد وجدت أرضاً صلبة في الولايات المتحدة أكثر من أي مكان آخر بينما صادفت أكبر معارضة لها في بريطانيا العظمى .

أما وجهة نظر أولئك الذين اعترضوا على توسيع أفق البحث التاريخي فقامت على أساس أن عمل المؤرخ وواجبه يقتضيان أن يقوم بوصف كل طور من أطوار تطور الثقافة والنظم لشعب ما من الشعوب فبينما المؤرخ المخصص في جانب معين ربما يقنع باختيار ذلك الجانب من جوانب تاريخ الحضارة الذي يهيم أكثر . وكان معنى هذا التحول أن المؤرخ المهتم بتاريخ الأدب الأنجلو سكسوني أو فنون المعرفة عن الأيرلنديين في القرن السادس ينبغي أن ينظر إليه على أنه مؤرخ حقيقي شأنه شأن المؤرخ الذي يتتبع تطور الـ Witangemont أو التحولات التي طرأت على الأسرة السكسونية . ولا نقصد بذلك أن على المؤرخ ألا يهتم بالأحداث وقيمتها ، ولكن ما نقصده هو أن الفكرة بالنسبة للكتابة التاريخية الديناميكية تتعارض في قوة مع الرأي القائل بأن دراسة مظهر معين من مظاهر نشاط البشر من شأنه أن يطغى على الأنشطة الأخرى وأن لا ينبغي أن نركز على دراسة مظهر معين من مظاهر الثقافة ونهمل ما عداه .

إن ما يطالب به المؤرخ الجديد هو ألا يحل اهتمامات جديدة محل الاهتمام بالموضوعات السياسية المألوفة ولكن عليه أن يقر بضرورة وصف كل جانب من جوانب الحياة والثقافة في المجتمع . ومن الواضح أنه مع اتساع مجال التاريخ بهذه الطريقة تصبح عملية الإلمام الشامل بكل جوانب تاريخ دولة قومية بمفردها أمراً يستلزم تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين الدائبين . ولا ينبغي أن يعتقد فرد واحد أن بإمكانه أن يلم بكل نواحي التاريخ لمجتمع معين ولو عن فترة قصيرة . وهكذا أصبحت الأعمال التاريخية العظيمة في حاجة في المستقبل إلى جهود مشتركة .

وما دام كثير من المؤرخين صاروا غير قانعين بالتأريخ للشخصيات السياسية في المجال السياسي ، فإن ذلك جعلهم أكثر اهتماماً بكل المكاسب التي حققها البشر على الأرض ، سواء كان ذلك في مجال الثقافة أو الاقتصاد . والاجتماع أو السياسة أو العلوم الطبيعية أو الدين . وساعد على ذلك تقدم علم الفلك الحديث وما أتى به هذا العلم من أبعاد جديدة بالنسبة للكون . كذلك ساعد في هذا المجال تطور وجهة النظر تجاه الحياة والثقافة ونشأة علم النفس وعلم الاجتماع فضلاً عن تقدم الحركة الصناعية الحديثة والحياة المدنية وتقدم الدراسات العديدة في مجالات مختلفة في عصرنا الحاضر . ومع أنه كانت هناك جهود يعتد بها في هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ خلال فترة العقلانية والرومانسية إلا أن التطورات المعاصرة جاءت في صورة أكبر وأضخم تنوعاً وأكثر تعدداً . ذلك أنها قامت على أساس من المعرفة أوسع وأكبر ، فضلاً عن دراسة أدق في مجال البحث التاريخي .

تاريخ الفكر

كان تاريخ الفكر من أولى الجهود المتعددة الجديدة بالإشارة لأنها استهدفت الخروج بالتاريخ عن دائرة الأحداث السياسية وجعله يهتم بدلاً من ذلك بتطور الثقافة البشرية . ونعني بتاريخ الفكر الجهود التي بذلت لاستعراض انتقال أفكار ومعتقدات وآراء الطبقات المثقفة منذ العصور البدائية حتى عصرنا الحاضر . وينادي المتحمسون لهذا الاتجاه في التاريخ بأنه كما يقال بأن عقل الإنسان هو العامل المكمل لشخصيته وسلوكه فكذلك الاتجاهات الثقافية المتنوعة في كل عصر هي أكثر الأمور أهمية في مجال التأثير الموحد والمنظم على تطور الحضارة البشرية .

ولقد أوضح فرنسيس باكون في كتابه « تقدم المعرفة » الخصائص المختلفة لهذا اللون من التاريخ حين كتب يقول : « لم يحدث أن اقترح شخص على نفسه أن يقوم بدراسة الخصائص العامة للمعرفة ووصفها من عصر لآخر على غرار ما فعله كثيرون من وصف الطبيعة وخصائص الدولة المدنية والدينية . وبدون الاتجاه لدراسة المعرفة يظل تاريخ العالم أشبه شيء بتمثال بوليفيمبوس ذي العين الواحدة ، لأنه لا غنى عن هذا الجانب من التاريخ الذى يوضح روح الإنسان وحياته » . وعبر الدكتور صمويل جونسون عن نفس هذه الحقيقة عندما قال في بعض كتاباته : « ليس هناك جزء في التاريخ مفيد بوجه عام مثل ذلك الجزء المرتبط بتقدم الفكر البشرى وتدرج الرقى العقلى والتقدم المتوالى للعلم ودورات المعرفة والجهالة التى تعتبر دورات نور وظلام بالنسبة لفكر الأحياء ، وظهور وإحياء الفنون وثورة عالم الفكر » . أما عالم الاجتماع الفرنسى أوغسط كونت فقد أشار إشارة طيبة إلى ذلك ، هذا فضلاً عن أنه أخرج في فلسفة التاريخ بحثاً يقوم إلى حد ما على نظريته العامة عن المراحل الكبرى لتطور الاتجاهات الفكرية ، والتى أطلق عليها علوم الدين ، الميتافيزيقا ، والعلوم التجريبية .

كذلك قام ج . ستانلى Stanley بعمل ربط أكثر أهمية في دراسته لتطور علم النفس الوراثى الذى بناه على أساس فكرة أنه ينبغي دراسة العقل البشرى تاريخياً من أصوله في الحياة الفكرية عند الكائنات الأولية إلى أن نصل إلى أوجه نشاطه في الإنسان الحديث . ثم إن علم النفس الاجتماعى أيد علم النفس الوراثى وذلك في الأبحاث التى قدمها باجهو Bagehot ، تارد Tarde ، دركهيم Durkheim وآخرون . أما أبحاث كل من و . ا . هـ . ليكى W.E.H. Lecky ، اندرو هوايت ، جون و . درابر ، ويوسف ماك كاب Joseph Mc Cabe فقد أثارت اهتماماً كبيراً في هذا الميدان حيث انهم عرّضوا بعض صور الجهالة في عرضهم للتقدم الفكرى في أوروبا . وكان أول مؤرخ معاصر أولى قدراً من الرعاية المنظمة في هذا المجال هو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦-١٩١٥) ، ذلك أنه اعترف بالنتائج التى قام بها كونت في هذا المجال ، ولكنه أتم عملاً أكثر من عمل كونت إحصائياً . وإلى لامبرخت تنسب فكرة تقسيم التاريخ إلى فترات طبقاً للمؤثرات النفسية السائدة في كل فترة والتى تتابعت واحدة بعد الأخرى في التاريخ ، فضلاً عن أنها تعطى خصائص الثقافة لكل عصر وتبني الطريق لثقافة العصر الذى بعده ، وإذا كان لامبرخت قد وضع هذه القاعدة لتتمشى في جوهرها مع التاريخ الألماني وحده فإنه كان من دواعى الغبطة له فيها بعد أن يرى هذه القواعد تصلح لأن تكون إطاراً ينتظم داخله التاريخ العام للثقافة

البشرية . ثم كان أن خصص تلميذه كورت بريزج جهوده الأخيرة في دراسة تأثير المعرفة على مجرى التاريخ .

ومع أن كثيراً من المؤرخين المتفقيين مع لامبرخت في نظريته العامة أكدوا أن تفسيره الخاص متمم وغير موضوعي أو منهجي بحيث يصعب تطبيقه حرفياً على تفسير التاريخ الثقافي في أوروبا ، إلا أنهم أقرّوا صلاحية نظريته العامة القائلة بأن السمات الاجتماعية والنفسية السائدة في أي زمن تمثل أعظم الأسس قوة لتنظيم اتجاهات التطور الثقافي بوجه عام . وقد نظر هؤلاء المؤرخون إلى تفسيراته الخاصة بوصفها مثلاً من أكبر الأمثلة على مدى ما فعلته الجهود الذاتية والمصطنعة لتقسيم تاريخ البشر إلى مراحل من التطور ، وهو الأمر الذي اتسمت به معظم كتابات الباحثين وخصوصاً الألمان منهم عن التطور الاجتماعي والثقافي ، وذلك في مجال الأنثروبولوجيا والاجتماع . وهكذا اتهم لامبرخت بأنه ضحي بالدقة في سبيل رتابة الموضوع ووحدة العرض وبساطة التنظيم . وكان أن نجم عن هذا النقد تطوير ذو طابع عملي وأكثر مرونة في تنظيم التطور الفكري وعرضه في أوروبا ، ونعني به دراسة طبيعة الأفكار السائدة والتغيرات التي طرأت عليها والاتجاهات الفكرية في المجتمع الغربي منذ العهود الأولى في الشرق القديم حتى أيامنا هذه . وروعى في هذه الطريقة الجديدة الالتزام بنوع معين من التفسير أو أي تنظيم جامد معد من قبل .

وكان الأستاذ جيمس هارفي روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦) أحد أساتذة جامعة كولومبيا السابقين — أبرز شخصية تناولت هذا الاتجاه الأكثر جدة وارتباطاً بالمنهج العلمي . ذلك أن روبنسون استطاع أن ينمي اهتمامه بهذا المجال عندما قام بدارسة مبتكرة عن تاريخ طبقة المفكرين في أوروبا ، وهي الدراسة التي أجراها بشكل تجريبي منذ جيل مضى . ولم يلبث أن أصبح بحثه أكثر الدراسات شيوعاً وأكبرها أثراً في هذا النوع من الدراسات التاريخية . ويمكن التعرف على الخطوط العامة لأرائه وطبيعة هذه الآراء ومجالاتها بالرجوع إلى موجز تلك الدراسة التي أعطاها اسم « موجز لتاريخ الفكر في أوروبا الغربية » ثم إنه تناول هذه الدراسة بقدر من التفصيل في أبحاثه « الفكر في دور التكوين » وكتابه « تهذيب المعرفة » و « الكوميديا الإنسانية » . وكان لهذه الأبحاث الفضل في إثارة اهتمام كبير على نطاق واسع في هذا المجال . أما الدراسة التي طالما وعد بها عن تاريخ الفكر في أوروبا باسم « العمل الكبير » فإنه لم يقدر لها أن تنشر^(١) .

(١) لصاحب هذا الكتاب دراسة موسوعة عن تاريخ الفكر والثقافة في غرب أوروبا في ثلاثمائة أجزاء طبعة دوفر سنة ١٩٦٤ .

ولم تلبث أبحاث روبنسون أن أثرت عندما تركت صدى لها في إنتاج طلبته وتلاميذه ، وعلى رأسها تلك الأبحاث الشهيرة التي كتبها بريزرفد سميث عن عصر الحركة الإنسانية والإصلاح الديني فضلاً عن كتابه باسم « تاريخ الثقافة الحديثة » . ومن تلاميذ روبنسون كذلك لين ثورنديك الذي وضع كتاباً بعنوان « تاريخ السحر والعلوم التجريبية في العصور الوسطى » . هذا في حين ألقت الأنسة مارثا أورنشتين كتاباً عن نشأة الجمعيات العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . أما هوارد روبنسون فقد كتب عن بيل Bayle ، وكتب كارل بيكر عن الفكر السياسي الفرنسي والأمريكي ، في حين كتب ج. هـ. راندال عن تاريخ الفكر الحديث . ثم ظهرت حديثاً دراسات عن تاريخ الفكر الحديث كتبها ف.ب. ارتز F.B. Artez ، كران برنتون Crane Brinton ، ايوجين وبر Eugene Weber ، ان. جونسون ، م. كورتي ، هـ.س. كوماجر H.S. Commager ، ج.ج. مارتين وغيرهم .

وإذا كنا ندين للأستاذ روبنسون وأتباعه بتجديد دراسة التاريخ الفكري ووضع معالمها بوصفها واحدة من أعظم الدراسات التاريخية ، فإن هناك دراسات عديدة جديدة في هذا الموضوع كتبها بعض من كانوا أحياناً لا يشعرون بأن هناك كيانات معترفاً به لهذا النوع من الدراسات التاريخية . وقد اهتم هؤلاء الباحثون بمظاهر أو مراحل معينة من تاريخ الفكر . ونخص بالذكر من تلك الأبحاث ما كتبه كل من ليفي بروهل ، فوندت ، جولدنوزر ، بارتلت ، بول رادين Radin ، ماريت Marett وزلر Wissler عن الفكر البدائي للأبحاث التي أسهمت في إثراء حصيلة التاريخ الفكري . كذلك ينبغي الإشارة إلى جهود كل من بريستد ، وارمان ، وروجرز ، وجاسترو ، وروبرتسون سميث ، وورنكلر عن الفكر في الشرق القديم . وهناك دراسات عن الفكر القديم قام بها جومبرز ، كريست ، كروزيه Croiset وواست Aust ، زيلر ، ووبصا Wissowa ، فولر Fowler وغيرهم . هذا عدا البحث القيم الذي كتبه هارناك عن تاريخ العقيدة المسيحية وبحث ليا Lea عن محاكم التفتيش في العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نشير كذلك إلى أبحاث تايلور Taylor ، بول Poole ، رشدال ، هاسكنز ، دي ولف عن الفكر في العصور الوسطى . أما ما كتبه فوج Voigt وسانديز عن المدرسة الإنسانية فتعتبر من الأبحاث الخالدة . وكتب كل من ليكي Lecky ، مورلي ، بن Benn ، ستيفن ، روبرتسون عن نشأة وتأثير الحركة العقلانية الحديثة ويعتبر البحث الذي كتبه مرز Merz من الأبحاث الفريدة عن الفكر الأوروبي في القرن الماضي (التاسع عشر) . كذلك هناك دراسات عن العلوم العقلانية كتبها ديلني Dilthey ، ريكتر Rickert ، فيندالباوند Vindelband . أما بحث مينك Meineck فهو من الأبحاث المبتكرة في

مجال التاريخ الفكرى نظراً لأنه تناول السياسات الحديثة وهناك تواريخ الفكر الاجتماعى التى كتبها شتين ، بارنز ، بكر Becker ، سوروكين Sorokin وهناك الدراسات التاريخية للفكر القومى التى كتبها باحثون أمثال شميدت ، فيشر ، ليفى بروهل ، فاجيه Faguet ، كروس Croce ، ستيفن ، باترن ، ريلى ، بارنجتون ، كورى وغيرهم . ولا يوجد فى أى ميدان آخر من ميادين البحث التاريخى ما هو أغنى بالمصادر من ميدان التاريخ الفكرى ، فضلاً عما للكتب السابق ذكرها من مكانة لا يعلى عليها .

تاريخ العلم

يرتبط تاريخ العلم ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ الفكرى . والواقع أن هناك فى معظم الأحيان ارتباطاً سببياً بينهما ؛ لأن الاتجاهات الثقافية السائدة تحدد بوجه عام طبيعة تطور العلم ومكانه فى الإطار الثقافى . وعلى الرغم من ذلك فإنه كان من الطبيعى ألا يجذب تاريخ العلم انتباه المؤرخين المحترفين إلا بقدر قليل تافه . ذلك أن المؤرخين كانوا أكثر ارتباطاً بالمنهج الأكاديمية والأدبية التى ظلت حتى عهد قريب جداً تنظر باحتقار للعلوم الطبيعية .

وكان أن أصبح من العسير على المؤرخ أن يتجاهل الأهمية الزائدة لأن العلم على تطور الإنسان والمجتمع وخاصة بعد الثورة الصناعية وما صاحبها من تطبيق لمعارفنا العلمية المتطورة مما أحدث انقلاباً فى الثقافة المادية الحديثة — ولم يلبث أن اشترك قلة من المؤرخين الأكثر تطوراً من غيرهم مع العلماء فى علاج أسس هذا الجانب البالغ الأهمية من جوانب التاريخ الثقافى . ولكن معظم الأبحاث فى هذا المجال ظلت من نتاج العلماء الذين لم يوفقوا فى الوصول إلى خير النتائج بسبب نقص تدريبهم على منهج التاريخ وعدم درايتهم بالأسلوب التاريخى . وعندما أقدم المؤرخون على اقتحام ميدان تاريخ العلم اعترضتهم الصعوبة الناشئة عن قلة محصلهم من العلوم الطبيعية . وهكذا صار مطلوباً أن يتدرب كل العلماء والمؤرخين لاستكمال الجانب الذى ينقصهم .

ومما تجدر الإشارة به من الأبحاث الهامة فى تاريخ العلم من جانب العلماء والفلاسفة تلك الأبحاث التى قام بها دينمان Dannemann ، وجنزبرج Ginsburg ، سيد جوك Sedgwick ، تايلر (Tyler) ، لى Libby ، دامير هويتهام Dampier Whetham ، جورج سارتون

وغيرهم . وهناك ماكتبه دكتور سنجر من أبحاث قيمة عن الجوانب المختلفة لتاريخ العلم والفكر وهناك كذلك البحوث الخاصة بالعلم في العصور القديمة من إعداد كانتور ، ميلهود ، بوشيه لبكر ، برتولن دوهم Berthelot Duhem . أما الأبحاث الخاصة بالعلم في العصور الوسطى فقد قام بها دوهم ، كما ألف شيبلي وولف Shipley wolf أبحاثاً موجزة عن نشأة العلم الحديث . ووضع مرز Merz بحثاً جديراً بالتنويه عن تطور العلم في العصر الحاضر وذلك في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ الفكر الأوربي في القرن التاسع عشر » .

وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الخاصة بدراسة فترات معينة عن تاريخ العلم ظهرت هناك أعمال خاصة بتاريخ بعض العلوم ، مثل أبحاث أوزبورن ، وسنجر ، ولوكي Locy ، كاجوري ، ماش Mack ، نورب ، بوير Bauer ، جاريسون ، سودهوف ، سيجرس Sigeris سيجرس وهي الأبحاث التي تناولت تاريخ البيولوجيا والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب ، وتنبيء الإشارة بوجه خاص إلى العمل العظيم لجورج ساريون وفردريك براش Brasch إذ يرجع الفضل إليهما في جذب انتباه كل من العلماء والمؤرخين للبحث في تاريخ العلم فقد كان لساراتون جهوده الهامة بوصفه كاتباً وباحثاً في تاريخ العلم . كما كان للدكتور اسكل ح.س. جوسفسون Josephson . فضله العظيم في عمل ببلوجرافيا عن تاريخ العلم .

وهناك عدد كبير من المؤرخين التقدميين أظهروا حماسة شديدة للاستغلال بتاريخ العلم مثل لامبرخت وأتباعه في ألمانيا ، وهنري بير Burr ومجموعته في فرنسا ، أما في إنجلترا فهناك ف.س. مارفن . وجيمس هارفي روبنسون في الولايات المتحدة الأمريكية . ويضاف إلى الأخير في الولايات المتحدة الأمريكية اسم كل من بريستد ، هاسكنز ، نورنديك ، سميث ، راندال . وثمة كتابان كبيران لهما أهمية خالده ، كنيهما مؤرخون محترفون في مجال تاريخ العلم أولهما لين نورنديك ، وعنوان كتابه « تاريخ علم السحر والعلم التجريبي خلال الثلاثة عشر قرناً الأولى من المسيحية » والآخر بحث للمؤرخ ك.ه. هاسكنز ، بعنوان « دراسات في تاريخ العلم في العصور الوسطى » ويمكننا التنبؤ بأن المؤرخين لن يظلوا طويلاً على إهمالهم لتاريخ العلم . ففي مدى جيل قادم سوف ينال ذلك الفرع من اهتمامهم قدر اهتمامهم بدراسة تاريخ التطور الدستوري . وقد بدت بشائر ذلك الاهتمام فيها قامت به الجمعية التاريخية الأمريكية من تخصص جزء من نشاطها لدراسة تاريخ العلم .

تاريخ التكنولوجيا

من الواضح أن تاريخ التكنولوجيا وثيق الصلة بتاريخ العلم بسبب ما تحدثه من تغيير في الثقافة والأنظمة الاجتماعية . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة واسعة وجدنا أنها التطبيق العملي لمتطلباتنا من العلم . ذلك أن العلم الطبيعي يتصل اتصالاً أساسياً بحياتنا العملية وثقافتنا . ويتم هذا الاتصال عن طريق التكنولوجيا . وتتضح أهمية التكنولوجيا بوجه خاص بالنسبة للتاريخ من الحقيقة القائلة بأن تاريخ التقدم الذي يتحقق في ميدان الحضارة المادية هو في أساسه تاريخ وسجل لتقدم التكنولوجيا . إن التقدم الفني الآلى في العصور الحديثة هو الذى يقرر مدى قدرة الإنسان على فهم الطبيعة واستغلالها وتسخيرها لخدمته . وسواء أكان الرأى القائل بخطورة الأثر الذى تحدثه الحضارة المادية على النواحي الثقافية الأخرى وعلى الأنظمة البشرية موضع قبول أو رفض ، فإنه لا يمكن أن ننكر تأثير الحضارة المادية بوصفها عاملاً هاماً على كل مظاهر الحياة البشرية وأنشطتها .

إن المرحلتين الكبرتين في تقدم التكنولوجيا هما :

١ - تطور الآله

٢ - إحلال الأدوات الميكانيكية محلها .

ولا جتال في أن الثورة الصناعية تمثل أبرز صورة للأثر الفردى الذى تربى على الغبرات التى طرأت على التكنولوجيا . ذلك أن الثورة الصناعية فامب على أساس عدد من التغيرات العلمبه والتكنولوجية فى الغزل والنسيج وصناعة الصلب ، ووسائل النقل والمواصلات . وكان ذلك كفيلاً بتغيير ملامح الحضارة الحديثة ومسيرتها . وعلى الرغم من أهمية تاريخ التكنولوجيا بوصفها أساساً لفهم التطور الثقافى وتطور الأنظمة فإنه يجب الاعتراف بأن جماعة المؤرخين لم يغفلوا أنفسهم جدياً بالبحث فى هذا المجال . وتبدو هذه الحقيقة عندما يستعرض الفرد كتب التاريخ الحديثة إذ نجدها خصصت فصولاً عدة لأحداث سياسة غير هامة نسبياً — مثل عصر الثورة الفرنسية — بينما كان أول مرجع عام فى تاريخ أوروبا الحديث يتضمن فصلاً عن الثورة الصناعية هو كتاب روبنسون وبيرد الذى صدر سنة ١٩٠٧ بعنوان « تطور أوروبا الحديث » . هذا وإن كانت هناك عدة أبحاث سابقة على ذلك الكتاب تناولت تلك الثورة الصناعية من عدة جوانب .

وقد بذل علماء الحفريات وعلماء الحضارة البشرية كثيراً من الجهد لامتدادنا بمعلومات عن أصول التكنولوجيا المادية — مثل ظهور ونظور الأدوات المختلفة — وبعض القوانين الفنية أو اللوائح التي تحكم في أصول الحضارة المادية وتطورها وانتقالها . وكان أن جمع أوتيس ت . ماسون Otis T. Masm في كتابة أصول الاختراعات ، سجلاً عن هذه المواد في أشكالها الأولى وشرحها في صورة وصفية وعلى شكل نظريات . ثم كان أن انتشرت هذه الأبحاث وشاعت بطريقة أحدث في مؤلفات كوينلر Quennelles and Wissler . ومن العصر الذي يعرف بعصر ما قبل التاريخ حتى الثورة الصناعية لم تكن هناك سوى دراسات ضئيلة في الجانب التاريخي الخاص بالأوجه المختلفة للتقدم التكنولوجي . أما عن تاريخ التقدم الميكانيكي الذي جاء به الثورة الصناعية فقد كتبت عنه بعض الكتب مثل تلك التي ألفها أوشر Usher ، كايمبر Kaempffert ، مونفورد وآخرون . هذا بالإضافة إلى ما ظهر من دراسات أخرى هامة عن تاريخ جوانب معينة من التقدم الفني مثل صناعة الصوف والحديد والتصدير ووسائل النقل برا وبحرا والصناعات الكيماوية الحديثة وصناعة الفحم والمطاط والوسائل الحديثة لاستغلال الكهرباء وغيرها .

وقد تمت دراسات عامة عن تاريخ التكنولوجيا أصدرها فيرنندل Vrendel ، أوشر ، ديري ووليام ، ميسك ، كلم Klemm . هذا فضلاً عن الموسوعة المشتركة التي أصدرها شارل سنجر وزملاؤه . كذلك هناك مجهود مفيد مبتكر قام به ثورستين فيبلن متأثر بأراء كارل ماركس حيث حدد مراحل التطور التكنولوجي بوجه عام ووضعه في موضعه الصحيح بالنسبة للتاريخ الثقافي والتطور الاجتماعي والاقتصادي . هذا بالإضافة إلى أنه حاول أن يضمن بحثه حلولاً لبعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى في وقتنا الحاضر . وقد نهج بعض الكتاب نهجاً ولكن بصورة أقل دقة وعمقاً مثل هوبسون ، سومبار وأوجبرن Sombart and Ogburn .

وشهدت السنوات الأخيرة جهداً قام به مجموعة من الباحثين لحياء هذه الدراسات ونشرها على نطاق واسع وخاصة أولئك المؤمنين بمبدأ التخصص .

وربما لا نكون مجازين إذا قلنا إنه ينتظر في مدى جغرافيته أن يظهر عدد من المؤرخين المحترفين الذين يتعقبون في جدية وانتظام العلاقة بين التقدم الفني والتطور البشري والثقافي ، وتبدو ملامح هذا الاتجاه في بعض الاهتمامات التي أبداه حول هذا الموضوع

بعض المؤرخين مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، مارفن ، شوتويل وغيرهم . ولو أن اهتمامهم لسوء الحظ لم يتمخض سوى عن القليل من المؤلفات . ويعتبر كتاب لويس لامنورد الذى كتبه باسم /التطبيقات الصناعية والحضارة ، أول محاولة نرضى عنها لتتبع تطور التكنولوجيا . كذلك طور كمبر واعوانه هذا الموضوع كما تناوله سيجفريد جيدون Siegfried Giedion فى كتابة سيطرة نظام الآلهة ، وكان لروجر بيرلنجام -Roder Burlingame الفضل فى المام الكثيرين بهذا الموضوع بفضل كتابه الذى يدل على مقدرة والذى اسماء «الآلات التى اقامت امريكا» .

التاريخ الاقتصادى

يرتبط تاريخ المسائل الاقتصادية والنظم الخاصة بها ارتباطا شديدا بتاريخ التكنولوجيا بالقدر الذى تكون حياتنا الاقتصادية وليدة التطبيق للتكنولوجيا الآلى القائم على استغلال الطبيعة فى الحدود التى ترسمها الاتجاهات الاجتماعية والأنظمة التسريعية ، خصوصا ما يتعلق بمسائل ملكية الروء وضع الطبقات والتمييز بينها من الجانب الاقتصادى . وعلى هذا فإن المؤرخ الاقتصادى يبدأ مهمته مستعينا بالفنيين وينهيها بمعاونة رجال الاجتماع . ويكاد يقتصر تاريخ الحياة الاقتصادية لشعوب العالم على التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر .

ذلك أن البحث فى الحياة الاقتصادية — شأنها شأن تاريخ العلم — لم يكن أمراً مألوفاً — اذ نبذ المؤرخون هذا الجانب وانحصر تصورهم الرومانسى للتاريخ وبجال كتابتهم فيه على انتصارات الملوك وأخبار القادة العسكريين ورجال الدولة والسياسيين والاعيان . وظهر أول اهتمام منتظم بالتاريخ الاقتصادى بوصفه أحد جوانب العلوم الاقتصادية بصفة عارضة خلال نشاط الحركة التجارية وتقدم البحث فى العلوم الطبيعية . وذلك أن الكتاب عالجوا هذه الموضوعات مع الإشارة فى قليل أو كثير للتاريخ الاقتصادى . وأحسن الأعمال التى يظهر فيها ذلك بصورة عرضية ما كتبه آدم سميث بعنوان «ثروة الأمم» . أما مونتنسكييه فقد شعر بأهمية العلاقات التجارية على تطور الانسان والثقافة . ثم حاول رينال Raynal بعد ذلك بقليل ان يحيط بمظاهر التوسع الاوربى والثروة التجارية فى التاريخ الأوربى .

وتسليم هيرن Heeren وهو الأستاذ النابعة من مدينة جوتنغ بالمانيا بروح مونتسكييه وذلك عند كتابته أول كتاب عظيم عن التاريخ الاقتصادي ، وذلك انه كتب عن التاريخ القديم في ضوء العلاقات بين الحياة الاقتصادية والنشاط التجاري في تلك العصور . ثم ازداد الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي إلى مدى أبعد من ذلك بفضل التصارع بين السياسات التجارية في النصف الأول من القرن التاسع عشر من ناحية ونتيجة للتقدم الذي وصلت إليه مدرسة مؤرخي الاقتصاد الألمانية من ناحية أخرى . وعلى كل فإن الاهتمام الحفيظ بالتاريخ الاقتصادي ظهر بعد ان وجهت الثورة الصناعية الازدهان إلى أثر العوامل الاقتصادية في التاريخ .

وكانت هناك مرحلتان أو نموذجان بالنسبة للتطور الخاص بالتاريخ الاقتصادي . اما المرحلة الأولى تتمثل في ابداع نظرية ومناهج التاريخ السياسي الوصفي ، وذلك بأن سلكت الابحاث العامة طريقاً اخبارياً صرفاً عند وضعها أو تأريخها لتتابع الأحداث الاقتصادية . أما المرحلة الثانية للابحاث الصغيرة المقتضبة حول مشكل ما في التاريخ السياسي أو الدبلوماسي فإن ما يقابلها في التاريخ الاقتصادي كان بدراسة مستغفظة تتناول تطور بعض الأنظمة أو الأنشطة الاقتصادية الخاصة أو عرض موضوع معين في فترة خاصة . ولكن بالنسبة لكلا النموذجية فإن البعثة عليه أن يكون بالغ الدقة واسع الاطلاع وله اهتمام حقيقي ولو محدود بما يدرسه . ومع هذا كله فإن الجهد كان ضئيلاً بالنسبة للربط بين الأنشطة الاقتصادية وأنظمة الحياة العامة للمجتمع ككل ، وبالنسبة لتصوير التطور التاريخي للإنسان والمجتمع مع بيان نتيجة تفاعل وتأثير العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل على التطور الثقافي .

ونجد نماذج لهذا النوع المبكر من دراسة التاريخ الاقتصادي في الأبحاث الشهيرة لروجرز ، جيبس Gibbins ، اشلي Ashley ، كتنجهام ، اونوين Unwin ، لبسون ، كلاهم Clapham ، فارنر Warner ، اناما شترنج Inama Shrnegg ، مافور Mavor ، أوشر Usher ، هيتون Heaton ، بوجارت Bogart ، لينكوت Lippincot ، كومان Coman ، كارمان Carman . هذا بالإضافة إلى رسائل وابحاث عديدة لا يتسع المجال لذكرها هنا . ومن خيرة المؤلفات الجادة في هذا المجال الكتاب الذي ألفه جورج رينارد وزملاؤه بعنوان

«تاريخ العمل». كذلك أخرج هنرى دافيد وزملاؤه عملاً عظيماً آخر مشتركاً عن (التاريخ الاقتصادى للولايات المتحدة الأمريكية).

وثمة نوع آخر من أنواع كتابة التاريخ الاقتصادى أعظم من سابقه وأكثر منه حيوية يمتاز بجودة الربط فضلاً عن أنه يقتصر على سرد المسائل الاقتصادية وإنما وصف تطور الأنظمة الاقتصادية ذاتها. وجاءت أول خطوة هامة في هذا المجال على يد مؤرخى الاقتصاد من رجال المدرسة الألمانية ورائدهم في هذا السبيل روشر Rosher.

ولم تلبث ان جاءت خطوة أخرى أكثر تقدماً عندما بذلت محاولة على قدر المستطاع لتوضيح الترابط بين تطور الأنظمة الاقتصادية والأنظمة الاجتماعية الأخرى. وعلى الرغم من أنه كانت هناك جهود مبكرة في هذا المجال منذ عهد أرسطو وما بعده، إلا أن الإنتاج العظيم في هذا الموضوع تمثل فيما أسهم به كارل ماركس إذا حكمنا على مجهوده في هذه الناحية بصرف النظر عن النظرية الاشتراكية التي نادى فيها بإعادة البناء الاقتصادى. ويؤكد هذه الحقيقة عديد من الكتاب الذين تزعم بعضهم حركة النقد لمذهب ماركسى المتطرف مثل كوفالفسكى، شومولر Schomoller، سومبار Sombart، بوشر Biicher، وبر Weber، ليفاسير Levasseur، هوبسون Hobson، وب، هاموند، تاوفى، فييلن، كونبر Connors، جراس Cras، فولكبر Faulkner، كيركلاند Kirkland، دورفمان Dorfman، كوشران Cochran، ميلر Miller، كلف Clough.

ومن الواضح أن هذا النوع المتطور من كتابه التاريخ الاقتصادى يبنى أن يفهم على معرفة واسعة بعلم الاجتماع، الذى يستطيع وحده أن يمد الكاتب بالعلم واسع وكاف بالقوانين ومظاهر التطور في الأنظمة الدولية، وذلك حتى يتمكن من دراسة هذه المسائل الاقتصادية بنجاح. ويمكن القول ان مدى نجاح الكاتب في موضوع التاريخ الاقتصادى إنما يتوقف على قدر إلمامهم بالمسائل الاجتماعية. ويمثل هذا النوع من الكتابة التاريخية في الولايات المتحدة الأمريكية ثورتين فييلن Thorstein Veblen وتلاميذه الذين جعلوا من هذا الربط بين التاريخ الاقتصادى وعلم الاجتماع لوناً أساسياً من ألوان علم الاقتصاد الحديث أو الأنظمة الاقتصادية الحديثة. هذا مع ضرورة ملاحظة أن تناول التاريخ الاقتصادى بنوعيه إنما جاء على أيدي رجال الاقتصاد أكثر من كونه نتيجة لجهود المؤرخين. ولم يكن من قبل الصدفة وحدها أنه يوجد أقسام ذات كراسى خاصة بالتاريخ السياسى

والدبلوماسى والدستورى عن كل بلد وعصر فى حين أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر ما يصل إلى ستة كراسى خاصة بالتاريخ الأقتصادى فى جميع أقسام التاريخ فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية . ولا يعرف مؤلف هذا الكتاب من هذه الكراسى سوى ذلك الموجود فى جامعة مينوستا Minoesta.

التاريخ الاجتماعى

أما التاريخ الاجتماعى فكان أحد الإضافات الرئيسية نسبيا التى جعلت علم التاريخ أكثر تحولا فى نظره وأكثر حيوية فى مضمونه . وقد بدأت هذه الحركة منذ قرن تقريبا ببعض الدراسات مثل تلك التى قام بها ريل Reill، وفريتاغ Freytag، وكلاهما حاولان إثارة الاهتمام بماضى ألمانيا لا عن طريق إحياء ذكرى الانتصارات الباهرة التى حققتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو تلك التى تحققت لأسرة الموهنزلرن وإنما عن طريق الدعوة لإعادة بناء الحياة الاجتماعية والتمسك بالعادات التى كانت سائدة فى ألمانيا فى العصور الوسطى والحديثة . على أن العمل الذى قام به فريتاغ على وجه الخصوص لا يعتبر تناولا منتظما لتطور النظم الاجتماعية بقدر ما كان تجميعا لصور ناطقة مصحوبة بالرسوم والمناظر والقصص والأحداث التى تصف دقائق الحياة اليومية للشعب الجرمانى . ثم تطورت هذه الطريقة فى معالجة التاريخ الاجتماعى عن طريق عديد من الدراسات التى عالجت السلوك والعادات فى عصور وأزمنة مختلفة . وكان طابع هذه الدراسات الاهتمام بالقديم أكثر منه إنجاز دراسة تاريخية واسعة الأفق .

وخير نموذجين لهذا النوع من التاريخ الاجتماعى هذا ما كتبه لودينج فريد لاندر عن الحياة فى الإمبراطورية الرومانية وما كتبه بولى لأكروى Paoul Lacroix عن العادات والأخلاق فى العصور الوسطى . ثم لم تلبث أن تحققت خطوة أكثر تقدما على أيدى أولئك الكتاب الذين حاولوا أن يعطوا مجالا أوسع واهتماما أكبر لدور العوامل الاجتماعية فى تاريخ الشعوب وذلك فى مؤلفاتهم التى كانت نوعا من القصص الوصفى ، لكنها صممت ونفذت لتبين غرض تاريخى من ورائها أكثر من مجرد اهتمامها بالماضى القديم . وكان أن نحقق هذا النوع من الكتابات فى بعض الأعمال الشهيرة مثل من التى قام بها ترايل Traill،

ومان Mann بعنوان (مجتمع انجلترا) ، وما كتبه رامبو Rambaud عن الحضارة الفرنسية وبلوك Block بعنوان (تاريخ الشعب الهولندي) ، فضلا عن الموجز الذى وضعه التاميرا عن الحضارة الأسبانية . وهناك أيضاً الكتاب الذى ألفه ماك ماستر Mc Master عن الدور الوطنى فى تاريخ تطور أمريكا ، وهو العمل الذى اكده تلميذه اوبرهولتز Oberholtzer عن الفترة منذ قيام الحرب الاهلية الامريكية . أما أعظم الأعمال فى مجال كتابة التاريخ الاجتماعى فهو ذلك النوع الذى يحاول أن يوضح المظاهر العامة للتطور الاجتماعى طبقا لما احدثته وعدلته فيه العوامل المختلفة من نظم وقوى وصادم بين الطبقات والهيئات الاجتماعية المختلفة . ويتناول هذا النوع من الكتابة المتطور الاجتماعى بوصفه عملية وراثية ذات أصول قديمة . أما الكتاب الذين طوروا بدرجات متفاوتة هذه الكتابات المتنوعة من التاريخ الاجتماعى المتطور فهم لامبرخت ، شنتها وزن ، جوشن ، جوتز ، نيتشه ، كلهم من علماء المانيا وفى فرنسا فوستيل دى كولاتج وبيروزملاؤه . أما فى انجلترا فقد ظهر جون ريتشارد جرين ، وماتيلاند ، فينوجرادوف ، يولارد ، سلوتر ، باربارا هاموند ، سيدنى وييترس وب Sidney and Beatrice Webb ، كلافام Clapham . وفى ايطاليا ظهر بارياجولو ، وفيررو Ferrero . وفى روسيا كلوشفسكى Kluchevsky . أما فى الولايات المتحدة فهناك شوتويل ، تيرنر ، سيمونز ، فوكسى ، كيندر ، هاكر ، كارمان ، بيكر ، ودد ، هايز شينى ، شيلزنجر ، فولكنر Foulkner ، وبودن Bowden . ولقد امدنا العمل المشترك عن التاريخ الاجتماعى والثقافى فى امريكا والذى ألفه ا . م . شيلزنجر بالاشتراك مع د . ر . فوكس D.R.Fox بأحسن المعلومات عن مكانة الكتابة التاريخية فى التاريخ الاجتماعى فى الولايات المتحدة الامريكية فى الوقت الحاضر .

ثم كان أن مضى بعض الكتاب — وأكثرهم اجتماعيون مؤرخون أكثر منهم مؤرخون اجتماعيون . بهذا التطور قدما ، وحاولوا الكشف عن قوانين التطور الاجتماعى فنقبوا عن الظواهر الاجتماعية التى كررت نفسها فى التاريخ حتى يكتشفوا الحقائق المبنية على الاسباب والنتائج . وبمعنى آخر فأنهم حاولوا ان ينزلوا بالتاريخ ليجعلوا منه فرعاً للعلم الاجتماعى الوراثى . وتبدو الامثلة على هذا النوع من الكتابات فى مؤلفات كل من كومت Comte ، باكل Buckle ، هوبوز ، جيرنجز ، مولر لاير Muller.Iyer ، بريزج Breysig ، الفرد ويبر Alfred Weber ، تيجارت Tegart ، والاسى Wallace ، فورست وسوردين Forest and Sorokin .

تاريخ النظم السياسية

كان للاتجاهات الجديدة التي تمثلت في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي أثرها على التاريخ السياسي وتاريخ القانون . واتجهت أرقى أنواع الكتابة التاريخية بالنسبة للتاريخ السياسي في القرن التاسع عشر نحو علاج أخبال هذا التاريخ وأحداثه ، ولكنها فلما أبرزت صورة واضحة للتطور السياسي ، فضلا عن أنها لم توضح سر تجاهاها للعلاقة بين النظم السياسية والقوى الأخرى في مجال التاريخ القومي . والحاصل أنه حين كان المؤلف على دراية واسعة بعلم السياسة ، فإن سادته كانت تضم بين طياتها اتجاهات التطور الدستوري وتطور النظم وتطفي على كتابه مادة التراجم والفصوص وسرد الأحداث . ولم يكن بإمكان القارئ . إلا إذا كان منابرا . أن يستفيد مما يقرأ . ومن أحسن الكتب في هذا المجال ذلك الكتاب الذي ألفه س . ر . جاردنر عن تاريخ إنجلترا والذي اشهره بن الطلبة بوصفه مرحب في موضوعه .

أما أصحاب النظرة الواسعة القادرين على ربط الأمور بعضها ببعض والذين نظروا إلى التطور السياسي على أنه إلى حد كبير نتاج حتمي لما يتعرض له المجتمع من صراع وضغوط وقوى وتعديلات فهؤلاء هم أصحاب الفضل في ظهور ما يسمى بتاريخ النظم السياسية . وهنا برزت مسألة الجانب التكويني وتركز الاهتمام على التغييرات في النظم أكثر منه على الأحداث والشخصيات كما برزت أهمية توضيح المراحل الرئيسية في التطور السياسي واتسع ذكر الاسس الاقتصادية والاجتماعية للاتجاهات السياسية وقد نهج موسر Moser منهجا يمس هذا الاتجاه مساهميا في وقت مبكر في النصف الأخير من القرن الثامن عشر وذلك في كتابة تاريخ أونرنبروك ، كذلك نهج نفس هذا المنهج كل من دي كوكوفيل ، فوشيل دي كولانج ، لاكومب ، لوشير ، فيوليه ، فلاش ، بيتي دوتيه Petit Dutellis . أما شوملر فعلى الرغم من أنه اقتصادي أكثر من كونه مؤرخ فإنه شجع هذا النوع من الكتابة التاريخية في ألمانيا . كذلك تعتبر مؤلفات نيتشه خير مثال لهذا القسم من الدراسات . وقدم لنا برنر ، وتيز ، جنست Gneist ، ديجو Duguuit مثل هذا النوع من العناية بالاتجاهات التشريعية والدستورية . أما ماتيلاند ، فينو جرادوف ، ادوارد جنكس Jenks ، بولالا ، وبز Webbs فكانوا من رواد هذه الدراسات في إنجلترا . وفي روسيا نجد ميليكوف خير من عنى

بهذا النوع من الدراسة ، ومثله في ذلك فيروردو Ferrero والذي أتخذة اساسا لدراسة التحليلية للتاريخ الروماني السياسي . اما في امريكا فتتمثل ابرز الجهود في مجال تاريخ النظم السياسية فيما كتبه اوزجود عن تاريخ المستعمرات الانجليزية حتى قيام الثورة الامريكية . ولو ان دراسته اصبحت بالية لفشلها في ابراز تفاعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعضها مع بعض . ذلك أنه فضل تاريخ الاستعمار عن الاتجاه السائد لطمس تطور النظم الاستعمارية تحت حشد ضخم من التفاصيل من التراجم والاحداث والقصص بحيث صار ذلك الحشد بمثابة قوقعة يصعب اختراقها أو الوصول إلى ماورائها . ولكن هذه الدراسة التي قام بها أوزجود اثارت اهتمام طلاب البحث بدراسة النظم في الوحدات السياسية المحلية . أما ماك الوان McIlwain فله كتاب العظيم عن نظام الحكومة في العصور الوسطى ، وعما في تاريخ النظم الامريكية من جذور واسس انجليزية . وتنادل ك . م . اندروز ، ج . ت . آدمز دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في فترة وجود المستعمرات واعطياها قدر زائدا من الاهتمام . أما اقرب الابحاث في امريكا كذلك التي قام بها في اوربا ، هاتيرلامد ومدرسة ويبس Webes فهي التي كتبها آدمز عن تاريخ الدستور الانجليزي وما أخرجه بيرد Beard من أبحاث متخصصة عن فترة وضع الدستور وفترة حركة القومية في دورها الأول . ولهذا المؤلف الأخير (بيرد) محاضراته التي لم تنشر عن تاريخ الدستور الأمريكي . وهناك الكتاب الذي ألفه هاجر ، وكندريك بعنوان «تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب الاهلية» . ومثله كتب ومحاضرات و . ا . دود W.e.Dodd ، بيلنجتون . ويعتبر ما كتبه تيرنر ، بيرد ، شيلزنجر ، بيكر من أعظم الدراسات التي ابرزت تاريخ النظم السياسية الامريكية . ثم أنه علينا ان نعترف بأنه لا يوجد مؤرخ سياسى استطاع ان يبرز ما ابرزته تلك الدراسات التي قام بها بيجهو Beghot ، وجو مبلو ووكز Gum plowicz ، راتزنهوفر Ralzenhofer ، وميشيل ، وبير Webber ، واوبنهر Oppenheimer ، وكوفالفسكى ، لوريا ، نبنلى .

تاريخ القانون

أدى علاج تطور الأنظمة السياسية علاجا جاداً عميقا يستند على أساس التاريخ الاقتصادي والاجتماعى إلى التأثير على تاريخ القانون والنظم التشريعية . ذلك أن كتاب

هذه المدرسة حرروا دراسة القانون من المفاهيم الميتافيزيقية واللاهوتية وأظهروا ما للاصول القانونية من طبيعة دنيوية واجتماعية وما طرأ عليها من تحولات موضحين كيف ان القانون يكتف نفسه إلى حد كبير مع التغيرات الاجتماعية — اما أولئك الذين ندين لهم بمعظم ما نعرفه عن هذا التحول في دراسة تاريخ القانون بالنسبة لكافة العصور فهم جوميهكوليز في النمسا، جيرك Gierke، ايهرنج، برنر Brunner، كوهلر، كانتورتز Kantorowtz، بيرولزيمر Berolzheimer في المانيا. وفي انجلترا لدينا ابحاث مايلامد، بولوك Pollok، جنكز، فبنوجرادوف، لاسكى Luski. وفي فرنسا هناك ازمين Esmein، دوجو Dugiut، شارمونت Chormont، وفي ايطاليا نجد فاشارو Vaccaro، وفي الولايات المتحدة هولمز Holmes، ويجيمور Wigonore، كاردوزو، روسكو بدند Roscoe pound وتلاميذهم.

التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية

ويرتبط ارتباطا قويا بالتطور العلمى الاقتصادى الذى شهده القرن الماضى اتجاه جديد نحو التخلص من العزلة والاقليمية التى اصطبغت بها الكتابة التاريخية فى الماضى واحلال وجهه النظر العالمية محلها. ذلك أنه صار من الأمور الواضحة أنه حتى التاريخ السياسى المحلى لدولة من الدول لم يعد من الميسور فهمه دون معرفة المؤثرات التى طرأت عليه من الخارج. ولعل الأمر الذى يبدو أشد وضوحا هو أن هذا العصر شهد سهولة وسرعه الاتصال بين شعوب العالم، وهو أمر فرض على كل أنواع الكتابات التاريخية الحديثة بمعناها الحقيقية أن تكون تاريخا عالميا وأن تأخذ بوجهة النظر الدولية. ونحقق هذا الاتجاه المحمود على ايدى عدد من الكُتاب الذين تناولوا السياسات العالمية والعلاقات الدولية فى السنين الأخيرة. من ذلك أن ه. ج. ولز Fl.G.Wells حاول ان يكتب تاريخا عالميا ملتزما بوجهة النظر هذه السائدة فى كل وقت. وثمة محاولة أخرى لتطبيق نفس هذه النظرية على تاريخ العصور الحديثة نهض بها بعض مؤرخو العلوم مثل فسك Fiske، سبلى، هابز، بوسنفورد، أبوت، جيلبس، فيوتر، فلك Flick، أما المحاولة الاساسية والشاملة لابرز اهمية التاريخ العالمى بالنسبة لتطور الحضارة الحديثة تقام بها الاستاذ و. ر. شيفرد W.R.Shepherd الاستاذ بجامعة كولومبيا فى محاضراته عن حركة الاسعمار

الاوربي . ومنذ ذلك الحين اصبحت كل الاعمال التاريخية على اختلاف أنواعها لا بد وان تكون ذات نظرة عالمية . وهناك ابحاث تاريخية عظيمة في التاريخ العالمى ذات جهد مشترك قام بها ويلهم اونكن ، والتر جوتز ، جوستاف جلونز ، لويس هالفن ، هنرى بير ، ايوجيه كافيناك ، موريس كروازيه . ثم تجسدت ذروة هذه الجهود في مشروع اليونسكو عقب الحرب العالمية الثانية وهى المشروع الذى نهض بتنفيذه جولييان هاكسلى ، والف . ا . تيرنر .Turner

التاريخ الثقافى العام

من أهم العوامل التى أسهمت فى توسيع دائرة التاريخ ازدياد الإلمام بالثقافة فى أوسع معانيها ، مثل تاريخ الفن والأدب والسلوك والعادات والطباعة والموسيقى وغيرها من الجوانب الأخرى عن الثقافة القومية . وازاء هذا المزيد من الاهتمامات التى وجد المؤرخ نفسه أمامها مضطراً بقبولها المفاهيم الجديدة لعلم التاريخ صار من الواضح ان الكتابة التاريخية ستقوم فى المستقبل على أساس التعاون المشترك بحيث يسهم كل كاتب بما يتفق ودراسته وتخصصه وخبرته . وبذلك لا يمكن إلا قول من شأن أى عمل جماعى طاملاً أن إنتاج المجموعة يتصف بالرقّة ويمكن الاعتماد عليه .

التاريخ والادراك الاجتماعى

أما آخر مظهر ينبغى ان نشير إليه من مظاهر الاتجاهات الجديدة فى علم التاريخ ، فيبدو فى تلك الجهود الحديثة لجعل التاريخ ذا صبغة علمية وذات فائدة عملية ، بمعنى ان يصبح مفيداً لنا نحن ابناء اليوم . والحق ان الطابع العلمى للتاريخ ظهر فى الماضى فى صورة أو أخرى ، وهناك امثلة معروفة توضح هذه الحقيقة اهمها سفر عزرا ونحميا ، وكتاب أوزلوسى الذى عنوانه سبع كتب فى التاريخ ضد الوثنيين ، كذلك هناك جهود أحدث تناولت التاريخ من وجهات نظر مختلفة بهدف تعميمه وإخراجه من نطاق المذاهب التاريخية المعروفة إلى حيث تجعل منه اداة يستعين بها السياسى والمصلح والفكر . ومن اشهر الامثلة لهذا النوع كتاب

مارفن ، الماضى الحى ، وكتاب قرن الأمل كذلك هناك ما كتبه روبنسون ، الفكر فى دائرة التكوين ، وكتاب الكوميدى الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه والاس بعنوانه اتجاه التاريخ وولز بعنوان ، موجز التاريخ . أما فان لون Van Loon فقد سعى كتابه «قصة البشرية» . على أنه ربما كانت أكثر الكتابات فى هذا المجال إثارة للاعجاب هى كتابات روبنسون ومجموعة سلسلة كتب الوحدة التى اشرف عليها ف . س . مارفن . ومهما مجدد الانسان مدى لنجاح هذه الجهود الأولى فى ذلك المجال ، فإنه سيبدو أنه ما لم يكن للتاريخ مثل هذه الفائدة العملية عند علاجه فى موضوعية وعناية فإنه يصبح امرا لا حاجة إليه إزاء احتياجات الانسان العملية . حقيقة إنه فى هذه الحالة يصبح شيئا مفيدا ولكنه سيحظى بالاحترام ولكنه يبقى نوعا قاحلا من أنواع المتعة الثقافية . ويبدو أنه بفقد اهتمامنا اليوم ، فإن الفائدة العملية الأساسية التى نرجوها من التاريخ هى ان يبرز تطور ثقافتنا من اصولها الاولى وان يدفعنا إلى التقدم بصرف النظر عما شهدته البشرية من بعض التقلبات الهامة والتكسات وان يؤكد لنا ان الحاضر مختلف عن الماضى ، ومن ثم يحول دون اقتباس جيلنا اقتباسا مباشرا ومطابقا لتجارب أسلافنا الماضية . وبمعنى آخر فإنه من المحتمل أن تكون الفائدة العملية الرئيسية من التاريخ هى ان يفيد بجهوده فى التقليل من تأثير خطر أولئك الذين ينبغي عليهم الآن ان يخططوا لمستقبل أكثر كفاية وسعادة بالنسبة للبشرية .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

C. L. Becker, "Some Aspects of the Influence of Social Problems and Ideas upon the Study and Writing of History" in Publications of the American Sociological Society, 1912.

I. H. Robinson. The New History. Macmillan, 1911.

— , Mind in the Making. Harper, 1921.

— , The Human Comedy. Harper, 1987.

— . "New Ways of Historians", American Historical Review, January, 1980.

W. G. Beasley and E. G. Pulleyblank, Historians of China and Japan, OXFORD, 1961.

H. K. Beale, ed, Charles A. Beard. University of Kentucky Press, 1954.

C. W. Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion. Cornell University Press, 1956.

Thompson, History of Historical Writing, Vol. II, chaps. li-lv. Kraus, The Writing of American History, chap. xiv.

Howard Odum, ed., American Masters of Social Science. Holt, 1927.

H. E. Barnes, History and Social Intelligence. Knopf, 1926.

— , The New History and the Social Studies. Century, 1925.

— , Social Institutions. Prentice-Hall, 1942.

F. J. Teggart, Prolegomena to History. University of California Press, 1916.

— , Processes of History. Yale University Press, 1918.

— , The Theory of History. Yale University Press, 1925.

A. A. Goldenweiser, History, Psychology and Culture. Knopf, 1933.

White, The Evolution of Culture.

G. E. Dole and R. L. Carneiro, eds., Essays in the Science of Culture. Grwell, 1960.

Joseph Dorfman, *The Economic Mind in American Civilization*. 5 Vols., Viking, 194-1959.

E.R.A. Seligman, *The Economic Interpretation of History*. Columbia University Press, 1907.

T.K. Deery and T.I. Williams, *Short History of Technology*. Oxford Univ. Press, 1961.

Crane Brinton, *Ideas and Men*. Prentice-Hall, 1950.

H.G. Wells, *Experiment in Autobiography*. Macmillan, 1934.

W. W. Wagat, H. G. Wells and the World State. Yale University Press, 1961.

Lewis Mumford, *Technics and Civilization*. Harcourt, Brace, 1934.

C.A. Beard, *The Economic Basis of Politics*. Knopf, 1922.

H.J. Laski, *A Grammar of Politics*. Yale University Press, 1925.

Fritz Berolzheimer, *The World's Legal Philosophies*. Macmillan, 1912.

Rocoe Pound, *Interpretations of Legal History*. Macmillan, 1923.

الفصل الثالث عشر

نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة

يمثل الاهتمام المتزايد بتاريخ الحياة البشرية والثقافة الإنسانية أكثر التطورات أهمية وأحدثها في تاريخ الكتابة التاريخية في العصور الحديثة . وقد أوجزنا في الفصل السابق الخصائص المتنوعة لاتساع مجال الاهتمامات التاريخية خارج نطاق الكنيسة والدولة . وسنحاول في هذا الفصل استعراض بعض ما قدمه المؤرخون المتقدمون فكرياً في مجال تاريخ الحضارة .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أنه يؤرخ للبداية الحقيقية لما عرف حديثاً بتاريخ الحضارة -Kul- turgeschichte بظهور كتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » وكتابه « معال عن سلوك الأمم وروحها » وهو ما سبق أن تعرضنا له . وكان ان احتوت الكتب التاريخية التي تناولت تاريخ العالم — وهى الكتب التي شهدت تطوراً كبيراً منذ نشأة الرومانسية — مادة كثيرة عن تاريخ الحضارة . أما الجهد العظيم الذى تلى ذلك بالنسبة للتاريخ الثقافى فقد جاء فى الكتاب المشهور الذى كتبه يوحنا يواقيم وينكلمان (١٧١٧ — ١٧٦٨) وصدر فى جزئين سنة ١٧٦٤ بعنوان « تاريخ الفن فى العهود القديمة » فكان أول عمل تاريخى عظيم لتاريخ الفن ركز تركيزاً على الفن عند الإغريق . فلقد أوضح وينكلمان الظواهر العامة لهذا الفن وما بلغه من رفعة وعدم أخذه عن غيره وقدرته الكبيرة على التمييز بين النسب وتحديدتها . وكان لهذا الكتاب أثره الكبير على الباحثين والشعراء والفنانين وبصفة خاصة على الرومانسيين من دارسى التاريخ الثقافى . ولكنه لم يكن عظيم الأثر على المؤرخين المحترفين الذى ظلوا ملتزمين بمنهج الكتابة التاريخية القائمة على سرد الأحداث الهامة والشخصيات المرتبطة بتلك الأحداث .

وفي بداية القرن التالي نهضت مدام دي ستيل De Stael وسيسموندى بجهود ضخمة لجعل تاريخ الأدب فرعاً من تاريخ الحضارة الاجتماعية . ثم ظهر بعد ذلك جرفينوس الذى كتب عن تاريخ الشعر الألمانى ، ثم أعقبه هيرين Heeren ليؤكد أهمية التجارة على تاريخ الثقافة والنظم فى العهود القديمة . أما ادوارد زيلر Zeller فقد وهب شطراً كبيراً من حياته لكى يؤلف — مشبعاً بروح هيجل — كتابه العملاق عن تاريخ الفلسفة الإغريقية . ومن أوائل الأعمال التاريخية التى عالجت تاريخ الحضارة علاجاً صريحاً كتاب المؤرخ والناشر الفرنسى فرانسوا جيزو Guizot (١٧٨٧ — ١٨٧٤) واسمه « التاريخ العام للحضارة الأوربية » وظهر الكتاب فى سنة ١٨٢٨ وتناول التطور الأوروبى منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثامن عشر ، وركز بصفة خاصة على نشأة الأفكار البرجوازية وتطور الحكم النيابى مع الحرص على إعطاء صورة تاريخية واضحة عن الطبقة الوسطى المحافظة فى فرنسا ومثلها العليا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم شهد تاريخ الحضارة تلك التطورات التى تربطها بهنرى توماس باكل Buckle وأكبر تلاميذه جون وليام درابر . ولقد سبق ان تعرضنا لجهود باكل فى التاريخ وهى الجهود التى تضمنت اطرافه الحرية الفكرية مع تركيزه على أهمية العوامل الجغرافية والموارد الغذائية وأثرهما على تطور الثقافة . وبفضل هذه الجهود السبّاقة أمكن للعالم الطبيعى والكيميائى الأمريكى جون وليام درابر (١٨١١ — ١٨٨٢) ان يكتب بحثه الشامل عن تاريخ التطور الثقافى فى أوروبا سنة ١٨٦٣ ، ويتصف هذا الكتاب بمسحة واضحة من التشكك ومع ذلك فإنه دون المستوى فى التعبير عن تاريخ أوروبا الثقافى . أما بحثه المتعارض مع الدين فكان أكثر عنفاً من سابقه وأطلق عليه اسم « تاريخ الصراع بين العلم والدين » . وعلى نفس هذا النمط الفكرى هناك كتابان لمؤرخ أيرلندى هو ادوارد هارتبول لكى Hartpole Lecky (١٨٣٨ — ١٩١٣) كتبهما عن تاريخ نشأة النقل وأثره فى أوروبا ، وقد صدر سنة ١٨٦٥ تاريخ السلوك الأدبى فى أوروبا منذ أوغسطس حتى شارلمان ، History of European Morals from Augustus to charlemagne ، وقد صدر سنة ١٨٦٩ . ويمثل هذان الكتابان أعظم الجهود الموفقة بين المؤلفات التاريخية فى التاريخ بأسره ، بل إن بحثه عن العقلانية يعكس جهداً بارزاً مميزاً لما أسهم به الغرب فى التاريخ الثقافى ، ويقارن دوره فى هذا المجال بما أحدثته آراء وأفكار أوغسطين وكالفن فى هذه الناحية . وهناك عالم انجليزى يمثل الفكر الحر وجانب الإلحاد هو سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ — ١٩٠٤) الذى اشتهر بكتابة تاريخ الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر . وكتابه « اتباع المذهب النفعى فى انجلترا The English Utilitarians » . وبين هذه المؤلفات يبرز مؤلف هام فى هذا المجال وهو الكتاب الذى ألفه الأستاذ

الأمريكي اندرو ديكسون هوايت (١٨٣٢ - ١٩١٨) وكان مديراً للجامعة كورنل إلى جانب كونه ناشراً ومحاضراً من أجل قضية الثقافة وحرية الفكر . ولعله أكثر المؤلفات التاريخية أهمية على الإطلاق في مجال الفكر الحر وواحد من أكثر المؤلفات التاريخية تحقيقاً للمنفعة ومن أعظم الكتب التاريخية التي تأخذ بالألباب .

ونلمس تطوراً آخر في هذا المجال في بعض الأعمال التاريخية الهامة وبصفة رئيسية الألمانية منها التي وجهت اهتماماً خاصاً لتاريخ الحياة والسلوك والعادات . وتبدأ هذه المدرسة بـ يعقوب جريم Jacob Grimm ومؤلفه التاريخي عن اللغة الألمانية والعادات المشروعة والقصص الشعبية والروايات السحرية وما شابهها . كذلك من أوائل هذا النوع من الكتاب وأكثرهم أهمية وليلهم هنريك ريهل Wilhelm Heinrich Riehl (١٨٢٣ - ١٨٩٧) وهو كاتب ألماني تعمق في كل من تاريخ الحضارة الألمانية وعلم الاجتماع الوصفى . ولم يجمع مادته من الوثائق فحسب بل شيدتها على أساس رحلاته العديدة في ألمانيا . كذلك أنتج كتابه العظيم الذي أسماه التاريخ الطبيعي للشعب الألماني بوصفه أساساً لسياسته الاجتماعية في أربعة أجزاء بين سنتي ١٨٥١ - ١٨٦٤ . أما مبادئ ريهل التاريخية فقامت على أساس افتراض أن العوامل الجغرافية مثل المناخ والطوبوغرافيا وما شابهها هما الأساس في تنوع الثقافات . وخرج بأن العوامل الاجتماعية والسكانية تلعب دورها في هذه الناحية ، وأن الفلاحين بطبيعتهم إقليميون يكرهون التنقل في حين أن سكان المدن تقدميون ولا يرتبطون بإقليم معين . كذلك اعتقد ريهل أن الأسرة هي الخلية الاجتماعية التي تثبت أركان المجتمع . وبلغ ريهل غاية الروعة في وصفه الحى لخصائص الحياة الألمانية المحلية والثقافية في ألمانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . لكن كان ضعيفاً جداً وغير كفء فيها أصدره من أحكام تاريخية عامة وكذلك بالنسبة للتطور التكويني الوراثي للثقافة . والواقع أنه كان قبل كل شيء مؤرخاً اجتماعياً وصفيًا . وتأثر ريهل كثيراً بالأهمية الثقافية للفن والموسيقى وخصص جزءاً كبيراً من اهتمامه لها في مؤلفه الرئيسي وفي مؤلفاته الأخرى عن الفن الألماني والموسيقى . وبالإضافة إلى مؤلفاته الخاصة فإنه اشترك مع غيره في تحرير عدة أبحاث متسلسلة عن طبيعة البلاد والناس في بافاريا .

وتعتبر كتابات جوستاف فريتاغ Freytag (١٨١٦ - ١٨٩٥) عن مزيج من التاريخ القومي والثقافي . وذلك أنه بدأ بدراسة التاريخ الألماني - الاجتماعي والثقافي - بعد دراسة علمية لأصل اللغة وتاريخ الدراما . أما مؤلفه العظيم في مجال التاريخ الثقافي فلقد أسماه (صور من التاريخ الألماني) وصدر في خمسة أجزاء بين سنتي ١٨٥٩ ، ١٨٦٢ . وتناولت تاريخ حياة الشعب

الجرماني منذ نشأته حتى القرن التاسع عشر ، مع الاهتمام بالتركيز على الطبيعة الأساسية للثقافة القومية . فكان في هذا شبيها بالعقلانيين . واتفق فريتاج مع جيزو أن الطبقة الوسطى هي عماد الحياة القومية في المجتمع . كذلك ضَمَّن كتابه الكثير عن التاريخ السياسي والحربي بنسبة أكبر مما جاء في كتابات ريهل ، وقدم صوراً حية لأبطال الشعب الجرماني العظيم مثل شارلمان وبارباروسا ولوثر وفردريك الأكبر وغيرهم . لكن فريتاج لم يقدس الماضي تمديساً عاطفياً كما فعل ريهل إلى حد كبير . وأوضح أنه كلما توغلنا في الماضي وجدنا الحياة أكثر قسوة وذات طابع إلهيمي . كذلك اتسم عمل فريتاج بالمتعة والتعمق في أخبار الدسائس والتآمر .

وهناك ثلاثة مؤلفات أخرى عن الحضارة الألمانية اتسمت بأنها فافت غيرها في انتمائها إلى مدارس البحث التاريخية بالمعنى التقليدي وبأنها أعمال تاريخية بالمعنى الدقيق وأول هذه المؤلفات كتاب كارل نيتشه (١٨١٨ — ١٨٨٠) وعنوانه (تاريخ الشعب الألماني حتى صلح أوجزبرج) . لكنه لم ينشر إلا بعد وفاته في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ . وأعطى نيتشه اهتماماً للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري فضلاً عن السياسي . والواقع أنه امتلك قدرات غير عادية في علاجه للأنظمة الجرمانية في العصور الوسطى . كذلك كتب نيتشه كتاباً تاريخياً عاماً عن الجمهورية الرومانية ولو أن هذا الكتاب لا يعتبر إسهاماً في مجال التاريخ الثقافي . أما أعظم مأسهم به كاثوليكي في تاريخ الحضارة فهو ما ألفه يوحنا جانسن Johannes Janssen . (١٨٢٩ — ١٨٩١) باسم (تاريخ الشعب الجرماني في نهاية العصور الوسطى) . وهو الكتاب الذي صدر في ثمانية أجزاء بين سنتي ١٨٥٧ ، ١٨٩٤ . واتخذ محوراً له دراسة حياة الجماهير مع العناية بتاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية . وكان رائعاً في تصويره للمجتمع الجرماني قبيل حركة الإصلاح الديني وإن كان الباحثون يتشككون فيما ذكره من أن الحضارة الجرمانية بلغت ذروتها في نهاية العصور الوسطى .

أما آخر ما أنتجت مدرسة ريهل وفريتاج فهو ما قام به جورج شتهاوزن Steinhäusen (١٨٦٦ — ١٩٣٣) الذي كان معجباً بكل من الكاثوليك السابقين وأخرج كتاباً ينم عن مقدرة كبيرة سماء تاريخ الثقافة الجرمانية ، وصدر سنة ١٩٠١ . هذا إلى أنه كتب عدداً من الكتب المتخصصة عن مراحل وفترات مختلفة من تاريخ الثقافة الألمانية وإذا كان جورج شتهاوزن يختلف عن فريتاج في عدم إعطاء الدولة وزنها الكبير في مجال التاريخ الثقافي ، إلا أنه يتساوى معه في قدرته على توضيح وتقصى معظم التفاصيل وأدقها عن الحياة اليومية . لكنه فيما يتعلق بتاريخ علم

وقام جون أدنجتون سيموندس John Addington Symonds (١٨٤٠ - ١٨٩٣) وهو الإنجليزى المعجب ببوركهاردت بالتعبير في صورة كاملة متزنة عن وجهات نظر أستاذه عن الحضارة . وسيموندس هذا هو صاحب تراجم دانتي وميخائيل أنجيلو ومؤلف كتاب النهضة في إيطاليا الذى طبع في سبعة مجلدات بين سنتي ١٨٧٥ ، ١٨٨٦ . ومع أنه درس دانتي وعصره ، ما هو كفى أن يجعله يفوق أستاذه في معرفته بعصر النهضة ، ألا أنه أكد ، ما سبق أن رده بوركهاردت من وجود هوة سحيقة بين العصر الوسطى وعصر النهضة . ولم يكن عصر النهضة في نظر سيموندس هو عصر الربيع والازدهار للبشرية في الغرب فحسب ، لكنه كان عصرا استهدف تطوير الحرية وإسعاد الانسان . ورأى سيموندس أن هناك ندهورا مباشرا فكريا وخلقيا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية عبر حركة الإصلاح الديني ، وأن كلا من هذه العصور متشابهة من الناحية الروحية واتسم وصفه لثقافة عصر النهضة وشخصية ذلك العصر بالقوة والمتعة . وقد تعرضت نظرياته العامة عن مكان النهضة في التاريخ الغربى لكثير من التعديل .

أما لودفيج فريدلاندر Friedlander (١٨٢٤ - ١٩٠٩) فقد ألقى مزبداً من الضوء على جوانب التاريخ الثقافي القديم . وقد وجه اهتمامه في أول الأمر إلى مدرسة هومر وإن كان قد وقع تحت تأثير طومسون وبريكل وفريتاخ وبوركهاردت . وأخرج كتابه (حياة الرومان وسلوكهم في أوائل عصر الإمبراطورية) في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٧١ . وتتصف هذه الدراسة بأنها تعطي صورة غير متعادله لجوانب عدة من حضارة عظمى هي حضارة القرنين الأولين من عصر الإمبراطورية الرومانية . وجاء وصفه للسلوك والعادات والحياة والأشعار والفن والكتابة القديمة وغيرها من مظاهر تلك الحضارة العديدة وصفا ممتعا متعمقا حيا . واتسمت دراسة فريدلاندر بأنها تبرز الصورة الناطقة الحية من العصر القديم أكثر من كونها تأريخا للحضارة .

فاذا ما انتقلنا إلى الحديث عن السير صمويل ديل Dill (١٨٤٤ - ١٩٢٤) وجدنا أنه عالِم في كتبه الثلاثة فترة أطول من فريدلاندر لكنه كان أقل حرصا على إثبات التفاصيل . أما مؤلفاته فهي المجتمع الرومانى منذ نيرون حتى ماركوس أوريليوس ، و (المجتمع الرومانى في القرن الأخير للإمبراطورية الغربية) والمجتمع الرومانى في غاليا في العصر الميرفنجي ، وكتب ديل بطريقة واضحة وجذابة فضلا عن قدرته الفائقة في شرح مادته . وكانت آخر مؤلفاته أقلها جودة إذ جاء كتابه الأخير دون ما كتبه المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت ودون العمل الفذ الذى أنتجه الفونس دوبش Dopsch عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر الكارولنجي . أما

تاريخ روما المعاني والسياسي منذ سقوط الإمبراطورية حتى عصر النهضة فقد عالجه فردناند جريجورفوس (١٨٢١ — ١٨٩١) في كتابه (تاريخ مدينة روما في العصور الوسطى) الذي صدر في ثمانه أجزاء بين سنتي ١٨٥٩ ، ١٨٧٢ . كذلك كتب جريجورفوس Gregorovius كتاباً أفل تكاملاً من سابقه وهو (تاريخ مدينة أتينيا في العصور الوسطى) . والحق أنه كان مؤلفاً قديراً وكتاباً عظيماً غزير الإنتاج عالج كثيراً من الموضوعات من العصر الأول للتاريخ الإغريقي حتى مسألة الاشتراكية كما تبدو في كتابات جوه . أما عن التقديم الاقتصادي فقد تم تناوله في مجال تاريخ الثقافة ضمن عدد من المؤلفات الهامة مثل تلك التي أنجبها فون اناما شرنج - Karl von Inama Steinegg (١٨٤٧ — ١٩٠٨) وماكسيم كوفالفسكي Kovalovsky (١٨٥١ — ١٩١٦) إذ كتب الأول كتاباً خالداً عن التاريخ الاقتصادي في ألمانيا وركز اهتماماً خاصاً على أهمية التطورات في ميدان الزراعة وأما الثاني فقد تأثر بنظريات سينسر عن التطور وأخرج مؤلفاً أكرم طموحاً . فبجاء كتابه تاريخاً اقتصادياً شاملاً لكل أوروبا . هذا إلى أنه كتب في إسهاب عن نشأة الديمقراطية الحديثة ، وعن مدى ما اشتغفه النظم الروسية الحديثة من قوانين الروس وعاداتهم القديمة .

أما أعظم جهد لمؤرخ يستحق التقدير قبل لامبرخت — وذلك في ميدان كتابة تاريخ عام عن الحضارة — فهو ما تضمنه كتاب العالم السويسري اوتوهن أم رين Otto Henne - Am - Rhyn (١٨٢٨ — ١٩١٤) وهو الكتاب الذي صدر في سبعة أجزاء بين سنتي ١٨٧٧ ، ١٨٩٧ بعنوان (التاريخ الثقافي العام منذ العصور الأولى حتى الوقت الحاضر) . ويعتبر هذا الكتاب بالقياس إلى المجال الذي تناوله والفترة التي تم إعداده فيها من أعظم الأعمال التي أنجزها فرد في مجال التاريخ الثقافي والتحليل التاريخي . ذلك أن هن — أم — رين كان كاتباً دسم الانتاج في ميدان التاريخ الثقافي في صورة تدعو إلى الإعجاب . وبالإضافة إلى هذا الكتاب الضخم فإنه كتب عن التاريخ الثقافي للشعب الألماني ، وعن التاريخ الثقافي للشعب اليهودي ، وعن التاريخ الثقافي للحركة الصليبية . هذا كله فضلاً عن كتابه الذي عالج فيه مكانة المرأة في التاريخ الثقافي وبحثه عن الأهمية الثقافية للقصص الشعبية الألمانية . أما بولس هينبرج Paul Henneberg فهو معاصر للكاتب لامبرخت وإن لم يتأثر به في شيء ، وكتب كتاباً عظيماً سماه ثقافة الحاضر (أصولها ومصيرها) وهو الكتاب الذي نشر في سبع وثلاثين جزءاً بين سنتي ١٩٠٥ — ١٩٢١ .

وكان ان ظهر أثر علم الاجناس البشرية الجديد على التاريخ الثقافي في ألمانيا في كتابات جولويس ليرت Lippert (١٨٢٩ — ١٩٠٩) وخاصة في كتابه الذي يترجم إلى الإنجليزية

باسم (تطور الثقافة) . ذلك ان ليبرت أوضح بطريقة ممتازة دلائل التطور التي تحققت في التاريخ الثقافي على يد الكتاب المختلفين مثل مورجان ، وسبنسر . فضلا على أنه ركز على أهمية انتشار الثقافة . وكان يؤمن بأن العوامل الديناميكية في تاريخ البشر هي في حقيقتها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل بيولوجية أو جغرافية ، ولذا فإنه من أوائل الفائلين (بمذهب الحتمية الثقافية) . وفي خلال عرضه للمراحل الثقافية ، حرص على أن يؤكد تأثير الأفكار في كل مرحلة منها . كذلك كتب ليبرت مؤلفات أخرى عن تطور الآراء الدينية والطقوس وعن تاريخ الأسرة وتاريخ سلوك الألمان وعاداتهم . وإذا كان التاريخ الثقافي بدين له بالشىء الكثير فإن علم الاجتماع التاريخي يدين له أيضا نظرا لما أحدثته كتاباته من تأثير عليه . وأما أبرز الأبطال جهداً في مجال تاريخ الحضارة وأعظمهم بحثاً في تطور هذا التاريخ في العصور الحديثة فهو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦ - ١٩١٠) .

كان أول بحث هام قام به لامبرخت كتابه الفصل والمبتكر عن تاريخ ألمانيا الاقتصادية في العصور الوسطى مع تركيزه بصفة خاصة على إقليم موزل . وفي هذا الكتاب أوضح لامبرخت اهتمامه بتاريخ الطوائف ذات النشاط الاقتصادي والحركات الاقتصادية الرئيسية بوصفها صورا مؤثرة على التاريخ الاجتماعي لأى شعب . ومن الواضح أنه استقى هذا الاتجاه إلى حد كبير من كارل ماركس رغم أن لامبرخت لم يكن ماركسي النزعة . كذلك تأثر لامبرخت بنيتشه وبوجهة نظر أوغسط القائل بأن التاريخ ينبغي أن ينظر إليه في صورة مراحل متتابعة في مجال السيكلوجية الكلية للإنسانية . هذا كله فضلاً عن تأثر لامبرخت بنظرية التطور . وكان أن عبر لامبرخت عن كل أفكاره هذه في كتابة الخالد (التاريخ الألماني) الذي نشر في اثني عشر جزءاً منذ ١٨٩١ حتى ١٩٠٩ ، ثم أضيفت إليه أجزاء عن الفترة الحديثة جدا . ونظم لامبرخت مادته حول المحور الأساسي القائل بأن كل عصر كبير له سمة سيكلوجية شاملة وغالبة . وهذه السمة هي التي تسود في عصرها ، وأن التاريخ ليس إلا سجلاً لتأثير وتتابع هذه السمات السيكلوجية السائدة . فالعصر البدائي كانت سمته السيكلوجية السائدة هي الرمزية ، والعصر الوسيط المبكر كانت سمته المثالية ، أما العصر الوسيط الأخير فكانت سمته المحافظة . أما عصر النهضة والتنوير فكانت السمة السائدة فيه هي الفردية . وفي العصر الرومانسي كان الخيال والتصور بينما كان العصر الذي أعقب الثورة الصناعية هو عصر توتر الأعصاب . ولم يهمل لامبرخت التاريخ السياسي وإنما جعله تابعا للتاريخ الاقتصادي والثقافي . وأدى اهتمامه بالتاريخ الاقتصادي إلى تركيزه الخاص على العوامل الاقتصادية وذلك عندما عالج تطور الشعب الألماني . كذلك اهتم اهتماما غير عادي

بتاريخ الفن والموسيقى . ولم تتسم كتابه لامبرخت بالاستفاضة فحسب ولكنه كان أيضاً صاحب حوار ممتع شائق . والواقع أنه فعل الكثير لتطوير وجهات نظره عن التاريخ . وكان له تأثيره الكبير على لاكومب وبير في فرنسا وفيرور وباراجلو في إيطاليا ، وبيرين في بلجيكا في حين ظهر تأثيره في الولايات المتحدة على كل من و . أ . دود ، كارل بيكر .

وإذا كان لامبرخت لم يؤسس مدرسة رسمية في ألمانيا فإنه ترك أثراً قوياً فيها . وفي سنة ١٩٠٩ عاونه المعجبون به على تأسيس معهد الحضارة والثقافة العالمية في ليبزج تكون مهمته إعداد الباحثين على نفس منهجه . وظهرت لعدد من تلاميذه أعمال هامة فكتب كيرت بريزج بحثاً عن التاريخ الثقافي في العصور الحديثة ضمنه آراء لامبرخت العامة في عرض منتظم للتطور الثقافي في العالم الحديث . ولقد جاء منهج بريزج واستنتاجاته في عمله أكثر دقة من لامبرخت كما أنه وهب جهده في أواخر سني عمره لعلاج التاريخ الثقافي وفلسفة التاريخ ، فأخرج كتابه الذي أسماه « تغير التاريخ » . أما إبرهارد جوتن Eberhard Gothen فقام بجهود قيمة في دراسة عصر النهضة وتاريخ اليسوعيين والحركة المضادة للإصلاح الديني ، كما أسهم بالكتابة في سلسلة هينبرج . وهناك أيضاً والتر ويلهلم جوتز الذي أصدر (سجل تاريخ الحضارة) كما كتب أبحاثاً متخصصة هامة عن عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني ووصفاً للتاريخ الثقافي في أسيسي ورافنا فضلاً عما كتبه عن التاريخ الثقافي في ألمانيا . وله كذلك كتاب عن التاريخ الثقافي للعالم جاء عرضاً ممتازاً مليئاً بالشروح . أما رادولف كوتز شك Rudolph Kotschke فكان خبيراً بجوانب التاريخ الاقتصادي في العصور الوسطى وخاصة عن التاريخ الزراعي في تلك العصور . فإذا انتقلنا إلى برنهارد جروثيوزن Bernhard Groethuysen وجدناه واحداً من أبرز الباحثين الذين كتبوا أحدث الإيضاحات عن عصر النهضة والحركة الإنسانية ، كما كتب وصفاً لنشأة الروح البرجوازية في فرنسا . وهكذا تم دفع حركة التقدم في التاريخ الثقافي في ألمانيا بفضل عمل لامبرخت وأتباعه . وكان أن أدى هذا بالإضافة إلى ما كان له من تأثير في الخارج إلى تحويل الاهتمام السابق بالتاريخ الثقافي من مرحلة الاهتمام الفردي المشتت إلى مرحلة التنظيم المحكم الدقيق .

أما عن فرانز كارل مولر ليار Carl Müller Lier (١٨٥٧ - ١٩١٦) وهو أستاذ علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع التاريخي فإن كتاباته جمعت بين علم الاجتماع التاريخي والتاريخ الثقافي لألمانيا . وكان منهجه التاريخي مزيجاً بين نظرية سبنسر في التطور ونظرية (التطور المحلية) عند علماء الأجناس والنظرية المادية لماركس في التاريخ . ذلك أنه اعتقد أنه يمكن

للإنسان أن يخضع التطورات التاريخية الخاصة بالنظم والثقافة لقوانين محددة . ورأى أن هناك وحدة عامة شكلية للتطور الثقافي وتطور النظم في سائر أنحاء العالم ، وأن الاختلافات بينها إنما هي اختلافات محلية ذات خاصية ضئيلة الأهمية نسبياً . وجاء تناوله للتطور التكنولوجي والاقتصادي على وجه ممتع ، تضمن كثيراً من الأفكار والآراء . وكثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والتاريخ يتقبلون اليوم آراءه ونظرياته في تحفظ شديد ، ولكنه تناول الحقائق الواقعية بمهارة وعلى نحو ممتع . وكتب عن تطور كل الأشياء من الآلات حتى الحب . وقد ترجمت أعظم كتبه أهمية إلى الإنجليزية ، وهو كتاب تاريخ التطور الاجتماعي . أما الفرد و *Weber* فله كتابه الذي أسماه تاريخ الحضارة والاجتماع الذي صدر في سنة ١٩٣٥ .

وجاء هذا الكتاب أدق من سابقه في تخطيطه فضلاً عن أنه أكثر شمولاً ، فضلاً عن أن مادته التاريخية أكثر جدة . بل ربما كان هذا الكتاب الأخير أكبر الجهود التي أثبتت قدرتها على مزج التاريخ الثقافي بتفسيرات اجتماعية عامة لتطور النظم البشرية . هذا كله بالإضافة إلى أنه تناول تطور الحضارات المعروفة من وجهة نظر اجتماعية .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن فرنسا ، وجدنا أن المبادئ الخاصة بالتطور الثقافي كما تضمنتها كتابات أوغست كومت عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع التاريخي ظلت حية على يد رينيه ورمز *Rene Worms* وغيره من تلاميذ كومت الفرنسيين . أما الجهد الهام الذي أعقب ذلك في مجال التاريخ الثقافي فقد تضمنه عمل عديد من الطلبة القادرين والمبتكرين في مجال الأدب والنقد الأوربي مثل هليوبولت تين *Hippolyte Taine* وشارل سانت بييف وارينست رينان . من ذلك أن تين وهو مؤرخ الأدب الانجليزي والثورة الفرنسية اعتقد أن التاريخ ينبغي أن يكون علماً وأن الثقافة البشرية تتكون بفعل عوامل ثلاثة هي الجنس والمحيط الاجتماعي والظروف التاريخية . أما سانت بييف وهو الناقد الأدبي القدير فقد كتب تاريخاً ثقافياً جديراً بالإعجاب عن الينسينيين *Jansensits* في كتابه الذي أسماه تاريخ بورت رويال *History Of Port Royal* . أما رينان فكان رجلاً عقلانياً هادئاً الطبع صاحب أبحاث ممتعة وعالماً عظيماً من الجنس السامي . وقد عمل الكثير لكي يربط بين الفكر الحر والتاريخ الثقافي .

ثم كان أن وجد التاريخ الثقافي دفعة قوية في فرنسا في إنتاج جاك فيليب تاميزي دي لاروك *Jacques philippe Tamizey de Larroque* (١٨٢٨ — ١٨٩٨) الذي أوضح العلاقة بين علم الآثار والادب من ناحية والتاريخ الثقافي من ناحية أخرى . وكانت معظم كتاباته الهامة عن الآثار

الفرنسية والتاريخ الاجتماعى والدينى فى العصور الوسطى . وعالج هذا الموضوع أيضاً علاجاً يتصف بالحىوية بول لاقومب Paul Lacombe (١٨٣٤ — ١٩١٩) الذى كانت أهم أعماله كتاب (التاريخ كعلم) الذى صدر سنة ١٨٩٤ . وأكد لاقومب الفكرة القائلة بأن التاريخ هو العلم الذى تفرع منه علم تطور النظم كما قارن فى وضوح بين التاريخ فى صورته للتقليدية مع ذكر الأحداث وبين ما كان يعتبره أهم وجه للتاريخ وهو دراسة تطور النظم البشرية . هذا إلى أنه آمن بوجود تداخل بين التاريخ كما هو معروف وبين علم الاجتماع التاريخى ، كما أعطى اهتماماً أثناء سرده للرواية التاريخية لتاريخ الأدب والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية . ولم يكن للاكومب أى تأثير ولو ضئيل على هنرى بير Berr . وهنرى بير هذا هو أحد أصحاب الدور الرئيسى فى فرنسا فى فكرة التحليل التاريخى ومؤلف واحد من أعظم الأعمال المشتركة متعة عن تاريخ الثقافة . وهناك اثنان من أعظم علماء التاريخ الفرنسيين قدرة واتساعاً فى أفق التفكير هما الفرد رامبو Rambaud (١٨٤٢ — ١٩٠٥) وشارل سينبو Seignobos اللذان كتباً أشهر الكتب فى تاريخ الحضارة .

أما رامبو فأخرج أحسن عمل عن تاريخ الحضارة الفرنسية فى حين كتب سينبو مدخلاً تاريخياً للحضارة الغربية . وهناك أيضاً جورج رينارد George Renard الذى كان حجة فى التاريخ الاقتصادى من العصور القديمة حتى العصور الحديثة ، إذ كان صاحب فضل كبير فى الإشراف على أحسن كتاب اشترك فى تأليفه عدد من الباحثين وعالج التاريخ الاقتصادى العام منذ الأزمنة المبكرة حتى عصرنا الحديث وهو الكتاب الذى عنوانه (تاريخ العمل فى العالم) . واتجه هذا العمل نحو التحقير من شأن التاريخ وإثارة الاهتمام بتطور الأشياء المادية ومصير الرجل العادى . وكان معنى ذلك أنه جاء مناقضا إلى أقصى حد للمثل التاريخية التى نادى بها بوفندورف Pufendorf وروبرتسون وجيبسون والتى عرفت التاريخ بأنه سجل لأعمال الشخصيات البارزة ورجال البلاط والعصور . ولرينارد كذلك بعض البحوث الهامة عن الأسس الاجتماعية والتنظيمية للأدب القومى . ويعتبر هذا علاجاً علمياً حديثاً للانجهايات التى كانت أول من بدأتها مدام دى ستيل وسيسموندى .

أما أئمة الباحثين الفرنسيين فى التأليف التاريخى وتاريخ الحضارة فى فرنسا فهو هنرى بير Berr الذى عبر عن وجهات نظره فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٩١١ بعنوان (التأليف التاريخى) . ثم نشر نظرياته بعد ذلك بعشرة أعوام على نطاق واسع ورد على نافديه فى كتابه الذى

أسماء « التاريخ بمعناه التقليدي والتأليف التاريخي ». وقال بير بوجود فرق أساسي كبير بين التلخيص من ناحية والتأليف العلمي التاريخي من ناحية أخرى . وجاء تمييزه بين الاثنين قبل أن يصبح ما يعرف باسم فلسفة التاريخ . وأخذ بير على عاتقه مسئولة الإشراف على إعداد ما يعتبر أكثر المؤلفات المشتركة طموحاً والتي بذل فيها أعظم الجهود في كل العهود حتى عهده عن تاريخ الحضارة . وعرف هذا الكتاب الذي صدر في مائة جرة باسم تطور الإنسان .

وهذا تضمنت مقدمة هذا الكتاب عرضاً لنظرته عن التأليف التاريخي في صيغة غامضة في الأحكام إذ يقول : « بدون الادعاء بأن منهج التأليف والتحليل العلمي يمكن أن يطبق على التاريخ بصورته المحددة ، فإنه يمكن الاعتراف على الأقل — كمحاولة يفترض صحتها — أن نسج الحقائق الخاصة بالنظور البشري يمكن تجميعه في ثلاث طرق متميزة عن بعضها تماماً الأولى : هي الطريقة الافتراضية ، والثانية : هي الطريقة الاضطرابية ، والثالثة : تلك الحوائج المرتبطة بالمنطق الباطن . وسنحاول هنا أن نستفيد وأن نقارب بين التفسيرات المتباعدة للغاية والتي ظهرت حول هذا الموضوع وذلك ، بأن نحاول أن نوضح أن كل نواحي التطور الإنساني تقع في ثلاثة تقسيمات عامة هي الافتراضية ، والاضطرابية والمنطقية . وبدوننا أنه بهذا التقسيم الثلاثي نضع التاريخ في إطار دورته الطمعية ونفسره العام ، فضلاً على أن هذا الترتيب يعطينا في الحقيقة نظرة أعمق من السببية ويدعونا إلى أن نعوص في مجموعة الحقائق التاريخية وأن نحاول أن نميز بين ثلاثة أنواع من العلاقات العلة الأولى هي التتابع المجرد حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم التتابع والثانية هي الصلة الدائمة حيث ترتبط الحقائق بغيرها بحكم الضرورة والاضطراب ، والثالثة هي الاتصال الباطن حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم العمل . ومن هذه النظرة لطبيعة المسببات التي تعمل في التاريخ ، لا يبدو التأليف سهلاً ولكنه يبدو على الأقل مفهوماً يمكن تصوره .

ومع أن هذه المنظومة تبدو ذات طابع علمي عميق ، إلا أنها لهذا السبب لن تعمر طويلاً . ذلك أنه افترض خطأ أن نطبق العلم على التاريخ اتجاه مضاد للحياة وأن الفائدة المرجوة من وراء هذا الفن (التاريخ) هو إحياء الماضي . ولكن التحليل هو الذي يحول الماضي إلى مجرد أكوام من الحقائق يعلمها التراب ، وما يجمع العلم يتم إنعاده لا من الفناء وإنما من النسيان . إن التأليف يحى الماضي أكثر مما تفعله الذاكرة بل خير منها . وإن مهمة التأليف كما حددها ميشليه هي « بعث الحياة في كل جوانب الماضي لا في بعض مظاهره السطحية وحسب وإنما في جوانبه الداخلية العميقة . ولا يمكن تحقيق ذلك بالعبرة ، وإنما يستطع العلم أن يفعل ذلك بتعميق نظريته عن السببية وهي النظرية التي يمكن عن طريق التأليف إعادة بنائها »

ويمكن القول أن هذه السلسلة من الكتب حققت آمال صاحبها فعاثت إلى أقصى ما تصور لها صاحبها أن تعيش . وبصرف النظر عن الطبعة الإنجليزية التي انتشرت على نطاق واسع ، فإنها تمثل أعظم الجهود في تاريخ الحضارة الإنسانية . وكان معظم من شاركوا بجهودهم فيها من الفرنسيين الذي تخصص كل منهم في جانب معين أو مرحلة محددة من تاريخ الحضارة .

وهناك مؤلف فرنسي معاصر كان له اهتمام إيجابي بالتأليف التاريخي هو لويس هالفن Louis Halphen الذي يعتبر حجة في الحضارة الرومانية وحضارة الشطر الأول من الصور الوسطى . واشترك مع فيليب ساجناك في عمل تاريخي كبير عن الحضارة أسمى (الشعوب والحضارات) صدر في عشرين جزءاً ، أما جوستاف جلوتز وهو واحد من أهم الباحثين الذين اشتركوا في الموسوعة المسلسلة التي أشرف عليها بير فقد أعد هو الآخر عملاً تسم بالدة والجهد البالغ عرف باسم (التاريخ العام) وركز بصفة خاصة على تاريخ الحضارة . وألف موريس كروازيه كتاباً تاريخياً في سبعة أجزاء عن تاريخ الحضارة ركز فيه على الاتصالات الحضارية وانتشار الثقافة . أما أحدث الأعمال عن تاريخ الحضارة في فرنسا التي نهض بها مؤلف واحد فهو (تاريخ الثقافة العالمية لمؤرخ العلوم والأستاذ في علم وظائف الأعضاء شارل ريخت Charles Richet . وينظر ريخت إلى تاريخ العلم على أنه أهم العناصر في تطور الثقافة البشرية . والملاحظ أن الجزء الأول من كتابه الذي يقع في جزئين عن التاريخ العام للحضارة وصل بقصة الحضارة حتى سنة ١٧٨٩ . ذلك أن الشطر الأكبر مما تم إحرازه من تقدم في التاريخ البشري سواء أكان تقدماً علمياً أم فنياً بارزاً أخذ سبيله منذ هذا التاريخ . ولا يخلو أى بحث ولو كان موجزاً عن التاريخ الثقافي لفرنسا دون الإشارة إلى العالم سالومون ريناخ Salomo Reinach (١٨٥٨ — ١٩٣٢) وهو مؤلف كبير وغير ملتزم كتب في مجال تاريخ الفن والأدب والدين كما أسهم في عديد من الأجزاء التي تناولت هذه المجالات كلها إسهاماً ينم عن قدرة بالغة .

أما في إنجلترا فإن فرانسيس سيدنى مارفن وأرنولد تيوينى فهما من أصحاب الجهد الرئيسى في مجال التحليل التاريخي منذ أيام باكلر Buckle . ويعتبر كتابا مارفن ، الماضى الحر ، و (قرن الأمل) The Century of Hope مداخل تتسم بالقدرة في مجال التأليف والشرح التاريخي . وبصفته محبا لقضية السلام قام بإعداد عدة أجزاء بالاشتراك مع غيره في الموسوعة التي صدرت باسم (سلسلة الوحدة) والتي استهدفت تتبع تاريخ الحضارة وركزت على الخصائص الدولية للحضارة الغربية .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كتاب أرنولد توينبي (دراسة في التاريخ) وجدناه أعظم المشروعات الطموحة التي أقدم عليها مؤلف بمفرده في مجال التأليف التاريخي. كذلك أدى ج. ب. بيوري J.B. Bury — وهو الذي ألف كتاباً صغيراً ممتعاً عن تاريخ حرية الفكر وصاحب بحث أكبر عن نظرية التقدم — جهداً هاماً لتاريخ الحضارة بما أبداه من مقدرة على التخطيط والإشراف على أعمال كبرى. ذلك أنه أفسح مجالاً واسعاً حين خطط لموسوعة كامبردج في التاريخ القديم وموسوعة كامبردج في التاريخ الوسيط أمام علاج التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفلسفة والعلم والفن والدين. على الرغم من أن هذه الموسوعات في أساسها تستهدف التاريخ السياسي. كذلك تضمنت السلسلة التي عرفت باسم (التراث) مختصراً مفيداً عن التاريخ الثقافي اشترك في وضعه أكثر من باحث، فقام ادوين ييفان، وشارل سنجلا بإعداد ما عرف باسم (تراث إسرائيل). وأعد ر. واليفنجستون ما عرف باسم (تراث الإغريق). وأعد كيريل بايلي Cyril Bailely ما عرف باسم (تراث روما). وأشترك ت. و. أرنولد، الفرد غليوم Guillaume في إعداد (تراث الإسلام). في حين كتب الفصل الخاص بـتراث العصور الوسطى كل من ك. ج. كرمب C.G. Crump، ا. ف. جاكوب. وقد عمل سيرجون هامرتون الكثير من أجل تطوير العمل في التاريخ الثماني. ذلك أنه وضع مجموعات فاخرة مصورة تناولت الماضي مثل تلك التي أسماها (عجائب الماضي) وما شابهها من أعمال أخرى. هذا إلى أنه نشر أعظم ما صدر باللغة الانجليزية في تاريخ الحضارة والذي عرف باسم (التاريخ العالمي للعالم) وهو الكتاب الذي جاء في ثمانية أجزاء تفيض بالشروح. كذلك اشترك ك. ك. أوجدن Ogden مع بارنز — مؤلف هذا الكتاب — في إعداد عمل أكثر اكتمالاً من ذلك الذي قام به بير، باسم (تاريخ الحضارة). وتضمن هذا الكتاب كل ما جاء في سلسلة بير ورينار Berard - Renard. ثم اضيفت إليه عدة أجزاء كتبها بعض الباحثين الإنجليز والأمريكيين والألمان. ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الأعمال المشتركة عن تاريخ الحضارة قوة وشمولاً^(١). وتعتبر المجموعة المشتركة التي قام بإعدادها هـ. د. تريل Traill، هـ. س. مان Mann والتي عرفت باسم (انجلترا من الجانب الاجتماعي) من أعظم ما كتب عن تاريخ الحضارة الإنجليزية. أما هـ. ج. ولز Wells في كتابه (الإطار العام للتاريخ) فقد فعل أكثر مما فعله أي باحث آخر منذ جون ريتشارد جرين لإثارة اهتمام القراء الإنجليز بالتاريخ غير السياسي.

(١) انظر هـ. أ. بارنز التاريخ والإدراك الاجتماعي (طبع Knopf ١٩٦٦) وقد ترقف العمل فيه بعد هذه الحرب العالمية الثانية

(المولد)

كذلك أسهم المؤرخون في أجزاء أخرى من أوروبا في تطور الاهتمام بتاريخ الحضارة . وثمة كتاب من خيرة الكتب وأكثرها ابتكاراً في مجال التاريخ الثقافي القومي ، وهو الكتاب الذى يحمل اسم (تاريخ الحضارة الأسبانية) لمؤلفه رفائيل التاميرا : أما الكتاب الذى قام به أنطونيو باليسترور Ballesteros والذى عرف باسم (تاريخ أسبانيا وتأثيره في تاريخ العالم) فإنه أكثر تكاملاً من كتاب التاميرا وإن كان أقل اهتماماً منه بالتاريخ الثقافي . وفى إيطاليا أكد باسكال فيلارى Pasquale Villari صاحب الأبحاث الهامة عن التاريخ الثقافي في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى وعصر النهضة — أهمية التحليل التاريخي . فانه أوضح أن عمل المؤرخ لا يكمل إلا إذا نظم مادته في صورة منطقية مرتبة . كذلك أسهم بنديتو كروتشه Bendetto Croce في تاريخ الفن الأوربي والإيطالي ، والأدب ونظرية علم الجمال وذلك في الوقت الذى حاول فيه من جهة أخرى أن يلبس الفلسفة القديمة للتاريخ ثوباً جديداً ويجعلها أكثر ملاءمة . وانعكس في كتاب جيغلييلمو فيرورو Guglielmo Ferrero الذى أسماه (عظمة روما واضمحلالها) صورة النواحي التي ركز عليها لامبرخ وهو النواحي الخاصة بأهمية العوامل السيكولوجية لمجتمعة على التطور التاريخي . وكتب كورادو بارباجلو وهو المشرف على المجلة الإيطالية الرئيسية المتخصصة في التاريخ الثقافي كتاباً من أمنع الكتب التي كتبت في تواريخ الحضارة .

أما هنري بيرين Henri Pirenne فقد تأثر بلامبرخ ولاكومب وأخرج دراسة تاريخية واسعة الأفق عن تاريخ بلجيكا كما أسهم بسهم رامز في بحث تاريخ الحياة الاقتصادية والمدنية في العصور الوسطى .

وفى رومانيا لم يكتف الكسندر زينو بول (١٨٤٧ - ١٩٢٠) بكتابة تاريخ قومي متمتع ، بل أخرج كتاباً هامة أيضاً ناقش فيها طبيعة علم التاريخ ومشاكله أسماه (الأسس الرئيسية للتاريخ) و (نظرية التاريخ) وميز في وضوح بين طبيعة كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ومن جملتها التاريخ ، وأوضح أن التاريخ ينبغي النظر إليه على أنه في أساسه علم اجتماعي ، وأن قوانين السببية التاريخية يمكن تطبيقها على الحالات التاريخية العامة إذا لم يمكن تطبيقها على الأحداث المرتبطة بالأفراد وأن الحقائق التاريخية الهامة فقط هي تلك التي لها معدلات ونتائج اجتماعية هامة . وهناك واحد من أبرز تلاميذ زينو بول وهو نيقولا ايورجا Iorga الذى حاول في كتابه الذى أسماه (بحث في تركيب تاريخ الإنسانية) Essay on the Synthesis of the History of Humanity أن يتناول التاريخ العام للحضارة وتقدم البشرية . ويدل عمله على نظرة واسعة وتعمق في بواطن الأمور وقسط كبير من التعليم .

ويمثل اهتمام الروس بالتاريخ الثقافي في أعمال كثيرة سمت الإشارة إليها مثل مؤلف كونالفسكى التاريخي في النواحي الاقتصادية وتلك الخاصة بالنظم . كما تتمثل في أعمال فينوجرادوف Vinogradov عن التاريخ الاجتماعي في العصور الوسطى وتاريخ القانون ، وفي كتابات بولس مبلخوف Milukov عن تاريخ النظم وتاريخ القانون الروسى . ويتمثل كذلك في العمل الكبير الذى قام به روزوفتسف Rostovtsev عن التاريخ الثقافى القديم لروسيا الجنوبية والتاريخ الاجتماعى والاقتصادى في العالم القديم وأما عن نسبكوسلوفاكيا فلدينا الأبحاث القيمة الجديدة بأن يحمل اسم العالم توماس مازريك عن الفكر والأدب السلافى .

وقد سبق أن أشرنا إلى الدلائل الأولى للاهتمام بالتاريخ النفسافى في الولايات المتحدة الأمريكية وهى التى ظهرت في أعمال دراير ، م. س. تايلر ، هوايت ، هنرى آدمز . وتعتبر الشخصيه الرئيسيه في القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية التى وهبت نفسها للرفى بالتاريخ الثقافى هى شخصيه جيمس هارفى روبنسون James Harvey Robinson (١٨٦٣ - ١٨٣٦) الذى تأثر قليلاً بلامبرخت وبالمجددين الأوربيين وإن لم يمنع ذلك من إلمامه بأعمالهم . ويقول روبنسون عن نفسه : إن التقدم والتطور الذى طور به نفسه من مجرد باحث تقليدى في ميدان التاريخ الدستورى إلى أن أصبح معلماً غير متأثر برأى الغير على ما أسماه ، بالكوميديا الإنسانية ، إنما تم بصورة تدريجييه وبصفة غير رسميه وكان أمراً شخصياً بحتاً^(١) . ذلك أنه استقى وجهات النظر الخاصة بالوراثة من علم الحيوان وطبقها على تفسير المادة التاريخيه . وعندما كان مهتماً بالثورة الفرنسيه عاد من تلك النمطة إلى دراسة الماضى تدريجياً ، أو كما قال هو نفسه أنه رجع من الجولتن أو المفضله إلى البطله الصغيره . ولخص وجهه نظره في كتابه الذى منه انتشرت الأبحاث التى تضمنها على نطاق واسع والذى عرف باسم « التاريخ الحديث » والذى صدر سنة ١٩١١ . ووضح تأثير ما نادى به بصورة رئيسيه في كتبه التعليميه عن التاريخ الأوربى وهى الكتب التى أحدثت انقلاباً كبيراً في الأفكار ، كما وضح تأثيره كذلك في تدريسه الفريد والممتع . وكان أن شرع في وضع كتاب كبير عن التاريخ الثقافى ، لكنه لم يكمله . ثم قام طلبته بمهمة الكتابة في صورة

(١) ارجع إلى هـ. ا. بارتر فيما نشره H W Edit أساتذة علم الاجتماع الأمريكيون طبعة هولت Holt (١٩٢٧) صفحات ٣٢١ وما بعدها ، وكذلك روبنسون : الكوميديا الإنسانية طبعة هاربر ١٩٣٧ وكذلك : L.V.Hendricks James Harvey Robinson (N.Y. 1946)

غزيرة دسمة . فجمع جيمس ت. شوتويل مجموعة كبيرة من المصادر عن تاريخ الحضارة سميت « سجلات الحضارة » . وكان من رواد الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة . كذلك كتب لين ثورنديك أعظم الأعمال تكاملاً عن العلم والفكر في العصور الوسطى ، وله مقدمة عامة موجزة عن تاريخ الحضارة . أما كارل بيكر Becker الذى تتلمذ على كل من روبنسون وتيرنر فكتب أبجائاً تتم عن فهم كبير للحالة الفكرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وامتاز بريزرفد سميث Preserved Smith بما كتبه عن التاريخ الثقافي في عصر حركة الإصلاح الدينى وأنتج ما يمكن أن يعتبر أعظم ما قام به مؤلف بمفرده في مجال تاريخ الثقافة الحديثة . أما هوارد روبنسون فيبحث عصر التنقل وكتب أحسن الكتب الإنجليزية عن بطرس بابل Pierre Bayle وردد كل من شارل أوستن بيرد ، بنجامين ب . كندريك ، ا. م شلزنجر ، و.ر. فوكس ، هارولد فولكبر Faulkner ، هارى ج. كارمن وغيرهم وجهة نظر روبنسون واهتمامه وطبقوها على التاريخ الأمريكى . وألف فوكس وشلزنجر Fox and Schlesinger ما يعتبر أعظم الكتب التاريخية تكاملاً وأحدثها عن الحياة الأمريكية الاجتماعية والثقافية وهو الكتاب الذى يحمل عنوان « تاريخ الحياة الأمريكية » ووضع فرديناند شيفل الذى لم يتأثر بروبنسون والذى يمكن القول بأنه أكثر الناس إحساساً وتفهماً لتاريخ الحضارة في الولايات المتحدة الأمريكية - مؤلفات تتم عن مقدرة كبيرة عن مدينى سينا وفلورنسا في إيطاليا . ويعتبر ما كتبه عن فلورنسا بالذات ذا أثر في تفهم الأمريكيين لثقافة عصر النهضة . أما فردريك ج . تيجارت فقد كتب أعظم ما يمكن كتابته بالتفصيل عن الأسس النظرية والفروض في التاريخ الجديد . ويتمثل خير ما أنتجته أمريكا اللاتينية في ميدان التاريخ الثقافي فيما كتبه فنسنت ريفا بالاشيو Vincente Riva Palacio وجيمس رومرو فلورس Jesus Romero Flores ، كما يتمثل فيما كتبه روملود. كاريبا Cariba عن الحضارة الأرجنتينية .

التاريخ الثقافي والمراحل الكبرى في التاريخ البشرى

وبعد أن تتبعنا الآن تطور التاريخ الثقافي عن طريق عرضنا للسمات البارزة المميزة لهذا التطور ، بقى أن نشير إلى بعض الجهود الهامة في مجال التاريخ الثقافي في مختلف مراحل التقدم البشرى منذ عصور ما قبل الكتابة وسنكتفى هنا بالإشارة فقط إلى بعض الأعمال الكبرى التى

سوف نختارها بين عديد من المجلدات التي تناولت هذا المجال . ومهما يقال عن قلة الكتب التي اُخبرنا الاتجاه إلى الكتابة في تاريخ الحضارة ودعمت هذا الاتجاه في قوة ، وبرغم حداثة الاتجاه في هذا السبيل بوصفه حركة تاريخية منظمة ، فإن هناك عديداً من الأعمال الخاصة التي تناولت جوانب معينة في تطور الثقافة . وعلى القارئ الذي ينشد الاقتراب من الكمال الرجوع إلى ما كتب تحت عنوان : « التاريخ الثقافي في الفصول المتتابعة في المرشد إلى الكتابة التاريخية » .

إن المدخل لكل التاريخ الثقافي ينبغي التماسه بالطبع في الأنثروبولوجيا الثقافية أعنى فصحة التطور الثقافي في المرحلة الطويلة للتطور الإنساني التي نتعارف عليها الآن بمرحلة ما قبل الكتابة . وتعتبر الأعمال الخاصة بعلم الآثار في عصر ما قبل الكتابة التي سبقت الإشارة إليها في إيجاز هي الأساس الرئيسي لدراسة التاريخ الثقافي . فمؤرخ مثل تيودور مومسن لم يسمع مطلقاً عن « عصر الجليد » إلا قرب نهاية حياته ، بينما تبدأ كل الكتب القيمة عن التاريخ القديم بالسرد لعصر ما قبل الكتابة . وضمن ادوارد ماير في كتابه فصلاً افتتاحياً بأكمله عن الأنثروبولوجيا . كذلك تبدأ موسوعة كامبريدج في التاريخ القديم بمصليين عظميين عن ثقافة ما قبل الكتابة من وضع ج.ل. مايرس Myres وأوجز جورج جرانت ماك كودي في كتابه « أصول البشرية » الجهود التي حققتها مدارس البحث في هذا المجال وذلك على نحو رائع . وعلينا أن نرجع إلى المؤلفات عن النظم والثقافة في العصور الأولى وإلى مبادئ التطور الثقافي التي كتبها المتخصصون في الثقافة الأنثروبولوجية .

ويمكننا البدء بالإشارة هنا إلى كتاب أ.ب. نايلور القديم عن الأنثروبولوجيا - ثم ننتقل منه إلى المؤلفات الحديثة . فهناك كتب مثل تلك التي لفرانز بوس Franz Boas بعنوان « فكر الإنسان البدائي » والأنثروبولوجيا والحياة الحديثة . وكذلك مؤلفات أ. ك. كروبر A. K. Kroeber « الأنثروبولوجيا » وهناك كتاب ر. ه. لوي R. H. Lowie « المجتمع البدائي والمدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية » . أما الكسندر جولدنوزر فله كتابان هما « الحضارة القديمة » و « التاريخ وعلم النفس والحضارة » ولدينا كذلك كتاب ل. أ. هوايت « تطور الثقافة » وكتاب كلارك ويسلر Clark Wissler « الإنسان والثقافة » وكتاب إم. توزر « الأصول الاجتماعية والترابط الاجتماعي » . وهناك أيضاً كتاب هارولد بيك Peake « الخطوات الأولى في التقدم البشري » وكتاب جوستاف شوالب Schwalbe « الأنثروبولوجيا » وتعتبر هذه الأعمال جميعها مدخلا

إلى التاريخ كما أنها تلقى كثيراً من الضوء على عصر « فجر التاريخ ». وقد سبق أن تناولنا بالوصف ما أنجزه الإنسان وتمكن بفضل من بلوغ حضارة عصر الكناية وحللنا سلوك الإنسان والجماعات وأوضحنا مبادئ التطور الثقافي ونماذجها بالقدر الذي سمحت به المصادر المعروفة. وأجاد جاك دي مورجات تلخيص الفترة الانتقالية من المجتمع البدائي إلى حضارة العصور القديمة، وذلك في كتابه « عصر ما قبل التاريخ في الشرق ». كذلك هناك كتاب ماكس بلانكهورن Max Blanckenhorn « العصر الحجري في فلسطين وسوريا وشمال أفريقيا » وكتاب ف. جوردن شيلد V. Gordon Childe « فجر الحضارة الأوروبية والشرق القديم » وكتاب موريه ودافى Moret and Davy « من القبيلة حتى الإمبراطورية ».

أما أدولف ارمان Adolph Erman فكتب عن الحياة اليومية في مصر القديمة كتابه الذي سماه « الحياة في مصر القديمة ». وما زال كتابه أقدم ما كتب في هذا الموضوع. وقد أعيد طبعه على يد أحد الباحثين البارزين. بعد مضي ثلاثين سنة على ظهور الطبعة الأولى. وتناول ارمان كذلك في إيجاز الأدب والفكر في مصر القديمة. وهناك ما هو أكثر إيجازاً وإن كان أحدث من سابقه في موضوع الثقافة المصرية وهو كتاب جورج شتندورف George Steindorff باسم « الإمبراطورية الفرعونية في بدايتها ». ولم يقتصر جهد جيمس هـ. برستد على إخراج كتب تاريخية تتم عن مقدرة فترة في تاريخ مصر، ولكنه كتب الكثير في التاريخ الثقافي، كما كتب أبحاثاً متخصصة في الديانة والفكر في مصر القديمة وعن فجر الحركات الأخلاقية والخيرية في مصر. أما كتاب مورييس جاسترو « حضارة بابل وآشور » فهو عمل ميسر الفهم وحجته في موضوع العقيدة الدينية في أرض ما بين النهرين في العصور القديمة على أن البحث الذي أعده الأستاذ برونوميسر Bruno Meissner تحت عنوان « البابليون والآشوريون » يعتبر أتم وأحدث دراسة عن حضارة ما بين النهرين. كذلك عالج كل من ر. و. روجرز R.W. Rogers، كلمنت هوارت Clement Huart، م. ن. دهلا Dhalla، ب. م. سيكس R.M. Sykes، ا. ث. و. جاكسون Jackson وآخرون مدى أثر حضارة الفرس القديمة على الحضارة الغربية. وأما عن الفن في الشرق الأدنى القديم فعازلت الفصول التي كتبها جورج بيرو Perrot وشارل شيبز Chipiez في كتابها « تاريخ الفن » تعتبر أحسن ما كتب في هذا الموضوع، ولو أن هناك كتيبات أحدث في هذا المجال مثل ما كتبه حنا كابارت Jean Capart باسم « محاضرات عن الفن المصري » وكذلك تعتبر الأجزاء الأولى من موسوعة هامرتون « التاريخ العالمي للعالم » أحسن علاج للتاريخ الثقافي في

عصور ما قبل الكتابة والشرق الأدنى القديم . وهناك أبحاث حديثة ومبتكرة تضمنتها الأجزاء التي كتبها موريه Moret ، دافي Davy ، ديلابورت Delaporte ، هوارت Huart وآخرون عن الشرق القديم في « سلسلة تاريخ الحضارة » كذلك نجد موسوعة كامبردج للتاريخ القديم وفيها كتبه رالف تيرنر بعنوان التراث الثقافي الكبير كثيرا من المادة القيمة عن الثقافة . أما ماكس وبر Weber وج . و . هيرتزل Hertzler فقد عالجا التفكير الاجتماعي في الشرق القديم .

فإذا ما انتقلنا إلى بلاد الإغريق القديمة نجد لدينا دراسة رائعة عن حضارة كريت وحضارة إيجة في ذلك الكتاب الذي صدر حديثاً لجوستاف جلوتر . ويعتبر العلامة الأيرلندي سيرجون ب . ماهاني أعظم من أدلوا بدلوهم الغزير في تبسيط الثقافة الإغريقية وشرحها ، إذ كتب تقريبا عن كل جوانب الثقافة في التاريخ الإغريقي وإلى هذا العمل الذي نهض به ماهاني — وهو عمل اتسم بالجدد والحماسة الكبيرة — يرجع الفضل في إثارة الاهتمام على نطاق واسع بثقافة الإغريق القديمة وإن كان يؤخذ عليه أنه لم يضع إلى حد ما خطأ لما يعالجه فضلاً عن إسرافه في الإطراء .

وانتمت أبحاث الكتاب الإنجليز من المدرسة الإنسانية بقدرتها على المعالجة الدقيقة المميزة والمعبرة . مثال ذلك ما كتبه ماري ، ج. لويس ديكنسون . أما أحسن مدخل للثقافة الإغريقية ظهر في مجلد واحد فهو الإنتاج المشترك الذي أشرف عليه ليونارد وهبلي Leonard Whibley وصدر بعنوان « المرشد إلى الدراسات الإغريقية » . ويعتبر العمل الذي قام به باللغة الألمانية الفرد جرك Gercke ، ادوارد فورتن « دراسة العصور القديمة » أكثر اكتمالا من سابقه . وهناك السلسلة الممتازة لجورج د. هادزستس Hadzsits ، داو.م. روبنسون عن حضارة الإغريق والرومان باسم « ما ندين به للإغريق والرومان » ، وشبيبتها الألمانية التي أعدها اوتوايمش Otto Immisch . وكتب كل من ادوارد . زيلر Zeller ، فيودور جومبرز ، ويلهلم ويندلبنند دراسات موجزة يعتمد عليها في دراسة الفلسفة الإغريقية . كذلك كتب ارنست باركر كتابا خالدا عن فلسفة الإغريق السياسية وتناول كل من هوجر برجر Berger ، أوجست بوشيه ليكلرك Auguste Bouche Leclercq ، بطرس دوهم Pierre Duhem ، العلم عند الإغريق . أما اوتو كرن Otto Kern ، جان هاريسون ، لويس ر. فارنل Farnell ، اروين رود Rohde فكانت لجهودهم القيمة في الموسوعات التي كتبوها عن تاريخ الديانة الإغريقية . وتناول الفرد موريس كروزييه ، وويلهلم فون كيرست تاريخ الأدب اليوناني بالتفصيل . واستعرض بيرسي جاردنر وماكسيم كولينون وجوهان اوفريك الفن الإغريق وتناولوه بالبحث والشرح . أما الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع في

سلسلة هامرتون التي عنوانها « تاريخ الحضارة » وفي موسوعة كامبردج للتاريخ القديم فهي ذات قيمة كبرى بالنسبة للتاريخ الثقافي في كل من بلاد الإغريق والرومان .

وبالنسبة لرومان هناك مقدمة عامة لا غنى عنها ، تناولت كل جوانب الثقافة الرومانية وصفها السيرجون إ. سانديز Sandys تحت عنوان « المرشد إلى الدراسات اللاتينية » . وتناول ماريون بارك Marion Park بالبحث التاريخ الاجتماعي الروماني ، كما عالجه كل من فرانك ف. ابوت F. Frank Abbott ، وليام وارد فولر Fowler ، صمويل ديل Dill ، لودفيج فريدلاندر Ludwlg Friedlander . ولدنا الكثير من المؤلفات عن الديانة الرومانية ، ومن جملة هذه المؤلفات الأبحاث المثالية التي قام بها جيس ب. كارتر Jess B. Carter ، وارد فولر Warde Fowler جورج ويصوا George Wissowa ، جاستون بوسير Jaston Bossier ، الفرد لوسى Loisy ، فرانز كومونت Franz Cumont ، تيروور جلوفر Terror Glover . وللدراسات التي كتبها الثلاثة الأواخر قيمتها الخاصة في الإحاطة بموضوع تصارع الأديان في الإمبراطورية الرومانية .

أما عن مراحل تطور الأدب الروماني فنجدتها في أبحاث جنون و. دوف ، ادوارد فورتن ، ويلهلم س. توكل Wilhelm Teuffel ، ودرس هنري ب. والترز Walters الفن الروماني دراسة تنم عن عبقرية كبرى ، كما درسه كذلك رينيه كاجنات ، فيكتور شاو Chapot ، فرانز ويكهوف Wickhoff ، ه. ت. ريفورا G. T. Rivoira ، وتناول جون ر. سانديز Sandys تاريخ البحث العلمي في العصور القديمة منذ أيام الإغريق والرومان . أما فترة الانتقال من الحضارة الرومانية إلى حضارة العصور الوسطى فقد جذبت انتباه كل من هنري بيرين Pirenne ، فردناند لوت Lot ، الفونس دوبش Dopsch ، كريستوفر داوسن Cristopher Dawson ، م. ل. و. ليستر M. L. W. Laistner ، إ. ك. راند Rand ، ايليناور دوكت Eleanor Duckett ، ه. و. نايلور وآخرون غيرهم .

وينبغي ملاحظة أن كل ما كتب من مادة عن أحوال المسيحية وتطورها إنما هو بالضرورة من جوانب التاريخ الثقافي . ويمكننا أن نشير في هذا المجال إلى بعض الأعمال التي نفوق غيرها في الأهمية . فهناك عدد من المؤلفات التاريخية العامة الجديرة بالاعتبار عن الكنيسة المسيحية ، ويعتبر ما قام به وليم مولر Moller نموذجاً لهذه المؤلفات ولدنا عن تاريخ المسيحية بصفة عامة ما كتبه شارل جوجنبر Guignbert ، عن المسيح وتطور المسيحية . وكتب إميل شورر Schurer كتابا

يعتمد عليه في دراسة تاريخ اليهود في العهد المسيحي الأول . أما كسلا من لوييس دوشسن Duchesne ، ارثر ك . ماك . جيفر Giffert ، هنري م . جواتين ، فقد عالجا تاريخ الكنيسة في عصرها الأول كذلك هناك كتابات شيرلي جاكسون كيس Shirley Jackson Case عن المسيحية في عهدها الأول وهي كتابات دسمة وبخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي ومازالت مؤلفات هنري شارل ليا Lea عن الكنيسة في العصور الوسطى تعتبر أعظم ما كتب في هذا الموضوع . وأمدا والتر اديني Adeny بأعظم الأبحاث المفيدة عن الإغريق والكنيسة الشرفية . أما العمل المشترك الذي قام به جورج جويو George Goyau فهو خير ما كتب عن التاريخ الثقافي للكنيسة الكاثوليكية . وتناول الكسندر فليك Flick انهيار نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى بالتحليل . أما توماس م . لندساي Lindsay ، بيرزفو سميث ، لودفيج فون باستور ، ارنست ترويلتش Troeltsch ، ماكس وبر Max Weber وآخرون غيرهم فاهتموا بعصر الإصلاح الديني اهتماما أثمر عن جهود طيب في هذا المجال . وأخرج جورج ب . فيشر ، وادولف هارناك ، وارثر ك . ماك جيفر أعظم الأعمال التاريخية عن الفكر والمذاهب المسيحية . أما جوستاف كروجر Kruger فهو أستاذ الأدب المسيحي في عصره الأول . وجاء جوزيف ستروزيوسكي Strozyowski بوصف متمع للفن المسيحي أما التاريخ الثقافي للعقيدة الإسلامية التي ظهرت في صورة منافس كبير للمسيحية فقد عالجه كل من ستانلي لين بول ، وسير توماس أرنولد ، دي لاسي اورلي ، دنكان ب . ماكدونالد ، رينولد نيكولسن ، ادوارد ج . برون ، سير ريتشارد بورتن Burton هنري لومس Lummens ، هنري سالادين ، كلمنت هوارت ، اجناز جولدزهر ، برنارد كارادي دي فو Bernard Carra de Vaux وغيرهم .

وتضمن كتاب هنري آدمز الذي حمل اسم « دير القديس ميخائيل ووثائقه » دراسة متممة وعميقة عن طبيعة الحضارة في العصور الوسطى وروحها أما تاميزي دي لاروك Tamizy de Laroque فله كتابه الهام عن الآثار الفرنسية وعن تاريخ القومونات^(١) في العصور الوسطى وعن التاريخ الثقافي والديني في تلك العصور . وتناول بحث السلوك والعادات في العصور الوسطى

(١) هي المدن ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل ، ظهر في أواخر العصور الوسطى وخاصة في إيطاليا وفرنسا والأراضي المنخفضة (المراجع) .

بالتفصيل بولس لاکروا في كتيبه العديدة التي تنم عن مقدرة فائقة أما الدراسة التي قام بها هنري اوزبورن تايلور في كتابه عن الفكر في العصور الوسطى فلها أهميتها فيما يختص بالتاريخ الثقافي في تلك العصور. وينطبق نفس القول على كتاب ريجنالدلبن بول وعنوانه «أضواء على تاريخ الفكر في العصور الوسطى» وأخرج موريس دى ولف Maurice de Wulf أحسن الكتب عن الفلسفة في العصور الوسطى. وساهم شارل هومر هاسكنز، لين ثورنديك مشاركة فعالة في دراسة تاريخ الفكر والعلم في العصور الوسطى. ويعتبر كتب كل من ستيفن ديرساي D' Irsay، هاستنجز ريدال، هنريك دينيفل Heinrich Denifle، هاسكنز أئمة المراجع الموثوق بها فيما يختص بدراسة التعليم في العصور الوسطى فضلاً على المدارس والجامعات في تلك العصور. وأما وليم ماكسيلانوس مانيتيوس فقد قدم لنا أحسن عرض شامل للأدب اللاتيني في العصور الوسطى. وكذلك جاء كتاب كارل كرومباستر عملاً مثالياً عن الأدب اليوناني، والبيزنطي في العصور الوسطى. وأنجز وليم ليثابي William Lethaby خير بحث عام عن الفن في العصور الوسطى. أما شارل ديهل Charles Diehl، و. م. دالتون فقد كتباً كتيبات بلغت أرقى مستوى عن الفن البيزنطي، بينما قدم رالف آدمز كرام Cram، سيرتوماس ج. جاكسون، ابوجين فيوليت لبدوك أعظم البحوث عن فن العمارة في العصور الوسطى، أما أحسن الأعمال التي ننم عن أرقى مستوى من القدرة على النقد لكل جوانب التاريخ الثقافي في العصور الوسطى فهي ما قام بها جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton.

ويتضمن كتاب جون هرمان راندال وعنوانه «تكوين الفكر الحديث» مقدمة عن التاريخ الثقافي للعصور الحديثة. كذلك هناك بحث كان من المنظر أن يصبح أروع الأبحاث التي كتبت بكافة اللغات عن التاريخ الثقافي في العصور الحديثة وعنوانه «تاريخ الثقافة الحديثة» تأليف المؤرخ بريزرفد سميث الذي فاقت قدرته كل حد، لكن عمله نوبف يعد أن نشر منه فصلان. ويتضمن كتاب أجون فريدل Egon Friedell الذي أسماه «التاريخ الثقافي في العصور الحديثة» كثيراً من الأحكام العامة الفذة والشروح المبتكرة. ولكنه ليس على نسق واحد من حيث الجوده ويعتمد إلى حد ما على فروض ونظريات أوزوالد سبنجلر وهي نظريات مشكوك في صحتها. وهناك كثير من المادة عن التاريخ الثقافي في السلسلة التي أصدرها وليم ل. لانجر William L. Langer باسم «نشأة أوروبا الحديثة». ويعتبر هذا العمل أقرب علاج للتاريخ الثقافي في العصور الحديثة باللغة الإنجليزية. وتناول عصر النهضة بالبحث على أحدث طراز كل من جوثن Goethein وجونز، جروثيوزن Groethuysen، براندى Brandi وغيرهم وذلك في كتبهم التي

سبق أن أشرنا إليها . أما اميل جيبيهارت فقد ألقى مزيداً من الضوء عن العلاقة بين العصور الوسطى في مرحلتها الأخيرة وعصر النهضة وأوضح السبب الذي من أجله بدأت حركة النهضة في إيطاليا . هذا بالإضافة إلى ما له من فضل بصفة خاصة في وضع كتابه الهام عن العلاقة بين ما ظهر في أواخر العصور الوسطى من مذاهب الزهد والورع وبين حركة النهضة المسيحية في عصرها الأول . وأنتج روبرت دافيدسون وفرديناند شيفل أعظم ما كتب عن النهضة في فلورنسا . أما هنري أزبورن تايلور وفرديناند شيفل ، هيا Hyma وادورد ب . شيني Cheyney فهم رواد الأمريكيين بالنسبة للدراسات الحديثة في هذا العصر . وأمدا بريرز فدميث وارنست تريولتش بعمل رائع عن التاريخ الثقافي في عهد حركة الإصلاح الديني ، كما ألف والتر جوتز عن الحركة المضادة لحركة الإصلاح الديني . أما أكثر الأعمال العامة مفيدة في مجال التاريخ الاقتصادي في العصور الحديثة فهي تلك التي تنسب إلى كافولفسكي ، فرنر سومبارت Sombart .

وثمة دراسات عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عن الدول الكبرى تتم عن مقدرة كبرى منها ما وصفه تلاميذ لامبرخت في ألمانيا وفي إنجلترا آل ويس وآل هاموند وليفا سير في فرنسا ، ودور فمان ، وداود ومساعدوه في الولايات المتحدة الأمريكية .

أما في مجال الفلسفة الحديثة والفكر والعلم فإن أعظم الكتب أهمية هي تلك التي وصفها هارالد هوفدنج Hoffding ، ابراهام ولف ، جون مورلي ، عن المدرسة العقلانية في فرنسا ، والدراسة الواسعة التي قام بها جون ت ميرز عن الفكر والعلم في القرن التاسع عشر . ووضع ف ج . ك . هيرنشاو سلسله من الكتب ذات الفائدة العظيمة عن الفكر الاجتماعي والسياسي منذ العصور الوسطى حتى القرن العشرين . وتبدو عظمه هارولدج . لاسكي Laski في تاريخه للفكر السياسي الحديث خصوصاً عن نشأة الحركة الليبرالية . ووصف برنارد برينسون وآخرون غيره الفن في عصر النهضة ، كما وصف فرانك م . ماثرجر Frank M. Mather Jr. الرسم في العصر الحديث .

وناول الفن الحديث بالبحث كل من توماس كرافن ، كليف بيل ، ك . ج . بوليه Bulliet وآخرون غيرهم

أما تاريخ الأدب فقد تم بحثه في عدة مراجع هامة تخصصت في الأدب القومي مثل موسوعة كامبردج في تاريخ الأدب الإنجليزي وتاريخ الأدب الفرنسي لإميل فوجيه وتاريخ الأدب

الأسباني لفرانسيسكو بارشيا بلانكو ، كما عالج فرانسيسكو دي سانكتس De sanctis تاريخ الأدب الإيطالي . وبحث ويلهلم شيرر تاريخ الأدب الألماني خلال عصر جوته . وقام ويلهلم ديلى وهنريك ريكتر بمحاولات جادة ومبتكرة لوضع التاريخ الثقافي على أسس علمية رغم أنها فرقا تماماً بين العلوم الطبيعية والاجتماعية . أما فردريك «ينك» Freidrich Meinecke فقد أتم عملاً فذا تناول فيه بالدراسة الحركات الليبرالية والقومية بوصفها نظريات فكرية سادت في القرن التاسع عشر . كذلك عمل كارلتون ج . هـ . هايز الكثير لخلق مزيد من الاهتمام بتاريخ القومية في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم تقم دولة ما من الدول بجهد منظم لخدمة تاريخها الثقافي مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية . من ذلك أن آرثر م . شيلزنجير ، ديكسون ر . فوكس كتب كتاباً أسماه « تاريخ الحياة الأمريكية » وقع في اثني عشر جزءاً ويعتبر تاريخاً حقيقياً للحضارة على أعلى مستوى . أما رالف هـ . جابري فقد وضع كتاباً باسم « العرض المسرحى في أمريكا » وقع في خمسة عشر جزءاً ، وهو كتاب عظيم في صورته ومادته . وكتب دودبريدج ريل أحسن الكتب عن تاريخ الفكر والفلسفة الأمريكية . أما فرنون ل . بارنيتون فكتب بحثاً تاريخياً مبتكراً لا قرين له عن الأدب الأمريكى مستنداً إلى أسسه الاجتماعية . واتسمت كتابات فان ويك بروكس عن الأدب الأمريكى بأنها كانت تنبئ بهمة خاصة عن فكر عميق وبأنها ممتعة . أما كتاب كامبردج في تاريخ الأدب الأمريكى Cambridge History of American Literature فهو أكثر دقة من غيره . وعالج صمويل ايشام وفرانك ج . مائر وجـ . لورادو تافت Taft ، وفيسك كمال Kumball ، ت أ ثالمداج واوليفر لاركن Larkin تاريخ الفن الأمريكى من جوانبه المتعددة .

ولا شك في أن هذا العرض السريع الموجز والضرورى لبعض الجهود التى بذلت في التاريخ الثقافى سوف يترك انطباعه على القارئ بإحساسه بعظمة الكتابة في هذا الميدان وضخامتها وتنوعها وخاصة إذا ما تذكر أن هذه الأعمال التى أشرنا إليها آنفاً تمثل أكثر ما كتب في الموضوع أهمية وأحسنها . وقد اخترناها من بين مؤلفات عدة في العصور الحديثة . وسيخرج القارئ عن إلمامه بهذه المؤلفات العديدة بالحقيقة الخاصة بأن التاريخ الثقافى تغلب على كل من التاريخ السياسى والحربى اللذين هما أقدم منه . ولكنه ينبغى أن نتذكر أن معظم هذه المادة لم يكتبها مؤرخون أكاديميون محترفون ، وإنما كان غالبيتهم أشخاصاً درسوا الأدب والفن والديانة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والفلسفة وما شابهها . ومع ذلك فإننا ننتي على هذه المادة القيمة

سواء كتبها مؤرخون محترفون أم كتبها غيرهم . وإن أعظم ما ينبغي به ذلك التطور هو ازدياد عدد من المؤرخين المحترفين الذين يهتمون بالجوانب المختلفة للتاريخ الثقافي . وتعتبر هذه الحقيقة هي الدعامة الرئيسية التي نبني عليها أملنا في أن التاريخ سوف يرتبط ارتباطاً متزايداً بتاريخ الحضارة والثقافة . وأن أعظم الجهود الجديرة بالثناء في وقتنا الحاضر في مجال وصف الحضارة البشرية عن كافة جوانبها هو الجهد الذي بذله ويل ديورانت Durant في كتابه المتعدد الأجزاء بعنوان « قصة الحضارة » ، وهو الكتاب الذي وضعت خطته على أساس صدوره في عشرة أجزاء ظهر منها فعلاً سبعة . ومن المأسوف فيه أن «ستطيع مؤرخ آخر أن يقدم على هذا المجال بمثل تلك القدرة الفائقة .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

- Gooch, History and Historians in the Nineteenth century, chap. XXVIII
Fuotot, Histoire de l'historiographie moderne, pp. 652 - 57, 708 - 52.
Ritter, Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft, pp. 421 - 61.
Becker, "Some Aspects of the Influence of social problems and Ideas upon the study and Writing of History" loc. cit.
Guilday church Historians, pp. B321 ff.
Robinson, the New History.
Barnes, the New History and the Social studies.
Muzzey, Essays in intellectual History Dedicated to James Harvey Thompson,
History of Historical Writing, Vol. II, chap. IV. of American Masters of
social science, chapters on James Harvey Robinson and Frederick Jackson
Turner.
L.V. Hendricks, James Harvey Robinson
M.E. Cuthi, Frederick Jackson Turner. Mexico City, 1949.
Beard, Charles A. Beard.
Smith, Carl Becker: on History and the climate of opinion.
Schmitt, Some Historians of Modern Europe, chaps. i, x, xix - xxi.
Halperin Some Twentieth Century Historians, pp. 1 - 39, 277 - 298.
Ausabel et al., Some Historians of Modern Britain, chaps. 8 - 10, Kraus, the
writing of American History, chap. xiv.
J.C. Lovenson, the Mind and Art of Henry Adams. Houghton Mifflin, 15, 20,
22. Philip Bagby, Culture and History. University of California Press, 1957.
1960.

- Ernst sehaum Kell, Geschichte der Deuts chen Kultur geschichts chreibung.
loip zig, 1905.
- R. Kotz chke and A. Tille, Karl Lamprecht. Gotha, 1915.
- E.J. spioos, ceschichtsprilosophie Von Karl lamp recht. Erlang en, 1921.
- stoin borg, Die Geschichtswissenscha ft dor Gegenwont in selstdarstellungen.
- Halphon et al., Histoire et historims dopus cinquante ans.
- Halphon, LIstoire en France depuis cent ans
- Henri Beri, LIstoire tradition elle et la Synthese historique paris, n21
- Croco, storia della storiografia jabanei.
- Blok, Geschicht chreibung in Holl and.
- Miliukav, Main currents of Russian historiog caply.
- Kurf Brrysig, Dio Meister der en twickelndon Geschi chts storsch ung. Ber
slau, 1936.
- J - B - Bury et. Evolution in Modern Thon ght, chap ix Bon. and Liveright,
1915.
- H. G. Wells, the scienco of Lite. Doublo day, Doron, 1931 2vols
- Clark wisslon, Man and Culture. Crowell, 1923
- W.F. Oghurn, Social change. Vikivg press, 1922

الفصل الرابع عشر

التاريخ وعلوم الإنسان الاتجاه الكوني الجديد

سوف نتناول في هذا الفصل التطورات الفكرية والثقافية وكذلك التقدم في المعرفة البشرية . وهي الأمور التي ساعدت على توسيع مجال مادة التاريخ وزيادة خصوصيتها ، كما ساعدت المؤرخ على إعادة صياغة حضارة الماضي . وعلمنا أولاً أن نناقش رد الفعل الذي أحدثته النظرة الفلكية الجديدة بالنسبة لمفهوم المؤرخ .

لقد كان لعلم الفلك الجديد وحركة الأجرام السماوية التي بدأت بنظريات نيونن الأولية أكبر الأثر في إثبات صحة ما قال به جيوردانو برونو Giordano Bruno دون أن يستمد أى دليل من حيث تعدد العوامل والتشابه بين الأجرام السماوية والأرض من حيث تكوينها المادى . هذا إلى أن اكتشاف كواكب أخرى بعيدة مثل أوراس ، نبتون ، كان أكبر دليل على اتساع النظام الشمسى بشكل لم يكن يتوقعه أحد . ولعل الأهم من ذلك كله كان التوصل إلى صنع الآلات والأدوات التي مكنتنا من أن نكشف عن نظم شمسية لا حصر لها ، ومعظمها على درجة من البعد والتعقيد لا يمكن حسابها . وهكذا كان لابد من تعديل نظرة الإنسان إلى الكون ليس فقط تحت تأثير فكرة تعدد العوالم ، ولكن أيضاً بفعل مفهوم جديد بالغ الأثر ، مؤداه أن هناك عدداً مطلقاً لا نهاية له من الأكوان . وأدى هذا إلى مراجعته دفقة جدا لجميع نظريات الإغريق عن الكون وراث العبرانيين والملحمة المسيحية ، كما أدى إلى إدراك مدى حداثة كوكب الأرض وضآلته نسبياً . وبازدياد الاعتراف بهذه الحقيفة جاء البرهان العلمى على ما أبداه نيونن من تشككه في أنه من غير المحتمل

أن تكون كل فكرة عابرة تافهة . وكل تصرف عارض للفرد من البشر موضع اهتمام الله . وهكذا أصاب علم الفلك الجديد في الصميم فكرة إرجاع أحداث التاريخ إلى قوى ما وراء الطبيعة والقوى الإلهية . وكانت هذه أخطر أثراً من تلك التي وجهها علم التطور البيولوجي لنفس هذه النظرية .

يضاف إلى ذلك أن التاريخ على أساس الحسابات الكونية الجديدة وما ترتب على ذلك من ضخامة عنصر الزمن جعل الافتراض المائل ببدء الخليقة في سنة ٤٠٠٤ ق . م يبدو مفهوماً ساذجاً غير مقنع ، مثله تماماً مثل أية حكاية بسطة حول الخليقة عند أى شعب من الشعوب البدائية المعروفة . والحق أن النظرية الزمنية الجديدة للكون التي أتى بها علماء الطبيعة الفلكية كانت أبعد أثراً من المفهوم الجيولوجي القديم ، وهي بالنسبة لهذا المفهوم تعادل تماماً ما كان هو عليه بالنسبة للتفويض الموسوي . ويعني هذا أن اكتشافات كل من فردنهورف ، ميشلسون Michelson ، اينشتين ، شابلي جينز Jeans ، لم محل محل الآراء المرتبطة بآدم ونوح وموسى فحسب ، بل حلت كذلك محل أفكار لابل ، شامبرلين Chamberlin ، جيكى وآخرين وذلك بوصفها أساساً يبنى المؤرخ عليه أفكاره عن النسبية التاريخية والمفهوم الزمني .

وكان ما فعله علم الفلك بالنسبة للكون شبيه بما فعله علم الجيولوجيا والحفريات بالنسبة لمفهومنا حول عمر وتكوين كوكبنا الذي هو من وجهة النظر الكونية كوكب حديث العمر بالغ الضالة . هذا إلى أن الجيولوجيا التاريخية والركيبيية أظهرت حمضه التطور الطبيعي والفترة الزمنية الطويلة التي تتطلبها هذا التطور ، كما أثبت أن الفترة الجيولوجية التي سبقت بدء الحياة على هذا الكوكب يحتل أن تكون أطول بكثير من الفترة التي انقضت منذ بدء الحياة عليه (حتى الآن) . كذلك كشف علم الحفريات — الذي هو الأساس التاريخي الحفري لعلم التطور البيولوجي — عن ظاهرة التطور التدريجي للحياة العضوية على الأرض — وكذا عن التطور الذي طرأ على أنماط النباتات وحياة الحيوان والعلاقة الوراثية بين الكائنات المفترسة ، وبين الكائنات القائمة . وفوق كل شيء فقد كشف هذا العلم عن مواقف متناقضة إلى حد ما بالنسبة للإنسان ، فمن وجهة نظر تطور الحياة العضوية ككل نجد أن حياة الإنسان على الأرض أمر حديث نسبياً بدرجة تبعث على الدهشة . ومع ذلك فهي بالغه في القدم إذا ما قورنت بالاعتماد الراسخ بفره وجود الإنسان على الأرض . وكان أن ملهى المؤرخون المفاهيم الكونية والزمنية الجديدة في وقف ذبول فكرة إرجاع الأحداث إلى قوى ما وراء الطبيعة وهي المفكره التي كانت تساند الافتراضات القديمة الخاصة

بالخليفة ، والتي كانت تقف وراء التاريخ التقليدى حتى الجيل الحالى . وقد صادفت هذه الفكرة تحدياً مباشراً خلال الدراسة التاريخية الناقدة للوثائق المقدسة التى تضمنت « افتراضات ما وراء الطبيعة » كما صادفت تحدياً غير مباشر لها فى مرحلة تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية . وترتب على هذا كله انهيار الأساس الوثائفى المزعوم لفكره ما وراء الطبيعة انهياراً تاماً . وبذلك انتهت الحرب بين العلم واللاهوت إلى لا شىء بالنسبة للفئات المتعلمة .

نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ

لا شك فى أن نظرية التطور كانت من بين المؤثرات الفكرية والعلمية التى أحدثت ثورة فى وضع الكتابة التاريخية وحركتها ومثلها واتجاهاتها . وهنا ينبغى أن يتخطى مفهومنا عن التطور القيود البيولوجية لمدرسة دارون ليشمل التطور الكونى بمفهوم سبنسر . ويبدو بوجه عام أن افتراض التطور مجرد إصرار على أن كل ما هو معروف لنا فى هذا الكون — صغيراً كان أو كبيراً — قد حدث بفعل مسببات طبيعية هى المسئولة عن التقدم والتكوص على السواء . كذلك يتضمن هذا الافتراض — وهذا ما يتفق مع وجهة نظر هيراكليسوس القديمة — أن التغير هو المبدأ الأساسى العظيم فى الكون . وهكذا نجد أن افتراض التطور لم يتعرض بأى شكل من الأشكال للجدل الدينى اللاهوتى ، كما أنه لم يشهد على موقف عقائدى فيها يختص بالدور الذى قام به الله فى هذه العملية الخاصة بتطور الكون . كذلك فإن هذا الافتراض لا ينم عن أن صاحبه قد تلقى أى إحياء من قبل الله يوضح هدفه (عز وجل) من إيجاد الأجرام الكونية الضخمة التى تشكل محتويات هذا الكون . ومن الممكن أن يكون لهذا الرأى الخاص بأصل الكون وتركيبه مغزى كبير بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بالحوار ولكن مناقشة المضمون الدينى لافتراض التطور إنما هى مشكلة الفلاسفة وفقهاء الدين وليست مشكلة المؤرخين وعلماء الأحياء .

ثم إن نظرية التطور لا تمثل — بطبيعة الحال — مرحلة جديدة تماماً فى المجرى الفكرى للحضارة الغربية — لأن تاريخها قديم قدم التفكير التأملى ذاته ، وهذا بدوره يبدأ من عصر الفلاسفة السابقين على سقراط فى بلاد اليونان القديمة . وحتى هربرت سبنسر نفسه لم يتحدث عن المفاهيم والمضمونات العامة بالتطور الكونى بنفس القدرة والكفاءة التى تحدث بها لوكريتيوس Lucretius فى عهد شيشرون . هذا مع العلم بأن لوكريتيوس أكد أن عَرْضَه لفكرة التطور

الكونى لم يكن سوى صورة أقل إحكاما من معتمدات أستاذه ابيقور Epicurus الذى عاش قبله ببلانه هرون . وكان ان بعثت فكره هذا التفسير لتطور الطبيعة مرة أخرى فى أعقاب نمو العلوم والحركة الرومانسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وان كان هذا الاتجاه الفكرى لم يتركب من الجدل إلى ان دَخَلَ الإنسان ذاته فى دائره نظرية التطور . وقد أوضح سبنسر نظرية التطور الكونى وأضاف إليها كثيرا وبين انطباقها على عدد من أوجه النشاط الفكرى البسرى . أما دارون فقد كرس نفسه للنواحى البيولوجيه من المشكلة . وأوضح ان الأدله على ارتقاء الإنسان من أشكال أدنى فى الحماة العضويه أكثر اقناعا من أية أدلة أخرى يمكن ان تساند الرأى الراسخ — حتى ذلك الوقت — والقاتل بأنه كانت هناك عملية خاصة حديثة نسبيا هى عملية خلق الإنسان . وكان أن هوبلت نظريه دارون بالترحيب من جانب عدد من العلماء البارزين أمثال هيكل Haeckel ، هاكسلى ، رومانس ، ولاس ، وهم الذين دافعوا عنها بشدة وعملوا على نشرها . أما المضمون الثقافى والباريخى للأفكار الخاصة بالتطور فقد بولى شرحها كتاب متباينون أمثال ج . م . روبرتسون ، و . ا . ه . ليكى W.E.H. Lecky ، ليزلى سنيفن ، كارل لامبرخت Lamprecht ، ح . و . داربر ، اندرود . هوايت ، هنرى آدمز ، وهؤلاء جميعا كانت جهودهم ذات أثر بعيد وكبير لأن مفهوم التطور هو على الأرجح أقدر الافتراضات وأكثرها فائدة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولا يعارض هذا الرأى أو يشك فيه سوى الجوهريون المتشبعون لفكرة الأصل الثابت للإنسان مثل وليام جينجز براين ، جون روسن ستراتون ، جاسبار كورتينوس ماسيه Cortinus Massee وبعض الكتاب الكاثوليك المتحمسين ذوى المزاج الفكرى المتشابه ، وهم وإن كانوا حسنى النية إلا أنهم قليلو المعرفة .

وتتصف الجوانب الرئيسية لمغزى نظريه التطور بالنسبة للتاريخ بأنها عديدة ومؤثرة ولعل أهمها هو عدم الاعتراف بالفلسفة الاستعلانية وإذا كان أفلاطون قد أحس بأن نظرياته الخاصة بالجمال والمعرفة قد تعرض لصدمة شديده من جانب المفهوم الخاص بالواقع المتغير ، إلا أن هذا فيها يبدو هو طبيعة الأشياء ، فحتى الآن لم يكتشف أى متخصص فى أى فرع من فروع المعرفة وجود شىء فى مجال الطبيعة له صفة الكمال والاكتمال وعدم التغير ، فى حين أن مبدأ التغير فى حد ذاته هو المبدأ الأوحى فى الكون الذى لا يتغير ولا يتبدل .

على أن هذه النظرة إلى الموضوع لا يرضى عنها أولئك الذين يغلب عليهم طابع الورع وذلك إذا انتقل تطبيقها من النطاق الطبيعى إلى النطاق الاجتماعى . فالقول بأن الصخور والنباتات قد

يطرأ عليها تغيرات إنما هي فكرة أقل تأثيراً وأقل جاذبية من الحقيقة الخاصة بأن النظم والأفكار والعقائد البشرية لها طابع التطور وإنها جميعاً تنصف بالنسبية في قيمتها ودوامها . وقد يرى كثيرون سخافة لا مثيل لها في فكرة أن عقائدنا الخاصة بالله والوحى بالإنجيل وشرعية الزواج ودوامه والديفراطية والرسوم الجمركية المفروضة لحماية الإنتاج والتنازل غير المحدد قد تكون جميعاً من صنع البشر وأنها تنافض تماماً آراء آخرين حول هذه المعتقدات ، بل إنها يمكن أن تكون خاطئة كل الخطأ . ولكن هذه هي الخلاصة التي تفرضها علينا عقيدة التطور والتي لا يمكن تجنبها بأي حال . والواقع أن نظرية التطور تبدو أكثر قوة وإقناعاً إذا ما طبقت على تطور أنظمتنا الاجتماعية ، لأن ثقافتنا ونظمتنا تمثل جهود المجتمع — في كافة صورها البسيطة والمعقدة — ليكيف نفسه مع ظروف الحياة في أية جهة . ولا توجد هناك أنظمة بشرية بدأت بنفس صورتها الحالية لأن كل النظم ليست إلا النتائج المتغيرة لعملية التكيف المستمرة مع عوامل البيئة والتكنولوجية المتغيرة . وهكذا نجد أن السلوك والنظم ذات أصل (دينوي) وأنها ليست سماوية ولم تأت عن طريق الوحي والإلهام . والحل السليم الوحيد الذي نقاس به كفاءة أى نظام وكفافته هو مدى ملاءمته لاحتياجات جماعة معينة في منطقة معينة في زمن معين . فالأخلاق والنظم أمور نسبية ومتغيرة ، وهى من إنتاج الإنسان والمجتمع ، كما أنها عرضة للتغير الإنسانى في المصطنع إلى ما هو أحسن أو أسوأ .

وهناك وجهة أخرى لا تروق للبعض وتفسر الحقائق السابقة في ضوء مبدأ الوراثة ، وهو المبدأ المنافى للعقيدة القائلة بأن الله هو مصدر الأشياء والمتسبب في حدوثها وقد اتضح الآن أن كافة الظواهر التي لدينا معلومات عنها في الوقت الحاضر إنما هي نتيجة مسببات طبيعية تعمل بشكل تطورى . وكل مرحلة تمثل النمو الطبيعى للمرحلة السابقة عليها ، فإذا كانت هناك مجموعة محددة من العوامل التي تؤثر على أشياء مادية تحت ظروف معينة ، فإن هذا سيؤدى إلى شئ ثابت لا يتبدل . وقد يستطيع الإنسان أن يغير إلى حد ما في المواد والظروف التي تعمل القوى الطبيعية تحت تأثيرها ولكنه دائماً عرضة للتأثر بنتائج تفاعل العوامل الطبيعية مع عقله هو ، وهكذا فإنه يمكن أن يركن بأمان إلى الوهم الذى يعود به إلى القول بأن الله بالتأكيد هو راعيه ومدير أمره ^(١) . وإذا كانت هذه الفكرة لا تروق للبعض ، فإنها بالنسبة للآخرين تمثل تحدياً ديناميكياً قوياً بعبقرية الإنسان وقدرته على الابتكار والتصرف . وكان التطبيق المباشر لمبدأ التطور البيولوجى في مجال

(١) لاحظ هنا أن المؤلف يعبر عن وجهة نظره الخاصة وهى تحوى قدراً من الإلهاد لا نقره عليه (المترجم) .

المشكلات التاريخية أكثر وضوحاً وملاءمة في ميادين علم النفس وعلمى الوراثة وتحسين للنسل . ذلك أن ج . ستانلى هول وغيره من الكتاب اللاحقين أوضحوا في مؤلفاتهم الممتازة أنه لا بد من النظر إلى الفكر البشرى على أنه نتاج للتطور شأنه شأن الجسم ، وبذلك جعلوا علم النفس الورائى هو المدخل الطبيعى للتاريخ الفكرى .

والمعروف أن المبادئ المسيحية والآراء الديفراطية القديمة قامت جميعاً على أساس فكرة الاعتقاد بضرورة المساواة بين جميع الناس ، ولكن علماء الأحياء والنفس أثبتوا أنه ليس هناك خطأ أوضح وأخطر من مثل هذا الاعتماد ، فإذا كان التغير هو المبدأ الرئيسى فى الكون ، فإن الاختلاف والتميز هما الأصول للحياة العضوية بما فيها حياة الإنسان . ومن ثم فإن أوضح الحقائق بالنسبة للبشر هى بباين القدرة على بذل الجهد وعدم تكافؤ هذه القدرة بين فرد وآخر . وهذه الحقيقة من العناصر طالما تجاهلها الفلاسفة الاجتماعية والتاريخية . وعلى الرغم من أننا لا بد وأن نفق موقفاً حذراً من التعارف، الذى يبدو فى آراء مدرسة جالتون بيرسون وهى الآراء التى تبالغ فى تأكيد أهميه العوامل البيولوجية المحته على حساب قوه التأثيرات البيئية والتربوية — على الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن نفوق شعب ما فى القدرة البدنيه هو أحد عاملين أساسيين فى التقدم الاجتماعى ، إذ لا يوجد هناك ما يدل على وجود شعب قوى أو حضارة مبنية ذات عمر طويل ينبى على سلالة من البشر ضعاف البنية والصحة . كذلك ثبت أن تغير نسبة المواليد هو من بين الأسباب القوية لدوره الحضارة ونهضة الثقافات واضمحلالها . ذلك أن تغير هذه النسبة يتسبب فى تناقص نسبة الإنجاب بين الطبقات الحاكمة وبرايد المواليد بين الطبقات الأدنى بيولوجياً مما يترتب عليه حدوث ما يسمى الانتقاء البيولوجى المضاد . ولا يمكن اعتبار أى مؤرخ فى الوقت الحاضر معداً مهينياً وفكرياً لأداء عمله إذا كان يجهل المفسد البيولوجية لكل من فرانس جالتون وكارل بيرسون وفاشردى لاجوج واوبو آمون .

وعلى الرغم من أهمية العوامل البيولوجية فى المجتمع البشرى ، فإن هناك خطراً فى محاولة نمل المفاهيم البيولوجية نقلاً مباشراً لتطبيقها فى مجال النظم الاجتماعية ، كما أن هناك خطراً مماثلاً فى افتراض أن التفاعلات الهامة التى تحدث فى الحياة العضوية للفرد يمكن تطبيقها دون تحفظ أو تمييز على المجتمع حقيقة إننا لا ننكر وجود قدر من التشابه بين الحياة العضوية والمجتمع البشرى ، ولكننا نقول إن هذا التشابه قد لا يكون له من الأهمية العملية أكثر مما هناك من تشابه بين الذرة والنظام الكونى كله . هذا بالإضافة إلى ما قد يكون هناك من بعض التفاعلات

البيولوجية الى تطبيق على حياة المجمع البشري . ولكن ما نريد أن نؤكد أنه نضع في الاعتبار الفروق الواضحة بين الموقفين وأن نعمل لها حساباً قبل أن نقر أوجه السبب بينهما . ولعل أخطر الأخطاء التي نجمت عن تلك المحاولات لتطبيق المفاهيم البيولوجية بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية هو الافتراض القائل بأن الحرب تلعب دوراً بناءً في التطور الاجتماعي والثقافي لا يعمل عن الدور الذي يلعبه الصراع من أجل الوجود في مجال الحياة العضوية .

وهناك شك كبير في سلامة هذا الافتراض الذي يبدو أكثر سخافة إذا ما طبق على الحرب في ظل الظروف والأحوال الحديثة وفي ظل الإطار الثقافي الحالي .

وكان لنظرية التطور أثر كبير على أفكار بعض الباحثين في مجال التاريخ كما يبدو ذلك في كتابات سبنسر ، دراموند ، ليكي ستيفن ؛ الن Allen ، لانج ، نورمان ، كيد Kidd هيوهاوس ، فيسك ، سترلاند في مجال تاريخ الدين والأخلاق . كذلك يبدو هذا الأثر في كتابات بوس ، مين ، ماكلينان ، باجهو Bagehot ، لبنورنو ، كوفالفسكي ، ريتشي ، مورجان وغيرهم في مجال تاريخ القانون والسياسة . ومهما يكن من أمر فإن الانطباع العام الذي تركه تطبيق مبدأ التطور على التاريخ ينحصر في خلق مفهوم عن الطبيعة الوراثية للتفاعل الاجتماعي في عمل المؤرخ اللفظ وإرساء أساس راسخ من النظرية السليمة الخاصة بالتطور التاريخي أو كما عبر جيمس هارفي روبنسون فإن علماء البيولوجيا هم الذين أعطوا المؤرخ فكرة التطور أو بمعنى آخر رسموا له الانحياز العميق للتاريخ .

ما أسهمت به الأنثروبولوجيا في خدمة علم التاريخ

إن مناقشة أهمية نظرية التطور بالنسبة للتاريخ تؤدي بنا مباشرة إلى مناقشة العلاقة بين علم الأجناس البشري والتاريخ الجديد « الديناميكي » . والواقع أن مفاهيم التطور حققت بعض الارتباطات الهامة للفكر المعاصر عن طريق مختلف مجالات علم الأجناس البشرية ، مما جعل الاستاذ ماريت Marett يصف هذه العلاقة بعبارة مناسبة هي :

« إن علم الأجناس البشري هو التاريخ الإنساني بأكمله الذي دعمته فكره البطور . فأقصى

ما يستهدفه موضوع التاريخ هو دراسة تطور الإنسانية أو علم الأجناس البشرية يدرس الإنسان كما وجد في كل العصور المعروفة وكما وجد في كل أجزاء العالم ، كما أنه يتناول الإنسان جسداً وروحاً بوصفه جهازاً عضوياً يخضع للظروف والأحوال السائدة في زمان معين ومكان محدود . ثم إن جسد الإنسان على علاقة وثيقة بحياته النفسية التي تخضع هي الأخرى من البداية حتى النهاية لنفس الظروف والأحوال . والعلم الذي يربط هذه الظروف من البداية حتى النهاية يسعى إلى تحديد السلسلة العامة للتغيرات البدنية والعقلية التي طرأت على الإنسان خلال تاريخه الطويل . إن دارون هو حقا أبو علم الأجناس البشرية حيث إنه هو الذي هباً له سبل الظهور . فإذا ما رفضنا الاعتراف بوجهة نظر دارون فمعنى ذلك أننا نرفض الاعتراف بعلم الأجناس البشرية ونحن الأنتروبولوجيين نضع مذهب دارون نصب أعيننا ونقول : لندرس كل جزء أو أى جزء من التاريخ البشرى في ضوء تاريخ الإنسان بأكمله . وفي ضوء تاريخ الكائنات الحية عموماً . ان ما يهمنا هو إبراز عقيدة دارون وليس هناك من الآراء الخاصة لدارون ما سوف يجتاز بالضرورة اختبار الزمن والنجربة لأن هذه الآراء سوف تنصهر في البوتقة التي يرى رجال العلم صهرها فيها ولكن نظرية دارون في تناولها للطبيعة تجعل من العالم شيئاً متقارباً لن ندنر . ومهما يكن من أمر فإن علم الأجناس البشرية يرفع وينخفض بارتفاع وانخفاض افتراضات دارون الذي يذهب إلى أن هناك علاقة أساسية بين كل صور الحياة البشرية ، كما أن هناك قرابة وصلات بين كل صور الحياة البشرية يبدو خلال ما نعتبرى سلك الحياة من تغيرات . وتوضح أهمية علم الأجناس البشرية بالنسبة للتاريخ في صور عديدة واسعة النطاق . فهناك أولاً وقبل كل شيء الحقيقة الخاصة بأن هذا العلم هو وحده الذى يستطيع أن يزودنا بالمعلومات الخاصة بالتطور المبكر للإنسان ، وهو الشيء الذى لا غنى عنه فى أية دراسة أصيلة لما يسمى بالتاريخ القديم . فمنذ قرن مضى كان المدخل التقليدى لأى كتاب عن التاريخ القديم يتضمن مناقشة تفرق أبناء نوح وإعادة تعمير الأرض نتيجة للجهود البطولية التى تنسب لها ذرية نوح وسلالته . وورد هذا المدخل فى عدد من الكتب التى أسار مؤلفوها فى صفحات لاحقة من نفس الكتاب إلى أن الحضارة المصرية القديمة وصلت ذروة درجاتها قبل التاريخ المحدد تقليدياً لمسألة « الخلق » بعدة سنوات . ومن الممكن محو هذا التناقض وهذا الارتباك محو تاماً عن طريق نبذ التقويم العبرى الذى التزم به كل من جولوس افريكانوس (الإغريقى) ، ايزبيوس ، أوسر ، والأخذ بان الأساس الحقيقى للتاريخ القديم هى الحقائق التى أثبتت صحتها علم الأجناس البشرية والتى تتعلق بوجود فترة طويلة جداً من التطور سبقت فجر التاريخ المعروف . ويساعد هذا الانحياز الجديد فى التاريخ ليس فقط على تنقية فجر

التاريخ مما علق به من عناصر غريبة وغامضة ، بل أيضا على جعل نفس هذا الاصطلاح الخاص بفجر التاريخ شيئا مفهوماً ، إذ لم يكن هناك فاصل بين ما يسمى عصر ما قبل التاريخ وبين عصور التاريخ ذاته . ومعنى ذلك أن ثمة تطوراً بطيئاً مستمراً لم ينقطع وان لم يجر على وتيرة أو صورة واحدة منذ ظهور الإنسان على هذا الكوكب أى منذ مليون سنة أو تزيد . وإذا كان فن الكتابة هو العمل الأساسى الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصر التاريخ وعصر ما قبل التاريخ ، فإن هذا الفن لم يكن سوى مرحلة من مراحل ما أنجزه البشر فى المجال الثقافى ولم يتم إتقان هذه المرحلة تماماً إلا بعد قرون من ظهور الكتابة ، وقبل ذلك لم يكن هذا الفن قادراً على إحداث أى تأثير ثورى على الثقافة البشرية والسلوك البشرى .

فإذا ما حاولنا أن نضع سجلاً للتقدم الثقافى قبل اختراع فن الكتابة ، فإن هذا السجل سوف يضم أساليب صيد الحيوانات والأسماك واستئناس الحيوان وبداية الزراعة وأساس صناعة الغزل والنسيج والتقدم الهام فى الفنون ونشأة الحياة المستقرة والبيئات المصطنعة والصور الراقية من التعاون الاجتماعى وظهور الملكية الخاصة للمنقولات وربما للأراضى وكذا التقدم الهائل فى نظام الحكم والقانون . إن محاولة وضع مثل هذا السجل يجعلنا على طريق يؤدى إلى فهم الأهمية الحيويه للتراث الثقافى الذى خلفه لنا فترة ما قبل الكتابة وكذلك إلى فهم المغزى الكبير للمادة التى كانت تحذف من كتب التاريخ المدرسية منذ جيل واحد مضى .

وهناك عامل آخر يفسر قيمة المعرفة بعلم الأجناس البشرية بالنسبة للمؤرخ ، ويبدو فى الحقيقة الخاصة بأن روح النظم البدائية وسماتها النفسية لم تندثر ، بمعنى أنه لا يوجد نظام معاصر لا يرجع أصله إلى جذور بدائية أو يمكن فهمه وتفسيره بدقة بدون معرفة كافية لأصله وجذوره . إن نظمنا الخاصة بالدين والملكية والجنس والحكم والقانون والأخلاق ليست قائمة على أساس من نظم بدائية فحسب ، بل نلمس فى أشكالها وصيغها الحالية جزءاً كبيراً من التراث البدائى وإذا ما فهمنا هذه الحقائق حق الفهم فسوف يضيق مجال التعصب الوطنى والغرور الثقافى ، كما يؤدى إلى إضعاف الاتجاهات المحافظة لأن الحقائق كفيلة بأن تجعلنا نعتقد بأن نظمنا تفتقر إلى الكمال والتمام ، وهى فى نفس الوقت ليست فريدة أو موصى بها من قبل الله . وهذا ما نحاول دائماً أن نضفيه عليها لتجميلها وتزيينها . ولذا فإن قراءة كتاب « أيام الخلود والراحة » الذى ألفه هوتن وبستر يسبب ضيقاً يفوق ما يسببه أى قدر من الجدل الدينى ، وذلك بالنسبة لمن يفسر التشريع الخاص بالطقوس الدينية الخاصة بيوم الأحد ، إن لمعظم مظاهر الطقوس الدينية فى الحياة المعاصرة أصولاً وجذوراً

بدائية وليس هناك على وجه التقريب ما هو أكثر تشويقاً وثقيفاً من عرض هربرت سبنسر للآثار الثقافية في الجزء الثالث من كتابه « مبادئ علم الاجتماع » .

كذلك يلاحظ أننا لا ندخل من بعض الصفات النفسية التي نشارك فيها الهمج والبرابرة ، مع بعض التعديلات والتغيرات . من ذلك الرغبة في الوصول إلى النتائج مباشرة وبلا مقدمات ، والميل إلى تحميل الأشياء أكثر مما تحتمل ، والجنوح نحو التفكير بطريقة رمزية والاتجاه إلى النظر إلى مراحل معينة من الخبرة مليئة بالزهد الخالص ، والثقة في فاعلية الألفاظ والعبارات والإبقاء على بعض صور الاعتقادات البدائية في عالم الأرواح والطواطم ، وفعل الأرواح الشريرة ، هذا كله بالإضافة إلى الأشياء المحرمة بحكم الدين والتقاليد والخرافات الساذجة . وجميع هذه النواحي من السمات النفسية للشعوب البربرية . ولا يمكن بأى حال تحديد مدى تأثير الفكر البدائي في العصر الحديث ، وذلك لأن استمراره يختلف اختلافاً كبيراً من مرحلة إلى أخرى من مراحل الثقافة المعاصرة . أما في مجال العلم فقد تم نبذ النظرة البدائية وما ارتبط بها من طرق تفكير نبذاً تاماً . أما بالنسبة للدين والأخلاق فلا يزال المحافظون يتمسكون بكثير من حياة الزهد والنسك والايمان بوجود المعجزات . فإن وجود العنصر البدائي يتراوح بين هذين الحدين . ففي السياسة على سبيل المثال لازلتنا نعتمد على البلاغة ، وهذه الظاهرة ليست إلا شكلاً هيلينياً مطوراً لبعض تقاليد الخطب الرسمية لزعماء القبائل وشيوخهم وهكذا نرى أن فهم حقيقة بقاء هذه الظواهر البدائية واستمرارها في حياتنا الفكرية وتفسيراتنا النفسية أمر ذو قيمة هائلة بالنسبة للمشغولين في مجال التاريخ الفكرى . كما نجد أن علم الأجناس البشرية يربط بين علم النفس الوراثة وبين التطور الفكرى للجنس البشرى ولا شك في أن تلك الكتب أمثال التي ألفها وندت Wundt ، ليفى برول Levy Bruhl ، بول رادين Paul Radin ، جولدنويزر Golden Weiser وغيرهم يمثل المدخل المنطقي للتاريخ الفكرى تماماً كما تمثل كتب ادزبورن ، بيركت ، بيك Peake تايلر ، ديكليت Dechelette ويلدير Wilder كليلاند ، ماكرى ، المقدمة المناسبة لتاريخ الثقافة المادية البشرية .

وكان أن أسهم علماء الأجناس البشرية إسهاماً عظيماً هائلاً في فن التحليل التاريخى وذلك على وجه التحديد عن طريق تنسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها ، فضلاً عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الأسلوب غير ذى موضوع بالنسبة للدارس التقليدى للتاريخ الذى لا يهتم إلا بالأحداث الفريدة ولكن لا غنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذى يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً .

ثم حدث أن اجتذبت دراسة أوجه الشبه والخلاف بين ثقافات المناطق المختلفة انتباه الدارسين من أيام هيرودوت بل حتى قبل ذلك الوقت . ذلك أن أوجه الشبه بين تلك الثقافات خلقت أعظم المشاكل في مجال الشرح والتفسير ، وإن كانت أقل إثارة للاهتمام من أوجه الخلاف لأن التنوع يكون مقبولا وميسور الفهم إذا كان مرتبطاً باختلاف الرنس والبيئة الجغرافية والصلة بين الشعوب بعضها ببعض ومراحل التطور الثقافي . أما بالنسبة لأوجه الشبه في الثقافة فالأمر غير ذلك ، إذ كيف نفسر على سبيل المثال وجود أهرامات في كل من مصر وأمريكا الوسطى أو تشابه الأسلحة والأوعية الفخارية في مناطق بينها وبين بعض فواصل شاسعه ؛ وكان أن اقتربت أولى محاولات علماء الأجناس البشرية لشرح ظاهرة التشابه الثقافي بأسماء سبنسر ، تايلور ، مورجان ، ليتورنيه Letourneau ، وجميعهم عملوا على أساس نظرية باستيان Bastian الخاصة بوحدة العقل البشري ، وعلى أساس الاعتقاد الذي يؤكد التأثير الحاسم للبيئة الجغرافية ، فضلاً عن افتراض التطور القائم على ارتقاء النظم ارتقاءً تدريجياً منظمًا من صورتها البسيطة إلى صورة أخرى أكثر تعقيداً . وقد وضع هؤلاء العلماء بعد ذلك نظاماً مفترضاً يفسر التطور في النظم ، وفي النهاية كرسوا أنفسهم للتوصل ولو بشكل عشوائي إلى معلومات مادية تثبت وتدعم وجود مثل هذا الوضع بالنسبة للتطور الاجتماعي . وهكذا وضعت هذه المدرسة افتراضاً عاماً مؤداه أن التشابه الثقافي يرجع إلى أسباب داخلية أكثر مما يرجع إلى اتصالات خارجية بين الجماعات . وبهذا أكدوا فكرة التطور المستقل وخصوصية قدرة الإنسان على الاختراع حتى ولو كانت هذه القدرة تتأثر كثيراً بالطبيعة المحيطة وسمات معينة للعقل البشري . وهناك نظرية أخرى تتخذ اتجاهاً مضاداً لاتجاه المدرسة السابقة وهي من وضع جولوس ليرت ، ا. ب . تايلور ، وآمن بها راتزل وطورها كل من فريتز جواهر ، وسيرج . اليوت سميث ، فوي Foy انكرمان ، و . سميدت ، و . ج . برى Perry ريفر وتعتقد هذه المجموعة من العلماء أن التشابه الثقافي يرجع في مجموعه إلى اتصال الجماعات بعضها ببعض ، الأمر الذي يترتب عليه انتشار الثقافة . ودفعهم إلى هذا الاعتقاد تكرار حدوث اختراع الأدوات وابتداع العادات بشكل مستمر . ثم ذهب بعض المتطرفين من أعضاء المدرسة أمثال جرابنير Graebner ، سيميث إلى أن انتشار الثقافة قد تحقق حتى بين الجماعات التي تفصل بينها مسافات شاسعة ومواقع كثيرة كان اجنازها أمراً عسيراً . وعلى الرغم مما في آراء هذه المدرسة من مبالغات ما إننا ألقن كثيراً من الضوء على انتشار الثقافات والنظم وكان للجهود التي بذلها علماؤها أهمية خاصة في مساعدة الباحثين الذين تناولوا موضوع انتشار الثقافة المادية .

ولعل الاتجاه نحو التحليل السيكلوجي الذى وضعه الأستاذ بوس Boas وتلاميذه فى الولايات المتحدة الأمريكية والذى قبله إلى حد كبير بعض علماء الأجناس البشرية فى أوروبا أمثال ماريت ، ابرنريك Ebrebreich يكون أكثر إقناعاً من رأى المبالغ فيه القائل بالتطور المستقل أو من الاعتقاد المبالغ فيه أيضاً القائل بفكرة الانتشار . وليس لمدرسة بوس أية افتراضات سابقة ، فهى تهدف أساساً إلى بحث الحقائق الموجودة فعلاً والمتعلقة بطبيعة أى تركيب ثقافى محدد وأصل ذلك التركيب . ونتيجة لذلك وجدت هذه المدرسة أن التطور المستقل والانتشار قد اشتراكا معاً فى خلق معظم الأوضاع الثقافية . ولكن قدرة أية وحدة ثقافية على تقبل واستخدام جهود ثقافة أخرى تختلف اختلافاً بيناً طبقاً لنوع ودرجة الثقافة المستعارة . فالشعوب تستعير بترحيب كبير مختلف جوانب الثقافة الماديه ولكنها لا تشعر بالرضا أو الارتياح بالنسبة لاستعارة العقائد والشعائر الدينية .

وكان من نتيجته غرس هذا المنهج الناقد أن بدأت حركة كبيرة لمراجعة النظريات السالفة الخاصة بالتطور الاجتماعى . ذلك أنه انضح أن كثيراً من التشابه المزعوم كان تشابهاً سطحياً فقط . كما ثبت فى نفس الوقت أن كثيراً من أوجه الشبه الحقيقية لا تعنى بالضرورة تشابهاً فى السوابق أو فى التطورات اللاحقه . ومعنى آخر فإن هذا المنهج عدّل إلى حد ما الآراء القديمة الخاصة بالطابع الموحد المنظم لتطور النظم ، كما تبدو هذه الآراء ملخصة فى كتاب (المجتمع القديم) الذى ألفه لويس هـ . مورجان . فالقاعدة الطبيعية هى التنوع الملحوظ كما يبدو فى ظاهرة التطور الاجتماعى على الأرض . وفى كتاب (تطور الثقافة) نجد هوايت يطابق بين نظريات مورجان وبين المضمون الحقيقى لعلم الأجناس البشرية . وهكذا ينبغى أن يكون واضحاً أمامنا أن الباحث الذى يتناول موضوع تاريخ الثقافة والنظم لا يعتبر مؤهلاً تأهيلاً كافياً لهذا العمل إذ لم يعن تماماً نوع المادة التى محتويها مؤلفات مثل كتاب بوس « عقل الانسان البدائى » وكتاب ويزلر Wissler (الانسان والثقافة) وكتاب كروبر Kroeber (علم الأجناس البشرية) وكتاب لوى Lowie (الثقافة وعلم الأنثولوجيا) وكتاب (المجتمع البدائى) وكتاب جولدن ويزر (الحضارة المبكره) وكتاب ديكسن Dixon (بقاء الثقافات) وكتاب مولر لاير Muller (تاريخ التطور الاجتماعى) كتاب لنتون Linton (دراسه الانسان) وكتاب هويت White (تطور الثقافة) . وأدى الأساذ أ. ل . كروبر خدمة جليلة لتحقيق الهدف العظيم الخاص بربط علم الأجناس البشرية بالتاريخ حيث تضمن الفصلان الأخيران من كتابه الرائع عن

الأجناس البشرية عرضاً مبتكراً للتاريخ البشرى من العصر الجيرى القديم حتى الحضارة المعاصرة ونسره فى ضوء الاتجاهات الأنثروبولوجية . وعلى الرغم من أن هناك كثيراً من المؤرخين الفلاسفة مثل باكل Buckle ، دراير ، سينجلر ، شينى Cheyney ، ممن عرضوا قوانين افتراضية متعددة بخصوص تقدم البشر أو اضمحلاله ، فان مدرسه لامبرخت ، بريزج هى المدرسة الوحيدة التى أسهمت بصورة جدية فى هذه الناحية . وبشعر الكثيرون من أن قدراً كبيراً مما صاغه لامبرخت وبريزج يتضمن فى افتراضاته المنهجية كثيراً من نفس الأخطاء التى وقعت فيها مدرسة مورجان عن علم الأجناس البشرية . ومن بين المؤرخين القلائل الذين أتقنوا أحدث المناهج فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ادوارد ماير ، ج . ل . مايرز ، جيمس طومسون شوتويل ، جيمس هارفى روبنسون ، ت . ف . ج . تيجارت .

هذا إلى أن علم الأجناس البشرية فيما يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطنى والفكرى ، فمنذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جو بينه Gobineau بنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الأبيض وتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض . ولم يكن هناك تأثيراً أكثر ضرراً وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحدة الجنس وثباته (البرهان) على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنس أو تخلف آخر . ويستثنى من ذلك الشعور بالتفوق القومى الذى نما من نفس هذه الخرافة .

وكان أن أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية الناقدة الحديثة كيف أن مفهوم الجنس مطاط لا يسهل تحديد مدلوله ، كما تبين صعوبة اكتشاف أى معيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم وأثبتت هذه الدراسات كذلك مدى الخلط الكبير بين الأقسام المتفرعة من الجنس وكذلك درجة التنوع الكبيرة للفروع الموجودة داخل كل قسم من هذه الأقسام الفرعية . يضاف إلى ذلك . ما أكدته هذه الدراسات من أنه ليس هناك جنس آرى متفوق له السيادة ، كما أنه لم يكن هناك وجود لهذا الجنس فى أى وقت مضى . وقد أوضح الأستاذة بوس .. أ . ف . شامبرلين ، أن الفروق بين الأجناس المختلفة فى مستواها الثقافى يمكن أن تفسر تفسيراً كافياً دون التورط فى فروض حول وجود فروق فى المقدرة العنصرية المتأصلة كذلك أوضح هذان الأستاذان صعوبة إثبات التفوق الشامل للأجناس إذا ما أخذ فى الاعتبار عنصر التكيف مع البيئة . وباختصار فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومتداخلة وغير محددة بحيث ينبغى

بل يتحتم أن يتناولها المؤرخ في حذر بالغ ، مهما يكن من أمر تلك الحقائق المؤكدة التي يمكن أن ينتزعها علماء النفس والأحياء من وسط هذا الغموض .

ويعتبر الملخص التالي الذي كتبه كارل بيرسون Karl Pearson عن شارل دارون برهانا قاطعا على عدم جدوى الافتراض العنصرى فى التاريخ : (لقد شاعت فكرة الارتباط الوثيق بين الحاليتين العقلية والبدنية عند القيام بتحديد أصول أفراد معينين يعيشون داخل مجتمع بشرى ، بمعنى إرجاع كل فرد إلى الجنس الذى ينتمى إليه من جملة الأجناس التى يتألف منها شعبنا . ونحن نتحدث كما لو كان شعبنا هو الذى نحقق فيه هذا المزج بصرف النظر عن موضوع الوراثة . وبعبارة أخرى فنجد جرت العادة أن نتحدث عن نموذج من المواطنين الإنجليز وليكن هذا النموذج هو شخص شارل دارون الذى نعتقد أن عقله يعتبر نموذجا لعقل الإنجليز) .

ولكن عندما ندرس أصل دارون وسلاله نجد أنفسنا نبحث دون جدوى عما نسميه (نقاء الجنس) ذلك أن هذا الإنجليزى ينحدر من أربع سلالات متباينة من صغار الملوك الأيرلنديين ، فضلا عن عدد مماثل من سلالات الاسكتلنديين الذين يرجعون إلى الأصل البكتى فضلا عما يجرى فى عرقه من دم ألماني . كذلك تربطه ثلاثة خطوط على الأقل بالملك الفرد العظيم . ومن ثم فهو يرتبط بالدم الانجلو سكسونى وكذلك يرتبط بصلاب مع شارلمان . والكارولنجيين ، كما ينحدر من أباطرة ألمانيا السكسونيين وكذلك بارباروسا والهوهنشتاوفن . وجرت فى عرقه دماء فرنجية ونورمانية كبيرة وله صلة هراية بدوق بافاريا وبدوق سكسونيا ودوق فرنדרز وأمراء سافوى وملوك إيطاليا كما جرت فى عرقه دماء فرنجية وألمانية وبرجندية ولانجو باردية وله أيضا قرابة مباشرة مع حكام المجر من الهون واباطرة القسطنطينية البيزنطيين . وإذا كان تقديرى سليما فإن إيفان المخيف يمثل صلة دارون بالروس ، وليس من المحتمل أن يكون هناك جنس أوربى لم يشترك فى نسب شارل دارون . وإذا كان من الممكن أن نتبين مثل هذا العدد الهائل من خطوط الأنساب فى شخص مواطن إنجليزى واحد ، ومنل هذا الاختلاط الكبير فى جنسه فانه يمكننا أن نؤكد أنه لو توافرت لدينا معلومات مماثلة لتبيننا أن الدماء التى تجرى فى عروق أى مواطن إنجليزى ليست أكثر نقاوة من دماء دارون .^(١)

(١) المحلة العلمية الشهرية نوفمبر ١٩٢٠ صفحات ٤٣٥ ، ٤٣٦ Scientific Monthly . أما أحسن دراسة تاريخية ناقدة فتبدو فى كتابه : F. H. Hankins : The Racial Basis Of Civilization Knoff 1926 .

التاريخ وعلم الآثار

أدى الجانب المتبقى من علم الأجناس البشرية وهو الجانب المعروف بعلم آثار ما قبل التاريخ خدمات عظيمة للتاريخ . ذلك أن هذا العلم كشف لنا عن تاريخ الفترة الطويلة التي سبقت عهد الإنسان بالكتابة وهي فترة أطول بكثير من عصر التاريخ المدون ، ولها تقريبا نفس الأهمية من حيث التقدم الكبير الذى حققته البشرية وهذا العلم الذى غرست بذوره فى الفترة من عهد طومسون وبوشردى برثز إلى عهد ديكيلت وما كرى وهو على الأرجح أدق فروع ما قبل التاريخ وأعظمها تأثيرا كما أنه فى الحقيقة يؤدى وظيفة الجسر الذى يربط بين علم الأحياء المتطور والثقافة البشرية حيث إنه يتعقب الدلائل المادية التى تثبت التطور التدريجى للإنسان من مرحلة القرد إلى مرحلة البشرية بخصائصها الطبيعية والثقافية الواضحة . ففى المقام الأول نجد أن علم الآثار القديمة يعطينا بهانا قاطعا على وجود طويل الأمد للحياة والثقافة البشرية قبل نشأة التسجيلات المدونة . ومهما تكن الطبيعة الحقيقية لخلق الإنسان أو أصله فإن علم الآثار القديمة قد بين لنا أن أكثر الحكايات الرمزية والدينية بطولية لا يمكنها حتى أن توفق بين التاريخ المسيحى من ناحية وبين ما يثبت وجود أدوات إنسانية يرجع تاريخها إلى عدة مئات من ألوف السنين من ناحية أخرى . وفى المقام الثانى فقد اتضح من خلال السجل الموجز للجهود الثقافية فى فترة ما قبل الكتابة أن علم الآثار القديمة قد زدنا بعرض رائع للأدوات الثقافية للإنسان والتى استخدمها تقريبا فى نفس الوقت الذى قيل أنه تاريخ خلق آدم . ولم يدخل على هذه الأدوات أى تطور مادى كبير إلا فى أيام الثورة الصناعية ومن ثم فإن العلم الذى يدرس الآثار القديمة لعهد ما قبل الكتابة هو المصدر الأساسى لذلك النوع من المعرفة الذى يجعل علم الأجناس البشرية المدخل إلى التاريخ فالكاتب من أمثال تلك التى ألفها كونيلىز هارولد بيك Harold Peake عن الحياة اليومية فى عصور ما قبل الكتابة تشكل المقدمة المثالية المقبولة لتاريخ المجتمع والثقافة المادية ، فضلا عن أنها فى نفس الوقت وكما أوضحنا آنفا تزيل كل ما هنالك من غموض واضطراب حول (فجر التاريخ) .

والحق أن ما أسهم به علماء الآثار فى سبيل الوصول إلى فهم أفضل للعصور التاريخية أمر معروف تماما . فمنذ قرن مضى كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم لا تتعدى إشارات معينة غامضة وردت فى العهد القديم وفى كتابات بيروسوس وهيرودت ويوسيفوس ، فضلا عن أعمال بعض المؤرخين الأقدمين . أما الآن فلدينا سجل مؤكد تام إلى درجة كبيرة عن حضارة مصر وبلاد

ما بين النهرين وبلاد الأناضول والشام وبحر إيجه وجزيرة كريت . ويرجع الفضل في الحصول على الجزء الأعظم من هذه المعلومات القيمة إلى الحفريات التي قام بها علماء الآثار . وفي دراسة الحضارة الكريتية والأتروسكانية نجد أن علم الآثار هو مرشدنا الرئيسي حيث إن العلماء لم يتمكنوا من حل رموز تلك اللغات حلا كاملا . وعلى الرغم من أننا نستطيع الاعتماد على المصادر المدونة في دراستنا للتاريخ اليوناني والروماني القديم بدرجة أكبر مما نستطيع ذلك في حالة تاريخ الشرق القديم . فإن كثيراً من معلوماتنا الدقيقة عن التاريخ الإغريقي قبل هيرودوت وعن التاريخ الروماني قبل سنة ١٩٠ ق . م يعتمد قليلاً على أعمال علماء الآثار . ومن كبرى الخدمات التي أداها علم الآثار — وإن كانت هذه الخدمات يعرفها الكثيرون — مؤلف ديكليت عن (آثار بلاد غاليا) إذ بين هذا الكتاب الحضارة الغالية في تلك البلاد قبل عهد قيصر ، كما أنه أراح عن بلاد الغال كثيراً من الغموض الذي أحاط بها نتيجة لأعمال أولئك الذين غلبوا مصالحهم الذاتية وكرسوا جهودهم للطعن في يوليوس قيصر فضلاً عن احتقار المؤرخين النيوتون لبلاد الغال . أما الآن فقد أصبح المدخل المقبول لدراسة تاريخ أوروبا الغربية هو البحث في الحضارة الغالية القديمة شمالى جبال الألب . وهى الحضارة التي استمرت من عصر سكان البحيرات إلى أيام كلوفس ملك الفرنجة والتي أسهمت بشكل رائع في تاريخ الثقافة في أوروبا . كذلك أحدث إيليس هـ . مينز Ellis H. Minns ثورة في معلوماتنا عن روسيا الجنوبية بكتابه (الشعوب الاسكنية والإغريق) . هذا بالإضافة إلى ما أمدتنا به دراسة الآثار الأمريكية من معلومات هائلة عن ثقافة السكان الأصليين لأمريكا من الهنود وأن كانت هذه المعلومات أقل قيمة من الناحية التاريخية بسبب دخول الثقافات الأوربية عليها وفشل الثقافة الهندية الأصلية في التطور والامتداد نتيجة لذلك .

نظرة أحدث عن تطور التاريخ

لعل أعظم الفوائد التي جناها علم التاريخ من علمى الأحياء والأجناس البشرية هى تلك النظرة الجديدة للتطور التاريخي ، أى تلك التغيرات التي تجلت في ظهور اتجاهات جديدة في نظرتنا إلى ماضى الإنسان ومستقبله .

لقد كان الرأى القاطع الذى تقبله معظم العلماء حول أصل الإنسان حتى الجيل الماضى هو ذلك

الذى وضعه كبير الأساقفة جيمس أوشر في كتابه « حوليات العهدين القديم والجديد » وهو الكتاب الذى صدر سنة ١٦٥٠ وما لبث هذا رأى أن نقحه بعده بوقت قصير الأستاذ لا يتفوت Lightfoot ، وكيل جامعة كامبردج وهو الذى ذهب إلى أن ظهور الانسان كان نتيجة عمل خلاق تم في الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . ويعنى هذا أن الإنسان له أصل إلهى مؤكد كما أن ما يحيط به وما سخر له من أدوات كانت هى الأخرى من صنع الله وحكمته على أن النظرة البيولوجية والأنثروبولوجية للتاريخ جاءت على النقبض من ذلك تماماً ، إذ تركز وجهة النظر الحديثة على الرأى العائل بوجود حياة طويلة جدا للإنسان على الأرض وأن أسلاف الإنسان من الكائنات الأخرى غير البشرية أكثر قدماً ، كذلك نبت أن التطور البيولوجى والتقدم الثقافى للإنسان كان تطوراً تدريجياً . وفى تعقبنا لخطوات التطور البشرى والاجتماعى لانصادف جنة دائماً خالية من الحيوانية ومع الاعتراف بوجود حالات من التخلّف الأكيد فى الماضى وبصرف النظر عن المشكلة الجدلية الخاصة بحسن الجنس من الناحية البدنية إلا أنه لا يوجد شك فى إمكان تحقيق التحسن المطلق فى الثقافة والنظم إذا ما نيسر استغلال الامكانيات المتاحة للعقل البشرى استغلالاً كاملاً . وبدلاً من ذلك التخلّف الناتج عن الجمود يمكن أن تكون النظرة إلى التاريخ حركية مفعمة بالنفاؤل . هذا على الرغم من أنه يستحيل علينا أن ندافع بنجاح عن وجهة النظر الغائية أى التى تستهدف الغاية . كما يستحيل أن نقول إن كوكبنا لا يمكن فى وقت ما أن يتلاشى من الوجود نتيجة لقدر بسيط من الاضطراب فى نظام الكون أو تغيير طفيف فى نظام الوراثة وحتى وقت يفدر بأربعين أو خمسين ألف سنة مضت كان التقدم الثقافى يسير فى خط متواز أو ربما متساوم مع التطور البيولوجى ولكن لا توجد هناك أدلة كافية على حدوث أى تحسن بيولوجى وعصبى منذ وقت ظهور النوع الكرومانيونى Cro-magnon type ونتيجة لذلك فإن التطور البشرى صار يعتمد أكثر وأكثر على التقدم فى ميادين الثقافة والفكر ، الأمر الذى أدى بالإنسان إلى الاعتماد بصورة أكيدة على إعداد القوات بدلاً من التقاطه من الطبيعة على أن هذا لا يعنى إنكار قوة الأنواع البشرية الرافيه أو فاعلية برامج تحسين النوع إذا ما أخذ بها فعلاً فيما يتعلق بإمكان زيادة سرعة التقدم البشرى بطرق صناعية فليس هناك شك حول قدرتنا على تحسين ثقافتنا المادية من ذلك أن إنجازاتنا منذ الثورة الصناعية مذهلة إلى أقصى حد ولكن المشكلة الكبرى هى كما عبر عنها فيبلن Veblen وأوجيرن Ogburn هى هل يمكننا أن نضمن تحسناً متشابهاً فى تراثنا الاجتماعى وبصفة خاصة فى نواحي النظم أم أن الحضارة سوف تندثر بسبب ذلك التفاوت المميب بين التكنولوجيا ونظمنا الاجتماعية .

ومع ذلك فإن الاتجاه التاريخي يعطينا قاعدة قوية تلهمنا الصبر عندما نحاول أن نجري تحسينات في نظمنا الاجتماعية . ذلك أن الوقوف على التفاعل الطويل الممل في بعض الأحيان والذي أدى بنا إلى الحالة التي نحن عليها الآن يحول بيننا وبين المبالغة في التشاؤم عندما نلمس كيف نسير في ببطء على طريق الإصلاح والتحسين . فنحن نتحرك في معظم النواحي بسرعة أكبر من أي وقت مضى حتى ولو لم يكن هناك ما يؤكد أننا نسير في الاتجاه الصحيح أو بالسرعة الكافية . ولا توجد هناك حضارة استطاعت أن تفتر وتتوقف في أمان ؛ فالتقدم والاضمحلال هما سنة الطبيعة ولعل ممكن الخطر في موقفنا الحالي هو ذلك العنصر الذي لم يوجد من قبل والذي يتمثل في قدرة التكنولوجيا الجديدة على تدمير البشر والثقافة فإذا أمكننا تجنب الحرب حتى نتيح لقدراتنا الذهنية فرصاً أخرى لمعالجة مشاكلنا الحالية المعقدة فقد تتمكن من الارتقاء بنظمنا إلى مستوى الكافية الذي تتميز به التكنولوجيا الآن .

هذا إلى أن المفهوم الجديد للتاريخ يزودنا كذلك بإحساس سليم لمعالجة مشكلة التقدم وهو أساس أعظم بكثير مما يوفر لكتاب مثل فيكو Vico وتيرجو Turgo وكانط ، كوندورسيه Condorcet وهم الكتاب الذين أرسوا في القرن الثامن عشر قواعد نظرياتنا الحديثة عن التقدم . ذلك أن الأمر لم يقتصر على جهل أولئك الكتاب بعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية الحديثة ، بل إنهم كانوا يفترون كذلك إلى المعرفة بالتطور البطيء الذي حققته الثقافة البشرية في المليون سنة السابقة على آدم . بضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على التنبؤ بالتقدم المذهل في العلم والتكنولوجيا الذي أخذ يظهر منذ زمانهم وكان أن أعطى علم الأجناس البشرية الحديث وعلم التاريخ — بموازرة التقدم المائل في العلوم الطبيعية والاجتماعية — الأساس لنظرية تجريبية للتقدم ، وذلك على الرغم من أننا نعترف صراحة بأن التقدم في مجالات معينة من الثقافة كان أكثر وضوحاً عنها في غيرها هذا بالإضافة إلى أنه من الطبيعي جداً أن تكون كافة معايير التقدم شخصية وذاتية إلى حد ما .

عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات

يشكل التقويم الزمني للتاريخ في حد ذاته جزءاً متمماً في عملية تطور التاريخ . وقد سبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع . ولذا فإنه لا سعة سوى أن نمر عبوراً في هذا الجزء ذلك أن

الاهتمام العام بالتقويم الزمنى للتاريخ ظل ضئيلاً حتى عهد الآباء المسيحيين الأوائل — لأنه حتى المؤرخين أنفسهم — لم ينجحوا بصفة عامة في اكتشاف الماضى وكان القسيس وليس المؤرخ — على حد ما أوضحه الأستاذان ويستر وشوتويل — هو الذى اكتشف عنصر الزمن وكيفية حساب التواريخ كذلك كانت الكتابة التاريخية في همالبيتها العظمى حتى العهد المسيحى عبارة عن تاريخ معاصر وإذا تعرضت بإشارات إلى الماضى فإنها كانت غالباً إشارات غامضة وغير دقيقة من وجهة النظر التاريخية . وإذا كان مؤرخ اليوم قادراً على وضع تقويم زمنى مقبول لتاريخ الشرق القديم عن طريق الاستعانة بقوائم الملوك وغيرها من سجلات البلاط ، فإن الشعوب نفسها في تلك العصور لم يكن لديهم أى تقييم زمنى منظم للتاريخ ولم يتوصل المؤرخون الإغريق إلى أكثر من ذلك التقويم الأولى الذى أدخل في عهد طيماوس حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م والذى كان يعتمد على السنوات الأولمبية في تحديد التواريخ أما المؤرخون الرومان فكانوا أكثر نجاحاً في هذا المجال إذ ابتكروا تقويمياً علمياً معقولاً حين أرخوا لحوادثهم على أساس التاريخ المزعوم لإنشاء روما سنة ٧٥٣ ق . م . ولكنه من الواضح أن هذا النظام كان لا يمكن المؤرخ من أن يجول ببصيرته في ذلك الماضى العميق الذى يبدأ بفجر التاريخ ، هذا على الرغم من أن نيبوس Nepos ابتدع طريقة جداول تاريخية مقارنة .

وعلى الرغم مما يجتوبه التقويم الذى وضع على عهد آباء الكنيسة الأول من غرابة وشذوذ إلا أن هذا التقويم له فضل محاولة إيجاد نظام تقييم زمنى يضم كل العصور التاريخية . ومن النابت أن الافتراض المسيحى القائل بأن خلق الانسان تم في فترة لا بعد عن ستة آلاف سنة عن مولد المسيح كان غير كاف بأى حال للتوصل إلى تقويم زمنى شامل ، وكذلك فإن اختيار التاريخ العبرانى أساساً لوضع جداول تاريخية مقارنة قد أعطى مكانة مبالغاً فيها لتاريخ اليهود على حساب بقية تاريخ الشرق القديم . ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين المسيحيين هم الذين بحثوا بدقة مشكلة تقويم الماضى ، وحتى الآن والجهو تبذل لزيادة محرى الدقة في التقويم الذى وضعه جوليوس افريكانوس ، ايزيبوس ، وجيروم . وهذا العمل من جانب الدارسين يأخذ في بعض الأحيان شكلاً أكثر تحديداً كما في حالة أوشر ولايتفوت وأحياناً أخرى ينخذ شكلاً علمياً يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر كما في حالة سكاليجر وكليمنت .

وجملة القول أن جميع أنواع التقويم التاريخى حتى وقتنا الحاضر تنصف بعدم الدقة وعدم القدرة على توجيه الباحث توجيهها صحيحاً . ذلك أن المعايير التى اتخذتها هذه التقاويم أساساً

كانت إلى حد كبير تركز عادة على حادث ديني أو قومي خاص مثل ميلاد المسيح أو الهجرة المحمدية أو قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى في الشرق الأوسط وليس لأى من هذه الأحداث من الموضوعية أو القيمة الثقافية العالمية ما يجعل منه أساساً مناسباً لتقويم التاريخ العالمى ، بل إن عدم كفاية هذه الأحداث من ناحية عنصر الزمن كفيل بأن يزيد الموقف تعقيداً . يضاف إلى ذلك أنها وقائع حديثة نسبياً إذا ما أخذنا في الاعتبار أن سنة ٦٠٠٠ ق . م هي أقدم ما افترض من تاريخ للخليفة في أكثر التقاويم امتداداً وتساهلاً . ويمكن أن يعاد بناء تقويم التقدم البشرى على أساس ما تحقق من معرفة بيولوجية وأنثروبولوجية على النحو التالى : ذلك أن الأساس العام للتقويم التاريخي يقوم غالباً على المعرفة الفلكية ، لأن الفلك هو الأساس الذى يكشف عن الامتداد المائل للكون وضالة حجم كوكبنا وقصر عمره نسبياً . وهذه بلا شك أخطر المراحل وأقلها وضوحاً في تطور البشرية . ثم يلي ذلك مرحلة العصور الجيولوجية في تطور الأرض ، وهي الفترة السابقة على نشأة الحياة والتي تثبت بالتأكيد أنها أطول بكثير من تلك الفترة التي انقضت منذ بداية ظهور الأحياء الأولية . وبعد ذلك تأتى مرحلة بداية الحياة وأصلها . ولدينا بالنسبة لهذه المرحلة مرشد يتمثل في سجلات علم الحفريات ، وهي فترة تتناول حقبة زمنية أطول من أن يجرؤ أى جيولوجى على التعبير عن طولها بالنسبة لأنها تزيد عن مليون سنة . وتأتى بعد ذلك مرحلة متأخرة جداً عن ذلك من وجهة النظر الجيولوجية وهي التي تمثل العصر التلثي الذي خرج فيه الإنسان إلى الوجود وكان ذلك منذ حوالى خمسة ملايين سنة .

ومن الآن فصاعداً نجد تحت أيدينا التقويم الذى اعتمد حفريات عصر ما قبل الكتابة والذى يستند إلى البحوث التي أجراها الباحثون من « طومسون » حتى « تورتيليه » ، « ديكليت » ، « ماكردي » . وينقسم هذا التقويم إلى العصر الحجري وعصر المعادن . أما العصر الحجري فينقسم بدوره إلى أقسام ثلاثة هي العصر الأيلوتي — الباليوتي — النيولوتي [القديم — الأوسط — الحديث] ولكل قسم منها فروع التي يطلق عليها العلماء أسماء معقدة وصعبة . وأما العصر المعدني فينقسم بدوره إلى عصور النحاس والبرونز والحديد والصلب . وتجري الآن مراجعة تاريخ العصر الحجري . وترجع بداية العصر الحجري القديم إلى أكثر من مليون سنة ، في حين ترجع بداية العصر الحجري الأوسط إلى أكثر من مليون سنة والحديث إلى ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ألف سنة . أما عصر النحاس فمن المرجح أن يكون قد بدأ في مصر حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وظهر عصر البرونز الحقيقي في منطقة بحر إيجة حوالى سنة ٢٦٠٠ ق . م . بدأ

عصر الحديد في الأناضول حوالي سنة ١٣٥٠ ق. م عند الحثيين . ويمكن أن يقال إن عصر الحديد يضم الحصاره الغربيه ابتداء من القرن الرابع عشر ق. م حتى الثورة الصناعه التي انتجت العصر الحديدي للسلب بكل متضمناته وأقسامه . ولعل التسمي الأساسي لتاريخ الجنس البشري منذ بدايه العصر المعدني هو كما يلي :

١ — عصر الرعي والزراعه الذي يتميز أساساً بالعزله النفسه والتفافه والركود والتكرار وهي الأمور التي تحكم في المجتمع حتى مجيء الثورة الصناعه

٢ — عصر الحركه المعاصره الذي شهد الرأسماليه والتوسع وحياه المدن .

ومع ذلك فإنه من السهل جداً ملاحظه أن هذا الملخص المعقول للتقويم الأحداث والأكثر شمولاً ليس إلا موحزاً جريباً غير نام حسب إنه يرتكز أساساً على الثقافه الماديه . ففي مجال هذه الثقافه حدث أكثر تقدم كما أن فيه أيضاً يمكن سهوله اقصاء أثر التطورات والتغيرات . وهكذا نضح أنه بالنسبه لمجواب معناه أخرى من التطور التفاضلي يلزم نظام آخر للتقسيم الزمني . وعلى الرغم من أن النظام الذي عرصاه فيها سبق ربما فسمي عدداً من جوانب التطور الحضاري أكثر من ضمنه أي نظام آخر فإن التقويم المعروف به لا يزال يقوم على أساس الحادث الذي انفرد باختياره كل من ديونيرسوس ابحر بوس Dionysius Exiguus ، و Bede . ونعني بهذا الحادث على وجه التحديد ميلاد المسيح . وإذا كان هذا الاحتمار يعني بالأغراض العمليه كأي اختيار آخر ؛ فإن الأسباب الخاصه التي دعت إلى استخدامه — كما برأى لكتاب العصور الوسطى — لا تبدو معقوله أو وحيهه على الإطلاق بالسسه لمعظم المؤرخين التقدميين . أما التاريخ الذي يبدو أكثر صلاحه ليكون أساساً للتقويم فهو على الأرجح سنة ٤٢٣٦ ق. م أي التاريخ الذي اتخذ فيه قدماء المصريين التقويم الشمسي أساساً لحساب الزمن ، وهذا هو أقدم تاريخ مؤكد ثابت في تاريخ البشره . ولا يمكننا أن نوقع وجود توارخ محدد ساهمه عليه . وكل الذي نصافه لا ينعدي فترات أو عصوراً واحداً .

وسبب أن يكون واضحاً لكل فخر أن هذه المفاهم الحديده الخاصه بالتقويم الزمني كان له تأثير بوري على الجهود التقليديه في مجال تقسيم التاريخ إلى فترات ذلك أن طريقتنا الحاليه لتقسيم التاريخ إلى عصور وفترات نسأت بشكل عسواتي وباللالي فليس هناك أساس معين لتجارتها أو استمرارها . ولم تكن عند الآباء المسحدين سوى فترتين هامتين في التطوع البشري .

١ - العصر الوثني الذي انقضى منذ آدم حتى ميلاد المسيح والذي لا يخفف من وزره سوى وجود الثقافة اليهودية ذات التوجيه الإلهي .

٢ - العصر المجيد الذي لاح فجره بميلاد المسيح .

وكان أن استمر الأخذ بهذا التقسيم طوال العصور الوسطى وذلك بفضل ما فعله « اورزيوس » من أجل تثبيت التراث الثقافي الأوربي إذ ظل مؤلفه حول التاريخ العالمي هو الكتاب المقبول حتى وقت ظهور « سابيلاكوس » في عصر الحركة الإنسانية . ونلاحظ في كتابات « أوتو » المنسوبة إلى « فريزنج » الجمع بين نظرة « أوزريوس » والإدراك الضئيل لمغزى الفترة التي وصلت بين « أوتو » والعصر الأوغسطيني . أما فيلانيوس بلوندوس « فربما كان أول من نظر إلى العصور الوسطى على أنها فترة متميزة إلى حد ما ، فترة اتصفت بقيام الدول الجديدة في شمال غرب أوروبا في أعقاب اضمحلال قوة روما .

وهناك أيضاً حنا بودين Jean Bodin الذي قسم التاريخ البشري إلى التاريخ الشرقي وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتاريخ أوروبا الشمالية . ويبدو أن التقسيم الحالي الثلاثي التقليدي الذي يقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث إنما يعزى إلى تأثير كاتب هولندي من أتباع المدرسة الإنسانية هو كريستون كيلر « (كيلاروس) .

ويبدو ما في هذا التقسيم من نقص أمام كل مؤرخ عميق التفكير ، فهو في المقام الأول يتجاهل أكثر من تسعة أعشار فترة الوجود البشري على الأرض . وفي المقام الثاني فإنه لا يوجد توافق زمني عام بين مختلف ثقافات شعوب الأرض مما يسمح بمثل هذا التقسيم المحدد للتاريخ العالمي ، فأية مقارنة بين حالة الثقافة في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين الهند والصين وبريطانيا وكاليفورنيا في سنة ٤٠٠٠ ق.م سوف تظهر التنوع الهائل في الثقافة التي تنطوي تحت قسم زمني واحد . وكذلك تظهر نفس الحقيقة عند مقارنة حضارة اكس لا شابل بحضارة القسطنطينية سنة ٨٠٠ ميلادية ، أو عند مقارنة حضارة كل من انجلترا وروسيا والصين سنة ١٨٢٥ ميلادية . وفي المقام الثالث نجد أن مثل هذا التقسيم ليس كافياً حتى بالنسبة لتاريخ دولة واحدة كما يتضح ذلك من مقارنة ثقافة ألمانيا سنة ٥٠٠ ميلادية بثقافة بلاط الإمبراطور فيردريك الثاني . وكلاهما تقع في الفترة المسماة بالعصور الوسطى .

وإذا كنا سنختار الاحتفاظ بهذه الاصطلاحات والتقسيمات القديمة ، فإن علينا أن نوسع مجالها بحيث تغطي فترات أطول . فمن الأمور المنطقية بوجه عام القول بأن التاريخ القديم يتضمن الفترة من وقت ظهور الإنسان حتى نهاية العصر الحجري الأوسط ، ويضم تاريخ العصور الوسطى فترة العصر الحجري الحديث ، في حين يضم التاريخ الحديث الفترة من عصر المعادن حتى الثورة الصناعية . أما التاريخ المعاصر فيشمل الفترة ما بين الثورة الصناعية ووقتنا الحاضر . ولكن المشكلة تكمن في ما إذا كنا بحاجة على الإطلاق للاحتفاظ بهذا النظام العتيق لتنمية العصور . يضاف إلى ذلك أن أى تقسيم علمي للتاريخ في المستقبل لابد وأن يكون متعدد الجوانب ، له حدوده المتميزة الفاصلة وخصائصه الواضحة . ففى بعض مراحل الثقافة مثل التكنولوجيا والنظم الاقتصادية تبدو أنماط معينة للتجمع والتقدم ولكن يبدو أن الدين والفن لا يخضعان لهذه القاعدة ولذا فإنه سوف يكون هناك دائماً تفاوت كبير بين ثقافات دول العالم المختلفة . وهكذا فإن تقسيم التاريخ في المستقبل لابد وأن يقتصر على غط معين من التطور الثقافي في دولة معينة أو حقبة ثقافية محددة ^(١) وقد يترتب على ذلك ارتباطك في ناحية التعليم ، ولكنه نظام أدعى إلى دقة تاريخية أكبر وتميز أعظم . ويبدو اقتراح « لامبرخت » على قدر كبير من الوجاهة ، وهو الاقتراح الذى يقضى بنذ الطرق القديمة لتقسيم التاريخ إلى فترات . ويدعو إلى الأخذ بطريقة جديدة تقوم على تتابع أنماط سائده من السيكلوجية الجماعية . وهذا الاقتراح جدير بأن يركز لدى المؤرخ سواء قبل أم لم يقبل رأى « لامبرخت » الخاص بالتقسيم الاجتماعى السيكلوجى للتاريخ . وأخيراً فإن مفهوم استمرار التاريخ يمثل تحدياً ظاهراً لأية خطة تستهدف تقسيم التاريخ إلى فترات محددة .

العوامل الجغرافية في التطور التاريخي

ذكر الفيلسوف الألماني « هررد Herder » أن التاريخ البشرى ليس في أساسه سوى التعبير المتغير للفكر البشرى " Geist " كما حورته وعدلت منه الظروف الخارجية المحيطة . وأهم هذه الظروف الخارجية هى البيئة الطبيعية . ذلك أن المؤرخين تأثروا كثيراً بـ « هيجل » وبحماسه

(١) انظر كتاب الفنون والحضارة لمؤلفه ليون مانفرد Lewin Mumford (طبعة هاركويت براس ١٩٣٤) .

للمطلق والدولة ، كما تأثروا بـ « كارليل Carlisle » ورأيه القائل بأن عظماء الرجال هم مبعوثو العناية الإلهية . لذلك نجد التاريخ في القرن التاسع عشر قد سيطرت عليه إلى حد بعيد ظاهرة التمسك بالمفاهيم الدستورية والقومية والتأثر بذكر أحداث البشر وقصصهم ، ولذلك لم يشعر بأهمية « كارل ريتز » سوى قلة قليلة ، كما لقي « باكلي Buckle » كل استهزاء ، ولم يعبأ أحد . بـ « راتزل Ratzel » . بل إنه حتى في أيامنا هذه كشف مؤرخ أمريكي النقاب عن انتقال المؤثرات الفكرية عبر القارة الأمريكية بصرف النظر عن المصالح الاقتصادية أو الفواصل الجغرافية^(١) . وهكذا أصبح المؤرخون تدريجياً أكثر إدارة للحقيقة الخاصة بأن تصرفات الإنسان لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً أو توصف وصفاً دقيقاً إذا ما فصلت عن إطارها الطبيعي . ولدينا بعض الأمثلة الواضحة لازدياد تقدير المؤرخين لمغزى وأهمية المعلومات الهائلة التي وضعها تحت تصرفهم الباحثون في الجغرافية الطبيعية والجغرافيا البشرية .

والواقع أن الاهتمام بعلاقة العوامل الجغرافية بالنظم الاجتماعية والثقافة البشرية أمر قديم قدم التاريخ ذاته « فأبقراط » أبو الطب — كان معاصراً « لهرودوت » و« ثيكوديدس » — كان أول من كتب عن هذا الموضوع ولو بشكل عارض عندما كان يصدد توضيح أثر المناخ وبعض العوامل الطبيعية الأخرى على أنواع الأمراض ومسبباتها ، كذلك فإنه توصل إلى اكتشاف الأسباب التي جعلت الإغريق — وهم سكان منطقة المناخ المتوسط أو المعتدل — أرقى من الضعفاء في الجنوب أو الشعوب الهمجية في الشمال . وقد أعرب « أرسطو » عن اقتناعه بهذا التفسير كما عزا « شيشرون » عظمة الرومان وتفوقهم إلى نفس هذا السبب . وفي العصور الوسطى بعث « اكويناس » « مفاهيم » « أرسطو » وبعد ذلك أشار إليها « ابن خلدون » (١٣٣٢ — ١٤٠٦) في كتاباته . وجاءت إشارات أكثر وضوحاً بفضل معرفة المسلمين بعلم الجغرافيا . كذلك أوضح « بودان Bodin » كيف اتفقت الجغرافيا مع قدرة الله لتجعل من الفرنسيين أمة عظيمة ووضع بعض الاقتراحات التي تحدد كيف يستفيد الساسة من دراسة الجغرافيا في تجنب قيام الثورات أما « ريتشارد ميد Mead » و« حنا اربثنوت John Arbuthnot » وهما طبيبان إنجليزيان عاشا في النصف الأول من القرن السادس عشر — قد استغلا الاكتشافات الجديدة في علوم الطبيعة

(١) ارجع إلى E.D. Adans : The power of Ideals in American History ويعتبر الفيلسوف الإيطالي ب . كروش هو أحد أتباع هيجل من ناحية رأيه في التاريخ .

والأرصاء الجوية وفي وضع تفسيرات ممتعة وإن لم تكن مقنعة فيها يتعلق بتأثير المناخ والطقس على الإنسان .

وظهرت بعد ذلك جهود « مونتسكيه » العظيمة في بناء فلسفة للتاريخ وعلم القانون على أسس جغرافية . وارتكزت هنا الجهود على نظريات « أريستوتل » والمادة الوصفية التي احتواها كتاب الرحلات « تشاردن Cherdin » وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر أسس « كارل ريتار » علم الجغرافيا البشرية بمعناه الحديث وكانت القاعدة التي ارتكز عليها هي المعلومات السليمة التي تجتمعت نتيجة للجهود التي بذلها مكتشفون أمثال « ألكسندر فون هوبولدت Alexan- der von Humboldt » والتي كانت باعثاً على اهتمام من جاءوا بعده وأخذوا بمذهبه أمثال « بيشل Peschel » و« جيوت Guyot » و« بصفة خاصة » « فردريك راتزل » و« اليزه ريكلو Elisee Reclus » وبالإضافة إلى العمل النظامي الذي قام به كل من « راتزل » « ريكلو » وكتاب لاحقون أمثال « ريتشوفن Ri chthofen » برونيه Brunhes ، فالوا Vallaux ، فيدال دى لابلان Vidal dela Blache « سمبل Semple » « هنتجتون Huntington » فإنه كانت هناك إلهامات هامة في نواح معينة من الموضوع أقي بها كل من « ديمولنز » ، كوان ، ميتشنيكوف Metchinekoff ، ماكندر ، « لى بلای Le play » « جيدز Geddes » ، « هاهن Hahn » ، هنتجتون ، وارد ، دكتسر ، « هلباخ Hellpach » وغيرهم .

ويبدو تأثير هذه الأعمال على عرض التاريخ وتفسيره أمراً غاية في الوضوح ، إذ عالج علماء الجغرافيا البشرية المذكورون آنفاً كل عوامل البيئة التي تؤثر على المجتمع ، وأمدونا بصورة دقيقة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة ، ومن هؤلاء « ديمولنز » « وكوان » اللذان أكدوا أهمية الطوبوغرافيا والطرق التي يسلكها المسافرون والمواقع الطبيعية التي تعترض الغزاة وتجعل الاتصال صعباً وشاقاً . أما « لى بلای » و« جيدز » فقد حددا حوض النهر بوصفه أساساً للإقليم الجغرافي الطبيعي في المجتمع الصناعي الحديث . كما أوضح « فاكندر » أهمية الموقع الجغرافي الاستراتيجي في تاريخ التوسع القومي والعلاقات الدولية . وبالمثل فقد زدونا كل من « هان » ، ودارد بأبحاث تمس كل جوانب تأثيرات المناخ على الإنسان . أما ألزوارث هنتجتون فأضاف إلى ذلك كله فرضاً جزئياً أصيلاً حول التذبذب المناخي الذي قد يكون مسؤولاً عن كثير من موجات هجرة الشعوب واضمحلال الثقافات عبر التاريخ . وأما هلباخ ، و« ونكستر » و« هنتجتون » و« ليفنجول Leffingwell » فقد بدأوا البحث الخاص بتأثير الطقس والتغيرات الفصلية على

الطاقة البشرية والنشاط البشرى . وفى كتابه « الأرض والشمس » أتى « هينجتون » بنظرية تأثير الشمس والمناخ والطقس على مجرى الحضارة .

وبالإضافة إلى هذه الأعمال التى تناولت التأثيرات الجغرافية العامة على مجرى الحضارة ظهر عدد من الجغرافيين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة العلاقة المحددة بين عوامل البيئة والتاريخ من ذلك أن « ريكلو » و« فيرجريف Fairgrieve » أوضحا العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ العالمى وهو العمل الذى قام به مؤخراً جداً وبشكل أكثر شمولاً « برونز وقالوا » ، « لوسين فيفر Lucien Febvre » . كذلك حلل « ليون ميتشنيكوف » أهمية وضع وادى النهر بالنسبة للحضارات الشرقية المبكرة . أما فيليبون Philippon » فقد قام بدراسة تاريخية عظيمة لتأثير العوامل الجغرافية لحوض البحر المتوسط على التاريخ الشرقى والكلاسيكى . وتبعه فى نفس هذا الاتجاه كل من « سميل » ، « نيوبيجن Newbigin » .

وقد حلل الأخير بالتفصيل العلاقة بين جغرافية البلقان وتاريخها . وهناك أيضاً « نيسين -Nis sen الذى زدونا بدراسة دقيقة لجغرافية إيطاليا . هذا إلى أن «فيدال دى لابلش » ، و« برونز » وضعوا دراسة جغرافية لبريطانيا بينا وضع كل من « ريتنهوفن » ، « بارتش Partsch » ، « بنك Penck » ، جوتز Goetz مؤلفات هامة عن الجغرافيا التاريخية لأوروبا الوسطى . وبالمثل عالج كروبتكين Kropotkin وآخرون العوامل الجغرافية التى يتضمنها تاريخ أوروبا السلافية . وفى أمريكا بُحث تأثير العناصر الجغرافية على التاريخ الأمريكى فى دراسات قام بها « سميل » « بريجهام Brigham » ، « ج . راسل سميث J. Russel Smith » . ولا بد أن نشير كذلك إلى ما أسهم به الجغرافيون الاقتصاديون أمثال « شيزهولم Chisholm » ، وماكفارلين Mac Farlane » ، وجوتز ، ج . راسل سميث ، فى دراسة التاريخ الاقتصادى .

وسار المؤرخون على نفس نهج الجغرافيين فى الاهتمام بالتأثيرات الجغرافية التى حددت صورة التطور فى مناطق لها خصائصها التاريخية المميزة أو فى دول قومية معينة . ومن ذلك أن هـ.ب. جورج ، ج.ك. رايت Wright بذلا جهداً طيباً لبيان التأثير العام للجغرافيا على التاريخ وبصفة خاصة التاريخ العسكرى والسياسى . وقدم ج . ل . مايرز G.L. Myres عرضاً متمعاً للأساس الجغرافى لقيام الحضارات التاريخية المبكرة . كذلك قام مؤرخو الحضارات الشرقية القديمة بدراسة دقيقة لبيئة وديان الأنهار التى شهدت نشأة هذه الحضارات بحيث أصبحت أودية أنهار النيل ودجلة

والفرات غاذج قديمة لأثر البيئة الجغرافية . وبالمثل فقد أوضح « كورتوس » ، و « زيمرن Zimmern » بالتفصيل العلاقة بين جغرافية شبه الجزيرة اليونانية ونشأة الحضارة الإغريقية وطبيعتها أما دورى Duruy فقد أمدنا منذ نصف قرن مضى بعرض لجغرافية إيطاليا وعلاقتها بالتاريخ الروماني . وبالمثل أوضح « هارناك Harnack » العوامل الجغرافية التي أثرت على انتشار المسيحية كما أمدنا « بيزلى Beazley » بدراسة قيمة تدور حول الأساس الذى قامت عليه الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى . وهناك أيضاً ميشليه ، جوليان Gullian اللذان وصفا بشكل كامل الأسس الجغرافية للتاريخ الفرنسى فى حين قدم « جرين Green » أعظم عرض لتأثير المعالم الطبيعية لبريطانيا على التاريخ الإنجليزى ، وأوضح « لوكاس Lucas » كيف أن العوامل الجغرافية أثرت على طبيعة وسير حركة التوسع الامبرالية الإنجليزية . وكذلك أوضح « ريهل Riehl » العلاقة بين جغرافية الوطن الجرمانى وتطور المجتمع الجرمانى وثقافته . كما أوضح « سبيل هاوس Spilhaus » الأصول الجغرافية للتوسع الأوروبى واضطراب حركة الاستعمار . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة وصف « باين Payne » العلاقة بين المعالم الطبيعية وفترة الاكتشافات والاستيطان كما أوضح « وندسور Windsor » الأهمية التاريخية لحوض نهر الميسيسى . وفى نفس الوقت أمدنا « هالبرت Hulbert » بتفاصيل وصفية عن المسالك التى استغلت فى غزو القارة . ثم جاء « فردريك جاكسون تيرنر » وتلاميذه الذين أوضحوا بتفاصيل مقنعة العلاقة بين الأقاليم الجغرافية للولايات المتحدة وبين تاريخها القومى والإقليمى . وأخيراً فإن هناك العلامة الألمانية « هلمولت Helmolt » الذى أصدر تاريخاً عالمياً ممتازاً بنه على تقبل معتدل لآراء « راتزل » الخاصة بالعلاقة بين الجغرافيا والتاريخ .

وعلى الرغم من وجود مثل هذه البداية المباشرة على طريق إقرار أهمية البيئة الطبيعية بالنسبة للتطور التاريخى لكل شعب فإن معظم المؤرخين التقليديين لم يعنوا عناية كافية بالعوامل الجغرافية . والحق أننا نشك فيما إذا كان الكثير من المؤرخين يشعرون بوجودها أو بقوة تأثيرها . وحتى هؤلاء الذين أعطوا الموضوع شيئاً من الاهتمام ؛ قلما أدركوا أن الخريطة الطبوغرافية والاقتصادية — وليست الخريطة السياسية — هى التى تساعد على كشف تأثير العوامل الجغرافية على التطور التاريخى . وإذا ألقينا نظرة على معظم المؤلفات التاريخية الحديثة فإننا نجد عشرين خريطة سياسة مقابل خريطة طبوغرافية واحدة . فالجغرافيا التاريخية لازالت بالنسبة لمدرس التاريخ العادى شيئاً لا يزيد على كونه تلويحاً للسياسات التى تعرضت وفق ترتيب زمنى . وتبرز بصفة أساسية التغييرات التى تطرأ على الحدود السياسية .

وإلى جانب الاهتمام السائد بالأحداث فإنه من المحتمل أن يكون السبب الرئيسي لهذه اللامبالاة بالجغرافيا، إن لم يكن شعور النفور منها من قبل المؤرخين هو ذلك الانطباع الخاطئ بأن الاهتمام بالجغرافيا إنما يتضمن قبولاً للعقيدة المادية الخاصة بالاحتمالية الجغرافية. ولكن لا ينبغي أن تعالج المشكلة على هذا النحو، إذ إن المسألة مسألة الإنسان والطبيعة كما يتطوران معاً أو على حد قول راتزل فإن: «كل مشكلة جغرافية يجب أن تدرس تاريخياً كما أن كل مشكلة تاريخية يجب أن تدرس جغرافياً» ثم إن التأثيرات الجغرافية المتنوعة تبرز وتعمل بشكل مختلف في كل فترة من الفترات المتعاقبة للتطور التكنولوجي. يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك أساس للاعتقاد بوجود حتمية جغرافية مطلقة، كما أوضح الناقدون من علماء الأجناس البشرية الذين ينتمون للمدرسة «بوس». ولا يمكن أن نصل إلى تعميم أبعد من قولنا بأن تصميمات الأزياء عند سكان الكنفو لا يمكن أن تتناسب سكان المنطقة القطبية الشمالية. كذلك توجد ثقافات مختلفة اختلافاً كبيراً في بيئات متماثلة إلى حد بعيد، كما أن هناك حضارات قوية الشبه ببعضها مع أنها توجد في بيئات طبيعية متباينة. ويبدو أن الثقافة هي العنصر الديناميكي أو المحرك في التاريخ، أي العنصر الذي يتفاعل مع عوامل أخرى كثيرة أقواها البيئة والموارد الطبيعية المحيطة.

وإذا كانت الاعتبارات الجغرافية لها أهميتها في كل أوجه التاريخ فإنها تبدو أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ الاجتماعي المتصف بالحركة والتغير . فالثقافة المادية وما يصاحبها من نظم اجتماعية هي فيها يبدو وليدة تطبيق تكنولوجيا معينة على الموارد الطبيعية ولا غنى أبداً عن كل من التكنولوجيا والموارد الطبيعية لازدهار الاقتصاد . فإيطاليا الحديثة مثال طيب لدولة متخلفة نسبياً من الناحية الاقتصادية على رغم من وجود فنيين ممتازين بين أبنائها . ويرجع هذا التخلف إلى افتقارها إلى الموارد المعدنية اللازمة لنمو وتطوير صناعات الحديد والصلب والعكس صحيح في حالة روسيا قبل سنة ١٩١٧ (أو قبل ١٩٢٨) حيث كان السبب في التخلف الصناعي هو الافتقار إلى تكنولوجيا حديثة يمكن بها استغلال الموارد المعدنية غير العادية منها . ولدينا كذلك مثال واضح لتغيير التأثيرات الجغرافية بفعل التطور العلمي والتكنولوجي وهو تأثير البحر المتوسط والمحيط الأطلسي اللذين كانا في يوم من الأيام من أخطر العقبات في سبيل السفر والترحال . ومن أكبر أسباب الانزوال الثقافي ، إذ أصبح منذ اختراع فن الملاحة — أولاً بواسطة السفن العادية ثم بعد ذلك بالسفن التجارية — من أكبر البواعث المشجعة على نحو الحضارة ونشاطها وذلك اعتباراً من بداية الألف الثالثة قبل الميلاد حتى يومنا هذا . وبالمثل فإن مواقع القوى المائية التي كانت ذات

يوم عديدة الفائدة بسبب بعدها أو تعذر الوصول إليها يمكن أن تستغل الآن في توليد ونقل الطاقة الكهربائية .

ومن أروع وأحدث أمثله التفارب المتزايد بين التاريخ والجغرافيا ذلك الاهتمام بالجغرافية الإقليمية والتاريخ الإقليمي ذلك أن الجغرافيين الفرنسيين ساروا على نفس نهج « فيدال دي لابلاس » وفعلوا الكثير من أجل الارتقاء بالدراسة المتعمقة للمناطق الجغرافية الطبيعية التي تمثل الأساس المنطقي والمثالي لنمو الوحدة الثقافية والاجتماعية . وكان أن لُمى هذا المفهوم قبولاً واستحساناً من قبل تلاميذ « لي بلاي » في فرنسا و « باتريك جيديز » في اسكتلندا إذ اعتبر أساساً لنظريته خاصة بالإصلاح الاجتماعي . وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين الأوروبيين أمثال « لامبرخت » ، « شمولر Schmolter » ، قاموا بتحليل العلاقة بين مناطق جغرافية معينة وبين الحياة الاقتصادية فيها ، فإن العالم الذي أسس هذا الفرع من الدراسة العلمية وخطا فيه خطوات بعيدة هو الأستاذ « فردريك جاكسون ترنر » الذي كان مفتاح تفسيره للتاريخ الأمريكي نظرية مؤداها أن هذا التاريخ كان أساساً عملية توسع في اتجاه الغرب وإنشاء مجتمع رائد من ساحل الأطلسي إلى المحيط الهادي . وأوضح « ترنر » كيف أن هذه الحركة العامة نتجت مظاهرها وتعددت في الأقاليم الجغرافية الكثيرة التي تم اجتيازها . وإذا كان بطور الولايات المتحدة يعتبر مسأله توسع في المساحة والقوة فهو من ناحية أخرى يتميز بالنوع الاجتماعي والاقتصادي والنفائي والسياسي ، وهو التنوع الذي يرجع بصفته أساسية إلى الاختلاف في الوضع الجغرافي والموارد . وكان هذا التنوع الإقليمي مصدراً من مصادر القوة لأنه ساعد على خلق تعاون وبنى ، ولكنه مع ذلك كان سبباً في خلق كبير من الصعاب بالنسبة لمسأله الحفاظ على الوحدة السياسية والولاء للسلطة الحاكمة . ويمكن التنبؤ بأن المؤرخين في المستقبل سوف يحولون اهتمامهم من التركيز المطلق على الوحدات المصطنعة في الولايات إلى التركيز على محاوله تتبع تاريخ الأقاليم الجغرافية وإنجازاتها الاجتماعية والثقافية والتفاعل بينها . وقد يتحدث في المستقبل أن سمى تقسيم الوحدات السياسية على الوضع الجغرافي الملائم بدلاً من تركه على هذه الصورة تحدده اعتبارات الاعتزاز القومي ومطامع الأسر الحاكمة .

وأخيراً ولكي نتنقل من الوحدة الجغرافية الأساسية في الإقليم الطبيعي إلى الطرف الآخر الذي يمثل الاتجاه العالمي ينبغي أن نذكر أنه منذ عهد التوسع الأوربي فيما وراء البحار — اعتباراً من سنة ١٥٠٠ م فصاعداً وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠ أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهمية

كبيرة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ . ولا يوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوروبي ما لم يكن على دراية تامة بعالم وموارد المناطق التي تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها ، وإلى حد ما يمكن القول بأن هذا الاهتمام بجغرافيه العالم قد ساعد على توسيع مجال التاريخ ، بالضبط مثلما ساعدت علوم الجيولوجيا والأحياء والأخناس البشرية على توسيع نطاقه الزمني .

تفسير التاريخ

سبق أن أوضحنا أنه تجمعت قرب نهاية القرن التاسع عشر مجموعات كبيرة من مائه المصادر التاريخية التي تم تنسيقها والربط بينها ، كما تم الوصول بمناهج البحث التاريخي وطرق علاج المعلومات التاريخية إلى مرحلة الكمال . كذلك سبق أن أوضحنا كيف تمت هذه التطورات وإن كنا نلمس في معظم الحالات أن جهود المؤرخين افنصرت على جمع الحقائق التاريخية . وهكذا فإن دارس التاريخ وجد نفسه في موقف لا يخلف عن موقف الكيميائي أو أخصائي علم الفيزياء أو الأحياء إذا ما ردد بعدد هائل من المدكرات المرتبة المنمقة الى تحوى عدداً ضخماً من التجارب والملاحظات ولكنها لا تتضمن مع ذلك أنه محاوله حقيفيه لتفسير مغزى هذه الماده الكبيره أو استنباط قوانين علميه يمكن أن تكون لها صفة التعميم والحق إن اصرر معظم المؤرخين على مقاومه أى خروج عن الخط الرنسي الذي اخبروه لأنفسهم — وهو انكساف عن الحقائق وسرد الحوادث المتعاقبة — كان له ما يبرره منذ قرن مضى عندما كانت مائله في أذهانهم ذكرى تلك المحاولات المفعلة من جانب الفلاسفه لاسغلال حقائق التاريخ في دعم آرائهم الغريبه حول التطور التاريخي هذا بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية التي يمكن أن يبنى عليها أى تفسير سليم لم يكن قد تم جمعها على الوجه الأكمل .

ومع ذلك فإننا نجانب الصواب لو اعتبرنا أن جمع الحقائق بهذه الصورة يمثل نهاية عمل المؤرخ ، بالضبط مثلما يتعد عالم العلوم التجريبية عن الصواب إذا ما اعتبر أن عمله ينتهى عند حد وضع مذكراته في جداول . ذلك أن التفسير الدقيق المضى لماده التاريخ — وهو عمل علمي لا تنفصل عن مهمه المؤرخ — يمثل في الحقيقه التطبيق السليم للمنهج العلمي في التاريخ ويعطى

بعض المعنى والأهمية لذلك الحشد الهائل من الحقائق المتجمعة . ولقد عبر الأستاذ « جيمس هارفي روبنسون » ، « اف. يولارد » عن هذه الحقيقة في العبارة الآتية : « حتى يصبح التاريخ شيئاً علمياً كان لابد وأن يكون في أول أمره شيئاً تاريخياً » . وإنه لأمر غريب حقاً أن ما نعتبره اليوم اهتماماً تاريخياً أيضاً كان بعيداً عن أذهان المؤرخين قبل القرن التاسع عشر عندما كانوا يسردون أحداث الماضي بالطريقة التي اعتقدوا أنها ترضى لقارئ . وكانوا يعلقون على هذه الأحداث بهدف تعليم القراء . كذلك فإنهم لم يبذلوا كل ما في وسعهم لكي يكتشفوا حقيقة الأمور في الماضي . وهكذا وإلى هذا الحد . كانوا علميين ولو أن دوافعهم كانت في المقام الأول أدبية أو أخلاقية أو دينية . هذا إلى أنهم لم يحاولوا بصفة عامة أن يحددوا كيف برزت الأمور إلى الوجود . ولذلك فإن التاريخ ظل لفترة ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مجرد سجل لأحداث الماضي . ولا يزال هذا التعريف للتاريخ يرضى البسطاء ، ولكن وصف ما حدث سيء ، ومحاولة تحديد كيف حدث شيء آخر .

« وإنني وأنا أجهز بهذا الرأي أحاطر لأنني سوف انعرض لسخرية أدعياء العلم ، أقول إن الحقائق من وجهه نظري ليس إلا اعتباراً ثانوياً ولا ينبغي أن تستخدم إلا كأمتلته . وقد لا أكون موافقاً في اختبار العبارة التي قد تنبر على الأقل شيئاً من الضحك البريء . حقيقة إن الحقائق لابد وأن تكون صحيحة ولكن مغزى الحقائق التاريخية أعظم بكثير من الحقائق ذاتها . والذي يعنني الآن هو مغزى الحقائق فعندما ننفذ من قنوس الحفيفة التاريخية نستطيع أن نصل إلى لبها . والحفيفة في حد ذاتها قد تكون قليلة القيمة إذا لم تحمل في طياتها معنى ما . وهناك بالتأكيد مغزى وراء كل الحقائق وواجبنا هو اكتشاف هذا المغزى . ومع ذلك فإن اكتشاف مغزى الحقائق هو بصفة عامة آخر ما يهدف إليه مؤلفو الكتب الدراسية حيث نذكر الحقائق كما لو كان ذكرها أكثر أهمية من فهمها ، وكما لو كان غرض التعليم هو جعل العمل الناضج مخزناً للحقائق بدلاً من جعله أداة عالية الكفاءة وبدرية على أداء واجبات الحياة واكتشاف معالم الحقيقة » .

وكما أوضح كل من « كومت » والأساذ « سوبول » فإن الأنماط السائدة في تفسير التاريخ خلال العصور المتعاقبة قد عكست في صدق الاهتمامات الفكرية الغالبة في تلك العصور المعاقبة . فالملاحم التي تناولت قوى الطبيعة الخارقة والى ساد في السرق القديم ، حلب محلها التفسيرات الأسطورية والفلسفة التي وضعها مفكرو العصور الكلاسيكية القديمة . وما أن انتشرت المسيحية حتى اسبذلت هذه الأساطير الكلاسيكية بمفهوم نائه العالم (الدنيا والآخرة) كما ظهرت فكرة الآخرة والوجود الإلهي المستفهم إلى حد مامن الفكر الفارسي والتي سيطرت على عملته تفسير

التاريخ منذ «أوغسطين» حتى عهد «بوسويه». وبالمثل فقد صحبت حركة التوسع الأوربي هذه هائله تعرض لها الوضع الفكرى القديم مما ترتب عليه نشأة المدرسة العقلانية النافذة على يد «بيكون»، «وديكارب»، «وفولتير» «وهيوم» «وجييون». وبسبب سبق هذه المدرسة للجو الفكرى العام لعصرها فإنها تحولت إلى نثائيه «كانط» ومنالية «هيدر»، «فيخته»، «وشليجل»، «نلينج»، «وهيجل»، وقد لاحظنا فيها سبق أثر جميع هذه الغيرات على الكتابة التاريخية. هذا إلى أن نمو القومية في أعقاب النورة الفرنسية ساعدت على إعطاء أولوية مؤقتة لتفسير التاريخ تفسيراً سياسياً وإن كانت المحولات العظيمة التي شكلت الثورتين العلميه والصناعية قد حكمت بالفناء على مثل هذه النظرة السطحية. فعمق المعرفة الحديثة وكذا الاهتمامات الفكرية أدت إلى عدد من التفسيرات للطور التاريخى يمثل معظمها النمو الهائل لبعض الاتجاهات البارزه في المائة سنه الماضيه.

ونمو العلوم الطبيعیه الحديثه وازدياد الاتجاه النافذ في تناول المعرفة قل الجهد المذول لوضع وصياغة نظام فلسفى لنسق التطور التاريخى وعرضه وهو الجهد الذى اشرك فيه كل من «أوغسطين» و«أوتو» المنسوب إلى «فرينج»، «بوسويه» و«هيجل». ويبدو أن الشكك في أنه فلسفه شكلية للتاريخ كان أمراً مضاحساً لزائد معلوماتاً عن العميد المناهى للظواهر الاجتماعيه والتاريخيه. وهذه الجهود العظيمة الى استهداف وضع التاريخ في إطار سسط كهذا إنما بشنم منها المنهج القائم على الإلهام والمعرفة السابقيه على التجريب وهو المنهج المرفوض تماماً الآن.

وكان أن حل محل المذهب القديم لفلسفه التاريخ ما يمكن أن سمي «تفسيرات الحقائق التاريخية». وهذه التفسيرات تختلف عن فلسفه التاريخ الأقدم منها في عدم احوائها على أى عنقثر غرضى ليوضح الغاية والغرض منها. فضلاً عن رفضها المنهج الاسفرائى. أما الهدف الوحيد لهذه التفسيرات فهو إبراز وتأكيد تلك العوامل التي تجمع مدارس التفسير المتعدده، على أنها كانت عظمه الأثر في إنتاج حضارات الماضى والحاضر. وبمعنى آخر فإن هدف التفسير هو محاولة إتمام بحث «رانكه» غير المهادف عما حدث في الماضى بإضافه جهد متواضع لسرح كيفيه نشأة النظام الحالى. وهذا الجهد يمثل اكتمال المنهج العلمى في التاريخ، تماماً كما تمثل صياغة المواعيد العامه والقوانين في العلم الطبيعى التكملة المنطقية للمرحله الخاصه بجمع المعلومات عن طريق الملاحظات الميدانية والتجارب العمليه.

ونوجد في الوقت الحاضر سبع مدارس محددة للتفسير التاريخي تتضح من خلال جهود مملها الذين درسوا الظواهر التاريخيه على نحو حديث ، وقد أضاف كل من هذه المدارس الكبر إلى معلوماتنا عن التطور التاريخي . ونظرة بسيطة نلقها على هذه المدارس يظهر أنها وإن كانت منفصلة فإنها تكمل بعضها البعض بدرجة كبره . ويمكن تصنيف هذه المدارس كما يلي

١ - مدرسة التراجم الشخصيه أو نظره (الإنسان العظيم)

٢ - المدرسة الروحانيه أو المباله .

٣ - المدرسة العلميه التكنولوجيه .

٤ - المدرسة الاقتصاديه .

٥ - المدرسة الجغرافيه .

٦ - المدرسة الاجتماعيه .

٧ - المدرسة التركيه أو النفسه الجماعه .

وينبغي أن نذكر أن المؤرخ التقليدي سمسك إما بالنظره المباله التي مريح بطور التاريخ إلى أسباب ساسه أو بالنظره القائلة بأن التطور التاريخي أمر لا صابط له . ومن ثم فهو لا يخضع لأه قوانين مؤكده .

وأشتهر هذه المدارس - وهي الوحده التي أضفى عليها المؤرخون التقليديون كبراً من الاعتبار هي تلك التي عملها انان من أبرز الرومانسن هما « كارليل » ، و« فرود Froude » اللذان فالاً بأن الشخصيات الهامه في التاريخ هي المحاور الرئيسيه في عمله التطور التاريخي ، بمعنى أن التاريخ ليس إلا تراجم مجمعه . وهذا الرأي يتفق إلى حد بعيد مع فكرة نفسر حدود التاريخ في ضوء ما يجري من كوارث ، وهي الفكرة التي ساعدت بن العمالنين في القرن الثامن عشر وأبرز مؤيدي هذا الرأي من المعاصرين هم : « إميل فوجيه » ، و . هـ . مالوك W.H Mallock ، « كارل بيرسون : Pearson » ، « وليام روسكو » ، « ثار Thayer » ، « وليام دانيخ » ، « أمل لودفيخ » ، « كلود بوارز Claude Bowers » « آلان نفنز Allan Nevins » . وفي ذلك التفسير المسمى بالنفسر الروحاني نجد صورة للناتج المتأخر للمباله سليلج ، سليلج « ويمثل هذا الاتجاه بحماسه بالغه كل من « رودلف اوكن Rodolph Eucken » « سليل ماتيسوس Shailer Matheus » ، هـ . أ . تايلور H. A. Taylor » ، ر . و . ماكولون R. w. Mc laughlin » ويعرف الأستاذ « ماتيسوس Mathews » هذا الرأي في نواضع إذا نقول : « إن التفسير الروحاني للتاريخ لا بد وأن يكمن في اكتساف العوامل الروحانيه التي تتعاون مع العوامل

الجغرافية والاقتصادية في إنتاج اتجاه عام نحو أوضاع هي في حقيقتها شخصية وهذه الأوضاع لن توجد في قواعد عامة متصلة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة وإنما تبدو هذه الأوضاع في جهود الرجال البارزين الذين عبروا عن جهودهم في ميدان العلاقات الاجتماعية والذين كرسوا تلك الجهود لإخضاع عالم الطبيعة إخضاعاً تاماً لأجل رخاء البشرية^(١). وإذا ما نظرنا إلى هذا النوع من التفسير في ضوء هذه العبارة التي تبتعد كثيراً عن الفلسفة الاستعلانية السابقة، فإنه يمكننا أن نحكم بأن هذا التفسير يتشابه إلى حد كبير مع نظرية الإنسان العظيم وأنه فيما يبدو يستهدف التوفيق بين هذه النظرية وبين التفسير الكلي الناقد نحو ستار اتجاه لاهوتى عام. ومن دعاة هذا النوع من التفسير د. آدمز «الذى حاول أن يربط التطور التاريخي للولايات المتحدة بعدد من المثل القومية المتعاقبة والغالبة التي لم يتم تفسير أساسها وأصلها تفسيراً كافياً. كذلك هناك «كروش Croce»، الذى بذل جهداً للدفاع عن تفسير التاريخ تفسيراً مثالياً

أما كوندرسيه Condorcet، فكان أول من حاول النظر إلى التقدم البشرى على أنه وثيق الصلة بالتقدم في مجالات العلم الطبيعى والتكنولوجيا. وقد تبعه في هذا الاتجاه وعمل على إحيائه كل من «كومت Comte» و«باكل». وباستثناء العناية التي أولاها دارسو تاريخ العلوم أمثال «دانيمان Dannemann» ساراتون Saraton، «دوهم Duhem»، «نانيري Tannery» وغيرهم من اهتمام لهذا الجانب من تفسير التاريخ، فإنه لقي إهمالاً مؤسفاً من جانب المؤرخين المعاصرين، وإن كان «ف. س. مارفن» «لويس، مامفورد»، «لين نورندريك»، «س. ه. هاسكنز»، «أ. ولف A. Wolf»، «أ. ب. اوشر A.P. Usher» وشارل سنجر Charles Singer «قد أوضحوا جميعاً آفاق الرحبة والإمكانات الحقيقية لهذا النوع من التفسير. هذا فضلاً عن أن «لامبرخت»، «سجنوبوس»، «شوتويل»، «روبنسن»، «بريزرفدسميث»، قد أكدوا هذا التفسير بشكل عابر في تفسيراتهم الشاملة للتاريخ. ومع ذلك فإنه لم تتم الاستفادة من هذا التفسير بشكل كامل، مع كونه أوسعها أفقاً. ويذهب دعاة إلى أنه - أى التفسير العلمى - يستحق أهمية أكبر من تلك التي يحظى بها التفسير الاقتصادى، لأن الحالة السائدة للمعرفة العلمية وتفسيرها التكنولوجى هي التي تحدد أساليب الحياة الاقتصادية والنشاط الاقتصادى. وهذا رأى هو الذى أقر «كارل ماركس» نفسه بصحته.

(١) Shailer Mathews: The Interpretation of History (Harwerd press Uni 1916)

أما ما أسهمت به المدرسة الاقتصادية في تفسير التاريخ ، وهو التفسير الذى وضع أساسه كل من « فيرباش » ، « ماركس » وتبعهما في نفس الاتجاه عدد كبير من الكتاب اللاحقين أمثال « روجرز » ، « أشلى » ، « تونى Tawney » ، مدرسة « وب Webb » ، « هاموند » ، « شمولر » ، « جيد Gide » ، « لوريا Loria » ، « فييلن Vebelen » ، مدرسة « سيمونس Simons » ، « بيرد Beard » « هاكر Hacker » « سيمكهوفيتش Simkhovitch » فأمر معروف لاحتياج إلى مزيد من الإيضاح وينادى أصحاب هذا المذهب ؛ بصفة عامة وفي أوضح صورة ، أن النمط السائد في المجتمع من النظم الاقتصادية والنشاط الاقتصادى هو الذى يحدد ودرجة كبيرة طبيعه النظم الاجتماعية والثقافية في هذا المجتمع . وعلى الرغم مما شاب هذا التفسير الاقتصادى للتاريخ من مبالغات ، فإن أى تفسير آخر لا يدانيه إنتاجاً وأثراً .

ويتصل بهذا التفسير وبشكل مباشر التفسير الجغرافى الذى يرجع إلى عهد أبو فراط والذى يبدو في أعمال الكتاب المتعاقبين ابتداء من « سترابو » حتى « فتروفوس Vitruvius » « بودان Bodin » ، « مونتسكيه » ، « باكل » ، وقام بإحياء هذا التفسير وأضفى عليه صبغة علمية كل من « ريتير Ritter » ، « ريكولس Reclus » ، « سمبل Semple » « برونيس Brunhes » ، « فالوا » ، « ديمولنس Demolins » ، « هنتنجتون » ومنذ أيام « ريتير Ritter » عنى المؤرخون التقدميون فيها عدا قلة قليلة بالوهوف على الأوضاع الجغرافية لأى بلد من البلاد قبل محاولة كتابة تاريخه . وقد سبق أن أوضحنا أهميه ومغزى هذا الاتجاه .

أما التفسير الاجتماعى للتاريخ فإنه بدأ على يد العلامة العربى « ابن خلدون » ثم تطور على يد كل من فيكو وبيرجون وكومت وسبنسر وكان أفدر المفسرين . الاجتماعيين للتاريخ في العصر الحديث هم « جيدنجز » « أوجيرن » ، « توماس » « هوبوس » ، « مولر لاير » و« الفردوير » . ويصف جيدنجز هذه النظرية ببراعة إذ يقول « إنها محاولة لتعليل أصل نشاط المجتمع في ضوء أسباب طبيعیه وحبويه ونفسية وهى العوامل التى سبترك معاً في عملية التطور » ويعمل علم الاجتماع باعتبار أحد العلوم الاجتماعيه على أساس التعاون التام مع علم الأجناس البشرية حيث إن كلاهما يعمل جاهداً لتفسير التكرار والنشابه في تعليل أحداث التاريخ وتطوره .

وأحدث أنماط التفسير التاريخى وأكثرها شمولاً وأهميه هو التفسير الكلى أو السيكلوجى الجامع وهو التفسير الذى يمثل بشكل تام التاريخ الجديد . وطبقا لهذا التفسير فان نوعاً واحداً من المسببات لا يكفى لتفسير كل جوانب وفترات التطور التاريخى . ولأقل من أن تكون

السيكولوجية الجامعة لفترة ما هي التي لها من القوة ما يجعلها تتحكم في التطور التاريخي لتلك الفترة . ولذا فإن واجب المؤرخ ينحصر في اكتشاف وتقويم وعرض العوامل الرئيسية التي تخلق وتشكل النظرة الجماعية للحياة وتحدد طبيعة النضال الجماعي من أجل الوجود والتقدم . ولعل أحسن صياغة مختصرة لهذا الاتجاه هي أن الأحوال الفكرية العامة هي التي تحدد عادة الاتجاه السائد نحو العلم والتكنولوجيا . فالعلم والتكنولوجيا يخلقان النظم الاقتصادية ويتحكمان فيها وهذه بدورها تبني تدريجياً مجموعة من نظم الربط أو الدفاع التي تكتسب طابعها المميز من خلفية الحياة الاقتصادية التي تستند إليها . ونظم الربط هذه هي العادات الاجتماعية وأشكال وسياسات الحكومات وأنماط التشريع والقضاء ونظريات التربية والراي العام والتعبير عن طريق الصحافة وأنماط السلوك المقبولة من المجتمع والمفهوم العام للحياة . وهكذا فإن كل عصر يضم تراث الماضي وبذور التغير بالنسبة للمستقبل ولكن أكثر العوامل حركة وهو تسرب الأفكار الجديدة عن طريق الاتصال بالثقافات الخارجية . وأبرز فائدة هذه المدرسة لامبرخت ، فيررو Ferrero ، تارد Tard ، ليفي بروهل Bruhl ، فوللي Fowlli ، سيجنبوس ، دركهايم Durkheim ، مارفن روبنسون ، شوتويل ، بيكر ، بريزرند سميث ، راندال ، ج . ل . هارت . ويلاحظ أن هناك اختلافات واسعة بين مبادئ ووجهات نظر هؤلاء المؤرخين على الرغم من انتمائهم جميعاً لنفس المدرسة .

التاريخ والعلوم الاجتماعية

من أعظم التطورات الحيوية في دارسة التاريخ تقديمية ذلك الاهتمام المتزايد بالعلوم الاجتماعية أو الدراسات الاجتماعية كما تعرف في الأوساط التعليمية . وجاء هذا الاهتمام من جانب المؤرخين نتيجة طبيعية لظهور وجهة أكثر حركة في مجال كل من التاريخ والعلوم الاجتماعية . فالعلماء الذين شغلون بالعلوم الاجتماعية لا يمكنهم تجاهل التاريخ وذلك لأن المسائل المرتبطة بأصل الإنسان وتكوينه لها أهمية بالنسبة لكافة العلوم الاجتماعية فتاريخ النظم الاجتماعية والعمليات الاقتصادية وكذا تاريخ الدولة وتاريخ القانون وتاريخ أنماط السلوك السائدة والمقبولة إنما هي من أكثر الجوانب الحيوية في علوم الاجتماع والاقتصاد وفي العلوم السياسية وعلم فلسفة القانون وعلم الأخلاق . وأبنة دارسة حقيمية يعتد بها لابد وأن تهدف إلى

تزويدنا بمعلومات كافية عن هذه الأمور ومن المؤكد أن كثيراً من الكتابات التاريخية في الماضي لم تضع ذلك في حساباتها كما أنه من المؤكد أن السعى وراء تحقيق هذا الغرض كان أمراً صعباً . ولكننا نتوقع أن عدداً أكبر من المؤرخين سوف يدركون تمام الإدراك أن عملهم سيكون غير مجد إلى حد ما إذا لم يلفوا الضوء الكافي على أصول النظم المختلفة المألوفة لنا اليوم .

وكذلك فإنه إذا كان على المؤرخ أن يصف بطور الأنماط الرئيسية من النظم فإنه لابد وأن يكون لديه معرفة كافية بالعلوم الاجتماعية التي ترتبط بذلك النظم . ومن بين الأسباب التي أدت إلى تفاهه عدم جدوى كثير من الكتابات الوطنية لأحداث التاريخ السياسي فضلاً عن خروج بعضها عن الموضوع هي الحقيقة الخاصة بأن المؤرخين كانوا يجهلون بشكل يدعو إلى الأسف والحزن العلوم السياسية التي كانت بين أيديهم . ولو كان الأمر عكس ذلك لما أضاعوا وقتهم في سرد الحوادث والقصص على ذلك النحو المسهب ، ولأعطوا شيئاً من الانتباه لذلك الجوانب التي تصور نظور مختلف النظم والدساتير وأجهزة الحكم ونظام الأحزاب وسائر جوانب الحياة السياسية . ولا يعني هذا بطبيعة الحال إهمال العنصر الشخصي في التاريخ الوصفى إهمالاً كلياً ، وإنما يعني أنه ينبغي تأخير الإنجازات الشخصية بشيء من الدقة والتمييز ، بحيث يكون لما يوصف بعض العلاقة بمختلف نظم الحياة ، وبحيث يصور نوعاً معيناً من رد الفعل بالنسبة للشخصيات . وباختصار فإنه من الضروري بالنسبة للمؤرخ الذي يود أن يكتب كتابة طيبة عن تاريخ المجتمع والدولة والقانون أو عن الحياة الاقتصادية ، أن يكون ملماً بعلم الاجتماع والعلوم السياسية والقانون والاقتصاد ، بالضبط مثلما تتطلب الكتابة عن تاريخ علم الكيمياء بعض المعرفة عن هذا العلم ذاته . ويرجع السبب الذي عاق إدراك الحقيقة الخاصة بأن المعرفة بالعلوم الاجتماعية هي إحدى مقومات الكتابة التاريخية إلى انتشار فكرة القياس التقريبي ، والاجتهاد الشخصي في مجالات التاريخ والعلوم الاجتماعية وهي الأمور التي لا يمكن تقبلها في مجال العلوم الطبيعية ومن الممتع والمؤسف في آن واحد أن نلاحظ :

١ - اصرار المؤرخ على ضرورة التدريب العميق الطويل في علم المخطوطات وعلم المراسلات الدبلوماسية وعلم المعاجم ومبادئ النقد الداخلي والخارجي بقصد ضمان تقديم نصوص دقيقة وسرد سليم .

٢ - وفي الوقت نفسه تجاهل المؤرخ ضرورة تخفيف تدريب كاف في مجموعة من الدراسات هي الوحيدة التي يمكن المؤرخ من أن ينظم مادته ويفسر بها بطريقة حاذقة .

وأبرز الدلائل على حدوث تغير في اتجاهات المؤرخين نحو العلوم الاجتماعية ، تشكيل لجنة للدراسات الاجتماعية في المدارس سنة ١٩٢٩ تحت رعاية الجمعية التاريخية الأمريكية وبعد أن حصلت هذه اللجنة على مبلغ كبير من المال من مؤسسة كارنيجي بدأت في تنفيذ برنامج هائل للبحث وأصدرت عدداً من الكتب المصريجة المليئة بالاقترحات . وكان هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف المؤرخين سنة ١٩٠٣ عندما أظهروا عداً واضحاً لحركة العلوم الاجتماعية التي عبر عنها الأستاذ فرانكلين هنري جیدنجز في خطاب ألقاه أمام المؤرخين يقول ، هذه هي نظرية السببية الاجتماعية . وكان علم النفس في وقت من الأوقات لا يعتبر واحداً من العلوم الاجتماعية ، وإنما يعتبر مجرد دراسة للعمليات الجارية في عقل الفرد . ولكن لم يمض وقت طويل حتى ساد الاعتقاد بأن أية دراسة للعمليات العقلية الفردية لا يمكن أن تكون كاملة أو مرضية إذا لم تأخذ في الاعتبار النشاط العقلي المتداخل والتفاعل بين العقول بعضها وبعض داخل المجتمع . وأدى هذا الاعتقاد إلى نشأة فرع خاص من فروع علم النفس يركز على العلاقات بين العقول وهو على وجه التحديد علم النفس الاجتماعي .

ويستطيع التاريخ أن يستقي من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط العقائد والتصرفات البشرية . فالعقل هو العامل الموحد والمنسق في الفرد والمجتمع على السواء . وينبغي أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس في الماضي دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولوجية العامة للسلوك البشري . حيث إنه لا يبدو وأن ثمة تغيرات أساسية قد حدثت في الأساس السيكولوجي للعقل ولا في أنماط السلوك الرئيسية منذ فجر التاريخ المكتوب ، فإن سيكولوجية إنسان اليوم يمكن أن تفيد في تحليل الشخصيات التاريخية التي عاشت في الماضي ، فضلاً عن تحليل المواقف الجماعية . على أن هذا لا يتأتى بدون معلومات وبيانات كافية . والواقع أنه لا يعيب الكنايه التاريخية التقليدية أكثر من افتقارها المؤسف إلى المعرفة بعلم النفس العملي ، وهي الظاهرة التي تبدو واضحة في معظم كتاب التراجم ، الأمر الذي ترتب عليه كثرة التفسيرات السطحية التي فسرت بها التصرفات والدوافع الشخصية . ولانبالغ إذا ذكرنا أن الترجمة التاريخية العادية لا تقل غرابه عن ترجمة فرويد لشخصية ليوناردو دافينشي ، وإن كانت الطريقة مختلفة تماماً . وبضح تأثر علم النفس على التراجم في كتابات ليتون ستراشي Lytton Strachey ، اندريه موروا Andre Maurois ، جماليل برادفور Gamaliel Bradford وغيرهم وإلى جانب ما يقدمه علم النفس من معرفة

الوصول إلى فهم أفضل للسلوك الشخصي ، فإن علم النفس بالاشتراك مع علم الاجتماع - يوضح كيف يتعدل السلوك الفردي تحت تأثير الأوضاع والاتصالات الاجتماعية والعادات والتقاليد .

وهذا التداخل بين التاريخ وعلم النفس ينبغي أن يكون مفيداً لكل من العلميين ، فالتاريخ يزود المشتغلين بعلم النفس بكثير من المادة التي تصور السلوك البشري في الماضي من عصر الهمجية حتى يومنا هذا ، كما أنه يعطى أمثلة لكل صور الشخصية التي نهم علماء النفس وزودهم بشيء من المساعدة من أجل التعرف على أنماط سلوك هذه الشخصيات تحت تأثير الظروف المتغيرة . وبازدياد المصادر فإننا نأمل أن يصبح التاريخ في النهاية معيلاً رئيسياً للمشتغلين بعلم النفس .

وبالفرد الذي عاش به الناس على هيئة جماعات كبيرة أو صغيرة ، نجد أن علم الاجتماع أو علم نشاط الناس داخل الجماعات قبحه كبيرة بالنسبة للمشتغلين بالتاريخ فهذا العلم يحاول أن يصنف ويحلل مختلف القوى الجغرافية والبيولوجية والسبولوجية والاقتصادية التي تؤثر على مكان ما وشكل الحياة الاجتماعية فيه ، كما أنه يهدف إلى وصف وفسر نتائج هذه الحياة الجماعية ، كما تبدو في أنماط السلوك وفي العادات والضوابط التي توجهها النظم . وما أن علم الاجتماع بضمن كلاً من أسباب ونتائج الحياة الجماعية ، ولذلك فإنه العلم الاجتماعي الأساسي والوحيد الذي يمكن أن يعطى فكرة عامة عن التفاعل الاجتماعي وعن السببية الاجتماعية ككل ، ولما كان التاريخ يهتم بدرجة ليس ضئيلة بوصف سلوك الجماعات في مختلف المواقف الاقتصادية والسياسية والجمالية والدينية فإنه من الواضح أن دفعة المؤرخ وبصيرته يزدادان لو أنه عرف على المبادئ الأولية لعلم الاجتماع . ومن الواضح الأخرى فإن التاريخ يمكن أن يكون ذا قيمة عظيمة بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يزوده ببيانات ومعلومات قيمة عن أى قطاع في أى مجتمع في عصر معين ، فضلاً عن الجوانب الحركية للتعبير الاجتماعي وبندل النظم . وإذا كان كثير من المؤرخين التفليديين ذوي الميل الأدبي يعمتون هذا الرأي الخاص بوظيفة التاريخ وعلاقته بعلم الاجتماع ، فإنه ليس هناك شك في أن جمع المادة الخام لعلم الاجتماع الحركي بطريقة شعورية أو غير شعورية ، هو أحد الخدمات الجليلة التي يؤديها التاريخ وكلما ازداد التاريخ دفعة ونميزاً لما ينضمه من حقائق ، كلما ازدادت اكتشافاته واستنتاجاته صلة بعلم الاجتماع . وكلما ازدادت فهمها في عمله تنور الجنس البشري والسرى به قدما .

أما علم الاقتصاد فهو ينبثق عن علمي النفس والاجتماع وذلك بوصفه العلم الذي يعالج حصول الإنسان على الحاجيات المادية واستفاداته منها . فالدوافع البشرية التي تتصل بنشاط الإنسان الذي يستهدف الحصول على الثروة لا يمكن أن تفهم فهماً سليماً إلا على أساس من الإدراك الكافي للحوافز البشرية بوجه عام . وكذلك فإن العمل الجماعي من أجل الكسب المادي وزيادة الطاقة الإنتاجية ، يدعو إلى تحليل دقيق وفهم جيد للمبادئ والفوازين العامة المتعلقة بالعمل الجماعي . وإذا كنا لانستطيع أن نقبل نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ على علته بمعنى أننا نرفض التسليم بفكرة الحتمية الاقتصادية الكاملة ، فإن أى شخص عاقل لاسواره هناك حول الأهمية العظمى للعوامل الاقتصادية في المجتمع . وكان لهذه العوامل في بعض العصور فعلاً صفة الحتمية وخاصة الفترة من سنة ١٧٥٠ حتى الآن . وعلى الرغم من أن التفسير الاقتصادي لنشأة المجتمع الحديث والمجتمع المعاصر لا يتعرض لكثير من العوامل التنويعية ، فإنه بلا حدال أقرب إلى الحقيقة والواقع من أى تفسير آخر . وهكذا فإنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال إنذار أو تجاهل تأثير العوامل الاقتصادية على المجتمع في أى عصر من عصور تاريخ البشر .

وإذا كان الحال كذلك فإن المؤرخ لابد وأن يتعرض للنشاط الاقتصادي ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يكون لديه بعض المعرفة بذلك العلم الذي يبحث في خلق واستغلال الثروة المادية . وهذا أمر ينطبق بصفة خاصة على التاريخ الحديث والمعاصر والحق أن المؤرخ الذي لا يلم بالنظريات والنظم الاقتصادية لا يمكنه أن يقدم في هذا الشأن أكثر من وصف سطحي لنظاما الاقتصادي البالغ في التعقيد . وبالمثل فإن التاريخ يقدم خدمات جليلة للمشتغلين بالاقتصاد ، إذ يضع بين أيديهم العوامل التي تحرك التطور الاقتصادي ، ليس فقط في العصور الحديثة بل في العصور القديمة أيضاً . فعلى سبيل المثال نجد أن معهد الدراسات الشرقية في سياتاغو كشف حديثاً عن معلومات كثيرة خاصة بالأسمار والضرائب في حقبة طويلة من التاريخ الاسورى وهذه المعلومات أهمية كبيرة للمشتغلين بعلم الاقتصاد والمؤرخين الاقتصاديين . وكان أعظم ما أسهمت به مدرسة الاقتصاديين التاريخية في ألمانيا هو إصرارها على فكرة ما للنظم الاقتصادية من طبيعه متغيرة ونسبية ، وهى الفكرة التي كانت بمثابة رد الفعل لما اتصفت به المدرسة الكلاسيكية من جمود عقائدى . والواقع أن النظريات الاقتصادية في مجموعها تعتبر تفسيراً وتبريراً للأنظمة الاقتصادية المختلفة . وهذه النظريات نفسها ليست إلا مسائل نسبية ، فالتاريخ في الماضى كان يتصف بسطحية مذهلة وبعدم وضوح الرؤيا لأنه أهمل الحياة الاقتصادية وركز اهتمامه على سرد الأحداث

الهامة والمخطيرة ، مما جعله لايعنى إلا قليلاً بصغائر أمور الحياة اليومية . ومن بين الأشياء الهامة بالنسبة للاقتصاديين المهتمين بأصول الدوافع والنظم الاقتصادية تلك المادة التي وردت فيها أنتجه تلاميذ كليو من أبحاث ودراسات . وعلى الرغم من أن المعلومات المتوفرة لنا في الجانب التاريخي قد تكون غير كافية ، فإنه من المتعذر أن نفهم الحياة الاقتصادية الحاضرة فهماً كاملاً دون الرجوع إلى الماضي ، أى بدون الاستعانة بما يقدمه التاريخ من معلومات هو وحده الذى يملكها . هذا إلى أن التاريخ يزود الاقتصاديين في كثير من الحالات بأمثلة مفيدة توضح العلاقة بين النظم الاقتصادية وغيرها من النظم الأخرى . وقد أكد جوزيف دورفمان صحة ما أوردناه من مبادئ عامة حول هذا الموضوع في كتابه الرائع « الفكر الاقتصادى في الحضارة الأمريكية » .

أما العلوم السياسية أو علم الدولة وأجهزتها ووظائفها فهو أيضاً من العلوم التي لا بد وأن تقام على علمى النفس والاجتماع ، لأن أسس الولاء السياسى لا يمكن اكتشافه وتفهمه إلا من خلال دراسة سيكلوجية الخوضوع والعادات المرتبطة بالقيادة والمحاكاة والانصياع للنظم كما تتمثل في ردود فعل المواطنين نحو الدولة ، مما يتطلب هو الآخر تدخل المشتغلين بعلم الاجتماع ، لكي يمكن تفسير الجذور الأساسية التي تشكل تلك العادات . هذا إلى أن الحياة في المجتمعات السياسية لا يمكن تفسيرها دون فهم الطريقة التي تطورت بها الحياة الاجتماعية وكيف نشأت الدولة تدريجاً من النظم الاجتماعية الأولى . وقد أقر المؤرخون بما فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المدرسة السياسية التقليدية أهمية العلوم السياسية بالنسبة لأى فرع آخر من العلوم الاجتماعية . وبينما ركز غالبية مؤرخي القرن الماضى البارزين اهتمامهم على أوجه النشاط في المجال السياسى ، فإن قلة منهم هي التي تمكنت من العلوم السياسية المنهجية ، ومن جملة هؤلاء المؤرخين القانونيين والدستوريين وتيز ، برونر ، فلاشن ، فيوليت Viollet ، ميتلاند Maitland ، فينوجرادوف ، آدمز ، وهم الذين اهتموا فعلاً بتتبع تاريخ التطور السياسى . ولكن أغلب المؤرخين اكتفى كما ذكرنا بسرد الأحداث التي وقعت في حياة رجال السياسة والدبلوماسيين . ومع ذلك فإن المؤرخ السياسى الذى يسير اليوم على منهج علمى يدرك تماماً أنه لمن السذاجة أن يحاول باحث علاج النظم السياسية قبل التزود بمعلومات كافية عن طبيعة المبادئ السياسية والأشكال الرئيسية للنظم السياسية . وكذلك نتج عن طول فترة اتباع المنهج السياسى في التاريخ أن غدا في وسع المؤرخ أن يزود عالم السياسة بمعلومات عن أصل مادته أكثر مما يستطيع أن يزود المشتغل بأى علم اجتماعى آخر . ولكن حدث لسوء الحظ أن كثيراً من التاريخ السياسى ، الذى كتب في الماضى كان على

درجة عالية من الإثارة والتركيز على الأحداث والقصص بحيث صار الجزء الأعظم منه قليل الفائدة من الناحية العملية .

وما يقال عن العلوم السياسية ينطبق بنفس القدر على القانون . فالقانون ليس إلا تعبيراً عن الإرادة الجماعية كما يعبر عنها كيان الدولة . ولما كان جزء كبير من كتابات المؤرخ السياسي التقليدي ينصب على معالجة موضوع التشريع ، فإن هذا المؤرخ لم يرتض لنفسه أن يكون جاهلاً بعلم القانون . وفي الوقت نفسه فإن دارس القانون يمكنه أن يتحاشى عقم القانون الطبيعي ، والمدارس التحليلية إذا ما تمكن من إدراك مغزى أهمية الوقوف على أصل الإنسان وطبيعة نشأته وتطوره .

وأخيراً نتطرق إلى علم الأخلاق فنقول إنه مع أن السير على منهج تاكيتوس ، شلوزر ، لورد أكتون بالنسبة لإصدار أحكام حاسمة على شخصيات التاريخ على أسس أخلاقية شخصية بحثت لم يعد من مهام المؤرخ ، فإنه من الأفضل للمؤرخ أن يلم بالطرق التي يتم بها وضع وتطبيق معايير السلوك البشرى . ومما يؤسف له أن علم الأخلاق لم يصل بعد إلى المستوى الذى وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة من ناحية الإنجازات الثابتة المؤكدة ، لأن كل ما تم في مجال هذا العلم في الماضي بلا استثناء يكاد يكون عديم القيمة ، لسبب بسيط هو أن مقومات العلم البيولوجية والسيكولوجية الاجتماعية وعلم الأجيال الوصفى لا وجود لها . وهكذا فإن ما بدا وكأنه علم للسلوك كان مجرد تخمين وكلام غير قائم على التجربة . وفي معظم الحالات نجد أن هذا العلم لم يتعد كونه دفاعاً عقلياً عن التعصب العقائدى والتحيز والعقد عند الكاتب المعين . ولكن بظهور كتابات أمثال ليترنو Letourneau ، راتزل ، سمر Summer ، وستر مارك Westermarck ، هوبوس Hobhouse ، كروبوتكن Kropotk دخل علم الأخلاق عهداً جديداً ، إذ ظهرت مادة في وصف الأجيال عظيمة الفائدة لما تحويه من تعدد اللوائح الأخلاقية وجذورها . هذا إلى أننا نجد في أعمال ستيفن . دوبرات Duprat ، اليس Ellis ، ديوى ، هيز Hayes ، جروفرز Groves ، جيلفر Gilver ، تافتس Tuftes ، دريك Drake وغيرهم محاولة لبناء النظرية الأخلاقية على حقائق مستمدة من علم النفس والاجتماع . ويتضح هذا الاتجاه الجديد كذلك في الهجوم على قواعد الفلسفة الاستشراقية والبيورتيانية التي بدت في كتابات شو Shaw ، ومنيكين Mencken ، جود Joad ، الدوس هكسلى Aldous Huxley وتلاميذهم حيث نلح فجراً جديداً لعلم السلوك . والواقع أنه من الخير للمؤرخ أن يظل على دوام الاتصال بهذا

العلم . وساعد المؤرخون وتلامذتهم المشتغلين بعلم الأجيال الوصفى مساعدة قيمة وذلك بتزويدهم بمعلومات قيمة عن مختلف أنماط السلوك التي سادت بين البشر . ولكن خدمات المؤرخين في هذا المجال جاءت أقل مما كان ينبغي أن يكون ، إذ قلما اهتم المؤرخون بالسلوك والعادات ، فضلا عن أنهم لم يكونوا في العادة موضوعيين عندما تناولوا السلوك الخلقى ، إذ كانوا يحكمون على السلوك بمعايير مصطنعة بدلاً من معالجته بطريقة غير عاطفية . يضاف إلى هذا أن المؤرخين طالما تمسكوا بالمبدأ الأخلاقي البروتستانتي البيوريتاني في نظرهم إلى الأخلاق بوصفها ظاهرة ترتبط بالجنس والجنس وحده . ثم كان أن توافرت مادة قيمة ليست شديدة الارتباط بالحماسة المسيحية في مؤلفات ليكي ، ميارز ، ماك كيب Mc. Cabe ، وغيرهم . وهناك أعمال عديدة للمؤرخين تناولت تاريخ السلوك في عصور مناطق معينة على الرغم من أنه لا يوجد جهد منظم لإنشاء قسم خاص للدراسات التاريخية المتعلقة بتطور أنماط السلوك المتعددة وعلاقتها بمفاهيم الجنس والملكية والترفيه والنظرة العامة إلى الحياة .

أحدث المناهج في أسلوب تعليم التاريخ ودراسته

على الرغم من أن الجانب الرئيسي في التقدم الذي طرأ على الكتابة التاريخية منذ عهد رانكه يبدو في اتساع نظرة المؤرخ ، إلا أن هناك نواحي تحسن هامة في الجوانب التقليدية القديمة من التطور . ففي المقام الأول نجد أنه على الرغم من أن مدارس البحث لم تأت بشيء جديد يذكر لم يتضمنه منهج رانكه ، ألا أن هناك أوجه تحسن هامة طرأت على مجال كل من النقد التاريخي وطرق تدريس التاريخ منذ أيام رانكه . هذا إلى أن المبادئ الرئيسية للنقد التاريخي هذبت كثيراً ونظمت في تلك المؤلفات الممتازة التي وصفها برنهم Bernheim ، ولف Wolf ، لانجو Langois . سيجنبوس Seignobos ، وغيرهم حتى أصبح المبتدئ في الدراسة في هذا المجال يجد تحت تصرفه أبحاثاً طويلة للمدارس التاريخية وطرق تدريس التاريخ . كذلك هناك فهارس كاملة بأسماء كتب التاريخ الخاصة بدول متعددة ، وصفها كل من بيتو Peatow ، لانجو Langlois ، مولنير Molinier ، مونود Monod ، دهلمان ويتز Dahlman Waitz ، جروس Gross ، وليامز ، شاننج هارت ، ترنر Turner . وقد أضيفت إليها قوائم حديثة تضم كل الأعمال التي جددت في هذا المضمار والتي ظهرت في المجالات الدورية التاريخية المتخصصة . وهكذا يستطيع طالب التاريخ

أن يلم بكل ما كتب في مجال تخصصه . ومن أدق الكتب وأشملها التي ترشدنا إلى الحصيلة الهائلة لمصادر التاريخ القومى والدينى التي جمعت في خلال القرن التاسع عشر تلك التي وضعها بوتاست Potthast ، شيفاليه Chevalier ، جروس Gross ، وغيرهم .

ويستطيع طالب التاريخ في عصرنا هذا أن يجد في دفائق قليلة يقضيها في أى مكتبة كبيرة مصادر للتاريخ كانت تكلف الباحثين في الأجدال المأهولة شهوراً من البحث المضى غير المثمر . يضاف إلى ذلك أن الأرشفات ودور المسند المراسم والعامه على السواء فتحت أبوابها على نطاق واسع أمام الباحثين في التاريخ وذلك منذ أيام الحرب العالمية الأولى ، وبخاصة بعد أن حدثت ثورة حفيظة في اللوائح منذ سنة ١٩١٨ . هذا إلى أننا في بعض الأحيان نجد كتباً إرشادية خاصة بهذه الأرشفات أعدت بكل عناية وينبغي ألا ننسى ما حققه البحث التاريخي من زيادة كبيرة في الدقة والكفاية والسرعة ، نتيجة لاستخدام الفهارس المعدة على بطاقات ونظام الحفظ وفي الملفات والمذكرات غير المنشورة والمشروعات المتقنة المتضمنة إعداد فهارس مزودة بالإحالات . وأروع من ذلك كله الوسائل الخاصة قبل تصوير الوثائق ونقلها على الميكروفيلم مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق بما لا يعرضها للخطر .

ولا يقل التحسن الذي طرأ على مهنة التدريس في التاريخ أهمية عن التقدم الذي حدث في الحوث ووسائل المساعدات الآلية الأخرى . فتحت اشراف وتوجيه الأساتذة المدربين ، أمكن خريجو أقسام التاريخ — مهما يكن من أمر مقدرتهم المحددة في التأليف — أن يقدموا معلومات أكثر دقة في مجال التاريخ من خلال أبحاثهم ووسائلهم العلمية الدقيقة ، أكثر مما فعلت في الماضي مجلدات كثيرة عالجت التاريخ . وبوجه عام لم يطرأ سوى تغييرات طفيفة على الشكل الخارجى لتدريس التاريخ في الجيل الأخير ومازالت طريقة المحاضرة وحلقات البحث تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل التعليم العالى . ولعل أهم تجديد حدث في هذا المجال هو تطبيق الطريقة التي تسمى طريقة المشروع ، وهي التي تقوم على أساس فكرة أن تدريس التاريخ في العصور السابقة ينبغي أن يوجه أساساً لتوضيح علاقة الماضي ، بالمشكلات الرئيسية للحاضر وتأثيره عليها . وعلى الرغم مما يمكن أن تنزلق إليه هذه الطريقة من مبالغة وتشويه فإنها — إذا استخدمت بحذر — تضيف نوعاً من الحيوية على دراسة التاريخ وتدرسه ما تعجز معه أى طريقة أخرى ومع ذلك فإنها لم تحظ بتقدم كبير في الجامعات والكليات حيث استطاع الأساتذة أن يقاوموا أى اتجاه يقلل من قيمة التاريخ بدعوى جعله عملياً ومفيداً بدرجة أكبر في تعليم الجنس البشرى وتوجيهه .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يشك في أن علم التاريخ قد أفاد كثيراً من النشاط المنظم والتعاوني الذي شهده مجال تعليم التاريخ في الجامعات ، إلا أنه كسائر أشكال الجهد المهني المنظم لا يخدو من جانب سلبى مؤسف . وأهم ما نلاحظه في هذا الشأن هو أن النظام الجامعى لتدريس مادة التاريخ يعرقل تقدم وانتشار المفاهيم الجديدة المتعلقة بطبيعة التاريخ وغرضه وأهم وأنجح الطرق لتدريسه . ويرجع هذا الموقف بصفة أساسية إلى الحقيقة الخاصة بأن الثورة العظيمة في موقف العلماء من التاريخ ، كانت إلى حد كبير من عمل الشباب في حين أن المؤرخين القدامى القائمين بالتدريس الآن كانوا قد أتموا تدريبهم وتعلمهم قبل حدوث هذه الثورة . وهكذا يجد المؤرخون الشباب أنفسهم قائمين بالتدريس في أقسام يرأسها في كثير من الحالات مؤرخون ذوو آراء ومعتقدات عتيقة ويبجلون تلك الآراء ويحترمونها ، مما يضطر الشباب في كثير من الحالات إلى كبت آرائهم التاريخية غير التقليدية الخاصة بطرق تدريس التاريخ وتفسيره .

ومن بين الأمور التي استغلت في تعجيز المدرسين التقدميين ذلك الإشراف الحثيث على أنواع الدراسات والمناهج التي يقترحونها ، مما يجعل من المستحيل إدخال كثير من المادة المستخدمة . ولكن بمرور الزمن سوف يتم معالجة هذا الموقف . وإنه لشيء له مغزاه أن نجد معظم الرجال الذين صاغوا أو يقومون بصياغة التاريخ الجديد لا يشتغلون بتدريس التاريخ في الجامعات . وهناك جانب آخر لعملية فرض فضائل المحافظة والثبات على المؤرخين التقدميين من الشباب ، وهو ما يحدث من تفضيل أصحاب الذوق السليم من ذوى الآراء التي تنزل التاريخ منزلة رفيعة ، وتعطيه قدراً هائلاً من الاحترام وذلك عندما تقدم الجمعيات التاريخية منحها الدراسية . وموقف التعليم الجامعى من مادة التاريخ ليس موقفاً فريداً إذ إنه يشبه ما يحدث في كافة مجالات التعليم الأخرى ، فعند أيام ابيلارد والنجاح الرسمى يكون من نصيب أولئك الذين لا يأتون بأفكار جديدة مزعجة ، والذين يتقبلون الأوضاع كما هي ، أو أولئك الذين كان لديهم من الكفاءة واللباقة ما يمكنهم من تطبيق تلك القاعدة المفيدة الملائمة التي أخذها ديكارت عن أوفيدو والتي تقول «إن الذى يستطيع أن يخفى أفكاره بنجاح هو الذى يحيا كأحسن ما تكون الحياة» .

التكنولوجيا الحديثة والمستحدث في كتابة التاريخ

من أروع وأبرز التطورات الحديثة في ميدان التاريخ ما نجم عن جوانب متعددة من التكنولوجيا الجديدة . ومعظم هذه التطورات يتعلق باستخدام وسائل أكثر شمولاً وسرعة لتصوير الأحداث التاريخية مثل الصحف والإذاعة والصور المتحركة خاصة الحربية الناطقة .

فالصحيفة الحديثة تقدم عرضاً شاملاً للتاريخ الجارى المحلى والقومى والأجنبى على السواء ، وهى تعرض الأحداث للقارىء بعد وقت قصير جداً من وقوعها . ففى خلال أربع وعشرين ساعة يمكن للقارىء المعاصر أن يعرف عن شئون العالم الهامة من خلال صحيفة ، أكثر مما كان يمكن معرفته فى سنة كاملة فى وقت الحرب الأهلية الأمريكية . يضاف إلى ذلك أن اختراع الصور المرسلة بالراديو قد ساعد على تعزيز الأخبار بصورة حيّة للأحداث والشخصيات . ومن الممكن الاعتماد نسبياً على المعلومات الصحفية . وعلى الرغم من السرعة المطلوبة من المراسلين مما يضطرهم إلى اختيار الأخبار قبل أن يتم صفها فى أعمدة الجريدة . وتدين بهذه السرعة للتقدم التكنولوجى الهائل الذى حدث فى عالم الطباعة فضلاً عن الوسائل التى تساعد على إرسال المعلومات بسرعة والعمل المنظم الخاص بجمع الأخبار ، وهو الذى تقوم به وكالات الأنباء مثل النيويورك تايمز والاسشيتد برس وغيرها من تلك الوكالات التى ينتشر مراسلوها فى كل أرجاء العالم ، ويقفون على أهبة الاستعداد لكى ينقضوا كالصقور على كل ما يمكن أن يكون خبراً . وهكذا نتبين أن مؤرخ الشئون الجارية يجد تحت تصرفه أداة كاملة على درجة عالية من الكفاءة هى الصحيفة الحديثة ، وهذا أمر لم يتوفر لسلفه الذى عاش وكتب منذ قرن مضى . وحتى إذا لم يجد مؤرخ الشئون الجارية وقتاً كافياً لتصنيف وترتيب ما يجده من معلومات فى الصحف ، فلا أقل من الرجوع إلى المجلات الأسبوعية التى تقوم بذلك العمل نيابة عنه حيث إنها تنهض بمهمة تفسير الأخبار اليومية بطريقة عارضة .

وتعتبر مجاميع الصحف فى الوقت الحاضر من أخصب مصادر المعلومات التى يستخدمها مؤرخو العصور التى تبدأ من الوقت الذى أصبحت فيه الصحف أداة هامة لجمع الأخبار . ويسوقنا هذا إلى مسألة الدقة النسبية للصحافة والتاريخ الرسمى . فكثيراً ما يستخدم المؤرخون عبارات مثل مجرد صحافة أو مجرد صحافى لوصف كثير من الانتاج والشخصيات الصحفية . ومع ذلك يمكن

الاعتماد على الكتابة الصحفية الجيدة بقدر الاعتماد على السرد التاريخي الذي ينسج منها ، لأن الصحافي المدرب تدريباً جيداً يستطيع أن يجمع وينظم مادته بما له من خبرة طويلة في الملاحظة السريعة والتسجيل الدقيق ، وبما له من خلفية وبصيرة وأساليب متخصصة تمكنه من أداء واجبه أداءً ناجحاً كاملاً . ومن ثم فإن إنتاج مثل هذا الصحافي في الظروف العادية يمكن أن يكون نقلاً أميناً للأحداث . وحتى في وسط ظروف الاضطراب العام — كتلك التي تعقب الحروب العالمية — نجد أن الصحافي لا يزيد عن المؤرخ المحترف وقوعاً تحت رحمة العواطف . وهذا الإنتاج الصحفي يوضع في ملفات أو مجلدات ويحفظ في مكتبات الصحف ، حتى إذا ما مضى جيل أو نحو ذلك اتجه المؤرخون إلى هذه المجلدات يقلبون صفحاتها بعد أن يكون لونها قد اصفر بفعل الزمن . وينسخون ما شاء لهم النسخ ويعيدون كتابة ما يريدون من مادة وهكذا وعلى المدى البعيد يجد المؤرخون أمامهم خليطاً هائلاً يمثل خلاصة جهود مئات المراسلين الصحافيين . وإذا كان المؤرخ يمتاز بقدرته على إلقاء نظرة فاحصة على ما تتضمنه الصحف من أحداث ، وهي نظرة تفوق نظرة الصحافي كما أنه يستطيع مقارنة ما ورد في الصحف المختلفة عن الحدث نفسه أو الموضوع ، فإن النتائج التي يتوصل إليها في النهاية لا يمكن أن تكون أكثر دقة من المصادر التي استخدمها .

على أنه إذا كان للمؤرخ نظرة أفضل إلى الأحداث ، فإن للصحافيين بعض المزايا الخاصة أهمها أنهم شهود عيان للأحداث ، فهم أخصائيون في فن مشاهدة الأحداث وأنهم يعيشون وقت وقوعها ويلمّنون تمام الإلمام بالإطار العام الذي يحيط بالأحداث التي تتضمنها تقاريرهم وتحقيقاتهم الصحفية . أما المؤرخ فإنه يظهر على المسرح بعد ذلك بكثير ولذلك فهو يفتقر إلى ذلك الاتصال النفساني بالشعوب والأحداث المعينة . ولا يمكن أن يكون له أكثر من اتصال غير مباشر وبعيد بالقضايا والشعوب والأحداث التي يسعى إليها جاهدًا لوضعها . وهكذا يبدو أن الصحافي المدرب يمتاز عن المؤرخ إذا ما قورن الاثنان من الموقع نفسه الذي يقف عنده كل منهما ولا يمكن لنظرة المؤرخ الأبعد في مداها الزمنية أن تميز وحدها عن الصحافي . لهذا كله فإن من العدل أن نقول إن التاريخ الذي يعتمد على الصحافة لا يمكن أن يكون دقيقاً ويمكن الاعتماد عليه مثل الصحافة المعاصرة الجيدة ذاتها .

ويمكننا أن نصور ميزة الأساليب الصحفية تصويراً أفضل إلى أولئك الصحافيين الذين تحولوا إلى مؤرخين مثل الأستاذ آلان نيفنز Allan Nevins (من جامعة كولومبيا) وهو الذي كان لعدة سنوات صحفياً بارزاً ولم يقدره المؤرخون المحترفون تقديراً جيداً ، إلا بعد أن أصدر عدداً من

المؤلفات التاريخية الممتازة ضمت إلى صفوفهم ، حتى أصبح يعتبر بحق وعن جدارة علماً بارزاً من أعلام المؤرخين . وقد ظل بين منصب أستاذ الصحافة في جامعة كولومبيا ومنصب الصحافي في صحيفة نيويورك ورلد Newyork World . وشبهه بحالته حالة الأستاذ هانز لو هن .

وتعزز الجريدة السينمائية الناطقة العمل الصحفي ، حيث إنها من أسرع الوسائل لعرض الأحداث التاريخية في صورة مرئية أمام ملايين الناس الذين يشاهدونها كل أسبوع في إطار جذاب ، دون أن يبذلوا أى جهد ذهني ويتجه المؤرخون في الوقت الحاضر إلى السسنا لتقديم العرض المسرحي التاريخي لا للأحداث الجارية فحسب ، بل إنهم يستخدمونها أيضاً في عملية النقل الأمين للأحداث التي مضى عليها الزمان .

أما المذياع (الراديو) فقد دخل حديثاً إلى الميدان كوسيلة لنشر الأخبار سرّاً سريعاً وقد ساعدت الإذاعة بدرجة كبيرة على نقل الأخبار العالمية فور حدوثها . وأحسن تصوير لفاعلية الإذاعة في مجال نشر الأخبار هو ذلك الخبر الخاص برحلة أدميرال بيرد Byrd عبر القطب الجنوبي سنة ١٩٣٠ حيث استطاعت صحيفة نيويورك تايمز عن طريق محطاتها اللاسلكية الخاصة في نيويورك أن تعرف كل شيء عن مغامرة بيرد بمجرد أن علم بها رفاقه . وقد التفتت هذه المحطة رسالة بيرد التي بعث بها من طائرته إلى القاعدة التي أقبل منها . هذا إلى أن نشرات الأخبار التي تذاع مراراً كل يوم من محطات الإذاعة تنقل أنباء الأحداث المحلية والعالمية إلى ملايين الناس . دون الحاجة إلى خروجهم من منازلهم . ولا نجد في البرامج الإذاعية مثل برنامج عملية الزمن March of Time عرضاً للتاريخ الجارى فحسب ، بل نجد أيضاً نقلاً أميناً لأحداث التاريخ في الماضي . واستمع مئات الملايين من الناس في الإذاعة إلى مراسم الاحتفال بتتويج الملك جورج السادس وبعد ذلك بست عشرة سنة شاهد عدد أكبر من الناس على شاشة التلفزيون الاحتفال بتتويج ابنه .

وبدأت الجمعية التاريخية الأمريكية أخيراً ترعى برنامجاً إذاعياً تاريخياً . وإنه لشيء ممتع أن نلاحظ في هذا الشأن أن التاريخ — وهو الذي بدأ في صورة سرد شفوي وجزء من الحكايات الشعبية — يعود الآن ولو بشكل جزئي إلى طريقة التناقل باللسان . وعندما يحدث في المستقبل تصوير عمليات اختراق الحدود وبدء الحرب وتصوير عملياتها وعمل تسجيلات صوتية لها ، فإننا سنتمكن على نحو أبعد مما وصلنا إليه فعلاً من حفظ الحقائق التاريخية ، مما يتيح للمؤرخين فرصة إعادة تصويرها .

وفي سنة ١٩٣٠ كتب كارل بيكل Carl Bickel مدير وكالة اليونيتديرس آنتذ يقول « إن إدارة قرص أو مفتاح سوف بمكنك وأنت في حجرة جلوسك أن بسمع ونرى سباق كنتاكي . وأن تشاهد بوضوح المباريات الرياضية بل من أن ندور حول العالم ونحضر العروض المسيحية وتشاهد الأوبرات ، والولائم الكبرى وأن تجلس في قاعة الكونجرس في واشنطن وأن ترى استقبال طائرة في أفريقيا وعندما كتب بيكل هذا التنبؤ بدا للناس غريباً كغرابة رحلة القمر ولكن كل ذلك وأكثر منه قد أصبح اليوم شيئاً عادياً في كل بيت به جهاز للتلفزيون .

وكذلك أحدثت التكنولوجيا ثورة هائلة في طريق الحصول على معلومات عن الحضارات القديمة ، فطريقة البوتاسيوم ارجون تجعل من الممكن تحديد عمر البقايا حتى مليوني سنة مضت كما أن المسح الجوي يجري قبل البدء في عمليات التنقيب الهامة عن الآثار . والحق أن كثيراً من مواقع الآثار الهامة تكتشف في أثناء الاستطلاع الجوي . ومن ناحية أخرى فإنه حدث تقدم هائل في عمليات الحفر ذاتها بعد أن حل الحفار البخاري محل الجاروف ، مما جعل العمل أكثر سهولة ونظافة وسرعة . وبالمثل فإنه يمكن أخذ صور جوية للآثار التي يتم الكشف عنها بالحفر وهذا يساعد بدوره على رسم صورة أكثر اكتمالاً ودقة للإنجازات في ميدان الدراسات القديمة والآثار . وكان آخر مشروع تاريخي قام به المرحوم هنري بروسيتيه هو جمع وعرض صور جوية لآثار الشرق الأدنى القديم .

وخلاصة القول أنه إذا كانت التكنولوجيا قد خلقت للمؤرخ عالماً اجتماعياً جديداً عليه أن يتناوله بالبحث فإنها أسدت إليه خدمات جليلة وساعدته في معالجة الكثير من المشكلات التاريخية من عهود الحضارات القديمة في أرض ما بين النهرين ويوكافان في أمريكا الوسطى حتى آخر الأحداث في القرن الحالي .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING
SELECTED REFERENCES

- Robinson, The New History.
Shotwell, An Introduction to the History of History, chap. xxvii.
H.E. Barnes, Historical Sociology, Philosophical Library, 1948.
The New History and the Social Studies.
H.E. Barnes and Howard Becker, Contemporary Social Theory. Appleton-Century, 1940.
Social Thought from Lore to Science, Vol. II.
E.C. Hayes, ed., Recent Developments in the Social Sciences. Lippincott, 1927.
W.F. Ogburn and Alexander Goldenweiser. The Social Sciences. Houghton Mifflin, 1927.
Pendelton Herring, The Social Sciences in Historical Study. Social Science Research Council, 1954.
H.M. Parshley, Science and Good Behavior, Bobbs-Merrill, 1928.
E.P. Cheyney, Law in History and other Essays. Knopf, 1927.
Dray, Laws and Explanations in History.
Patrick Gardiner, The Nature of Historical Explanation. Oxford University Press, 1957.
Harlow Shapley, of Stars and Men. Beacon, 1958.
White, The Evolution of Culture.
Jacques Barzun, Race, A Study in Supersition.
R.G. Hoxie et al., A History of the Faculty of Political Science, Columbia University. Columbia University Press, 1955.
B.F. Hoselitz, ed., A Reader's Guide to the Social Sciences. Glencoe Free Press, 1959.
Paul Tillich, The Interpretation of History. Scribner, 1936.

- Muzzey, *Essays in Intellectual History Presented to James Harvey Robinson*.
V.F. Calverton, ed., *The Making of Man*. Modern Library, 1931.
Goldenweiser, *History, Psychology and Culture*.
F.H. Hankins, *The Racial Basis of Civilization*. Knopf, 1926.
MacCurdy, *Human Origins*.
Grahame Clark, *World Prehistory*. Cambridge Univ. Press, 1961.
R.V.D. Magoffin and E.C. Davis, *The Romance of Archeology*. Holt, 1929.
Stanley Casson, *The Progress of Archeology*. McGraw-Hill, 1935.
C.R. Knight, *Before the Dawn of History*. McGraw-Hill, 1935.
J.C. McDonald, *Chronologies and Calendars*. London, 1927.
Franklin Thomas, *The Environmental Basis of Society*. Century, 1925.
Seligman, *The Economic Interpretation of History*.
R.W. McLaughlin, *The Spiritual Elements in History*. Abingdon Press, 1926.
C.A. Beard, *A Charter for the Social Sciences in the Schools*. Scribner, 1923.
 The Nature of the Social Sciences. Scribner, 1934.
P.V.N. Myers, *History as Past Ethics*. Ginn, 1913.
R.M. Tryon, *The Social Sciences as School Subjects*. Scribner, 1935.
Paul Klapper, *The Teaching of History*. Appleton, 1926.

الفصل الخامس عشر

التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

اعتبارات تمهيدية

سنحاول في هذا الفصل أن نعرض تقييماً متفقاً عليه للتاريخ الجديد وأن نجمل البرنامج المقترح له والآمال المرجوة منه ونوضح ما ينبغي عماءه لكي يزدهر هذا العلم وينمو . ومهما يكن من عيوب هذا العرض فإن ذلك أمر له أهميته نظراً لأن التاريخ الجديد لا يَسَ أن يغرس بطريقة غير هادفة أو غير معتن بها ، فنحن لا بد وأن نعرف ما نريد تحقيقه وكيف نتوصل إليه بنجاح .

وأول ما يواجهنا في هذا الصدد هو ذلك التساؤل الذي أثاره بلباقة وقوة الأستاذ كارل بيكر عند استعراضه كتاباً للمؤلف بعنوان « التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية » في مجلة Satur-day Review Literature في عددها الصادر يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٢٥ . وانصب تساؤل الأستاذ بيكر على طبيعة التاريخ الجديد ومجاله ومدى انطباق صفة « جديد » عليه . وهناك اعتقاد عام بأن التاريخ الجديد يعنى ذلك النوع من الكتابة التاريخية الذي يطرح جانباً المفهوم الذي يرى أن خير ما يناسب التاريخ هو أن يكون علاجاً « للسياسات الماضية » يقوم على أساس اختيار الأحداث وشرحها ، وقد جرى الاصطلاح على أن يقصد بالتاريخ الجديد طريقة العرض التاريخي التي تحاول بصفة عامة أن تعيد صياغة تاريخ الحضارة ككل بوصفه على حد قول الأستاذ روبنسون كل ما نعرفه عن كل شيء فعله الإنسان أو فكر فيه أو أمل فيه وأحس به . ويعتبر هذا المفهوم للتاريخ الجديد كافياً ودقيقاً على وجه العموم ، ولكن الشيء الجوهرى في هذا الموضوع هو المفهوم القائل بأن التاريخ الجديد هو اتجاه للبحث عن الأصل Genetic Orientation .

ويحمل هذا المفهوم الموسع والمنقح لمجال التاريخ وعمله في طياته متطلبات رئيسية ، وهي على وجه التحديد نوع من التدريب يمكن المؤرخ الطموح من أن يقوم بأعباء مهنته في ثقة ونجاح . ولا بد أن يشتمل هذا التدريب الموسع في المحل الأول على إلمام كامل بطبيعة الإنسان وعلاقاته ببيئته الطبيعية والاجتماعية الأمر الذي يمكن المؤرخ من معالجة مشكلة صعبة ، هي إعادة صياغة الأوجه المختلفة لتاريخ الحضارة . كذلك لا بد وأن يعد المؤرخ لتحليل التطور في النظم ، وهو التطور الذي يحفظ سجل سيطرة الإنسان تدريجياً على بيئته المادية ونجاحه المضطرب في تنظيم الجهود التعاونية لبنى جنسه . وبمعنى آخر فإن على هؤلاء الذين يتطلعون إلى العمل في مجال التاريخ الجديد ، أن يكونوا مزودين بأساس من علم الأحياء وعلم الأجناس البشرية وعلم النفس وعلم الاجتماع . كذلك ، فإن عليهم أن يتدربوا تدريباً خاصاً في العلوم الاجتماعية وفي بعض فروع العلوم الطبيعية وعلم الحمال وهي الفروع التي تتصل بهذا الجانب أو ذاك من الكتابة التاريخية التي ينوون الانخراط فيها^(١) .

وسوف نناقش في جزء لاحق من هذا الفصل ما ينبغي إعداده للاستفادة الكاملة من التاريخ الجديد . ولكن نذكر هنا في البدايه أن نصر على حقيقة أن أفكارنا الجديدة عن طبيعة التاريخ لا تتطلب امتداداً هائلاً لمدى اهتمامات المؤرخ فحسب ، وإنما تتطلب كذلك توسعاً شاملاً في الإعداد اللازم الاستغناء في هذا المجال اشتغالا يوحى بالثقة ويحظى بقيمة ثابتة . ولقد نادى البعض بأن كل ما يلزم لكتابة التاريخ الجديد هو تغيير القلب بمعنى أن على الفرد أن يغير من عقله إذا أراد أن يتحول من معالجة أصول الحلف المقدس أو انقسام حزب الأحرار إلى تحليل الصراع الطبقي في العصور القديمة أو تاريخ العلم الطبيعي في العصور الوسطى ، أو تحليل نفساني لشخصية فولتير ، واقصاءات النظام القاري ، أو تطور النظام القضائي الحديث ، أو التقدم في علم الطب منذ سقوط المدرسة الأبوقراطية . وجاء في الأسفار المقدسة أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يزيد قامته ذراعاً واحدة بمجرد الشروع في التفكير^(٢) في ذلك ويمكننا أن نقول باطمئنان إنه من الصعوبة بمكان أن يحول الفرد نفسه من راوية تقليدية إلى مؤرخ للثقافة أو النظم وذلك بمجرد إمعان الفكر .

(١) ناقش المؤلف هذه النقطة بالتفصيل في كتابه ، التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية .

(٢) انجيل متى الاصحاح السادس ، (المراجع) .

فالتاريخ الجديد يتطلب شيئين معاً : برنامجاً جديداً بمضمون التاريخ ومجموعة جديدة من المؤهلات اللازمة للاشتغال بالتاريخ .

هذا عن مجال التاريخ ، ولكن ماذا عن شرعية نعته بصفته جديد ؟ الواقع أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء جديد أو فريد حتى في اتساع مجال التاريخ وتعديه دائرة الأحداث السياسية . فأول عمل تاريخي شامل ، وهو الذي وضعه هيرودوت تحت عنوان تاريخ الحرب الفارسية كان كما رأينا في التاريخ الثقافي وفي كل عصر من العصور التي أعقبت عصر هيرودوت كان هناك كتاب تعدى اهتمامهم بالماضي مجرد الحملات العسكرية والصراع بين الأحزاب والجماعات ، حتى ولو اقتصر نشاطهم على ذكر المعجزات التي جاء بها قديس أو الشرور التي جلبها ساحر . أما الشيء الجديد حقاً في التاريخ الجديد من ناحية الموضوع ، فهو ازدياد قبول المفهوم الموسع للتاريخ في العصر الحالي . ففي الأزمنة الماضية كان الكتاب الذين يتناولون تاريخ الثقافة أناساً منعزلين ، يتعرضون لعدم التقدير . أما اليوم فإن الغالبية العظمى من المؤرخين الشباب الذين آمنوا باتساع مجال التاريخ الجديد ، فضلاً عن أن بعض مؤيدي الكتابة التاريخية التقليدية بدأوا يستسلمون للاتجاه الجديد أو بدأوا على الأقل يجاهدون بالترجع ، وهو أمر يدعو للاهتمام والغبطة ، وأكثر أهمية من مجرد تحول تسعة وتسعين في المائة من الشباب إلى الاتجاه الجديد . فانتصار وجهة النظر القائلة بالتطور والاتجاه نحو البحث عن أصل الإنسان ، وهي النواحي التي تتطلب من المؤرخ أن يكون مهتماً أساساً بتبيان كيفية مجيء النظام الحالي إلى الوجود يعتبر شيئاً جديداً وفريداً حقاً وهو يمثل التاريخ الجديد في أبهى صوره . ولم يكن في تاريخ هيرودوت من هذا القبيل سوى النزر اليسير .

وأصبح هناك بالنسبة للمفهوم الخاص بالإعداد الأول اللازم لدراسة التاريخ وكتابته أمور جديدة لا خلاف حولها . ذلك أن الاعتقاد السائد حتى عصر فون رانكه هو أن الطموح الأدبي والأسلوب السليم يؤهلان أي فرد كي يضع نفسه على قمة التاريخ بصورة ناجحة . وكان على الرغم من ذلك قلة من الكتاب أمثال بوليبيوس ، مايبلون ممن أصرّوا على تدريب المؤرخ تدريباً خاصاً وتزويده بمؤهلات معينة لا بد من توافرها فيه . وكما أن أوضح رانكه ومن أتوا بعده أنه لا بد من إعداد الفرد قبل أن يشتغل بالتاريخ وذلك بتدريبه تدريباً طويلاً على مبادئ نقد الوثائق وعمل الفهارس التاريخية . أما الرأي القائل بأن المؤرخ لا بد وأن يلمّ إلماً كاملاً بالعلوم الاجتماعية فهو اتجاه حديث نسبياً . ولم تصل هذه العلوم ذاتها إلى المستوى الذي يجعل مادتها

أساساً يعتمد عليه في قوة الإدراك والتحليل التاريخي إلا حديثاً . ولم يتم التوصل إلى فكرة اعتماد التاريخ على العلوم الاجتماعية قدر اعتماده على العلوم السياسية والديبلوماسية وعلم المخطوطات إلا في وقت متأخر جداً . ونخرج من هذا كله بأن أكثر الأجزاء جدة وأصاله في الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى والمعروف بالتاريخ الجديد للأستاذ روبنسون هو ذلك الفصل بعنوان « حلفاء جدد للتاريخ » وهو بيان واضح للنظام التاريخي الجديد . فالتاريخ الجديد يعتبر جديداً من حيث قبوله مجموعة أوسع وأكبر من اهتمامات معظم المؤرخين ، كما أنه جديد كذلك من حيث اتجاهه إلى البحث عن أصل الإنسان وإقراره ضرورة إعداد المؤرخ إعداداً شاملاً يمكنه من أداء مهنته بكفاية وتجاح .

بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد

جاء تطور التاريخ الجديد فيما يبدو نتيجة لعوامل وتأثيرات عديدة مختلفة . فهناك في المقام الأول عدد من الكتاب جمعت اهتماماتهم الفردية بين الشغف العميق بالماضي والنظرة إليه من زاوية أكثر اتساعاً من زاوية السياسة الدبلوماسية والاستراتيجية العسكرية أو من هؤلاء ويلهلم ريهل Wilhelm Riehl الذي كان قاصاً خيالياً اهتم بالتاريخ القومي في ماضيه ، وكذلك فر فريتاغ Freytag الذي تناول التاريخ ببصيرة خلاقة نفذت إلى ماضى تاريخ بلده . أما بيركهاردت فإن اهتمامه بالتاريخ جاء في صورة تقدير واستحسان للأعمال الفنية في العصر الذهبي للفن الإيطالي . وأظهر كل من فولتير ورينان واندرو د. هويت حباً يعكس حب العقلانيين الجارف بالحقائق المتعلقة بالتحرك الفكري للجنس البشري . وتطلع جرين Green بروح حساسة وعقلية مثقفة للوصول إلى صورة أكثر دقة للأساس الاجتماعي لعظمة بلده . وأخيراً فإن ماكماستر Mc Master أخذ الاهتمام بالتاريخ عنده صورة تقدير مهندس عمل الفكر للطبيعة الملحة لقصة التطور القومي كما تصوره مصالح كل الطبقات وحياتها .

أما التأثير القوي الثاني فجاء نتيجة لافتراض التطور وعلى الأخص اهتمام علماء الأحياء بمسألة أصل الإنسان . ذلك أن علماء الأحياء — كما أوضح ذلك الأستاذ روبنسون مراراً — هم الذين علموا المؤرخين مبدأ التطور والاتجاه نحو البحث عن الأصل ، وهو أمر لا بد وأن يعتبر

حجر الزاوية للجوانب الأكثر حيوية من التاريخ الجديد^(١) . ويعزى الاهتمام الكبير من جانب مؤرخ التاريخ الجديد بكيفية تطور الأمور ووصولها إلى ما هي عليه أساساً إلى تأثير فلسفة التطور على العقلية التاريخية الأكثر تفتحاً وتقبلاً لكل ما هو جديد . وهكذا نرى أنه لمدة ثلاثة آلاف سنة ظل المؤرخون بعيدين عن وجهة النظر التاريخية إلى أن جاء العلماء الطبيعيون وزودوهم بها . هذا على الرغم مما أمسك به مقدم دير القديس بطرس وتيرجو وكوندورسييه في القرن الثامن عشر من خيوط ضئيلة لعلم يتناول التغيير الاجتماعي .

وجاء الاهتمام بتتبع أصول الأشياء في وقت كانت الحضارة تخرج بتغيرات ثورية بفضل التحول العلمي والتكنولوجي والاقتصاد العظيم . وهكذا لم يعد إيضاح تطور الثقافة والنظم يعني مجرد التاريخ الدستوري وتطور الأحزاب وأصول المشكلات والمنازعات الدبلوماسية أو سلالة الأسر الحاكمة ، بل أصبح لابد من أن يشمل أموراً عديدة أخرى مثل اختراع المولد الكهربائي والتخدير الجراحي ، والمقاومات العالمية واشعاعات الراديو ، وعلاج الزهري والصحة العقلية ، والاختراعات الميكانيكية ونظام المصانع وآلة الاحتراق الداخلي ، وعملية بسم في صناعة الصلب وفن الطباعة ، وغير ذلك من الإنجازات التي لم تشغل قط فكر فريمان وهو الذي كان يعتقد بما يعرف . وبمعنى آخر فإن الباعث على اكتشاف النظام الحالي جاء في وقت لم تعد الحضارة السائدة فيه كما كانت من قبل تظهر متكررة خلف جهود بعض السادة الذين يناضلون من أجل امتيازات اقتصادية أو هيبة سياسية أو قوة يحافظون بها على أنفسهم على حساب أولئك المساكين مسلوبي الإرادة الذين كانوا يشكلون الجيوش النظامية الثابتة لحكام مطلقيين زاد أو قل كرمهم . وعن اتجاه البحث عن الأصل نجم اهتمام بتاريخ الحضارة .

وكان أن حدا منهج البحث عن الأصل وهو المنهج الذي تتبعه الدارسون الأذكياء إلى السير قدماً نحو الخطوة التالية والأخيرة في تطور التاريخ الجديد ، وهي على وجه التحديد تفسير التطور التاريخي بطريقة تمكن من اكتشاف ما لتحول الحضارة وأصول النظم الاجتماعية من أهمية

(١) يجب أن يكون واضحاً أن تعليم وجهة نظر البحث عن الأصل من قبل علماء الأحياء وغيرهم من العلماء الطبيعيين كان تعليمياً في معظمه غير مباشر وغير مقصود وقليل من العلماء الطبيعيين هم الذين طبقوا مبادئ علمهم على الظواهر الأخيرة . وعندما يصل الأمر للعواد الاجتماعية نجد العلماء قلما يتحمسون بنفس الانجاء وغالباً ما يكونون جامدين أو حتى رجعياً . ولذا المرجح هنري بر هفاند بورن خير مثال في هذا الشأن (المؤلف) .

ومغزى . ولم يعد المؤرخون المحدثون يهتمون باكتشاف إرادة الله أو المصير النهائي للجنس البشرى من واقع سجلات الماضى ، كما فعل السابقون الذين نظروا إلى التاريخ على أنه فلسفة تلقن عن طريق سرد الأمثال . ومع ذلك فإنه لابد من أن نفر بأن أهم أحداث الماضى هى التى لها شأن فى توجيه الأجيال الحاضرة أو المستقبل . يضاف إلى ذلك أن القيمة الحقيقية للتاريخ فيما يمكن أن يقدمه عون مادى يساعدنا على التوصل إلى فهم أفضل لحضارتنا ، ومن ثم إلى السيطرة عليها وإعادة توجيهها .

ومن أبرز الشخصيات التى أوضحت الدوافع المتعددة التى انبثقت عنها التاريخ الجديد . نذكر أسماء كارل لامبرخت ، هنرى بير ، جيمس هارفى روبنسون ، ت. تيجارت ، ف. س. مارفن ، ارنولد توينبى ، والسيرج . أ. هامرتون .

أما مذهب لامبرخت فقد جاء وليد اهتمامه بعلم الأجناس البشرية ، وباتجاهات وندت Wundt السيكلوجية ومحاولة كومت Comte تفسير التقدم البشرى تفسيراً سيكلوجياً فضلاً عن الثقافة الشخصية الواسعة التى امتدت من التطور الاقتصادى إلى تاريخ الموسيقى . ومهما يكن حكمنا على مذهب لامبرخت وصيغه التاريخية فإن عمله كان أول الأشياء التى أثارت على نطاق واسع ذلك الجدل الذى انتهى بالانتصار المؤكد للتاريخ الجديد .

ولم يقتصر هنرى بير على الكتابة عن الجوانب النظرية للتركيب التاريخى ، ولكنه كما رأينا من قبل - أشرف على إصدار سلسلة عظيمة تحت عنوان تطور البشرية ، وهى التى كان الغرض منها فعلاً التوصل إلى هذا التركيب . وتكمن أساس نظريته فى وجهة نظره الاجتماعية عن التطور فى النظم ، ورغبته فى تقديم اتجاه علمى فيما يتعلق بالسياسة التاريخية ، ووضع منطق للتركيب التاريخى من وجهة نظر عالية . وكان حرياً بهذا كله أن يجعل مفهومه الخاص بالتركيب التاريخى يمتد جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ الإنسانية ككل .

أما جيمس هارفى روبنسون فإنه على عكس لامبرخت ، وبير . ولم يخرج تبحرات بأى مذهب خاص يتضمن مبادئ نظريته فيما يتعلق بالتاريخ . وجاء تحوله إلى التاريخ الحركى تحولاً تدريجياً ويجد المؤلف تفسيراً لذلك فى الحقيقة الخاصة بأن روبنسون كان إنساناً فعلاً يبحث عن الحقيقة دون ملل أو كلل . وما التاريخ الجديد إلا تاريخ متميز بغزارة الفكر . وقد تجلت بداية انفصال روبنسون عن التاريخ التقليدى فى نظراته الأصيلة إلى الثورة الفرنسية حيث وجد نفسه يعود إلى الوراء بحثاً

عن أصل الإنسانية . وعبر هو نفسه عن ذلك بقوله إنه في العشرين سنة التي أعقبت وظيفته الأولى محاضراً في جامعة بنسلفانيا انتقل من الاهتمام بمزالي السياسة الحديثة إلى المادة الفطرية الأولى التي نشأت منها الحياة ذاتها . كذلك فإنه تأثر بدرجة كبيرة بالاتجاهات الثورية التي تسعى للبحث عن أصل الحياة والإنسان . التي نادى بها علماء الأحياء . وازداد اهتمامه بمغزى التطور التاريخي بازدياد تحسن فهمه لكيفية تطور الفكر والثقافة . وهذا هو الذي جعله يتحول إلى الرأي القائل بأهمية تفسير مادة التاريخ . وتعزيز أهمية وعظمة الدور الذي لعبه روبنسون في حركة التاريخ الجديد في الولايات المتحدة إلى ماحظيت به مؤلفاته الدراسية من قبول ورواج ، فضلاً عن نجاحه كأستاذ في أحد معاهد التاريخيين الكبرى في بلده وقدرته العظيمة على الإقناع بوصفه من دعاة الاتجاهات الجديدة ، هذا فضلاً عن كثرة أتباعه وإخلاصهم له وصمودهم في الدفاع عن آرائهم .

وليس هناك بين كافة كبار الكتاب الذين عالجوا موضوع المناهج والاتجاهات الجديدة في التاريخ من حرم من التقدير مثلما عانى الاستاذ تيجارت . فعلى الرغم من أنه يأتى بلا جدال في مقدمة الكتاب الذين عالجوا الأساس النظري للتاريخ الجديد في الولايات المتحدة — إن لم يكن العالم كله — إلا أنه ظل مجهولاً وانعدم تأثيره خارج دائرة تلاميذه القلائل . ويرجع ذلك إلى تفضيله للعمل المستقل وإنكاره لأهمية ما فعله معظم الآخرين ورفضه ربط نفسه بأولئك الذين نجحوا في إرساء قواعد التاريخ الجديد .

ولم يكن ف. س. مارفن مؤرخاً محترفاً وإنما كان فيلسوفاً اجتماعياً مستتيراً ذائع الصيت ، ومع ذلك فإنه فعل الكثير من أجل إثارة الاهتمام بالتاريخ الجديد في انجلترا ودفع عجلة تطويره وعلى أساس من إيمانه بواقعية التقدم وبمعرفة العلم والتكنولوجيا الهائلة في تحقيق الرخاء البشري ، والحاجة إلى علاقات دولية سليمة ؛ وضع مارفن سلسلة الكتب المعروفة بسلسلة الوحدة ، بالإضافة إلى ما كان قد ألفه من كتب أهمها « الماضي الحر » . وكان لهذا الجهد المرموق أكبر الأثر في تعزيز موقف التاريخ الجديد . أما برنامج توينبى ونظريته الخاصة بمقارنة قيام وسقوط الحضارات فقد تحطمت على صخرة افتراضاته اللاهوتية المتطرفة التي جعلت عمله الضخم عملاً روحانياً أكثر منه تاريخياً . ونهض السيرج. أ. هامرتون بدور هام في وضع حركة التاريخ الجديد قدماً من خلال عمله كناشر ؛ وأشهر كتبه هو ذلك الذي أسماه التاريخ العالمى للعالم وهو الذى ظهر سنة ١٩٣٣ في ثمانية مجلدات ويعتبر أقيم المطبوعات في مجال التاريخ الجديد في انجلترا .

وأخيراً فإن التاريخ الجديد لقي حديثاً تأييداً مدهشاً في إيطاليا حيث بدت بشائره في كتاب طالما كثر النقاش حوله هو عظمة روما واضمحلالها كما أنه لاقى تأييداً كبيراً من الفيلسوف البارز بندتو كروز. وقد سار المؤرخون الإيطاليون من أصحاب النزعة التقدمية وراء زعيمهم كواردو بارباجلو — الذي ألف واحداً من أعظم الكتب عن تاريخ الحضارة — وأنشأوا لهم في سنة ١٩١٧ مجلة بارزة أسموها « المجلة التاريخية الجديدة » Nouva Revista Storica .

برنامج التاريخ الجديد

ساد اعتقاد في وقت من الأوقات بأن من لديه قليلاً من المعرفة يمكنه أن يكون مؤرخاً إذا ما تمكن من نسخ بعض الكتابات والنقوش المدونة على الأحجار في إحدى المقابر المحلية أو من كتابة مقال عن كليوباترا يقرؤه أمام ندوة محلية للحياكة . وهناك بين المؤرخين والمفكرين التقدميين في يومنا هذا من يندد بأي جهد يبذل لتحديد مجال التاريخ بل ويشجعون كل من يقحم نفسه في هذا المجال يتناول أية مشكلة تاريخية تروق له .

ويبدو لنا أن هذا الاتجاه لا يمكن أن نقبله بأي حال إلا إذا اعتبرنا كل شخص يقوم بخلط المساحيق طبيباً أو كل من زود نفسه بسكين حاد ينبغي أن يشجع على ممارسة الجراحة بل إنه حتى التاريخ في الماضي — الذي لم يتعد مرحلة سرد الأحداث والقصص — كان يعاني من افتقاره لمنهج البحث السليم . وسيكون هذا هو وضع التاريخ الجديد إن لم يكن هناك اتفاق عام حول برنامجه وحول التدريب اللازم لتحقيق ما يرمى منه . ويحتاج الآن إلى اتفاق ووحدة وتعاون بالضبط كما هو الحال في مهن أخرى كالطب والمحاماة والهندسة .

وللتاريخ الجديد فيما يتعلق بمجال اهتماماته برنامج شامل وذلك بحكم تعريفه بأنه تسجيل لكل ما حدث في الماضي دون استبعاد أى شيء حدث في الماضي بحجة أنه غير تاريخي بالمعنى الحرفي ، أو غير ذلك من الحجج . ولكن ليس معنى هذا أن تكون هناك لا مبالاة تامة أو فوضى عامة فالحقيقة الخاصة بأن المؤرخ الجديد يقرأ الطبيعة التاريخية ككل ما حدث في الماضي ابتداء من تعاويد البدائيين وعادات التزين عند زوجات سليمان إلى اختراع الآلة البخارية إلى نسيج الفراش الذي كان يتمدد عليه واشنطنون بجسده الفارع ، وهو في طريقه من فرجينيا إلى

ماساشوست كل هذا لا يعنى أبداً أن المؤرخ الجديد يطالب بأن يعطى قدراً متساوياً من الاهتمام لكل هذه الأمور أو أنه يعتقد في أنها متساوية الأهمية . ومما لا شك فيه أن الإنسان يأقى بنتائج طيبة إذا ما عمل في الحقل الذى يفضلهُ ويهتم به . فإذا ما أراد الفرد أن يكون مؤرخاً وكانت لديه حماسة كبيرة لتتبع تطور الاستراتيجية البحرية في سويسرا فإنه ينبغي أن يشجع على ذلك . ولكنه لا ينبغي أن يعتبر ذلك العمل على قدر مساوٍ من الأهمية مع الدراسات المتعلقة بالثورة الصناعية ، أو مع الأبحاث الخاصة بتاريخ العلم الحديث . ومعنى هذا أنه لا بد من أن يكون هناك قدر من حسن الإدراك فتحدد الأهمية النسبية للمادة التاريخية بطبيعة الفترة التى تقع فيها ثم بمدى انعكاسها على الحياة المعاصرة . وفى كل من الحالتين يعتمد هذا التحديد بشكل مباشر وعملى على الغرض المائى فى ذهن الكاتب . وأما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما :

١ — تصوير وإعادة بناء الحضارات فى العصور الرئيسية فى العصور الماضية تصويراً إجمالياً .

٢ — تتبع جذور الثقافة والنظم الحديثة .

وتتحدد فى المهمة الأولى من هاتين المهمتين الأهمية النسبية للجوانب المتعددة للثقافة البشرية بما كان لها من مكانة واقعية فى العصر الذى نريد تصويره . فإذا أردنا على سبيل المثال أن نصور حضارة عصر بركلينز ، فإن المعيار الذى نقيس به أهمية الأحداث والاتجاهات ينبغي أن يكون من واقع عصر بركلينز نفسه وليس من عصر المؤرخ . وهذه الحقيقة هى التى تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أستاذ وِرع للتاريخ فى كلية من الكليات الدينية فى كانساس يتصف بالتدين والطهر والجحود والافتقار إلى الإحساس الجمالى أن يصور فى مهارة حضارة عصر الإسكندر أو أوغسطس . ذلك أن هذا الأستاذ سوف يصدم بالمعايير الجنسية عند الإغريق والرومان قدر اصطدامه بانعدام وجود مدارس الأحد أو القوانين التى تحرم الخمر وتفرض قيوداً على التدخين . وهذا هو أحد الأسباب التى جعلت المؤرخين المسيحيين يرسمون صورة مشوهة عن الثقافة الوثنية . إذ لا يمكن لعصر كان جل همه أن يعد الناس لكى يموتوا موتاً هادئاً آمنأ من أن يقدر أو يسنحس حضارة كانت فلسفتها تهتم بتعليم الناس كيف يحيون حياة سعيدة .

ومن ناحية أخرى فإن علاج المهمة الثانية من مهام التاريخ الجديد وهى سلى وجه التحديد تتبع تطور السمات المميزة للحياة المعاصرة ونظمها يتطلب معياراً لقياس الأهمية النسبية للجوانب المختلفة للثقافة بما يتفق مع العصر الحاضر فالدين مثلاً كان من أهم خصائص العصور الوسطى وكان دون شك أكثر أهمية من العلم ، ومع ذلك فإن من وجهة نظر الحضارة المعاصرة نجد أن تاريخ

العلم في العصور الوسطى أكثر أهمية من دراسة الحياة الدينية في تلك العصور . إذا كان علينا أن نعطي صورة حقيقية للحضارة الهيلينية ككل ، فإن علينا أن نختص المنجمين بقدر من العناية أكبر بكثير من تلك التي نخصصها للفلكيين ، ولكن إذا كنا نهتم أساساً بتوضيح أصول الحضارة المعاصرة ، فإن أعمال أريستارخوس Aristarchus وهيبارخوس Hyparchus تكون أكثر أهمية من أعمال كافة منجمي العصور الوسطى الكلاسيكية جميعها . وإذا كان علينا كذلك أن نعطي صورة حقيقية للاهتمامات الفكرية في حركة الإصلاح الديني البروتستانتية فإننا نحتاج إلى التركيز على مسائل التبرير بالإيمان ، أكثر من التركيز على الآراء الاقتصادية المعارضة لكل من لوثر وكالفن وغيرهما من زعماء تلك الحركة . ومع ذلك فإنه من ناحية تطور ثقافة اليوم يبدو أن ابتعاد البروتستانت عن الآراء والعادات الاقتصادية الخاصة بالكاثوليك ، كان أمراً أعظم وأكثر أهمية من كافة المشكلات الدينية في ذلك العصر بأكمله . فروجر سيكون كان يبدو في نظر رجل العصور الوسطى شخصية تنتمي إلى تلك العصور في اهتماماته ونشاطه ، ولكنه لا يبدو كذلك للمؤرخ الباحث في أصل الإنسان لأنه يجد أن أبرز جوانب شخصية بيجكون هي البصيص الضئيل من الجدة وإشارات العابرة لفضايا طريقة الاستقراء والتجربة والملاحظة وتلميحاته الخاصة بالاختراعات الميكانيكية في المستقبل .

وتكفي هذه الأمثلة القليلة لتوضيح أن الأهمية العلمية للأحداث التاريخية والظواهر الثقافية ليست أمراً مطلقاً ، وإنما هي ذات أهمية مزدوجة ، بل ربما كان لها أكثر من أهمية واحدة . ذلك أن كل حقيقة من حقائق التاريخ لها أهميتها النسبية من النواحي التالية :

- ١ - أهميتها في العصر الذي كانت جزءاً منه
- ٢ - انعكاسها على جذور الثقافة المعاصرة .

وليس هناك باحث في التاريخ يستطيع أن يتناول المشكلات التاريخية دون أن يدرك تماماً حقيقة تلك الأهمية النسبية للمادة التاريخية ودون أن يواجه الغرض المائل في ذهنه هو . وثمة اعتقاد ساد بأن المؤرخ الواحد يستطيع أن يضطلع بكلتا المهمتين أي أن يعيد تصوير وبناء حضارة ما وفي الوقت نفسه يوضح علاقتها بالعصر الحاضر . ولكننا نشك في صحة ذلك الاعتقاد لأن التباين في الأهمية النسبية بالنظر إليها من هذه الزاوية أو تلك من زاوية الاهتمام يحتتمل أن يؤدي إلى تشويه خطير لهذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل ذي الوجهين إن لم يكن للجانبين معاً .

كذلك لابد من أن يكون واضحاً أنه إذا كان الفرد مهتماً بأصول حضارة لا ينتمى إليها ، فإن معيار الأهمية النسبية للمادة ينبغي أن يتمثل في صلة هذه المادة بالحضارة التي يجري البحث عن أصولها . وهكذا فإن الوضع بالنسبة للمؤرخ الذى يبحث عن أصول الحضارة الإغريقية يكون الاهتمام بالمعلومات التي لديه عن مصر بقدر ما لها من مشاركة وصلة بالحضارة الهيلينية ، أكثر من اهتمامه بالحضارة المصرية في حد ذاتها .

وقد يشكو البعض من أن هذا المقياس لاختبار أهمية المادة التاريخية أمر نسبي وعملي ويتساءلون عما إذا كان هناك مقياس آخر مطلق مثالي . وفيما يبدو ليس هناك مثل هذا المقياس المطلق ، وكل ما هنالك حقاً هو أنه في التحليل الأخير نجد أن قيمة المادة التاريخية في شرح حضارتنا المعاصرة تعلو أية قيمة أخرى بها .

وتقودنا هذه المناقشة الموجزة لأبعاد واهتمامات المشتغل بالتاريخ وفق نهج المدرسة الجديدة ، كما يقودنا هذا العرض المبسط للمعيار ذى الوجهين لاختيار أهمية المادة التاريخية بطريقة طبيعية إلى مشكلة تنظيم المادة التاريخية في ضوء المفاهيم والاتجاهات الجديدة .

والواقع أن الأمر كان بسيطاً في الأيام الغابرة عندما وجد هيكول للتاريخ السياسى والعسكرى واعتبر هذا الهيكل دائماً يكفى تماماً ليكون إطاراً عاماً لنظم الملحمة الكاملة للبشرية ، ولكن مفاهيم التاريخ الجديد كان لها من التأثير الهدام ما اتصفت به المدرسة التاريخية القديمة من بساطة بدائية ، مثلما كان لعلوم الطبيعة الفلكية والتطور البيولوجى ونقد الكتاب المقدس على ما اتصف به إيمان الآباء ومعتقداتهم المبسطة التي تبعث على الراحة والطمأنينة . وعلينا الآن أن ندرك أن الأحداث السياسية لا تكفى إطلاقاً لتشكيل البناء الكامل للتاريخ فحسب ، بل لا توجد مجموعة واحدة من الأحداث أو الحقائق التاريخية يمكن أن تستخدم لتنظيم المادة التاريخية . ذلك أنه لا يوجد مفتاح واحد يحل لغز السببية في التاريخ . وقد يبرز في بعض الأحيان عامل أو آخر يحظى بأهمية كبرى . ولكن لا يوجد هناك سبب أو تأثير واحد كانت له صفة الدوام على طول التاريخ البشرى بأكمله .

ويمكن القول بشكل نسبي وعام أن سلسلة السببية التاريخية إنما تسير على النحو التالى تقريباً : لدينا عاملان دائمان نسبياً في التاريخ هما الطبيعة الأصلية للإنسان والبيئة الجغرافية لمنطقة معينة . ولكن هذين العاملين ليس لهما صفة الجمود التام ، لأنها يرتبطان بعوامل مؤثرة أخرى

بحيث يتغير تفاعلها بصفة مستمرة في طبيعتها ومداهما . فالطبيعة الأصلية للإنسان في تفاعلها مع لون معين من ألوان البيئة الجغرافية تؤدي إلى نظرة خاصة للحياة . وهذه النظرة شأنها أن تتحكم بدرجة عظيمة في مدى انبثاق وتطور العلم والتكنولوجيا . ثم إن المستوى التكنولوجي يحدد طبيعة الحياة الاقتصادية التي يمكن أن توجد في أى عصر أو إقليم . هذا في حين أن النظم الاقتصادية تنتجها لترك أثر قوى إن لم يكن فاصلاً في تكييف النظم والعناصر الثقافية الأخرى : « الاجتماعية والسياسية والقضائية والدينية والأخلاقية والتربوية والأدبية » .

على أن هذه في الحقيقة مبالغة في تبسيط العملية التاريخية ، لأن السبب والأثر ينشطان ويتفاعلان بصفة مستديمة . فعلى سبيل المثال نجد أن عدداً قليلاً من الاختراعات الميكانيكية مثل الطباعة أو الطرق الحديثة لتبادل المعلومات قد تحدث تغييراً في حياة الإنسان من شأنه أن يسبب تحولاً كاملاً في السيكولوجية السائدة لأى عصر ونؤكد مرة أخرى أنه في بعض الأحيان قد تكون هناك عوامل سيكولوجية وثقافية معينة لها من القوة ما يكفي لعرقلة ما يفرضه المزايا الاقتصادية والرخاء المادى . وهكذا نرى أن نسيج التطور التاريخي شائك ومعقد ، وأن المؤرخ الذى يستطيع أن يحل مشكلات السببية التاريخية في أى عصر بذاته دون أن يستعين بتفسير عالمي مقبول للتاريخ البشرى يكون مؤرخاً عظيماً حقاً .

وسوف يجد بعض من هم على قدر من اليقظة ما يمكنهم من ملاحظة انهيار الدعامة السياسية — التى كانت تسند ظهر المؤرخ المجتهد — شيئاً من العزاء في فكرة أنه إذا تعذر علينا استخدام الأحداث السياسية كإطار للأعمال التاريخية ، فإننا يمكننا على الأقل أن نركز على الكيان القومى وأن نكتب قصة تطور الثقافة الفرنسية والإيطالية والثقافة الأسبانية وغيرها . ولكننا هنا نجد أنفسنا مرة أخرى وقد جردنا الحياة من بهجتها وذلك أن مفهوم التاريخ القومى بأكمله ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة الرومانسية القائلة بالعبقريّة القومية . وعندما ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر تطرر الثقافة والنظم يصبح واضحاً لنا أنه لا يمكن أن يوجد شيء اسمه التاريخ القومى . فتغير الأسر الحاكمة والسياسة الحزبية والدسائس الديبلوماسية ، يمكن أن تعرف أنها أدوار قومية على الرغم من أنها ليست كذلك من الناحية العملية . أما تطور الثقافة والنظم فلم ولن يمكن أن يكون مسألة قومية بحتة .

ولا يقل غرابة عن كتابة تاريخ بحث للثقافة الفرنسية أو الألمانية مجرداً من كل شيء آخر ، التفكير في كتابة تاريخ للسيارات أو الطباعة أو المجهر من زاوية قومية . ويجد الباحث إرضاء

لفضوله التاريخي في دراسة تلك الجوانب من الثقافة ذات الأصل العالمي وكيفية نموها أو تقييدها داخل هذه الدولة أو تلك . والواقع أن أى تاريخ قومى للثقافة سيكون حتماً شيئاً تافهاً مصطنعاً إذا ما قورن بدراسة الأصول الثقافية دراسة لا تعترف بوجود حدود مصطنعة فرضتها طموح الأسر الحاكمة أو الحرص الاقتصادى .

وهكذا يتضح أننا نستطيع الاستمرار في دراسة الجوانب القومية في الثقافة ولكننا بالتأكيد لا نستطيع دراسة التطور القومى للثقافة . فالتاريخ القومى سوف يهوى إلى عالم النسيان في ظل التاريخ الجديد بدرجة لا تقل عن التاريخ السياسى ، وذلك إذا اعتبرناه الأساس الذى بنى عليه تنظيم وعرض الحقائق التاريخية . وقد اعتبرت الأمة في يوم من الأيام كياناً سياسياً . ثم جاء رينان ، زانجويل ، زيمرن Zimmern وغيرهم فأنكروا ذلك الأساس واعتبروا الأمة وحدة ثقافية وربما كان علينا أن نذهب خطوة أبعد من ذلك ونصف الأمة بأنها وهم ثقافى مضلل أو نوع من البلهاء الثقافية . ولهذا الاعتبار السابقة مغزى أعمق بالنسبة للمهتمين بمشكلة القومية ومسائل الحرب والسلام ولكننا لا نستطيع الخوض في هذه الأمور في هذا الفصل .

وإذا كان المؤرخ المبلبل الفكر الذى ينتمى إلى المدرسة القديمة الذى أبعد عن معقله السابق — وهو الإطار السياسى للتاريخ والطريقة القومية في التبويب — سيحتفى بالتقسيم التقليدى للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث . إلا أنه كما سبق أن أوضحنا سوف لا يهتم دعاء التاريخ الجديد بأن يعطوا ذلك الحل من اعتبارهم أكثر مما أعطوا لنظرية السببية التاريخية والاتجاه القومى في التاريخ إن لم يكن أقل .

ومن الواضح جيداً أن أى تاريخ يبنى ببساطة على تسلسل عدد من السنين الرئيسية يكون عديم الأهمية على الإطلاق . فصفا الاستمرار في التاريخ تثبت عدم جدوى التقسيم إلى عصور وفترات ، فضلاً عن أن علمى الأجناس البشرية والتاريخ الثقافى يشبان أن العناصر المختلفة في التركيب الثقافى لا تخضع لأى قانون من قوانين التطور أو التقدم . وإذا كنا نعى بالتجديد الضبط الاجتماعى والدقة العلمية فإن أخلاقيات الإغريق كانت أحدث كثيراً من أخلاقيات جون س. سمر Summer Gohn S أو الأسقف ماننج Manning . هذا إلى أن الحياة الفنية في عصر النهضة أغنى وأوسع من حياتنا الفنية اليوم . ويتضح من ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أى نوع علمى من التاريخ ، يقوم على افتراض وجود معدل موحد للتطور والنمو لكافة أنماط الثقافة والنظم . وفضلاً عن ذلك فإن سرعة التطور الثقافى تختلف كثيراً من منطقة إلى أخرى . ولنتخيل مثلاً أننا

نحاول في موضوع تحت عنوان « الحضارة القديمة » أن نصف ثقافات الصين واسكندناوة وأمريكا الجنوبية وغاليا وأرض ما بين النهرين والهند في سنة ١٠٠٠ ق.م. وأن نصف في موضوع تحت عنوان « الحضارة المعاصرة » ثقافات الصين وانجلترا وألمانيا وروسيا والبرازيل في سنة ١٨٩٠ ميلادية . وإنه ليبدو كما سبق أن أوضحنا في الفصل السابق أن التاريخ الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه لابد وأن يكون على درجة عالية من التخصص ولا يبنى على أكثر من وصف تطور نواح معينة ومحددة من الثقافات أو أنظمة محددة تقع داخل نطاق منطقة ثقافية متجانسة . وربما يرد المؤرخ التقليدى بأنه لا داعى بالمرّة في هذه الحالة لاستخدام أى تقويم ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره .

وإذا احتج مؤرخ المدرسة القديمة في شيء من اليأس على هذا الوضع بوصفه يودى إلى اضطراب وفوضى وتعقيد ليس من الممكن احتمالها ، فإن علينا أن نعترف بأن هذا صحيح في الوقت الحاضر . ولكن دعاء التاريخ الجديد ليسوا بأى حال مسئولين عن هذا الموقف . وكل ما هنالك هو أن المؤرخين بدأوا ينتبهون إلى حقيقة الموقف الذى يواجهها في كل ركن من أركان الحياة اليوم . وهذا يعنى أن التاريخ صار معاصراً في نظرتة ، كما أنه في سبيله إلى الاعتراف بما سبق أن أدركه واعترف به علماء اللاهوت والفلاسفة وعلماء الاجتماع ودارسو علم الأخلاق . ولن يؤكد هذا شيئاً أكثر من أن النعامة التاريخية الرمزية رفعت رأسها أخيراً من رمال العصور الوسطى والحركة الإنسانية . وأعطت عالم القرن العشرين حقه كاملاً . إن هذه الثقافة تشهد اليوم الحضارة المدنية الآلية وهى تتغير في سرعة ، وحضارة العصر الصناعى التى حلت محل بساطة المعيشة الريفية لم تتغير إلا قليلاً من قرن لآخر والتى تميزت بإحساس وهمى بالأمن والطمأنينة مصورة الاعتماد على الإيمان الأعمى بمفهوم بدائى للكون وعدد قليل من المعتقدات الدينية الساذجة . وتشهد هذه النعامة اليوم كوناً متسعاً ومراجعة شاملة جادة لكل الافتراضات التى وصفها الإنسان في الماضى لتبرير مكانته في الكون ، ولكل آرائه عن الطمأنينة في عالم الأرض وعالم ما وراء الطبيعة . كذلك تبعث هذه التغيرات المذهلة في الأحداث والمواقف التاريخية على ثورة مشابهة في مفاهيم التاريخ وأهدافه . وليس بعجيب أن يكون الدافع الأول لدى هذه الثقافة التاريخية هو أن تنقوص مرة أخرى في الرمال .

وبمعنى آخر فإن المؤرخ يواجه متطلبات إتمام وتنفيذ مهمته في ضوء علم القرن العشرين ، ومناهجه بنفس الشكل والقدر الذى نواجه به جميعاً التعديلات والتغييرات التى تفرضها علينا المدنية في عصرنا هذا . فمنذ خمسين سنة مضت كان المواطن المثقف في الولايات المتحدة يشعر

بالكفاية والأمن الكاملين في ظل إيمانه باللغات الكلاسيكية ، وعقائد التفكير ، والتعريف الجمركية الواقية ، والحزب الجمهورى . ولكننا نجد المواطن نفسه اليوم يواجه متناقضات واضطرابات يفرضها علم الطبيعة الفلكية المعاصر الذى أثبت ضالة كوكبنا وبالتالي ضالة الإنسان نفسه كما يفرضها عليه أيضا التشكك في التركيب الاجتماعى الاقتصادى بأكمله ، وهو ذلك التركيب الذى يعتمد عليه نظام التعريف الجمركية . ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر مدى تأثير إدراك المواطن الأمريكى المتزايد لانعدام كفاية وقدرة الحزبين الجمهورى والديمقراطى على السواء إن لم يكن لانعدام قدرة الإنسان السياسية في ظل الجومعقد الذى ساد المجتمع المعاصر . فما بالنا إذن بالتغيرات في الاتجاهات التى فرضتها على كل أستاذ جامعى فطن يشغل بالتاريخ تلك التحولات العديدة التى حدثت في الخمسين سنة الأخيرة . وإذا كان هناك من يزعم أن قليلا من العقول الممتازة فقط هى التى تستطيع التجاوب مع ما يتضمنه هذا الرأى حول مهام وواجبات المؤرخ ، فإن الرد عليه هو أنه على الرغم من أن ربة البيت لا تستطيع أن تمارس الطب أو أن الحلاق لا يستطيع أن يمارس مهنة الجراحة فإن الطب والجراحة ازدهرا بدرجة لم يكن يتوقعها أحد منذ أن فرضت قيود عملية في ممارسة هذه المهنة أو تلك . وسيكون علينا في المستقبل أن نميز بدرجة من الدقة بين المؤرخ الحقيقى وكاتب السجلات .

وفي تأكيدنا لأهمية اتجاه البحث عن أصل المجتمع البشرى ، فإننا نؤس عدداً قليلاً من الدروس التى يلقتها التاريخ للجنس البشرى . ولابد من أن يكون واضحاً لكل ذوى الفكر أن المواقف الاجتماعية والثقافية في الماضى تختلف عن مثيلاتها في القرن العشرين ، إلى الحد الذى يجعل استفادتنا من خبرات العصور التاريخية السحيقة أمراً ضئيل القيمة . ومع ذلك فإن العودة إلى الوراء وتتبع ثقافتنا ونظمنا من بدايتها تجعلنا نتوصل إلى فهم أحسن لعصرنا ، وفي الوقت نفسه يمكننا ذلك من تحطيم ذلك الاتجاه الذى يقدر الماضى ويعجده ، والذي كان العقبة الرئيسية في سبيل التقدم الاجتماعى والفكرى مما جعل منه أخطر تهديد يواجه المجتمع .

وينبغى أن نذكر هنا أنه إذا كان التاريخ سيهتـم أساساً بتتبع أصول الثقافة والنظم المعاصرة ، فإن كثيراً من المشكلات التى ذكرت آنفاً فيما يتعلق بالتنظيم العام للمادة التاريخية والنظريات المتضاربة الخاصة بالتقويم ، سوف تختفى تلقائياً لأن المشكلة في كل حالة ستنصب على نشأة وتطور نظام بعينه ، أو جانب واحد من جوانب الثقافة ، على الرغم من أن تاريخ هذا النظام أو الجانب سيرتبط عادة بتاريخ النظم والجوانب الثقافية الأخرى .

التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد

إذا كان للتاريخ الجديد أن ينجح فلا بد أن تعد جماعات أكبر من العاملين المتحمسين في هذا الميدان ، وأن يوجه أعدادهم بحيث يجعلهم قادرين على القيام بأبحاث على درجة عالية من الكفاية والتكامل ، وإذا كان التاريخ في المدرسة القديمة قد عانى كثيراً من عدم تدريب المشتغلين به تدريباً كافياً ، فإن التاريخ الجديد سيكون في حال أسوأ إذا لم يدرّب المشتغلون به تدريباً كافياً ، لأنه يتطلب دراسات دولية واسعة المدى . وقد ينادى البعض بأن الشخص الملهم يستطيع أن يقوم بأعمال عظيمة في مجال التاريخ الجديد دون الحاجة إلى تدريب واسع المدى ، ولكن كلامنا هنا ليس عن العباقرة ، وإن كان نجاحهم في هذا المجال أمراً بالغ الصعوبة . فالتاريخ الجديد تماماً — كالتاريخ القديم عليه أن يعتمد بدرجة كبيرة على تلك الفئات الجادة المخلصة من الباحثين الذين لابد وأن يدعموا ويوجهوا بتدريب شامل دقيق يؤهلهم لممارسة مهنتهم .

وعليّنا أن نصر دأبنا على أن التاريخ الجديد هو أساساً علم إعادة بناء الثقافة والبحث في أصل النظم . ومن ثم فإنه يمكن القول بحرية بأن المؤرخ الممتاز في المدرسة الجديدة هو ذلك المؤرخ الذي يستطيع أن يضيف إلى الدقة العلمية والمعرفة قدراً أكبر من المهارة الفنية الخلاقة اللازمة لإعادة بناء الحضارات بناء دقيقاً ، مع تتبع حريص لأصول الأفكار والنظم وذلك مثلما فعل روبنسون وبيكر وبيرد . ويطابق هذا القول في وضوحه القول بأن الشخص العظيم في ميدان الطب شيء أعلى وأكبر من الطبيب الفنى المدرب ، ولكنه لم يكن يرقى إلى هذه المكانة لولا أنه كان في يوم من الأيام عالماً طبياً . وينبغي ألا نخلط بين الفن الأدبي والمقدرة التاريخية^(١) ، فالكاتب القدير لا يمكن أن يعتبر مؤرخاً إلا بالقدر الذي نعتبر به الشخص الذي يرسم رسماً يحاكي فيها شكل القديس بطرس أو الملك شارل الأول فتناً . ففان ديك كان يستحق لقب مؤرخ بالقدر الذي يستحق به كارليل ذلك اللقب . كما أن هوجارث كان مؤرخاً حقيقياً تماماً مثله مثل ماكولى .

وقد قيل إن السبب الرئيسى في ضعف تأثير التاريخ على الحياة العامة والرأى العام هو افتقار الكتاب المحدثين إلى الأسلوب الممتاز . ولكن هؤلاء الكتاب يدفعون بأن السبب الحقيقى هو

(١) انظر للرأى المناهض ، كتاب تريفليان كلبو : الإلهام (المؤلف) .

العقبات التي تفرضها المفاهيم العتيقة الخاصة بطبيعة الكتابة التاريخية وبجالاتها وهدفها ، مثلما يفرضها كذلك ادعاء المعرفة ، والحرص على استعراض المعلومات ، واختيار موضوعات غير مألوفاً ، فضلاً عن المجاملة في الكتابة واستغلال الكتابة التاريخية في تحسين الأوضاع الأكاديمية والصداقات المهنية بدلاً من محاولة تنوير البشرية وتحقيق مزيد من التقدم لها . ولن يكون للكتاب أمثال سومبارت ، فييلن جمهور من القراء إذا لم يكن هناك مكافأة مادية تعوض عن الجهد المبذول في قراءة كتبهم . حقيقة إنه لا سبيل إلى إنكار الحاجة إلى كتابة ممتازة ، ولكن المطلوب هو كتابة ممتازة بأقلام مؤرخين ممتازين ، أى أن المطلوب هو كتابة تاريخية ممتازة بأفضل ما تحمل الكلمة من معان .

ولا بد على وجه الخصوص من مناقشة ما تتصف به المواقف التاريخية الهامة من طبيعة خاصة فريدة وغامضة في الوقت نفسه وهي النظرية التي تقر الطابع الفريد الخداع ، للحقائق التاريخية التقليدية . إن ذلك الشيء الذي يسمى مسرحية التاريخ ليس إلا سجلاً لاستجابات الوجود الكيميائي الحيوي للمؤثرات الأرضية وليست الاستجابات البشرية فريدة في نوعها أو أكثر غموضاً من سلوك الحيوانات الأخرى ، أو سلوك الأنسجة العضوية والمواد غير العضوية كما تدرس في المعامل فمداولات الجمعية الوطنية التأسيسية في عهد الثورة الفرنسية كانت نتاجاً طبيعياً تماماً يشبه استجابة القردة في حديقة حيوان برونكس بارك وقد يكون الموقف التاريخي فريداً في معناه الزماني البحت . ولكنه لا يمكن أن يكون فريداً من وجهة النظر العلمية ، لأنه نتاج السلوك الإنساني الذي يمكن تحليله علمياً . يضاف إلى ذلك أنه ليس باستطاعتنا أن نؤكد أن تلك الجوانب من الموقف التاريخي التي يزعم البعض أنها فريدة هي الجوانب الهامة فيه . فالظواهر التاريخية لا تفهم إلا بمقدار انطوائها تحت لواء التحليل العلمي المقتنع الذي زدنا به العلوم الطبيعية والاجتماعية الثابتة .

ولا يمكن أن نأمل أنه يكفي لإعداد المؤرخ مجرد القيام بأبحاث في الماضي أو تحصيل قدر كبير من الحقائق التاريخية التقليدية . فالشخص الذي يقوم بجمع وتحرير عدد كبير من النقوش لا يعتبر مؤرخاً مهماً تبلغ قيمة خدماته بالنسبة لتعلم التاريخ . إنه لا يزيد عن ذلك الشخص الذي يجمع قطع الأثاث القديم ويصنفها لوضعها وعرضها في متحف للفنون الجميلة . كذلك فإن الشخص الذي يعي ويحفظ كتاب و . ل . لانجر — دائرة معارف التاريخ العالمي — لا يصبح مؤهلاً بفضل هذا العمل وحده لكي يكون مؤرخاً .

وسيطزل أساس كل التدريب الفنى فى المدرسة الجديدة فى التاريخ هو الدراسة التقليدية الخاصة بأسلوب البحث فى الوثائق وتناولها . كذلك إن التدريب فى هذا المجال سيزداد بكل تأكيد اتساعاً وشمولاً عن ذى قبل . فدارس التاريخ القديم اليوم مطالب بالتعرف على كل ما أمكن جمعه من نقوش ، وأكثر من ذلك فهو مطالب بأن يكون ملماً إلماماً كاملاً ثابتاً بآثار ما قبل التاريخ وبكل ما يتعلق بأوراق البردى . وهى النواحي التى لم يكن يهتم بها كورتيس ومومسن مثلاً . وقد يكون على المؤرخ المبتدىء كذلك أن يلم بأساليب الحفر الميكانيكى والتصوير الجوى ، ومعنى هذا كله أن هناك حاجة ملحة فعلية عند دراسة التاريخ الجديد لقدر من المعلومات الفنية يفوق كثيراً ما كان مطلوباً لدراسة العصور الوسطى عندما كان أهم شيء هو إتقان اللغتين اللاتينية واليونانية ، فضلاً عن الإلمام باللغة العربية والعلوم الثانوية الأخرى اللازمة لدراسة الوثائق ونقدها . وإذا ما توفر ذلك يستطيع الفرد أن يمضى قدماً فى التاريخ مستعيناً بقائمة مصطلحات اللاهوت وكتاب دى كانج ليرشده إلى مصطلحات العصور الوسطى . أما الباحث الذى يبحث فى التاريخ المعاصر فسوف يواجه عدداً أكبر من المطالب ، إذ لابد وأن يكون ملماً بمسك الدفاتر والمحاسبة وبأسس التكنولوجيا وأركان النظام الحالى للمؤسسات وبمصطلحات العلوم السياسية المعاصرة وأسس النقل ومبادئ علم التطور البيولوجى وأسس علم الطبيعة الكهربائية العلمية ، فضلاً عن عدد كبير آخر من مظاهر الحضارة المعاصرة . هذا إن أراد أن يقرأ بشيء من التمعن تلك الوثائق التى تحتوى على المادة الخاصة بمهنته .

ثم يلى هذه الخطوة الأساسية الخاصة بالإلمام بأسلوب البحث فى الوثائق ، خطوة أخرى هى اكتساب النظرة التاريخية الحقة . والسبيل السليم لهذه النظرة هو الإلمام الكامل بوجهة النظر الخاصة بالتطور . فالمؤرخ لابد وأن يفكر وفى ذهنه صورة واضحة لأصل الحياة البشرية بالضبط مثلاً يقوم الطبيب بالعلاج فى ضوء التشخيص والأعراض معروفة له . ومن ثم فإن المؤرخ لابد وأن يكون ملماً إلماماً كاملاً بعمليات التطور الكونى والبيولوجى والثقافى فضلاً عن تطور النظم . كذلك عليه أن يعود نفسه على التفكير فى الإنسان فى ضوء عمليات ومصطلحات التطور . فالتطور إذا بالنسبة للمؤرخ شأن الديناميكا . أو علم القوى بالنسبة لعالم الطبيعة . وبمعنى آخر فإننا ينبغي أن نصر على أن الشخص الذى يريد أن يكون مؤرخاً لابد وأن يكون من البداية ذا عقلية تاريخية .

وبعد ذلك فإنه على المؤرخ أن يلم بالمبادئ والحقائق الرئيسة لعلم الأجناس البشرية من الناحية الجغرافية ؛ أى كما يفسرها أحدث علماء الجغرافيا الإقليمية الذين يشاركون علماء الفرع

الثقافي لعلم الأجناس في وجه نظرهم . ويوضح كتاب المدخل الجغرافي للتاريخ . ما تعنيه العبارة ؛
 فالمؤرخ لابد وأن يدرس جيداً ويأمعان الجغرافيا الطبيعية والاجتماعية للمنطقة التي ينوي
 التخصص فيها . وعلى أساتذة التاريخ الجديد أن يدركوا من البداية أن ما كان يسمى بالجغرافيا
 التاريخية في الماضي وهي التعرف على التغييرات التي طرأت على الحدود السياسية ، والتعرف على
 الأماكن التي شهدت المعارك لا يعتبر بأي حال دراسة جغرافية للتاريخ مهما تكن قيمة وفائدة
 المعلومات التي زودتنا بها هذه الدراسة . كذلك على المؤرخ في هذا الصدد أن يعتاد التفكير في ضوء
 المراحل الثلاث الرئيسية لتأثير الجغرافيا على التاريخ كما بينها ليون متخوف Leon Metcalf
 nikoff والأستاذ ج . ك . رايت J.K.Wright . ونعني بهذه المراحل المرحلة النهرية والمرحلة
 القارية والمرحلة المحيطية هذا فضلاً عن أنه على المؤرخ أن يعطي اهتماماً كافياً لنظرية س . س .
 جلفيلان S.C.Gilfillan المتعلقة بأن التقدم مرتبط بالمناطق الباردة ويضاف إلى ذلك ضرورة إلمامه
 بالأهمية التاريخية الأساسية باتصال الثقافات على المستوى العالمي وهو الأمر الذي وصفه بإيضاح
 الأستاذ و . ر . شيفرد W. R. Shepherd في دراسته عن الأهمية التاريخية لحركة التوسع الأوربي .

وينبغي أن يلم دارس التاريخ الجديد إلماماً كاملاً بالإنسان وسلوكه العادي والشاذ ، وأن يلم
 كذلك بأسس علم الكيمياء الوظيفية وعلم الغدد الصماء . فالشخص الذي لا يدري شيئاً عن
 الأساس العادي للسلوك الإنساني لا يستطيع أن يفسر هذا السلوك تفسيراً سليماً في الماضي أو في
 الحاضر سواء . ولابد من أن يلم دارس التاريخ بعمل وتأثير الغدتين فوق الكليتين قدر إلمامه
 بغيرها من غدد الإنسان . إذ من المحتمل أن تكون الغدة الأورنالية (فوق الكلية) قد لعبت دوراً
 في قرار سارازوف بإعلان الحرب في يوليو ١٩١٤ لا يقل عن الدور الذي لعبته حركة التضامن
 السلافية في إصدار القرار نفسه ولابد من أن يعد المؤرخ الحضيف والمعد تماماً لمهنته بأنماط من
 السلوك غير العادي الأكثر شيوعاً والتي ترتبط بالأنواع المتعددة من الحالات المرضية لدى
 الإنسان . ولما كان رجال السياسة والديبلوماسيون ورجال القضاء عادة من المتقدمين في السن .
 فإنه ليس من الممكن فهم سلوكهم إلا في ضوء أنواع السلوك المرتبطة بالأمراض البشرية
 الرئيسية المتعددة كذلك فإن أي شخص لا يعلم شيئاً عن تأثير مرض الزهري لا يمكنه أن يعطي
 تفسيراً كافياً لأعمال وتصرفات بعض الملوك والساسة والديبلوماسيين الأقدمين . فأمراض مثل
 الالتهاب المزمن وعسر الهضم كثيراً ما تساعد عادة على تفسير سلوك الشخص أكثر من معرفة
 تعليمه أو ديانتة أو سياسته أو نشاطه الاقتصادي . كذلك فإنه لا غنى للمؤرخ عن فهم كاف لأنماط

السلوك المرتبطة بالأمراض النفسية والعصبية . ولا يمكن فهم السلوك البشرى إذا فصل فصلاً تاماً عن سلوك الحيوانات الأخرى وعلى الأخص عن سلوك القردة . وهكذا يبدو ضرورة الإلمام الكامل بعلم النفس المقارن ، وهنا نجد أن كتاب (إنسان تقريباً) Almost Human للكاتب يرك Yerke يعتبر أحسن عرض لسيكولوجية القردة يمكن الاعتماد عليه ، وهو كتاب لا غنى عنه لأي فرد يرغب الوصول إلى تفسير واقعى للسلوك الإنسانى وينبغى على المبتدئ الذى يمتلك قدراً كافياً من خفة الدم والروح أن يضيف إلى هذا الكتاب كتاباً آخر هو « عالم القردة » The Simian World لمؤلفه كلارنس داي Clarence Dui فالحقيقة الثابتة القائلة بأن الإنسان ليس إلا حيواناً فى مرتبة أعلى من القردة حقيقة ذات أهمية خاصة ومغزى هام بالنسبة للمؤرخ ، لأنها تفوق فى أهميتها ومغزاها التأكيد بأن الإنسان أقل درجة من الملائكة . ثم إن سيكولوجية السلوك بما تؤكد من التأثير الاجتماعى عنصر هام جداً بالنسبة للمؤرخ الذى يرغب فى تفسير شخصية الفرد فى ضوء حياته المبكرة والظروف الاجتماعية المحيطة به . ولا بد أن يضاف إلى ذلك عنصر آخر هو علم النفس التحليلى الذى يلقى كثيراً من الضوء على الحركة اللا شعورية للسلوك . والذى يصر على البحث حول الحقائق الخاصة بحياة الفرد الشخصية واليومية من أجل التعرف على الدوافع الخفية لسلوك أى فرد . وأخيراً فإنه لا بد من أن يكون المؤرخ ملماً إماماً كافياً بحقائق علم النفس الاجتماعى حتى يتمكن من توضيح تأثير سيكولوجية الجماعات على الإنسان وإبراز التفاعل المتعدد الجوانب بين الجماعة والفرد .

أما علم الأجناس البشرية فينبغى على المؤرخ دراسته ولما يحتويه من تأكيد لأساس تطور الإنسان ونظمه ، وما يتضمنه من توضيح النظرة الزمنية الجديدة للتطور والنمو البشرى . ولكن علاوة على هذا وذلك لما يحتويه من إيضاح لقوانين التقدم الثقافى وعملياته . وتزودنا كتب مثل كتاب (تطور الثقافة) لهايت White وكتاب (الإنسان والثقافة) لويزلر Wissler وكتاب (التاريخ وعلم النفس والثقافة) لجولدن ويزر Golden wiser وكتاب علم الأجناس البشرية لكروبر Kroeber بقدر من المبادئ الرئيسية للتطور التاريخى يفوق ما تزودنا به أحسن الكتب التى ظهرت حتى الآن فى موضوع المنهج التاريخى .

والواقع أن علم الأجناس البشرية يفوق غيره من العلوم الفرعية الأخرى فى أهميته كمدخل للتاريخ وذلك من ناحيتى المنهج والتقويم الزمنى .

ولا يمكن للفرد أن يشتغل بكفاءة بالتاريخ الجديد دون أن يكون على دراية بعلم الاجتماع سواء أسس هذا العلم أو مبادئه وذلك بوصفه مقدمة للعلوم الأخرى كذلك لا بد من أن يلم بالعلوم الاجتماعية الخاصة مثل الاقتصاد والسياسة والقانون والأخلاق وما إليها فالتاريخ ليس إلا سجلاً لتطور الإنسان كما كلفته بيئته الاجتماعية ومن ثم فإنه يتعذر تماماً فهم هذا السجل فهماً سليماً دون أن تكون هناك معرفة علمية بحقائق الحياة الجماعية وتفاعلاتها كما يشرحها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان الشخص ينوى القيام بعمل يتطلب أكثر من مجرد معرفة متوسطة بواحد أو آخر من العلوم الاجتماعية الخاصة ، فإنه لا بد له من أن يكون متمكناً من هذا العلم . فعلى سبيل المثال لا يمكن لأى شخص أن يحاول القيام بوضع مؤلف تفصيلي عن التاريخ الاقتصادي ودون أن يكون قد ألم إلماماً كاملاً بكل فرع من فروع علم الاقتصاد والحديث فضلاً عن الإحصاء الاقتصادي ، كذلك إذا أراد الفرد أن يكتب عن تاريخ العلم أو الجمال فلا بد أن يضيف إلى تدريبه العام تدريباً خاصاً في العلوم الطبيعية أو الفنون الجميلة .

وكثير من يقرون سلامة هذا البرنامج الطموح لإعداد المؤرخ في المدرسة الجديدة للتاريخ سوف يذهبون إلى أنه من المتعذر أن تتوافر كل هذه الشروط والمتطلبات في فرد واحد . ولكن هذا الاعتراض يبدو للمؤلف صاحب هذا الكتاب خداعاً وغير دقيق ، فمن السهولة بمكان تحقيق مثل هذا الإعداد إذا ما أدركت ضرورته بالقدر نفسه الذى ندرك به ونقر ضرورة الإعداد الخاص لمن يمارس مهنة الطب أو الهندسة . فهناك في جامعات كالولايات المتحدة الأمريكية مناهج تعد الطالب للإقدام على دراسة الطب . ثم هناك ما يلى هذه الدراسة من تدريب طبي مهني . وبمرور الزمن سوف تكون لدينا مناهج (ما قبل الإقدام في دراسة التاريخ) فضلاً عن مدراس التاريخ المحترفة ومدراس العلوم الاجتماعية التي يمكن فيها وبواسطتها تحقيق ذلك البرنامج التعليمي الذي سبق أن تحدثنا عنه . ولن يحتاج الأمر إلى وقت أكثر مما يضيع فعلاً في تلك الجهود غير المخططة أو غير المنسقة التي تبذل في الكليات والجامعات . وكل ما هو مطلوب من طالب التاريخ الناجح أن يمكن في سهولة في فترة السبع سنوات التي يقضيها دارسو التاريخ في دراستهم التقليدية للحصول على درجة ائليسانس أو درجة الدكتوراه . وسوف يكون في أيدينا شيء مادي عندما نبدأ هذا البرنامج الإعدادي . وعندئذ لن يكون طلاب الدراسات العليا في التاريخ على درجة من ادعاء العلم وضيق الأفق مثلما وصفهم كلارنس ليتل المدير السابق لجامعة ميتشيجان ، إذ قال عنهم إنهم يعلمون عن حملات هنري الثامن أكثر مما يعلم أى شخص آخر على قيد الحياة ، ولكنهم لا يهتمون بمعرفة أى شيء آخر .

وقد يقول البعض على سبيل الاعتراض بأن قليلاً من دعاة المدرسة الجديدة في التاريخ أنفسهم هم الذين يستطيعون اجتياز الإعداد المرغوب فيه للمؤرخ وهو الإعداد الذى وصفناه آنفاً . وربما كان ذلك صحيحاً ولكن لا يوجد شك في أن الأستاذ روبنسون ربما كان أول من أقر أنه لم يكن سوى مبتدئاً متواضعاً في كل جانب من جوانب الإعداد الخاص بطلاب التاريخ في المدرسة الجديدة كما سبق أن أشرنا ، ولكنه كان يتمنى لو عاش حياته مرة أخرى ليعيد نفسه إعداداً كافياً . وربما أضاف كذلك في إنصاف أن ما أنجزه عن إعداد غير كاف يعتبر دليلاً على النتائج الممتازة التى لنا أن نتوقعها في المستقبل من الطلاب المدربين تدريباً كافياً وتاماً .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد

فيما يلي النقاط الرئيسية التى حاولنا إبرازها في هذا الفصل :
أولاً : أن التاريخ الجديد أكثر من مجرد مفهوم جديد حول التاريخ وهدفه لأنه يحمل معه إلزاماً بضرورة إعداد المؤرخ لمهنته إعداداً أكثر عمقاً وتنوعاً .

ثانياً : أن التاريخ الجديد جديد من ناحية قبول مبدأ اتساع مفهوم التاريخ ، وازدياد الاعتراف بأهمية العلوم الاجتماعية في تدريب المؤرخ وإعداده ، وكذلك من ناحية غزو التاريخ لاتجاه البحث عن أصل الإنسان وهو الاتجاه المأخوذ عن علماء البيولوجيا وفلاسفة التطور .

ثالثاً : ويجد دعاة التاريخ الجديد حتى وقتنا هذا ضرورة القيام بحملة دعائية وتعليم حقيقية ، وارتبطت هذه الحملة ببعض الأسماء مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، تيجارت ، مارفن . وكان أن حقق دعاة التاريخ الجديد نصراً مؤكداً ، ومن ثم فهم يستطيعون الآن أن يركزوا جهودهم للوصول بأساس التاريخ الجديد إلى مستوى الكمال والتعليم وتدريب أولئك الذين سوف تكون لهم القدرة على ممارسة التاريخ الجديد .

رابعاً : أما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما تصوير حضارات الماضى وإعادة بنائها على خير صورة ثم تتبع تطور النظم الاجتماعية الرئيسية القائمة اليوم . وتعتبر المهمة الثانية أهم بكثير من الأولى لأن ما يرمى منها أساساً هو ما يمكن أن تسهم به في الوصول إلى فهم أفضل لعصرنا الحالى ، إن لم يكن هو الشئ الحقيقى الوحيد المطلوب من التاريخ . وقد يضيف البعض مهمة ثالثة وهى صياغة نظرية السببية الاجتماعية أو عمل دراسة عامة

للتغير الاجتماعى . ولكن الأفضل أن ينطوى هذا النوع من البحث تحت لواء علم الاجتماع التاريخى .

خامسا : لا يمكن اعتبار فئة واحدة من الأحداث التاريخية كافية لوضع إطار لتنظيم القصة الكاملة للتطور التاريخى للثقافة البشرية ، وينطبق هذا الكلام بصفة خاصة على الأحداث السياسية ، إذ لابد وأن يذوب فى عالم النسيان ذلك الإطار السياسى للتاريخ ، وكذلك التاريخ التقليدى الخاص بالأمم ونظام التقويم الزمنى السائد والمعترف به ليفسح المجال أمام نشأة تاريخ الثقافة والنظم .

سادسا : لا يوجد هناك سبب واحد يحدد مجرى الأحداث التاريخية . وعلى المؤرخ أن يتخذ موقفاً تجريبياً من السببية التاريخية وأن يتقبل النظرة ذات الجوانب المتعددة .

سابعاً : لابد من التخلّى عن النظرة الساذجة غير الواقعية والقائمة على أساس غير تاريخى ، وهى نظرة المدرسة القديمة إلى التاريخ .

كذلك فإن ما يواجه مؤرخ اليوم من مشكلات حية وتعقيدات ، وحالة الضياع والاضطراب التى يجد نفسه فيها ليست إلا مظاهر للعصر بأكمله ككل ، والنتيجة الحتمية لأن المؤرخ اكتشف أنه يعيش فعلاً فى القرن العشرين .

ثامناً : من الضرورى عند تدريب من يرغبون بممارسة التاريخ الجديد أن نستبعد من البداية فكرة أن التاريخ فن أدبى أو ترفيهى يستهدف البحث فى سجلات الماضى . فالأدب الذى يستخدم المادة التاريخية لا يمكن اعتباره مؤرخاً شأنه شأن الرسام الذى يرسم منظراً لموقف تاريخى . فالتاريخ هو علم تفسير الحضارات الماضية والكشف عن أصل ثقافة اليوم . ومن ثم فإن على هؤلاء الذين يرغبون الدخول فى مهنة المؤرخ أن يلموا إلماماً تاماً بكل أنواع المعلومات اللازمة لتصوير ماضى البشرية وتتبع التطور الذى أتى بحاضرهم . ويتطلب ذلك تخطيطاً جيداً للدراسات منذ أن يلحق الطالب بالجامعة فصاعداً كما هو الحال فى إعداد الأطباء والمهندسين . وباختصار فنحن لا نستطيع أن نستمر فى كتابة التاريخ وتعليمه دون أن نأخذ فى الاعتبار طبيعة الإنسان وسلوكه^(١) .

(١) إذا أراد القارئ شيئاً مفصلاً عن التاريخ الجديد فعليه الرجوع إلى مقال للمؤلف ماكربن برنتون فى مجلة « الفلسفة الاجتماعية » عدد يناير ١٩٣٦ . (المؤلف)

الاتجاهات الحديثة والاختلافات التي تتعرض لها الكتابة التاريخية

لقد جرى العمل في إعداد الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ بعد فترة وجيزة من صدور كتابي (تاريخ الحضارة الغربية) وهو الكتاب الذي حظي بقدر من الاهتمام وأثار من الجدل والمناقشات في الولايات المتحدة طوال الثلاثينيات مثلما كان لكتاب ويلز Wells (موجز التاريخ) . وبعد أن قرأت مئات التعليقات عن كتابي هذا اقتنعت بأن أكبر خطر يهدد سلامة الكتابة التاريخية يكمن في الصراع القائم بين العقائد المتعارضة . وستظل هذه الحقيقة قائمة طالما أننا ننظر إلى العالم المتحضر ككل . وإذا ما نظرنا إلى الصراع بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية سنجد أن الصراع الأيديولوجي يزداد حدة ومرارة . والواقع أن الضغوط الأيديولوجية التي تأثرت بها في سنة ١٩٣٦ كانت في داخل العالم الغربي ذاته بين الفاشية والشيوعية .

وكان الحكم على الكتب التاريخية يتم بصفة رئيسية عندئذ في ضوء ما إذا كان مضمونها يتمشى مع مبادئ الفاشية أو مبادئ الشيوعية . ولما لم يكن في الولايات المتحدة من العلماء من يؤيد الفاشية ، فإن التقدير الأيديولوجي لكتابي هذا بنى أساساً على مدى تمشيهِ مع العقيدة الماركسية . وهذا الحكم ينطبق بصفة خاصة على نظرة المؤرخين الشباب للكتاب . ولا أبالغ إذا ذكرت أن نصف من تعرض من النقاد لكتابي (تاريخ الحضارة الغربية) باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل الجدلية إنما أخذوا على فشلي في اتباع ماركس بإخلاص . هذا على الرغم من أنني أعطيت كثيراً من الاهتمام للعوامل والقوى الاقتصادية ، وهو أمر لم يرض عنه كثير من المؤرخين التقليديين .

والآن اختفى تماماً وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية هذا التهديد الأيديولوجي المتنوع للكتابة التاريخية الموضوعية وهو التهديد الذي كان سائداً في الثلاثينيات . وإذا كان هناك مؤرخون لا يزالون يحترمون الأيديولوجية الفاشية ، فإنهم يحتفظون بأفكارهم ولا يعلنونها . كذلك فإن الحرب الباردة وضعت حداً للاتجاه الخاص يجعل التوافق مع الماركسية مقياساً لسلامة الكتابة التاريخية خارج الستار الحديدي .

ولما كان الجزء الأول من هذا الفصل قد خصص لمعالجة نشأة التاريخ الجديد وتطوره ، فإنه يجدر بنا وقد وصلنا إلى هذه النقطة أن نوضح أن الحماسة للشكل والمضمون الأوسع للتاريخ قد تضاءلت بوضوح في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة .

وتعزى الشعبية المتزايدة للتاريخ الجديد في أواخر العشرينات وفي خلال الثلاثينيات في الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما إلى حركة العلوم الاجتماعية التي كان يطورها بقوة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ، وهو الذي كان يحصل على معونة من صندوق روكفلر ومنحة مؤسسة كارنيجي وهى تلك المنحة التي كان الغرض منها تمويل الدراسات الخاصة بعلاقة العلوم الاجتماعية بالكتابة التاريخية وتعليم التاريخ بصفة عامة . وكان أن شجعت حرية الجيل الجديد واهتماماته الاجتماعية على الاهتمام بالحضارة ككل .

وبقيام الحرب العالمية الثانية بدأ الانغماس في الشئون الحربية والسياسية والميل العام نحو الأخذ بالاتجاه المحافظ ينعكسان في اتجاهات المؤرخين . وبانتهاء الحرب أصبح أكثر الكتب الدراسية عن تاريخ الحضارة رواجاً وشهرة هو ذلك الكتاب الذي يحمل في صدر صفحاته كلمة الحضارة والتي تعتبر مناهجه أقل بكثير في تمثيلها للتاريخ الجديد من كتاب جيمس هازفي روبنسون الذي ظهر سنة ١٩٣٠ بعنوان (تاريخ أوروبا الغربية) يضاف إلى ذلك أن الصحف بزعامة نيويورك تايمز هاجمت الميل نحو الدراسات الاجتماعية ودعت فيما يتعلق بتدريس التاريخ وكتابته إلى العودة إلى الجوهر والإطار السياسى السليم .

على أننا نبتعد عن الحق والصواب إذا قلنا إن نهر التاريخ الجديد قد جف ونضب وإن كنا نعتبر أنه من المؤكد أن سرعة النهر وشدة تياره قد تضاءلا بشكل ملحوظ . ومن العجيب أن يزداد الإعجاب بالعسكرية والاهتمام بالشئون الحربية في ضوء افتتان المؤرخين بالحرب الأهلية في عقدها المتوى . ومع ازدياد التعصب الوطنى الذى تميزت به فترة ما بعد الحرب نجد تأكيداً ملحاً على التاريخ المعاصر الذى يمثل النقيض لاتجاه المدرسة القديمة التى تدعو للوقوف بالتاريخ عند الثورة الفرنسية أو الوصول به حتى سنة ١٨٧١ .

والحق أن ما اعتبر منذ الحرب العالمية الثانية أنه التهديد الرئيسى للتكامل والثبات التاريخى أمر لا يتعدى دائرة الخيال والوهم لأنه نتج عن الهروب من الواقع والاحساس بالذنب الذى نشأ لدى المؤرخين نتيجة لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالأخطار الحقيقة التى تهدد التكامل التاريخى وعدم استعدادهم للإفصاح عنها . وأشار هنا إلى ما يعرف عند المؤرخين (بالنسبية التاريخية) إذ يقال إن الشخصيتين الرئيسيتين على هذا الطريق الخاطيء هما المؤرخان البارزان اللامعان كارل ل . بيكر وشارل أ . بيرد وهما من الرؤساء السابقين للجمعية التاريخية الأمريكية .

وتتلخص أسس هذه (النسبية) اللعينة عند بيكر وبيرد وغيرهما من يعطف على وجهة نظرهم فيما يلي :

١ - أن الأحداث التاريخية على درجة عالية من التعقيد والحداد لدرجة أن المؤرخ مهما يكن تدريبه وإخلاصه واجتهاده فلن يتمكن من تحقيق حلم ليوبولد فون رانكه الخاص بتصوير الماضي تماماً كما كان .

٢ - أن ما يقبله المؤرخون والجمهور على أنه حقيقة تاريخية في أى وقت إنما يتوقف على المناخ الفكرى الذى يسود ذلك العصر . فضلاً عن صلابة الحقائق التاريخية نفسها .

٣ - أن ما يقبل على أنه حقيقة تاريخية من قبل المؤرخين والجمهور سوف يتغير من وقت إلى آخر طبقاً لعوامل عاطفية .

٤ - تكمن القيمة الرئيسية لمثل هذه الحقائق فى مدى ما يمكن أن تقدمه لنا من عون لفهم الماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل . ولم يتحمس بيكر للحديث عن هذا البند الرابع على الإطلاق وذلك عند تقديمه لتلك النظرية النسبية ولكن بيرد فعل ذلك وخاصة فى السنوات المتأخرة من حياته .

وقد سبق أن رأينا بيرد Beard يفصح سنة ١٩٢٦ عن معتقداته الخاصة بالطبيعة المخادعة غير المكتملة والمعقدة التى تنصف بها الحقائق التاريخية^(١) ولكنه عبر عنها بشيء من التفصيل والشرح فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية التاريخية سنة ١٩٣٣^(٢) كما أنه تولى توضيحها فى مقالات لاحقة^(٣) .

(١) القى بيرد بياناً أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣٦ بعنوان Everyman His Own Historian ثم أعد هو نفسه بحثاً لم ينشر يتضمن تفصيلاً لما ألقاه أمام الجمعية التاريخية وقد سمي هذا البحث Histoircal Evidence وارجع كذلك لما كتبه صاحب هذا الكتاب ومع Crane Brinton بعنوان The New History Twenty Years After ونشر فى مجلة Journal of social Philosophy يناير ١٩٢٦ (المؤلف)

(٢) نشر هذا البحث فى مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية يناير ١٩٣٤ بعنوان :
Written History as an Act of Faith

(٣) منها مقال بعنوان ذلك الحلم الجميل فى المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٣٠ ومقال آخر بعنوان ما جدّ على الكتابة التاريخية عدد أبريل ١٩٣٧ أحسن المراجع عن ما كتبه بيرد ما كتبه G.P. Nash: Self Education in Historiography: The Case of Charles A. Beard Pacific North West Quarterly July 1961.

وكان شائعاً في أوساط العلوم الاجتماعية وخاصة بين علماء النفس الاجتماعي ، أن المتعارف عليه بأنه الحقيقة التاريخية هو ما يقبله الناس في أي وقت على أنه الحقيقة ، وظل ذلك طيلة جيل بأكمله على الأقل قبل أن يناقش بيكر (الحقائق) التاريخية في سنة ١٩٢٦ . ففي سنة ١٩١٣ ذكر ولیم أ. دابنج William A. Dunning في خطابه الرئاسي أمام الجمعية التاريخية الأمريكية أن ما يظنه عصر أو شعب معين أنه الحقيقة فهو كذلك بالنسبة لذلك العصر أو « الشعب » وأن أي مؤرخ يدعي أن المؤرخين ليس لهم أن يأخذوا بهذا الذي أجمع عليه الرأي العام ليس له أن يتوقع أكثر من سخرية أولئك الذين يعرفون جيداً سلوك المؤرخين منذ عام ١٩٢٤ ، أي بعد أن أرسيت قواعد التاريخ العلمي الموضوعي ، وتم قبوله طوال ربع قرن . ومن الصعب أن نفهم لماذا تسوء أي فرد معرفة هذه الحقيقة .

وإنها لمسألة رأى تلك التي تتعلق بالنظر إلى الحقائق التاريخية سواء أكان تقديرها لما لها من دور عملي في مساعدتنا على فهم الماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل ، أم لما تشيره من فضول وكبرياء مهتمين لدى المؤرخ . ولكن المؤكد أن الاتجاه العملي هو الأكثر فائدة وتنويراً . وقد قطع روبنسون شوطاً أبعد من بيرد في تأكيده النظرة النفعية العملية للحقائق التاريخية حيث أوضح أن المؤرخ الموضوعي هو ذلك الذي لا هدف له . ومن ثم فهو إلى حد ما إنسان لا يرجي منه فائدة إلا إذا ظهر شخص آخر يستطيع استغلال ما جمعه من حقائق .

وفي رأى مؤلف هذا الكتاب أن كل ذلك الخلاف حول النسبية لم يكن سوى زوبعة في فئجان هدفها إلى حد ما تحويل الانتباه عن عدم رغبة المؤرخين في مواجهة التحديات الخطيرة الحقيقية التي تجابه مهنتهم . ويشبه هذا الأمر انزعاج الفرد إزاء ظهور حالة حصبة ألمانية أو جدري في الوقت الذي ينتشر فيه التيفوس أو الطاعون . ونجد وصفا رائعاً لتلك الطبيعة غير المعقولة للتيارات الفكرية التي كثيراً ما تؤثر على الأحكام العامة والتاريخية في الخطاب الرئاسي الذي ألقاه ولیم ل. لانجر عن (المهمة التالية) أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٥٧^(١) .

(١) لمناقشة مسألة النسبية ارجع إلى الأبحاث التي نشرتها المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٥٦ لكل من :

Perez Zagoru, Loe Coershy. W.A. Willian

وإلى ما كتبه Cushing Strout بعنوان الثورة العملية في التاريخ الأمريكي Pragmatic Revolt in American History

ارجع كذلك إلى Carl Becker. Charble Beard yale uni, pren

B.T. William : Carl Becker

C. W. Smith : Carl Becker: On History and the Climate of Opinion

وهذا الكتاب الأخير من أحسن الكتب التي حاولت أن توائم وتحدد التشابه بين النسبية عند بيكر وعند Ingsoc

وهناك تهديد أشد خطراً على الدقة والبصيرة التاريخية والصالح العام يتمثل في الاتجاه نحو النكوص إلى الظروف التي سادت زمن انحلال الامبراطورية الرومانية عندما فقدت الطبقة الرومانية المثقفة المفكرة السيطرة على أعصابها على حد وصف جلبرت مراى إذ تحولت تلك الطبقة إلى دعاة ديانات عصرية غامضة تبشرهم بتخليصهم وتطهيرهم من خطايا الدنيا وتعدهم بالنعيم الدائم في الآخرة ، فضلاً عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي شاعت وأدت إلى نبذ العقل والإقلال من شأن العلم وتمجيد العقيدة والإيمان . ونستطيع اليوم أن نرى ميلاً مماثلاً لدى المفكرين المضطربين الذين يحتمون بفلسفة معينة كالوجودية أو الديانة المترنمة . وأدى انهيار فكرة وجود قوى غيبية خارقة للطبيعة من ناحية ، والأخطار التي تواجه الاتجاهات القوية والديمقراطية المعاصرة إلى خلق اضطراب فكري ، لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى صحب سقوط الحضارة الكلاسيكية القديمة .

وخير مثال لهذا الاتجاه في مجال التاريخ هو ذلك الكتاب الذائع الصيت الذى ألفه أرنولد توينبى بعنوان (دراسة التاريخ) وعلى الرغم من الحقيقة المعترف بها بأن توينبى هو دون شك أكثر المؤرخين الأحياء علماً ، فإن الإطار التاريخي لأعماله يركز على الانحراف الديني والاعتماد تماماً على الشواهد الغربية مما ينفر منه أى باحث جامعي واسع الاطلاع كذلك تنكشف تماماً ضعف الدعامة الفكرية اللاهوتية للتاريخ في كتابين للمؤرخ الهولندى بطرس جيل Pieter Geyl أولهما (فوائد الحضارة ومضارها) وقد صدر سنة ١٩٥٥ وثانيهما (مناظرات مع المؤرخين) وقد صدر سنة ١٩٥٧^(١).

وثمة تهديد أكثر خطورة لمستقبل التاريخ يكمن في الطريقة التي بعثت بها الحماسة للحرب وما صاحبها من عواطف تجيش في صدور المؤرخين منذ سنة ١٩٣٩ . ولم يسمح المؤرخون هذه المرة لتلك العواطف أن تفرق وتسترد حالة التوازن مثلما حدث بعد سنة ١٩١٨ ، وهو الموقف الذى تناولناه بالتفصيل في صفحات سابقة . وفيما يلى ما كتبه مؤرخ البحرية الإنجليزية البارز رسل جرنفيل Russel Grenfell موضحاً تأثير ذلك الموقف على صحة المثل التاريخية وسلامتها . « سوف يبدو لك — نحن الذين عشنا في العالم المنحدر فكراً إلى هنا عالم ما قبل ١٩١٤ — اندفاع المؤرخين المتعمد إلى بحر الزيف والتشويه مما يعتبر ظاهرة خطيرة . من منا كان يستطيع أن

(١) أحسن المراجع عن توينبى ما كتبه المؤلف بعنوان مقدمة للتاريخ وعلم الاجتماع ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨ .

يصدق في العقد الأول من هذا القرن أن القيم التي كانت تبدو راسخة في أعماق مهنة التاريخ سوف تختفى بهذه السهولة وهذه السرعة تاركة وراءها فئة قليلة من المحتجين الذين لا يعاب بهم أحد ، والذين سيكون على ضياع هذه القيم ؟^(١).

والسبب الرئيسي في عدم تماثل أى فرصة أمام المؤرخين للعودة إلى الموضوعية المعقولة منذ سنة ١٩١٩ هو أنه ما أن وضعت الحرب الساخنة أوزارها سنة ١٩٤٥ ، حتى بدأت الحرب الباردة في أوائل سنة ١٩٤٧ أى في خلال حكم الرئيس ترومان . وبهذا امتد تحيز المؤرخ بسرعة من ألمانيا وإيطاليا إلى روسيا والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية . وكانت معظم هذه الكراهية أصيلة غير مفتعلة على الرغم من أن بعضها كان بالتأكيد مصطنعا قصد به تحقيق أغراض وقائية وعلى الأخص من جانب المؤرخين ذوي الميول الشيوعية القوية قبل سنة ١٩٤٥ .

وقد أوضح المؤرخ البريطاني البارز أ.ج.ب. تايلور مؤلف كتاب (أصول الحرب العالمية الثانية) تأثير ذلك الاتجاه على استقلال التاريخ ورحابة أفقه . ففي تعليقه على كتاب «بين الحرب والسلام» للكاتب هربرت فيز Feis وهو من أبرز من يعرفون بمؤرخي البلاط في هذا العصر وأكثرهم إنتاجاً . كتب تايلور يقول : «أمامنا مذكرة حكومية ترجمت إلى مصطلحات تاريخية أكاديمية . إن استنتاجات دكتور فيز لا تستند إلى أدلة حيث إنه افترض فيها ذاتية الوضوح قبل أن يبدأ في تأليف الكتاب . وكان هناك حين من الوقت نفص فيه المؤرخون عن أنفسهم التزامهم القومي ، وكتبوا كما لو كانوا يرقبون الأمور من كوكب آخر . والواقع أنه عندما كان المؤرخون الأمريكيون يكتبون عن أصول الحرب العالمية الأولى أخذوا يعودون إلى الوراثة وابتعدوا كثيراً إلى حد أنهم انحازوا إلى الجانب الألماني . ولا نعرف اليوم حتى لدى العلماء الباحثين انفصالاً عن الحرب الباردة ، إذ إننا نجد المؤرخين الأكاديميين في الغرب يؤكدون استقلالهم العلمي حتى ولو كانوا يعملون في إدارة حكومية . ولكنهم «مرتبطون» إلى الحد الذي يجعلهم يبدو وكأنهم يرتدون الأزياء الأنثوية التي أعدها دكتور جوبلز خصيصاً للأساتذة الألمان»^(٢) .

(١) في رسالة منه إلى المؤلف في ٢٣ من ديسمبر ١٩٥٢ وأرجع كذلك لمقالة المؤلف في مجلة Liberation سنة ١٩٥٨ .

(٢) أرجع إلى المانستر جاردان الأسبوعية ١٩ من يناير ١٩٦١ ، وأرجع كذلك إلى ملاحظة مؤرخ انجليزى بارز آخر هو هربرت تيرنيلد عن التاريخ الرسمى في كتاب History and Human Relations (McMillan 1952 pp. 182-224)

ويتمثل أكثر الجوانب خطورة هذه السيطرة البيروقراطية على الكتابة التاريخية ، وهذا الربط بين الحقيقة التاريخية والسياسة الحكومية في أن هذين الشيئين يثلان للخطورة الأولى والهامة نحو الانزلاق إلى حالة سيئة للتاريخ ولما سيصبح عليه سنة ١٩٨٤ . فنجد هنا توافقاً كاملاً من جانب الكتابة التاريخية مع الاتجاهات والآراء اليومية التي تخلقها النزوات والرغبات والأمزجة الحربية والتي قد تتطور إلى تزوير الحقائق وحجبها أو حتى تدمير الوثائق من أجل الوصول إلى نتائج معينة . وتوضح الفقرة الآتية من كتاب جورج أورويل George Orwell الروح التي تسيطر على الكتابة التاريخية في ظل مبادئ إنجسوك Ing-soc الذي يمثل الإطار الايدولوجي للنظام القائم في سنة ١٩٨٤ : «تعاد كتابة التاريخ باستمرار ، وهذا التزوير الذي يتم يوماً بعد يوم والذي تقوم به وزارة الصدق والحقيقة» ضروري بالنسبة لاستقرار النظام القائم بالضبط مثل ضرورة أعمال الكبت والتجسس التي تقوم بها «وزارة الحب» . فأحداث الماضي ليس لها وجود موضوعي . وكل ما هنالك أنها تعيش في سجلات مدونة وفي ذاكرة البشر . والماضي هو كل ما تتفق حوله السجلات والذاكرة . وحيث إن الحزب مسئول عن كافة السجلات ومسيطر على عقول أعضائه ، فإنه يترتب على ذلك أن الماضي هو كل ما يختاره الحزب ليكون كذلك . وقد أصبحت عملية التأكد من أن كافة السجلات تتفق مع ما تفترض أنه الصواب في حاضرننا عملية ميكانيكية . ومن الضروري كذلك أن نتذكر أن الأحداث وقعت فعلاً بالشكل المرغوب فيه . وإن كان من الضروري أن نعيد ترتيب ذاكرتنا أو نقلب في السجلات المدونة ، فإن علينا أن ننسى «أننا قد فعلنا ذلك» .

ويتضح بعد هذا الإجراء التاريخي عند إنجسوك Ing-soc أن المصادر والتدمير المتعمدين لكل الوثائق التي تتعارض مع ما يؤخذ على أنه الحقيقة التاريخية في أى وقت من الأوقات ستكون سمة العصر .

وقد يشعر كثير من القراء أننا مازلنا بعيدين جداً عن مثل هذا الموقف . ولكن الحقيقة هي أننا نعيش فعلاً في جو تاريخي أشبه ما يكون بهذا الموقف . والفرق في الدرجة وليس في النوع . فباستثناء عدد قليل من كتب التاريخ التي صادفت كثيراً من الاحتقار لا توجد كتابة تاريخية منذ سنة ١٩٣٩ حتى في العالم الحر الذي تحدى ونبذ سيطرة الدولة على الكتاب . وإنها الحقيقة ثابتة أن أهم الوثائق المتعلقة بدبلوماسية الحرب العالمية الثانية قد صودرت أو دمرت . وهناك حوالى أربعين

مجلداً تحوى وثائق خاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية في الفترة الأخيرة ، كلها تنتظر الطبع والنشر ولكن لم يتم شيء يذكر من أجل تنفيذ ذلك البرنامج على الرغم من المال الكافي الذي رصد له وعلى الرغم من أن المسؤولين وعدوا رسمياً في مايو ١٩٥٣ بالعمل على سرعة طبعها ونشرها . كذلك نضيف أن الوثائق التي تم نشرها أخيراً عن مؤتمرات القمة في وقت الحرب مثل مؤتمر يالتا وطهران جاء مشوهة وبعضها حجب تماماً ، فضلاً عن أن التحقيق في كارثة بيرل هاربر كشف عن حجب وتشويه وتدمير بعض الوثائق الدامغة التي تتعلق بالمسئولية عن تلك الكارثة التي حلت بالأسطول الأمريكى .

وقد لا يكون الموقف على درجة تثير الفزع في صفوف المشتغلين بالتاريخ . وهذا هو الواقع فعلاً ، لأنه لا يوجد اتجاه عام لدى المؤرخين للاتجاهات الجارية . ولكن سيكون من المزعج حقاً للمؤرخين الذين يتسكون بالمثل القديمة الخاصة بالتكامل والصدق أن يستسيغوا الآراء المتطرفة التي يتضمنها هذا الكتاب .

نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ

أبدى أحد أصدقاء المؤلف عندما علم بمشروع وضع سطور هذا الكتاب ملاحظة مؤداها أنه لن يمر وقت طويل حتى يظهر من سيكتب تاريخاً لتأريخ التاريخ . والواقع أن مقالة عن هذا الموضوع تظهر في مجلة تاريخية محترفة ستكون حتماً مفيدة وذات أهمية ثقافية ونأمل أن نراها في وقت قريب . وليس هناك ختام أفضل وأنسب لهذا العرض المختصر لتأريخ الكتابة التاريخية من أن نلخص ما تم إنجازه في هذا المجال حتى يومنا هذا .

ظهرت الخطوة الأولى نحو مناقشة الكتابة التاريخية في عهدها الأول في كتاب بوليبيوس عندما استعرض ونقد مناهج الكتابة السابقة على عصره ، والتي كتبها الأقدمون عن التاريخ الرومانى وتكتلج تلك الكتابات . وكانت الغالبية العظمى من الكتابات التاريخية الإغريقية والرومانية — كما سبق أن أوضحنا — عبارة عن تاريخ معاصر ، ومن ثم لم يكن هناك سوى قليل جداً من الكتاب ممن شغلوا أنفسهم بالكتابة عن العصور السابقة على عصرهم . وبالتالي فإنه لا يمكن مناقشة أعمال المؤرخين الأوائل ونقدها بطريقة منظمة . ثم ظهرت بعد ذلك من المؤرخين المسيحيين ابتداء من بوليوس افريكانوس حتى جيروم من تناولوا أعمال المؤرخين الوثنيين

واليهود . كذلك دأب مؤرخو المدونات التاريخية والحواليات في خلال العصور الوسطى على دراسة الأعمال التاريخية على الأقل بهدف الاستفادة منها في كتابة مخطوطاتهم . وفي عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة لها ظهرت أبحاث على أعلى مستوى من التنظيم حول الكتابة التاريخية عن المؤرخين القدامى . هذا إلى أن مؤلف كتاب (مثنويات مساجدبرج) والكاردينال باروفقيوس وآخرون غيرهم تناولوا بالنقد الكتاب الذين اشتغلوا بالتاريخ الديني منذ أيام رسل المسيحية والحواريين حتى القرن السادس عشر . كذلك قام كتاب المدرسة الإنسانية منذ فلافيوس بلوندوس حتى سيجنوبوس وليفسك دي بويلي Leves wue de Pouilly بتحليل مؤلفات الكتّاب الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط ، أما ناقدو الكتاب المقدس ابتداء من عزرا حتى استروك وربما Astruc and Reimarus فقاموا ببحث المصادر التاريخية الكتاب المقدس .

ثم تابع المؤرخون العقلانيون وأصحاب المدرسة الرومانسية هذه الدراسات الناقدة إلى أن أصبحت أمراً منظماً وجهداً موجهاً ، في الفترة التي ظهرت وتمت فيها حركة جمع مصادر التاريخ القومي والمدرسة الناقدة والمدرسة الناقدة الحديثة في التاريخ ، ونهض كبار الكتاب أمثال موراتوري Munatori ، ویتز Waitz جيزو Guizot ، مولينير Molinier جيراد Guerard ، ستبس Stubbs ومن إليهم بعملية نقد وتقييم الكتاب المسيحيين الأوائل ومؤرخي العصور الوسطى . وقد فعل الشيء نفسه علماء أمثال نيبور Neibhur ، ویتز Waitz ، فون رانكه بالنسبة لمؤرخي العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة .

وكان أن ترتب على جهود الناشرين ظهور أول حصيلة مرموقة من الكتب التي تعتبر بحق تأريخاً للكتابة التاريخية . وكانت هذه الكتب المرشد الأساسي في التاريخ القومي حيث أعطت نبذات مختصرة عن أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن ماضي الشعوب ، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى العصور الوسطى ومستهل العصر الحديث ، وكان أول هذه الكتب ذلك الذي أصدره فردريك داهلمان Fredrich Dahlman سنة ١٨٣٠ بعنوان « مصادر التاريخ الألماني » الذي تولى جورج وايتز مراجعته وظهرت منه عدة طبعات . وتعتبر الطبعة الثانية التي أشرف عليها بولس هرر Paul Herre في سنة ١٩١٢ مجلداً عظيماً فخماً ، إذ صنفت فيه باختصار كل الأعمال المتعلقة بالتاريخ الألماني والتي صدرت باللغة الألمانية قبل سنة ١٩١٢ . وهناك أيضاً كتاب « مصادر التاريخ الألماني في العصور الوسطى » الذي وصفه ويلهلم واتنباخ ، أوتوكار لورنز وهو كتاب أكثر تكاملاً من سابقه فيما يتعلق بالعصور الوسطى .

أما في فرنسا فلقد أسدى كتاب « مصادر التاريخ الفرنسى » خدمة جليلة لا تقل عما أسداه لألمانيا كتاب ويتز عن مصادر تازيخها . كذلك خدم أوغسط مولنيير August Molinire ، هنرى هاويز Henri Hauser ، اميل بورجو Emil Bourgeois ، أندريه لويس Andre Louis التاريخ الفرنسى فى عملهم العظيم بعنوان (مصادر تاريخ فرنسا) وهو ما يشبه ما فعله وانتباخ ، لورنز للتاريخ الألمانى . ويصل هذا الكتاب الفرنسى فى قائمته ونقده حتى ١٧١٥ . وأعد العلامة الأمريكى شارل جروس Charles Gross عرضاً لا يرقى إلى صحته شك للمؤرخين الإنجليزى فى العصور الوسطى وذلك فى كتابه « مصادر وكتبة التاريخ الإنجليزى » وهو الكتاب الذى قام جودفرى ديفز Godfrey Davis بإكماله . فتناول فترة حكم أسرة استيوارت . كذلك اهتم معظم الدول الأوروبية الأخرى بنشر كتب مماثلة عن تاريخ الكتابة التكريخية فيها . ويمكن أن نجد بياناً بهذه الكتب (المرشد إلى الكتابة التاريخية) . أما فى أمريكا فقد قام شاننج Channing ، هارت Hart ، تيرنر Turner بإعداد كتاب مرشد ممتاز عن الكتابات الخاصة بالتاريخ الأمريكى .

ونجد فى سلسلة كتب (أوائل المؤرخين فى أوربا) ، التى يصدرها جيمس جردنر ، جوستاف ماسون ، أوجو بالزاني ، عرضاً رائعاً لتاريخ الكتابة فى العصور الوسطى فى كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا — كما تعطى هذه السلسلة نبذة عن المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى وذلك لما كان من علاقات وثيقة بين إيطاليا وألمانيا فى تلك العصور . وإذا ما أراد الباحث تفاصيل أكبر عن الكتابة التاريخية الألمانية فى العصور الوسطى فعليه بالرجوع إلى كتب وانتباخ ، لورنز . كذلك نجد فى كتاب العلامة الفرنسى شارل ف . لانجلو Charles V. Langlois واسمه « بحث فى الفهارس التاريخية Manual of Historical Bibliography » عرضاً مختصراً وتقييماً لكافة الكتابات التاريخية منذ نهاية العصور الوسطى .

وهناك كتاب مفيد مثل سابقه ألفه شارلز كندال آدمز Charles Kendall Adams بعنوان (بحث فى المؤلفات التاريخية) يضم قائمة بأهم الكتب عن التاريخ الإنجليزى والفرنسى والألمانى كما يحوى وصفاً لها ويكمل هذا الكتاب الذى ظهر قبل ١٨٨٩ كتاب هام آخر (المرشد إلى الكتابة التاريخية) الذى وضع خطته وأشرف على تحريره جورج م . دوتشر George M. Dutcher ، وليم هـ. اليسون Allison وآخرون . ويعطى هذا الكتاب اهتماماً خاصاً للأعمال التى ظهرت فيها بين سنتى ١٨٨٩ ، ١٩٣٠ وظهرت طبعة جديدة فى سنة ١٩٦١ تحت إشراف ج . ف . هو G.F.Howe .

وإذا كانت هذه المؤلفات التي ذكرها آنفاً تعتبر جهداً خالداً ، فضلاً عن أنها تزودنا بمدخل للكتابة التاريخية ، فإنها مع ذلك ليست إلا تاريخاً عابراً للكتابة التاريخية . ولعل أول عمل هام يمكن أن يقال بحق إن مؤلفه قصد به أن يكون فعلاً تاريخاً للكتابة التاريخية ، هو كتاب (فلسفة التاريخ في أوروبا) . « فرنسا وألمانيا » الذي ألفه روبرت فلنت سنة ١٨٧٤ . وقد عكف مؤلفه في خلال العشرين سنة التي أهدت ظهوره على توسيع الجزء الخاص بالمؤرخين الفرنسيين وجعل منه مجلداً كاملاً مستقلاً . ولكنه لم ينشر رسالته المطولة عن المؤرخين الألمان . وكان هذا الكتاب أكثر من مجرد تاريخ لفلسفة التاريخ حيث إنه تناول الكتابة التاريخية عند العقلايين والمدرسة الرومانسية والقومية ، فضلاً عن الكتابة التاريخية في مدراس البحث الأولى ، ومدارس فلسفة التاريخ المعترف بها . وكانت هناك في الفترة التي أعقبت صدور كتاب فلنت مؤلفات عديدة عن تاريخ الكتابة التاريخية . ولما كانت كلها قد ظهرت في السنين الأخيرة فإن الأفضل أن نتناولها من حيث الفترات التاريخية المتعاقبة التي تتعرض لها وليس وفق تاريخ صدورها .

فبالنسبة للعصر القديم بأكمله لا يوجد كتاب أفضل من كتاب جيمس ج . شوتويل « مقدمة لتاريخ التاريخ » الذي تناول الكتابة التاريخية منذ المجتمع البدائي حتى عصر المؤرخين المسيحيين . وكان الأستاذ شوتويل ينوي إصدار كتاب عن تاريخ التاريخ كله كما يدل على ذلك بحثه الرائع عن التاريخ في دائرة المعارف البريطانية ولكن لم يصدر لأن ذلك الجزء الأول الذي لا يدانيه أى عمل مماثل كتب بلغة أخرى . وفيما يتعلق هنا بالشرق الأدنى فإن أقيم كتاب في هذا المجال هو كتاب (الفكر الاجتماعي للحضارات القديمة) الذي وصفه عالم الاجتماع جويس أ . هيرتزler Joyce o. Hertzler وكذلك كتاب (السجلات المصرية القديمة) الذي ألفه جيمس برستيد ، وهو الذي يزودنا بعرض لأهم الكتابات التاريخية عن قدماء المصريين . ويساويه في الأهمية كتاب أدولف إرمان Adolf Erman بعنوان (الكتابة الأوربية عند قدماء المصريين) . أما فيما يختص بالكتابة التاريخية في أرض ما بين النهرين في العصر القديم فتوجد عنها المقدمة الممتازة في كتاب أ . ت ، أولمستيد عن كتابه « التاريخ عند الآشوريين » . ولا يوجد كتاب تاريخي مماثل يبحث في الكتب التاريخية والبابلية . وإذا كانت هناك ترجمة لكثير من النصوص التاريخية في كتاب « الكتابة عند الآشوريين والبابليين » مؤلفه روبرت ف . هاربر وكتاب « النقوش الملكية » عند السومريين والأكاديين للمؤلف د . د . لوكنيل . وهناك عدة كتب تعتبر مداخل لتاريخ الكتابة التاريخية العبرية أبرزها كتاب « أدب العهد القديم » لجورج فوت مور George Foote Moore

كذلك لدينا عن تاريخ الكتابة عند الإغريق القدماء ، ذلك الكتاب الرائع الذى ألفه جون . ب . بيورى تحت عنوان « المؤرخون اليونانيون القدماء » وهو أيضا يضم عرضاً مختصراً عن الكتابة التاريخية عند الرومان . ولدينا عمل مماثل عن تاريخ الكتابة التاريخية الرومانية لويلهلم سولتو Wilhelm Soltau ، هذا إلى جانب العديد من الأبحاث الفنية لمصادر التاريخ الرومانى مثل تلك التى وردت فى كتاب مقدمة للتاريخ الرومانى ومصادر مادته لأثر روزنبرج وكتاب « الكتابة التاريخية للإمبراطورية الرومانية حتى عهد ثيودوزيوس الأول » لمؤلفه هرمان بطرس Hermann Peter . وقد وضع كتاباً آخر يوضح فيه السيطرة التامة للبلاغة على الكتابة التاريخية فى العصور القديمة وهو كتاب « الحقيقة والفن » ، هذا فضلاً عن كتب كثيرة تتناول المؤرخين اليونانيين والرومان منفردين مثل كتاب جلوفر Glouer عن هيرودوت وكتب كل من جراندى Grundy ، أبوت Abbott ، كورنفورد عن ثيكوديدس وكتاب بوسير Bossier عن تاكيتوس .

أما أحسن المداخل فى علم الكتابة التاريخية فى المسيحية فهو كتاب جوستاف كروجر بعنوان (الكتابة المسيحية فى عصرها الأول ، وكتاب بطرس دى لا بريول Pierre de Labriolle (التاريخ والأدب المسيحى) كذلك يحوى كتاب اندريه لاجارد ، « الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى » عرضاً مختصراً لا بأس به للمؤرخين الكنسيين فى العصور الوسطى .

ويعتبر كتاب الكتابة التاريخية فى المسيحية والعصور الوسطى لمؤلفه مورتز ريتار Moritz Ritter أكثر تكاملاً من سابقه . وقد نشرته أول مرة المجلة التاريخية الألمانية . ولقد كان من الطبيعى أن تتعرض الكتابة التاريخية عن العصور الوسطى للمؤرخين المسيحيين . وقد أصدر بطرس جليداى كتاباً قيباً يحوى نبذات عن المؤرخين الكاثوليك منذ ايزيوس حتى مؤرخى النصف الثانى من القرن التاسع مثل دينفل Denifl . باستور Pastor . أما أحسن المداخل لتاريخ الكتابة التاريخية فى أوائل العصور فهو كتاب س.ج. ه. هايز C. J. H. Mayes بعنوان (المدخل للمصادر المتعلقة بالغزوات الجرمانية) وهناك عدد من الكتب الجيدة تعتبر مقدمات للكتابة التاريخية التى كتبها مؤرخو العصور الوسطى يأتى على رأسها ما كتبه تاوت Tout ، جنكنز Jenkins وستانلى لين بول . هذا فضلاً عن الأبحاث الممتازة عن المنهج التاريخى فى العصور الوسطى التى كتبها هينز كويرين Heinz Quirin والآنسة شولز Schulz . وقد سبق أن أشرف على سلسلة المؤرخين الأوائل فى أوروبا . وتعتبر هذه السلسلة مع كتب كويرين quirin وواتنباخ Wattenbach أحسن عرض للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى الغربى . أما

المدخل الوحيد المكتوب بالإنجليزية للمؤرخين البيزنطيين فهو كتاب « تاريخ الامبراطورية البيزنطية » الذى ألفه أ. أ. فاسيليف A. A. Vasiliev. ويضم هذا الكتاب كذلك عرضاً جيداً لكل الكتابات التاريخية الحديثة عن الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى (في الفصل الأول من ص ١٣ - ٥٤) . والكتاب الوحيد الذى يتناول بالتفصيل موضوع الكتابة التاريخية البيزنطية هو كتاب كارل كرومبشر Karl Krumbecher تحت عنوان History of the Byzantine Literature From Justinian to the End of The Eastern Roman Empire . «تاريخ الكتابة الأدبية في الامراطورية البيزنطية منذ جستنيان حتى نهاية الامبراطورية الشرقية» أما عن المؤرخين المسلمين فلدينا الكتاب المختصر لمارجوليث (محاضرات عن المؤرخين العرب) والبحث الرائع عن ابن خلدون الذى كتبه ناثانيل شبيدت والمعروف أن ابن خلدون هو أقدر كتاب التاريخ المسلمين .

وليس هناك عمل منفرد شامل عن الكتابة التكرىجية في عصر النهضة على الرغم من أن هناك بعض الكتب الجزئية التى عالجت ذلك الموضوع والتى وصفها شيفل ، مورلى ، جيهارت ، جرفينوس عن المؤرخين الفلورنسيين فضلاً عن كتابات جويكامسن عن المؤرخين الألمان في عصر الحركة الإنسانية .

كذلك لا يوجد هناك مختصر شامل عن الكتابة التاريخية في عصر حركة الإصلاح الدينى وإن كان هناك عرض فنى رائع لمصادر تاريخ ذلك العصر في كتاب جوستاف ولف Gustav Wolf « مصادر تاريخ حركة الإصلاح الدينى في ألمانيا » . أما عن العصر الحديث بأكمله فهناك كتاب العلامة السويسرى الفذ المرحوم إدوارد فيوتر وعنوانه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهو كتاب يضم نبذة ممتازة عن الكتابة التاريخية في عصرى النهضة والإصلاح الدينى . وقدم أدولف رين Adolf Rein خير بحث عن تأثير التوسع فيها وراء البحار على الكتابة التاريخية الأوربية ذلك في كتابه « صدى مشكلة التوسع الأوربى في الكتابة التاريخية » . وعالج جون ب . بلاك John B. Black في كتاب « فن التاريخ » مؤرخى عصر التعقل البارزين مثل فولتير ، هيوم ، روبرتسون ، جيبون . ويعتبر هذا الكتاب على الرغم مما فيه من اقتضاب من أحسن الكتب وأمتعتها التى تناولت تاريخ الكتبة التاريخية . ويوجد في مؤلفات روبرت فلنت التى سبقت الإشارة إليها دراسة لتاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة الرومانسية . كذلك قام فيوتر بعمل موجز رائع عن أولئك الكتاب الرومانسيين . ثم إننا نجد وصفاً ممتازاً وتقبيلاً سليماً لتاريخ الكتابة التاريخية القومية ونشأة المدرسة

الناقدة في الكتابة التاريخية في كتاب جورج بيبودى George Peabody الذى عنوانه « التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر » . كذلك عالـج لويس هالفن وآخرون بالتفصيل الفترة الحديثة جداً — وهى الفترة التى مر عليها جوش Gooch مرّاً سريعاً — وكان ذلك في كتاب بعنوان « التاريخ والمؤرخون في الخمسين سنة الأخيرة » وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧ كما عولجت الفترة نفسها في الكتاب الذى أشرف على إخراجه ستنبرج بعنوان ' The Historical Science Of The Present In Individual Exposition .

وهناك عدد من المؤلفات التى تناولت تاريخ الكتابة التاريخية في دول الغرب المتقدمة . وقد حظيت ألمانيا بأكمل وأحسن المساهمة في هذا الشأن ، فنجد عرضاً كاملاً لتاريخ الكتابة التاريخية في ألمانيا في العصور الحديثة في كتاب رانزفون ويجل Franz Von Wegle كما أن أنطوان جويلاند Antoine Guiland ناقش في كتابه (ألمانيا الحديثة ومؤرخوها) تاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة القومية . كذلك تناول جورج بيلو George Below في إلمام كامل الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر في كتابه الكتابة التاريخية الألمانية من حرب التحرير حتى يومنا هذا) . ويوجد أحسن عرض لتطور التاريخ القومى وتاريخ مدارس البحث في فرنسا . في كتاب (التاريخ في فرنسا في خلال المائة سنة الأخيرة) الذى ألفه لويس هالفن . وكتب بنيتو كروز نبذة مطولة عن الكتابة التاريخية الإيطالية في القرن التاسع عشر .

أما عن إنجلترا فليس هناك عرض كامل للكتابة التاريخية فيها . ولكن هناك مادة حول المؤرخين الإنجليز في القرن التاسع عشر وذلك في كتاب جوش Gooch أما أهم المؤلفات الخاصة التى تناولت الكتابة التاريخية الإنجليزية فمنها كتاب « المواطن الإنجليزي وتاريخه » لهربرت باترفيلد Herbert Butterfield وكتاب فترة الانتقال في الكتابة التاريخية الإنجليزية (١٧٦٠ - ١٨٣٠ م) . وكتب بطرس بلوك Petrus Block كتاباً هاماً عنوانه ، الكتابة التاريخية في هولندا . وفي روسيا كتب بولس ميليكوف Paul Miliukov أبحاثاً عدة عن الكتابة التاريخية الروسية منها بحث « التيارات الرئيسية في الكتابة التاريخية الروسية » . وكتب ج . فرانكلين جيمسون J. Franklin Jameson منذ عدة سنوات كتاباً بعنوان (تاريخ الكتابة التاريخية في أمريكا) ووصل بهذا التاريخ حتى تناول المؤرخين الأدياء العظام أمثال جوفلى وباركان وبرلسكوت وبانكروفت ومن إليهم . وقد عالـج هذه المجموعة نفسها من المؤرخين جون س . باسـت Jhns. Basseth فى كتابه المجموعة الوسطى من المؤرخين الأمريكيين كما عالـج داود ليفن

David Levin في كتابه (التاريخ كفن رومانسي) . وأوجز . ثيودور كلارك سميث رديليام أ .
واننج ، والان نيفنز ، أ.م . شلزنجر ومساعدوه تاريخ الفترة الحديثة في أمريكا . واستطاع مايكل
كراوس Micheal Kraus لأول مرة في كتابه « تاريخ التاريخ الأمريكي » ، أن يتناول تاريخ
الكتابة التاريخية بأكمله . كذلك عالج هذا التاريخ كله ماركوس و . جيرنجان Marcus W. Jer-
negan في كتابه . (أبحاث في الكتابة التاريخية الأمريكية) ، ويوجد العرض المطول الوحيد لنشأة
تاريخ الثقافة والنظم وطابعها في كتاب للمؤلف بعنوان ، (التاريخ الجديد والدراسات
الاجتماعية) كذلك هناك بحث رائع لفكرة أن التاريخ علم اجتماعي في مؤلفات
ف . ج . تيجارت F. J. Teggart التي تحمل أسماء (المدخل إلى التاريخ) و (نظريات
التاريخ) . ولم يتم التوصل إلى عرض كامل بدرجة معقولة لتاريخ الكتابة التاريخية إلا بعد صدور
الطبعة المنقحة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وضمه إلى كتاب (تاريخ الكتابة التاريخية) الذي ألفه
وستفول طومبسون Westfall Thompson وهو يقع في جزئين وصدر سنة ١٩٤٢ وكتاب (كتابة
التاريخ الأمريكي) الذي صدر سنة ١٩٥٣ لمايكل كراوس والنبهة التي عنوانها (تطور كتابة
التاريخ) ، الذي أشرف على إخراجه م . ا . فيتزسيمونز A. Fitzsimons M. ا . ج . بندات
A.G. Pundt ، س . ا . نويل C.E. Nowell .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

Robinson, The New History.

"New Ways of Historians," Loc. cit.

H.E. Barnes, ed., An Introduction to the History of Sociology, chaps. XXXvii

xlvi. University of Chicago Press, 1948.

The New history and the Social Studies.

History and Social Intelligence.

Barnes and Becker, Contemporary Social Theory.

Jacques Barzun, The House of the Intellect. Harper, 1959.

Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion.

B.T. Wilkins, Carl Becker. Harvard University Press, 1961.

For an excellent summary survey of the literature on the history of history and historiography, see the bibliography in the Encyclopedia of the Social 15 Vols., Macmillan, 1932, Vol. VII, PP, 389-91. See also Fitzsimons et al., op.cit., PP. 44 ff. A considerable number of desirable additions to the list books mentioned in the above brief review of the history of history writing will be found in the Supplementary Bibliography at the end of this volume.

Lee Benson, Turner and Beard. Glencoe Free Press, 1960.

Dexter Perkins and J. L. Snell, The Education of Historians in the United States. McGraw-Hill, 1962.

E. T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History. Loyola Univ. Press, 1961.

R.G. Collingwood, The Idea of History. Oxford University Press, 1946.

- Allan Nevins, *The Gateway to History*. Appleton-Century, 1938.
- Louis Gottschalk, *Understanding History*. Knopf, 1950.
- Geoffrey Barraclough, *History in a Changing World*. University of Oklahoma Press, 1956.
- Pieter Geyl, *The Use and Abuse of History*. Yale University Press, 1955.
- , *Debates with Historians*. Philosophical Library, 1957.
- George Orwell, *Nineteen Eighty-four*. Harcourt, Brace, 1949.
- C. L. Becker, *Everyman His Own Historian*. Crofts, 1935.
- Karl Lamprecht, *What Is History?* Macmillan, 1905.
- Odum, *American Masters of Social Science*.
- Schaumkell, *Geschichte der deutschen Kulturgeschichtschreibung*.
- Karl Heussi, *Die Krisis des Historismus*. Tübingen, 1932.
- E. H. Carr, *What Is History?* Knopf, 1962.
- P. L. Snyder, ed., *Detachment and the Writing of History*. Cornell University Press, 1958.
- Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses methodes*. Paris, 1961.
- J. H. Hexter, *Reappraisals in History*. Northwestern University Press, 1961.
- Cushing Strot, *The Pragmatic Revolt in American History*. Yale University Press, 1958.
- Donald Sheehan and H. C. Syrett, eds., *Essays in American Historiography*. Columbia University Press, 1961.

فهرس كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

الفصل التاسع : الكتابة القومية تحت تأثير التحرير والقومية

- القومية والكتابة التاريخية ٥
- الكتابة التاريخية القومية في ألمانيا ٧
- التاريخ القومي في فرنسا ١٢
- التاريخ القومي في إنجلترا ١٩
- كتابة التاريخ القومي في بقية الدول الأوروبية ٢٣
- القومية اليهودية ٣٢
- مادة دور المحفوظات ٣٣
- كتابة التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية ٣٥
- التاريخ والقومية ٤٣
- التاريخ الكنسي ٤٤
- المراجع ٤٦
-
- الفصل العاشر : نشأة المدرسة التاريخية الناقدة ٤٨
- ليوبولد فون رانكه والمدرسة الألمانية ٥٦
- الكتابة التاريخية الناقدة في فرنسا ٦٢

- المدرسة التاريخية الناقدة في إنجلترا ٦٧
- المدرسة التاريخية الناقدة في بقية البلدان الأوروبية ٧٢
- الكتابة التاريخية الناقدة في الولايات المتحدة الأمريكية ٧٥
- الفروض القائمة خلف الموضوعية في كتابة التاريخ ٨٥
- المراجع ٩٦

الفصل الحادى عشر : ٩٨

- ثم أقبل الفجر ١٠٢
- وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب ١١٢
- المراجع ١١٦

الفصل الثانى عشر : اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله

- امتداد جوانب النشاط التاريخى فى الأزمنة المعاصرة ١١٧
- تاريخ الفكر ١٢٢
- تاريخ العلم ١٢٦
- تاريخ التكنولوجيا ١٢٨
- التاريخ الاقتصادى ١٣٠
- التاريخ الاجتماعى ١٣٣
- تاريخ النظم السياسية ١٣٥
- التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية ١٣٧
- التاريخ الثقافى العام ١٣٨
- التاريخ والإدراك الاجتماعى ١٣٨
- المراجع ١٤١

الفصل الثالث عشر : نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة

- ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة ١٤٢
- التاريخ الثقافى والمراحل الكبرى فى التاريخ البشرى ١٥٨
- المراجع ١٦٨

الفصل الرابع عشر : التاريخ وعلوم الإنسان

- ١٧٠ - الاتجاه الكوني الجديد
- ١٧٢ - نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ
- ١٧٦ - ما أسهمت به الأنثروبولوجيا في خدمة علم التاريخ
- ١٨٥ - التاريخ وعلم الآثار
- ١٨٦ - نظرة أحدث عن تطور التاريخ
- ١٨٨ - عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات
- ١٩٣ - العوامل الجغرافية في التطور التاريخي
- ٢٠١ - تفسير التاريخ
- ٢٠٦ - التاريخ والعلوم الاجتماعية
- ٢١٣ - أحدث المناهج في أسلوب تعليم التاريخ ودراسته
- ٢١٦ - التكنولوجيا الحديثة والمستحدث في كتابة التاريخ
- ٢٢٠ - المراجع

الفصل الخامس عشر : التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

- ٢٢٢ - اعتبارات تمهيدية
- ٢٢٥ - بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد
- ٢٢٩ - برنامج التاريخ الجديد
- ٢٣٧ - التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد
- ٢٤٣ - خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد
- ٢٤٥ - الاتجاهات الحديثة والأخطار التي تتعرض لها الكتابة التاريخية
- ٢٥٢ - نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ
- ٢٦٠ - المراجع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/١٥٣٠

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٣٨ - ٠

يتناول الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى ألفه العلامة المؤرخ الراحل هارى
المربارنز وهو الكتاب الذى يذكر مؤلفه أنه الوحيد من نوعه بكافة اللغات دراسة
للمدارس التاريخية منذ نشوء الكتابة القومية وما كان لها من رد فعل تمثلت فى
نشأة المدرسة التاريخية النافذة التى تزعمها ليوبولد فون رانكه صاحب الموضوعية
فى الكتابة التاريخية
ويتناول المؤلف التأثير الخطير الذى تعرضت له الكتابة التاريخية من جراء
الحربين العالميتين الأولى والثانية .
ويختتم المؤلف كتابه بدراسة لبرنامج الطموح لما ينبغى أن يدرب عليه المشتغلون
بعلم التاريخ وكتابته والاتجاهات والأخطار التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى
عصرها الراهن .